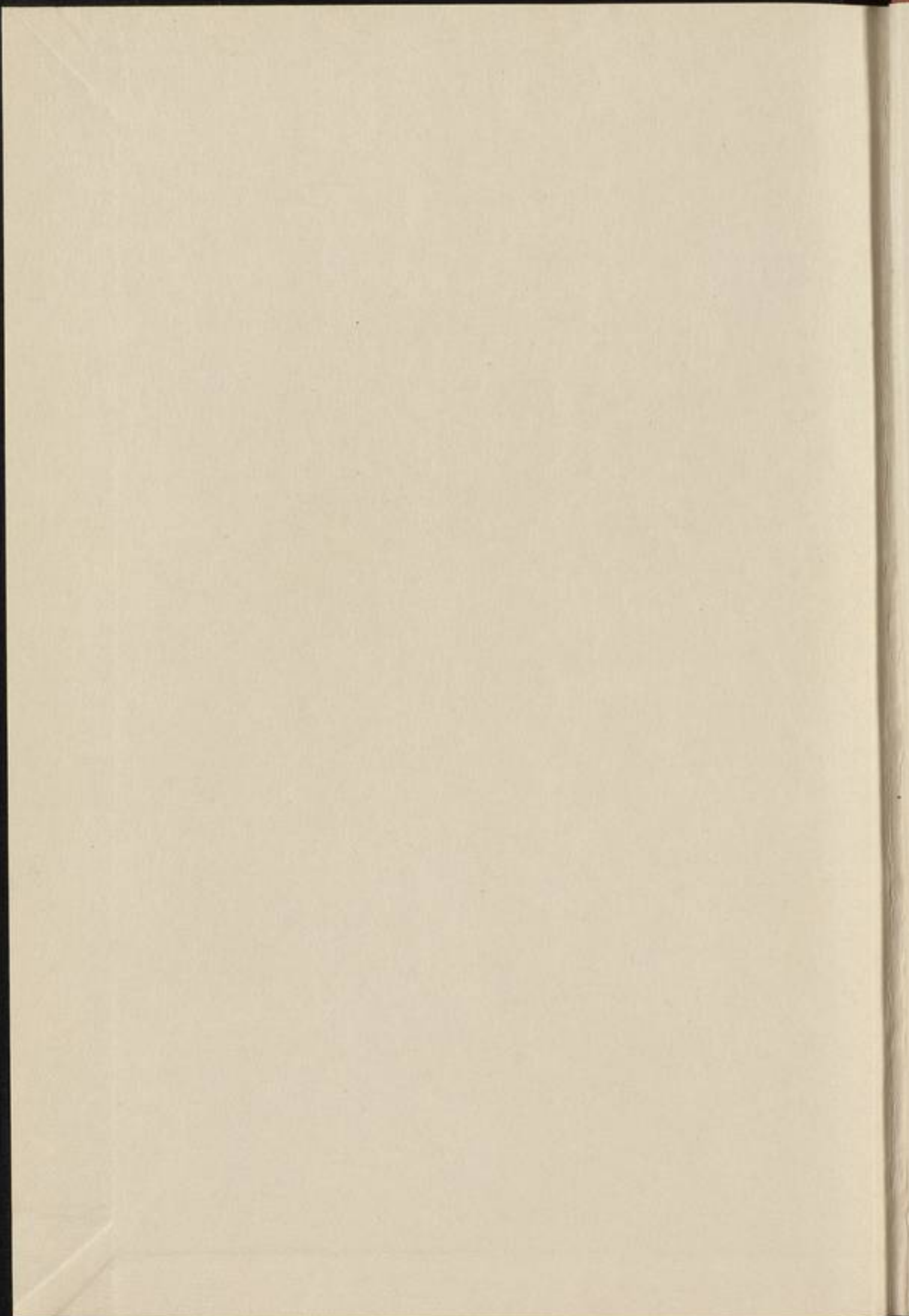
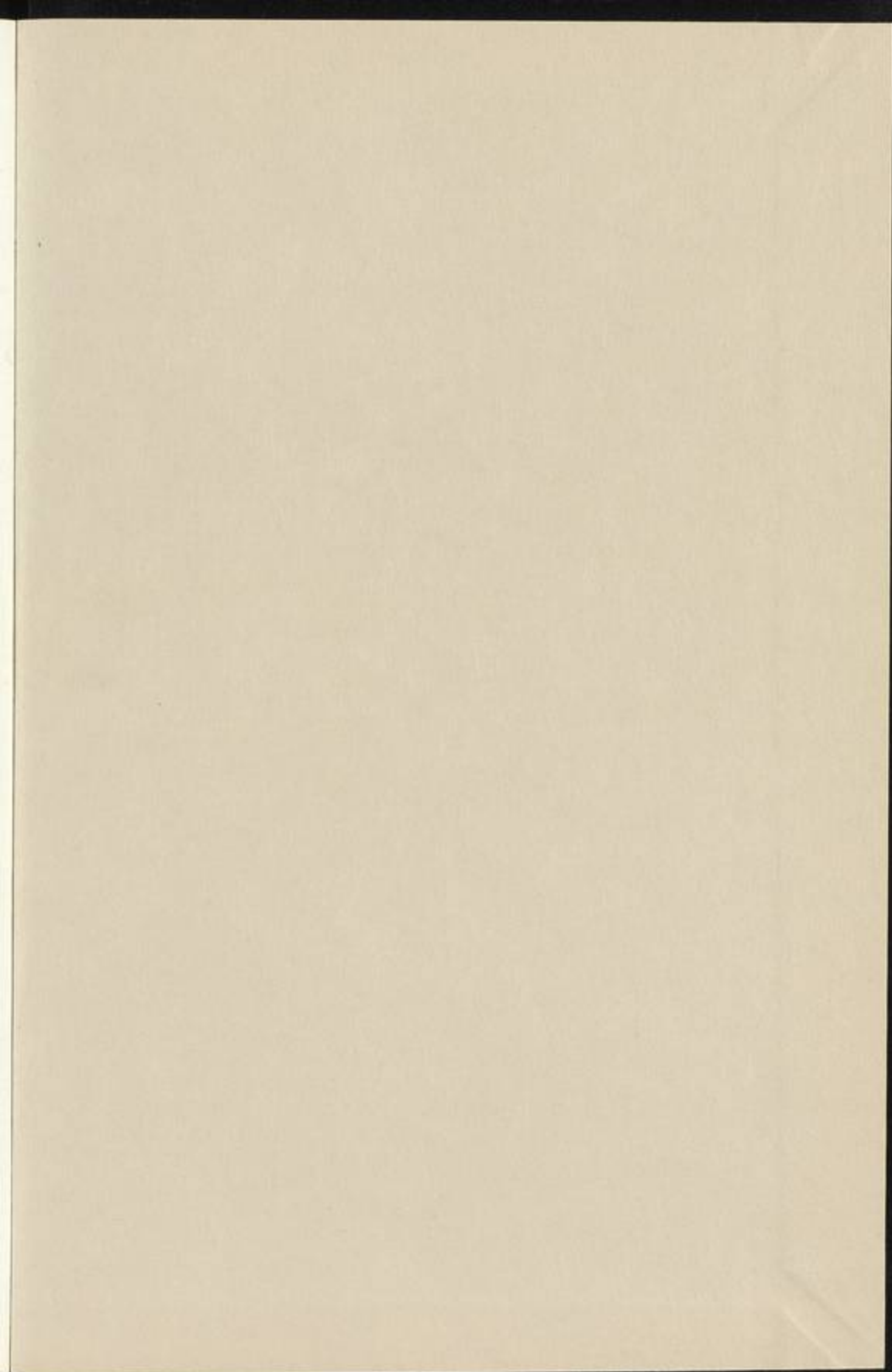


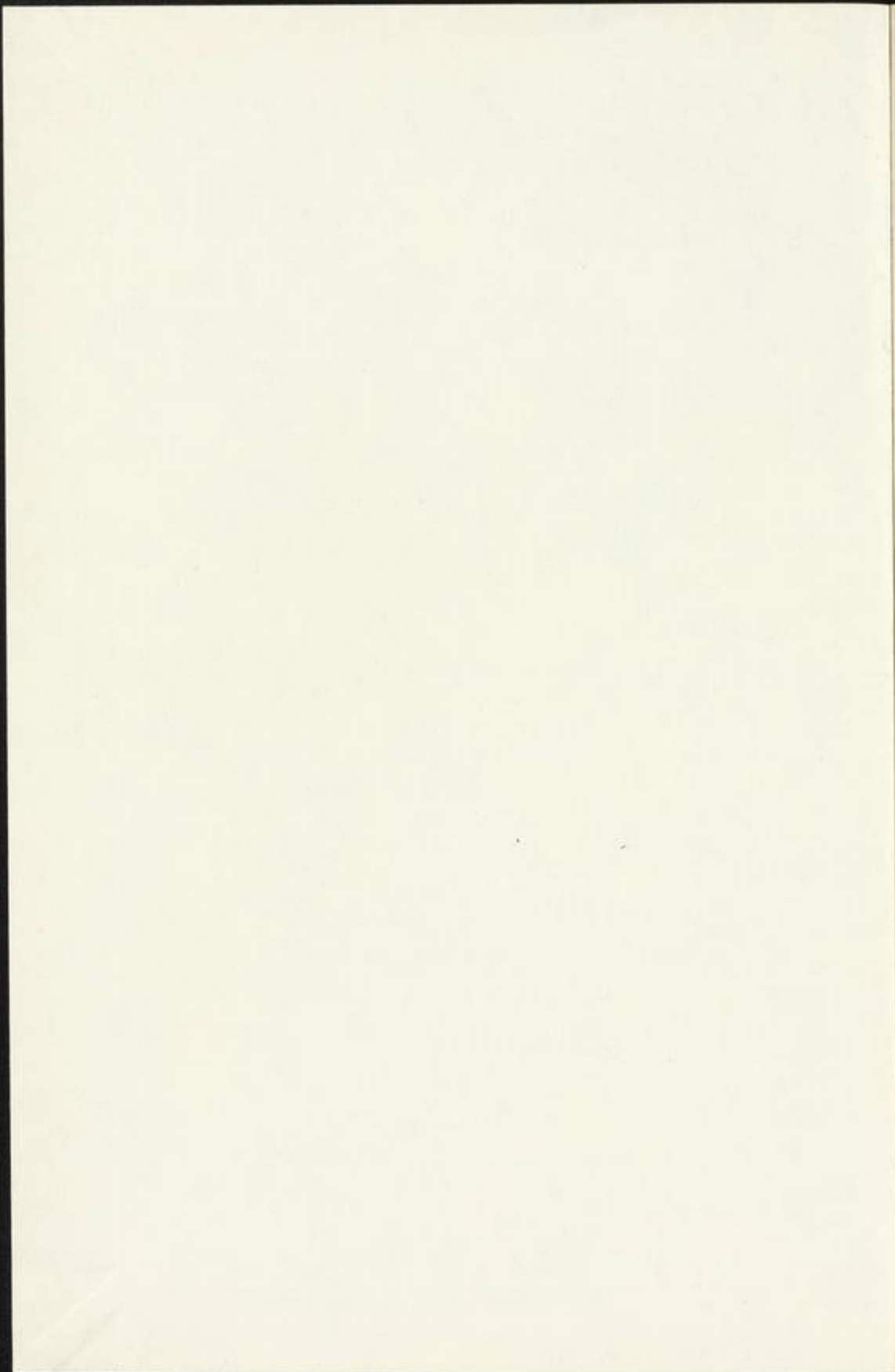
THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

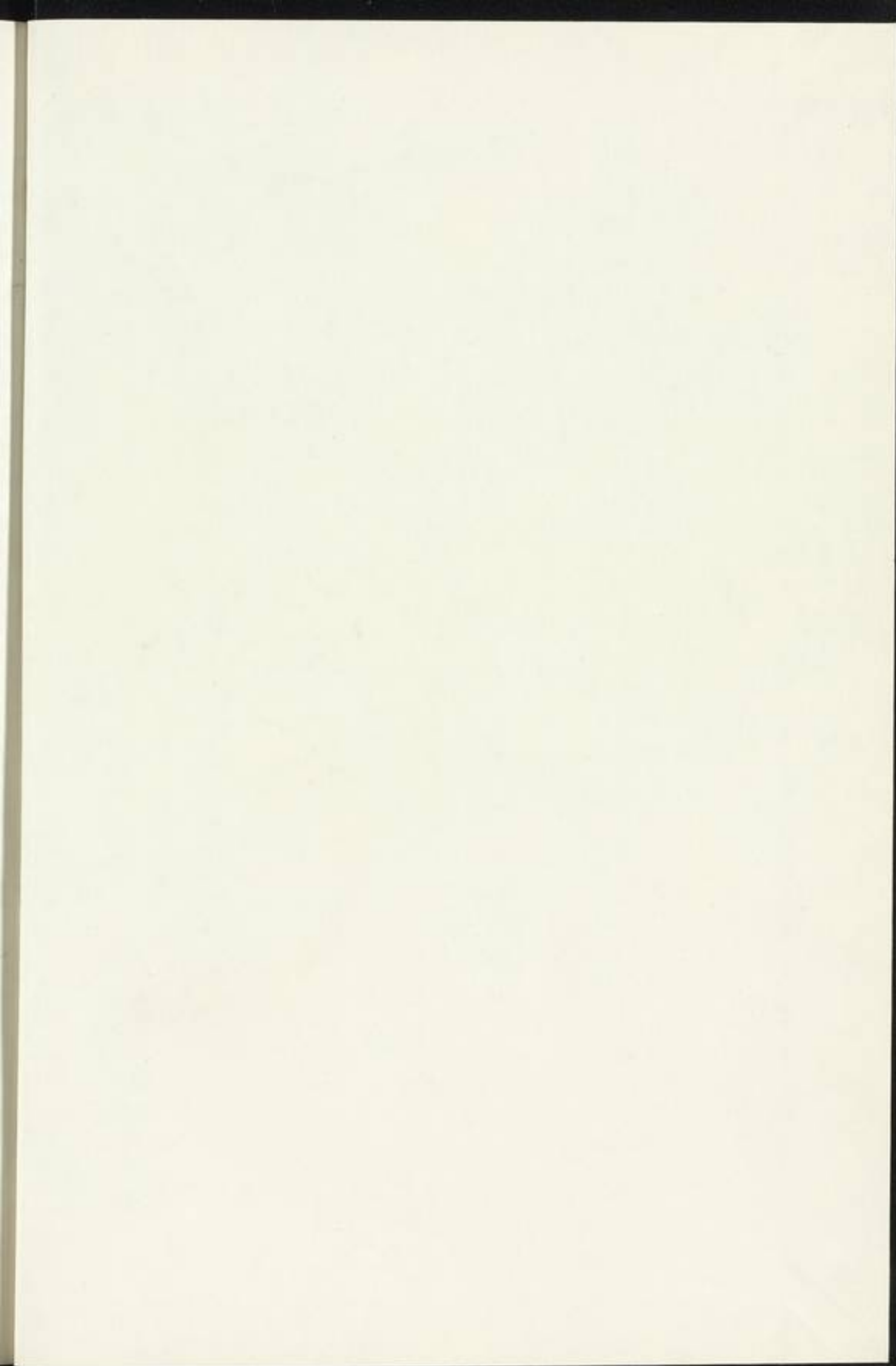


GENERAL LIBRARY









الدكتور

فاضل زكي محمد

استاذ الفكر السياسي العربي الاسلامي

بجامعتي بغداد والمستنصرية

ورئيس قسم العلوم السياسية بجامعتي بغداد والمستنصرية

ونائب ووكيل عميد كلية الآداب بجامعة بغداد

ونائب رئيس جامعة بغداد سابقا

الفكر السياسي العربي الاسلامي

بين ماضيه وحاضره

الطبعة الاولى

م ١٩٧٠

هـ ١٣٩٠

JC

49

.M6

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
أما كنا لنهتدي لهدى هذا
ولا كنا لنهتدي لهدى هذا

• 111 •

• 111 •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأهمّاء

« الى كل عربي ... »

مدرك لاهمية تراث أمتة الفكري العربي الاسلامي في نهضتها الحديثة «

التشويق

... يروي في كتابه

«تاريخنا الوطني» في بيانها، يروي لنا قصة حياة قديما

مقدمة

ان اهم ما يميز النهضة الفكرية والحضارية الاصيلة عن النهضة الفكرية والحضارية المزيفة عند الامم المختلفة ، هو ان النهضة الاصيلة تستقي افكارها ومقوماتها من تراثها وتقاليدها واصول بيئتها الفكرية والحضارية . اما النهضة المزيفة فانها تقوم عادة على اصول فكرية وحضارية لا تتبع اساسا من تراثها وتقاليدها واصول بيئتها الحضارية . وهذا ما يهدد كيانها ويجعلها دوما ان تعيش في فراغ فكري .

والامة العربية لكي تستطيع ان تنهض نهضة فكرية وحضارية اصيلة جديدة ، لا بد لها وان تستمد اصول نهضتها الحديثة من الاصول الفكرية والتراث الحضاري العربي الاسلامي .

فكما هو معلوم ان الافكار السياسية ، تعكس دوما الظروف والاحوال في بيئة الامة التي تنشأ فيها . فهي جزء من شخصيتها وتراثها الذي تكون لديها عبر السنين والاجيال . وبعبارة ادق ان الافكار السياسية التي تتكون عند الامة عبر تاريخها تشكل الخط الفكري الذي ترسم به تلك الامة شخصيتها وتحدد فيها نظرتها الى السياسة .

ومما تقدم يتبين لن الامة العربية التي تهدف الى نهضة اصيلة حديثة اليوم ، لا بد لها وان تدرس تراثها الحضاري واصولها الفكرية ، وان تترجم كل ذلك ترجمة تواكب روح العصر الذي تعيش فيه ، مستفيدة من كل ما في العصر من افكار مفيدة . وما لم يتحقق ذلك ، فانها ستجد نفسها مضطرة الى قبول الافكار السياسية الغربية عنها ، وهذا ما يجعلها ان تعيش في ظروف واحوال وشخصية غيرها ، الامر الذي يجعلها ان تعيش في فراغ فكري .

ولقد جاء هذا الكتاب محاولا لقاء بعض الضوء لانارة الطريق العربي . فهو محاولة لدراسة الفكر السياسي العربي الاسلامي دراسة تستمد جذورها

من الماضي ، وما يضمه من افكار ومبادئ ونظريات وتطورات سياسية ، مع اخذها في عين الوقت بروح العصر الذي نعيش فيه .

ولقد تضمن هذا الكتاب فصولا عشر ، جاء الفصل الاول منه ليقدم للتعريف بالحدود والابعاد التي تميزه عن غيره . اما الفصل الثاني فقد خصص الى دراسة طبيعته التي تحدد شكله واطاره العام .

وبينما يتحدث الكتاب في فصله الثالث عن سماته وخصائصه الفكرية السياسية التفصيلية ، فان الفصل الرابع ، يبحث في اصوله الفكرية من قبل الاسلام ومن بعده .

اما الفصل الخامس منه ، فقد تضمن دراسة تفصيلية للاصول الفكرية السياسية العربية لما قبل الرسالة ، ولما بعدها . اما باقي فصول الكتاب فقد شملت ما ضمه هذا الفكر من حيوية وابداع ، وما ظهر فيه من اتجاهات ومدارس ومفكرين ، وما اصابه من انحسار ، وما اعقب ذلك من يقظة فكرية ، وما تلاها من بلورة وتطلعات فكرية متسجمة مع روح العصر الحديث .

واننا لاذ نقدم هذا المجهود المتواضع في حقل الفكر السياسي العربي الاسلامي ، الذي هو بحاجة الى المزيد من الدراسة والبحث بالنظر لقلّة ما كتب عنه ، لندرج ان نكون قد ادينا بعض ما علينا من واجب تجاه امتنا وتراثها الفكري العربي الاسلامي بالذات .

والله الموفق

١ رجب ، ١٣٩٠ هـ

بغداد في ٣ ايلول ١٩٧٠

المؤلف

الفصل الاول

مقدمات عامة

في التعريف بالفكر السياسي العربي الاسلامي

ما هو الفكر؟ (١)

ان فكرة اية امة من الامم يمثل قيمها (٢) . وبعبارة اوضح ان لكل امة مهما كبرت او صغرت ، قيما ، وان هذه القيم في حقيقتها ان هي الا حصيله تراث تلك الامة .

ثم ان هذا التراث الذي نحن بصدده يمثل جوانب حياة الامة المعينة باجمعها ، بما في ذلك الجانب السياسي والنفسي والديني والذوقي والاقتصادي والصناعي والتقني وغيرها .

واذا ما حاولنا ان نجري تصنيفا لتراث او جوانب حياة الامة المختلفة ، نجد ان بالامكان تصنيفها الى صنفين كبيرين : الصنف الاول وهو الذي يشمل الجانب

(١) يعرف قاموس "Webestor's New World Dictionary" في طبعته لسنة ١٩٥٧ ، الفكر ، بأنه « الاراء والمبادئ والافكار السائدة لدى مجموعة بشرية معينة خلال فترة زمنية معينة » .

والذي يتبين من هذا التعريف ان المقصود بالجماعات البشرية المعينة ، هي الامم والشعوب التي يتكون لديها عبر سنين حياتها الطويلة ، آراء وافكار ومبادئ ازاء الكون والانسان والحياة . وما الفكر السياسي الا تلك الاراء والافكار والمبادئ والنظريات التي تخص حياتها واهدافها السياسية .

(٢) يقول كل من الدكتور بطرس بطرس غالي والدكتور محمود خيرى عيسى ، ان الفكر عامة والفكر السياسي خاصة لامة او مجتمع ما ، بأنه « القواعد التي تحكمه وتنظمه ويعيش في ظلها » . وما هذه القواعد الا القيم التي تعيش في ظلها الامة . انظر كتابهما « المدخل في علم السياسة » ص ٣٥ .

النظري من التراث • اما الصنف الثاني فيشمل الجانب التطبيقي من حياتها وتراثها • هذا ولن الجانب النظري من حياة الامة هو ذلك الجانب الذي يشتمل على ما لدى الامة من افكار وآراء ونظريات علمية في حقول المعرفة المختلفة ، وما تحققة تلك الامة من تقدم في هذه الميادين • اما الجانب التطبيقي فهو ذلك الجانب الذي يتضمن تجسيد ما لديها من الآراء والافكار والنظريات العلمية في الحقول المختلفة ووضعها موضع التطبيق •

ولرب سائل يسأل اين يقع الفكر من هذين الجانبين الكبيرين ؟ ثم اين تقع الحضارة منهما ؟ والجواب على ما يتعلق بالفكر ، هو ان الفكر يقع في الجانب النظري من التراث : الذي يعكس النظريات والافكار والآراء ازاء الكون والانسان والحياة ، والتي تكونت عبر الزمن الطويل • وبعبارة ادق انه يعكس ثقافة الامة وقيمتها • اما الجواب على ما يتعلق بالحضارة^(١) ، فهو ان الحضارة بكلمة موجزة ، هي ذلك الجانب التطبيقي من التراث الذي هو حصيلة التفاعل ما بين الافكار والنظريات وما بين تطبيقاتها وما ينجم عن ذلك من اختراعات علمية وورقي في الميادين المختلفة •

هذا وان الامم تختلف في افكارها ونظرياتها ، كما تختلف في تطبيقاتها لافكارها • ولعل من اهم الاسباب في هذا الاختلاف هو ان ظروف كل امة تختلف عن ظروف الاخرى ، وبالتالي فان حضاراتها تختلف نظرا لاختلاف ثقافتها • وعلى هذا النحو ظهر ما عرف بالثقافة اليونانية والحضارة اليونانية وظهر ما عرف بالثقافة العربية والحضارة العربية وهكذا •

ومما تقدم يظهر امام الباحث عدة حقائق من للفيد الوقوف عليها • الحقيقة الاولى وهي ان لكل امة تراث ثقافي وتراث حضاري • والحقيقة الثانية ان الثقافات والحضارات للامم المختلفة تتفاعل مع بعضها : فهي تؤثر وتتأثر بالغير • والحقيقة

(١) ان الثقافة تعني « مجموع ما لدينا من معارف في العلوم والفنون والآداب ... اما الحضارة فهي العمل بهذه المعارف والعيش طبقا لها » • انظر محمود محمد ، وحدة الثقافة العربية ، ص ١٨ •

الثالثة وهي ان بعض الحضارات قد تشترك مع بعضها في النظرة والرأي وفي الانجازات . اما الحقيقة الرابعة فهي ان الحضارة التي تسود في عصر معين هي حضارة غالبية ومؤثرة ، وان الحضارة التي تتحدد في محلها وتوقع في مكانها ، فهي حضارة متأثرة وليس لها الفاعلية ، كما ليست لها قوة حضارة النوع الاول . هذا وان الحضارة التي تسود في عصر معين او اكثر من عصر تسمى عادة بالحضارة العالمية . ومعنى ذلك ان افكار ومنجزات هذه الحضارة لا تقف عند حدها ومكانها وانما تنتشر في اماكن اخرى وعندها تصبح عالمية .

وبالامكان القول وقبل الدخول في التفاصيل ، ان الحضارة العربية الاسلامية هي حضارة عالمية ، لانها نشأت في منطقة معينة وقدر لها ان تسود قيمها في اماكن واسعة من العالم . ومما يؤسف له ان الحضارة العالمية الحديثة والمتمثلة في الحضارة الغربية قد انكرت هذه الحقيقة^(١) . وقد تضمن هذا الانكار في عدم اعتراف الحضارة الغربية بمن سبقها من حضارات سيما الحضارة العربية الاسلامية . و في الحقيقة ان الحضارة العربية الاسلامية قد وضعت المنطلقات الفكرية للحضارة الغربية الحديثة ، التي اخذت منها الشيء لكثير و بنت عليها افكارها الجديدة . وقد بدأ الغربيون منذ بداية القرن العشرين يدركون هذه الحقيقة ويحسنون ما تم من تفاعل بين حضارتهم والحضارة العربية الاسلامية . الا ان الاعتراف بهذا التفاعل لا يزال على نطاق محدود . اذ لا يزال قدم كبير من رسل الحضارة الغربية يعتقدون خطأ ان الحضارة العربية الاسلامية لم تأت بنظريات وافكار مؤثرة ، وانها لا تصلح لابنائها في العصر الحديث ، وهذا ما

(١) يعترف بهذا الانكار احد الكتاب الغربيين المنصفين وهو آرثر كولين ليونارد في « ايقاظ الغرب للاسلام » لهيدلي ، قائلا « يجب ان تكون حالة اوربا مع الاسلام بعيدة من كل ... الاعتبارات الثقيلة ، وان تكون حالة شكر ابدني بدلا من نكران الجميل المقوت والازدراء المهين ، فان اوربا لم تعترف الى يومنا هذا باخلاص وطوية وقلب سليم بالدين العظيم المدينة به للتربية الاسلامية والمدينة العربية ... » اقتبسها محمد كرد علي في « الاسلام والحضارة العربية ج ١ ، ط ٢ ، ١٩٥٠ ، ص ٧٢ .

يدعوهم للاخذ بما يسود هذا العصر من افكار • وسنرى فيما بعد كيف ان مثل هذه الاراء لا تقوم على سند علمي وواقعي •

ما هو الفكر العربي الاسلامي ؟

ان الفكر العربي الاسلامي بكلمات موجزة ، هو حصيلة القيم العربية الاسلامية • والقيم العربية الاسلامية هي مقاييس الحياة من وجهة نظر الفكر والحضارة العربية الاسلامية التي تنظر من خلالها الى ذاتها والى العالم في وقت واحد • وهذه القيم يدافع عنها ذوو هذا الفكر وهذه الحضارة ، ويقاومون من يقاومها ، حيث هم يعيشون ويفنون ويضحون من اجل بقائها ودوامها • واذا ما حاولنا ان نفسر طبيعة هذه القيم ونستعرضها استعراضا سريعا ، لوجدنا انها من حيث منشؤها تعود الى سحيق الازمان ، والى اليوم الذي ظهر فيه اول عربي على الجزيرة العربية بالذات ، ممتدة منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا الحاضر • ان هذه القيم العربية الاسلامية التي تكونت عبر الزمن الطويل قد نشأت عن طريق العادات اولا ، ثم تحولت الى اعراف وتقاليد واسلوب حياة ، واصبح حكمها حكم القانون بحيث انها اذا ما تزعزعت شعر ابناء الحضارة العربية الاسلامية ان حياتهم قد تزعزعت • ومن الامثلة على هذه القيم ، النظرة الى السياسة • فالسياسة بنظر الفكر والحضارة العربية الاسلامية لا يمكن ان تعيش ونجيا وتنجح الا بقيامها على مستوى خلقي معين • ومتى ما خرجت السياسة في سلوكها عن خطها الخلقي اصبحت سياسة فاشلة ومصيرها الهلاك والموت • وتوضيح المقصود بالمستوى الخلقي المعين وقياسه ، فان من الممكن الاستشهاد بمبدأ « المراوغة » في السلوك السياسي الذي يراه الفكر العربي الاسلامي اسلوبا سياسيا ذميا • ذلك لان القيم العربية الاسلامية التي تسير وفقها سياستها ، ترى ان السياسة تقوم للإصلاح والاستصلاح ، وان وجهة سيرها الصحيحة هي ان تسير في خط مستقيم • ان هذا المثال واضح من امثلة كثيرة على نظرة الحضارة العربية الاسلامية الى السياسة • هذا وان كلمة سياسة في اللغة العربية تشتق من جذورها ومصدرها الرئيس وهو السوس ،

ومعناه الادارة والقيادة الحسنة والتوجيه الحسن والاخذ بيد الناس من قبل قادتهم نحو طريق السعادة والامان ، ونحو قيام مجتمع يعامل فيه الناس على اساس من العدل والانصاف .

وفي عودتنا الى القيم ، فان لنا ان تساءل : ما هي هذه القيم ؟ واين مكانها بالنسبة للفكر العربي الاسلامي ؟ واذا ما حاولنا ان نتقصى المعنى الدقيق لهذا التراث بغية الوقوف على مكوناته ومقوماته ، لوجدنا انه يقوم على ركنين اساسيين : الثقافة العربية والرسالة الاسلامية . والشئ الذي يجب الوقوف عليه هنا ، هو ان هذين الركنين متلازمان ، ولا يمكن الاستغناء عن أي منهما في فهم القيم العربية الاسلامية وبالتالي التراث العربي الاسلامي . وافضل تصوير لهذا التلازم هو انه تلازم عضوي . واذا كانت الثقافة العربية تمثل كل ما ضمه تراث العرب من قيم ، فان الرسالة الاسلامية تمثل الصورة المثلى لتلك القيم .

واذا ما نظرنا الى التراث العربي الاسلامي من زاوية اخرى ، لوجدنا انه يضم كل جوانب حياة المجتمع العربي الاسلامي ، التي تضم من بين ما تضم الجانب السياسي والجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي والجانب النفسي والجانب الدنيوي وغيرها . وهذه الجوانب كلها تلتقي في جانبين رئيسيين : وهما الجانب الروحي والجانب المادي .

ان السؤال الذي يتطلب الاجابة ، بعد كل ما تقدم ، هو اين يقف الفكر العربي الاسلامي من هذا الاطار العام اولا ، ثم اين يقف الفكر السياسي العربي الاسلامي من الاطار ذاته ثانيا ؟ وللاجابة على الشق الاول من السؤال ، نقول ان الفكر العربي الاسلامي يمثل المقاييس التي تنظر من خلالها الحضارة العربية الاسلامية الى ذاتها والى العالم . وهذه المقاييس كثيرة وتضمها جميعا حقول المعرفة المختلفة . فالحقل الخلقي تحتضن المقاييس الخلقية وهو ما تناوله دراسات علم الاخلاق ، والحقل الفقهي الذي تحتضن المقاييس الفقهية ، وهو ما تناوله دراسات علم الفقه ، وحقل الطب الذي تحتضن المقاييس الطبية وهو ما تناوله دراسات علم الطب ، وحقل السياسة والدولة الذي تحتضن مقاييس الدولة

السياسية وهو ما تناوله دراسات علم الدولة • اما بالنسبة للشطر الثاني من السؤال والذي يتضمن مكن الفكر السياسي العربي الاسلامي من الاطار العام، فان ما يمكن قوله ، في ضوء ما تقدم ، هو ان الفكر السياسي يتناول الافكار والآراء والنظريات التي يضمها الجانب السياسي من حياة الدولة والمجتمع • وهذا الجانب بالذات هو الذي يعنى به هذا الكتاب بالدرجة الاولى •

تسميته بالفكر العربي الاسلامي :

يجد المتبع لدراسة تاريخ الفكر العربي الاسلامي ، ان هناك اكثر من تسمية واحدة لهذا الفكر • وعند الوقوف على اهم هذه التسميات نجد ان هناك ثلاث تسميات تنتمي الى ثلاث مدارس فكرية • وبالنسبة لاولى هذه المدارس فانها تسمية بالفكر الاسلامي • اما المدرسة الثانية فانها تطلق عليه اسم الفكر العربي • وبجانب هاتين التسميتين هناك تسمية ثالثة تنتمي الى مدرسة ثالثة وهي ما تطلق عليه اسم الفكر العربي الاسلامي •

والذي يبدو ان المدرسة الفكرية الاولى وهي التي تسميه بالفكر الاسلامي ، ترى ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر يقوم على انصهار جميع الاقوام وضمنهم العرب في بوتقة الاسلام • وبناء على ذلك فان هذا الفكر هو فكر اسلامي وحسب^(١) • وتضم هذه المدرسة من بين ما تضم الاساتذة احمد امين وسيد امير على وابو الاعلى المودودي وجمال الدين الافغاني وحمد ضياء الدين الرئيس واخرون • هذا بالاضافة الى عدد من المستشرقين من امثال كب وگوليووم وبروكلمان وغيرهم ••

(١) يقول احد انصار هذه المدرسة وهو الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس الذي يتحدث في مقدمة كتابه «النظريات السياسية الاسلامية» بقوله: «ان المسلمين قد فكروا فعلا في السياسة وكونوا لهم نظريات عنها» • ثم يقول «ان هذه النظريات السياسية تكون ثروة عظيمة القيمة ، جديرة بالعناية والدراسة ، تضاهي ما انتجته اوروبا في بعض عصورها الزاهية» • بل ان من بين هذه النظريات ما لم تصل اوروبا الى معرفته الا بعد ان قطعت شوطا طويلا في طريق التطور • انظر صص ٣ - ٤ ، ويتضح ان التركيز في الحديث ينصب على تسمية هذا الفكر بالفكر الاسلامي •

اما المدرسة الفكرية الثانية والتي تسميه بالفكر العربي ، فانها على ما يبدو تنطلق من الفكرة التي تقول ان الفكر العربي نشأ وترعرع وازدهر في بيئة ومناخ عربي . وان الرسالة الاسلامية قد خاطبت اول من خاطبت العرب ، ثم انها جاءت بلغة العرب . كما انها جاءت صورة مثلى للثقافة العربية . يضاف الى كل ذلك ان كل من اسهم في هذا الفكر لم يكن الاساس فيه الموطن وانما البيئية الفكرية التي نبغ فيها ، وعليه فان كل من نبغ في البيئية العربية هو عربي ثقافة وفكراً . ومن هنا فان تسميتها لهذا الفكر هي الفكر العربي وحسب . ويضم انصار هذه المدرسة من بين ما يضم كل من الاساتذة عبدالرحمن الكواكبي وساطع الحصري وگوستاف لوبون وبرنارد لويس وفيليب حتي^(١) واخرون .

وبالاضافة الى هاتين المدرستين وانصارهما ، تأتي المدرسة الثالثة لتجمع ما بين التسميتين السابقتين ، في تسمية واحدة هي الفكر العربي الاسلامي . وترى هذه المدرسة ان الفكر العربي الاسلامي ، هو فكر يمتد الى زمن سحيق ، وانه يرتبط بالجزيرة العربية بالذات ، التي نزحت منها اقدم الموجات البشرية في التاريخ . ولقد تكونت خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة الثقافة العربية وقيمها الخاصة بالنظرة الى الانسان والكون والحياة . ثم جاءت الرسالة الاسلامية لتضم العرب في فكر وعقيدة واحدة ولتحفزهم على تحمل مسؤولياتهم في نشرها والعمل

(١) يقول احد انصار هذه المدرسة وهو الاستاذ فيليب ك. حتي (Philip K. Hitti) في كتابه (The Arabs: A Short History) ما نصه :
 "As persians,..... Copts, Berbers and others flocked to the field of Islam and married Arabians, the original high wall raised earlier between Arabians and non-Arabians tumbled down. The Nationality of The Moslem receded into the background. No matter what his nationality may have been originally, the followers of Muhammad now passed for an Arab. An Arab hence forth became one who professed Islam and spoke and wrote the Arabic tongue, regardless of his racial affiliation." pp. 99-100.

مع كل من تفاعل وانصهر في ثقافتها على اساس من المساواة والاخوة الاسلامية
والانسانية .

وعلى هذا النحو اصبح هذا الفكر ، عربي في اطاره الاول ، واسلامي في اطاره
الثاني ، واسناني في اطاره الثالث . وهذا ما يجعله ان يكون فكرا عربيا اسلاميا
انسانيا . ومن بين ما تضمهم هذه المدرسة الاساتذة محمد كرد علي وعباس محمود
العقاد وانور الجندي وآخرون .

والذي يبدو من كل ما تقدم ان تسمية الفكر الذي نحن بصدده بالفكر
العربي الاسلامي يجعل منها تسمية جامعة ، شاملة ودقيقة . وهي التسمية التي
اخذنا بها في دراستنا .

(١) يقول الاستاذ انور الجندي في كتابه « معالم الفكر العربي المعاصر »
مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٦١ ، « لقد كانت العروبة والاسلام متفتحتان منذ
قرون على مفهوم واضح وعميق مستمد من مقومات الفكر العربي الاسلامي ،
ولقد كانت روح الاسلام في تاريخ العرب قوة دافعة في النضال ومقوم اساسي
لبناء المجتمع : عقيدة جهاد وقوة عمل ، وحركة دافعة متطورة لا تجمد ولا
تتوقف ولا تنطوي على نفسها ، وقد كان الاسلام قابلا للتطور يقف في وجه
الحضارات والنهضات بل يواجهها بأفاق مفتوحة » صص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

الفصل الثاني

الطبيعة العامة

ما المقصود بالطبيعة العامة ؟

من الممكن وصف طبيعة الفكر العربي الاسلامي بانها الصورة العامة الناجمة من تفاعل جزئياته والمكونة لشخصيته عبر الزمن الطويل . واذا كان ما تقدم يمثل الصورة العامة ، فما هو المقصود بجزئيات هذا الفكر ؟ ان المقصود بجزئيات هذا الفكر ، الجوانب المختلفة المكونة للصورة العامة التي نحن بصدددها . وهذه الجزئيات التي تمثل جوانبه المختلفة ، تتجلى ، وكما اسلفنا ، في الجوانب الاقتصادية والدينية والادبية والاجتماعية والسياسية . واذن ، فان الجانب المكون للفكر السياسي يمثل لنا جزءا رئيسيا من صورة الفكر العامة ، وهو ما يعيننا امره . وكما هو معلوم ان الفكر السياسي العربي الاسلامي يضم من بين ما يضم الآراء والافكار والنظريات ازاء الظواهر السياسية المختلفة .

كيف ندرس طبيعة الفكر العربي الاسلامي ؟

من المعلوم ان الطريق الذي يمكن من خلاله الوقوف على طبيعة الفكر العربي الاسلامي والفكر السياسي منه بالتحديد ، امر غير ممكن التحقيق . ولعل السبب في ذلك ان الكثير مما كتب عن الفكر والحضارة العربية الاسلامية لم يتعرض في دراسته ، اللهم الا ما ندر ، الى دراسة الفكر السياسي العربي الاسلامي تعرضا مباشرا . وقد استوجب كل ذلك الرجوع الى استنباط واستنتاج الافكار السياسية من خلال الطريق غير المباشر ، كالذهاب الى كتب الادب والتاريخ العربي والاسلامي ، والى كتب الحضارة العربية والاسلامية وغيرها .

ومن هنا يبرز سؤال امام الباحث في الفكر السياسي العربي الا وهو : كيف يمكن له الوقوف على طبيعة الفكر السياسي العربي الاسلامي بصورة دقيقة ؟ ان الجواب الدقيق على مثل هذا السؤال لا شك انه يدفع بالباحث العلمي الانتقال الى دراسة طبيعة المجتمع السياسي الذي ينتمي اليه هذا الفكر . ذلك لان الفكر العربي الاسلامي لم ينشأ في فراغ ، وانما نشأ وترعرع في مجتمع عربي اسلامي .

وللوصول الى ما تقدم فان دراسة طبيعة المجتمع السياسي العربي الاسلامي تستدعي الباحث بالوقوف على التطورات للسياسية الفكرية التي مر بها هذا المجتمع ، في الحقب التاريخية المختلفة . هذا وان الوقوف على الحقب التاريخية التي مر بها المجتمع العربي بصورة علمية ، تستدعي الوقوف على الاحداث التاريخية البارزة ، التي عملت على فصل الحقب المختلفة عن بعضها . ولعل افضل تصنيف عام للمفواصل الكبرى في التاريخ العربي الاسلامي هو ذلك التصنيف الذي يأخذ الرسالة الاسلامية فاصلا رئيسيا لدراسة الحقب التاريخية التي سبقتها ، وتلك التي جاءت ما بعدها ، وذلك بالنظر لما لهذه الرسالة من اثر كبير في بناء وتوجيه هذا الفكر .

هذا وان الذي يبقى امام الدارس والباحث للفكر السياسي العربي الاسلامي ، هو الطريقة الذي يجب عليه ان يستخدمها لاستخراج واستنباط واستنتاج ما جاءت به كل حقبة من افكار من مصادرها غير المباشرة . وبالامكان القول ان افضل طريق تمكن من الوقوف على طبيعة هذا الفكر من مصادرها غير المباشرة ، هي تلك الطريقة التي تتخذ من الابعاد التالية اساسا لانطلاقاتها :
واهم الابعاد التي يجب التعرف عليها ، هي تلك الابعاد التي احتوت او بالاحرى ضمت افكارا سياسية . وهذه الابعاد التي نحن بصدددها لابد وان تتضمن الامام بالادب العربي (شعرا ونثرا)^(١) ، سيما النثر والشعر السياسي

(١) وعلى سبيل المثال لا الحصر البيت الشعري الذي يقول فيه الشاعر

العربي :

وانا لقوم ابت اخلاقنا شرفا ان نبتدى بالاذى من ليس يؤذينا



بالتظر لما فيه من تعبير وكشف عن طبيعة هذا الفكر السياسي اولا ؛ والالمام بالتاريخ العربي الاسلامي العام ، كونه يشكل جذور الشجرة التي ثمرتها (بالنسبة لموضوعنا) الافكار السياسية ؛ ثانيا ؛ ثم الوقوف على مقومات الحضارة العربية الاسلامية فكرا وتطبيقا ثالثا ؛ كون هذه الحضارة ، شأنها شأن الحضارات الاخرى ، قامت على مقومات تميزها عن غيرها (٢) ؛ واخيرا الوقوف على ما جاء به المفكرون من آراء وافكار سياسية (٣) .

وصفوة القول ان دراسة طبيعة المجتمع العربي الاسلامي بالوسائل التي اسلفنا ذكرها تساعدنا على تفهم طبيعة الفكر الذي نشأ وترعرع في هذا المجتمع . انها تساعدنا في الكشف عن المشكلات التي مر بها هذا المجتمع ، سيما تلك المشكلات

ولا شك ان ما يمكن ان يستنتجه الباحث في الفكر السياسي العربي الاسلامي هنا هو ان العمل السياسي مرتبط بالضوابط الخلقية ، التي تتمثل في ان طبيعة القيم السياسية التي يحتويها هذا الفكر لا تسوغ لابنائها الظلم والعدوان وشن الحروب على الغير . وهذا يعني ايضا وبالنسبة للحروب بالذات ، ان هناك قواعد لقيام الحرب ون في مقدمة هذه القواعد ان لا تكون من اهدافها الاعتداء على الاخرين . وهكذا .

ومن الامثلة على الادب المنشور ما جاء في خطاب الخليفة الاول ابو بكر الصديق الى الناس بعد توليه منصب الخلافة قوله « اني وليت عليكم ولست بخيركم » الذي يكشف صورة العلاقة بين الراعي والرعية والاسلوب الذي تنطلق منه فكرة السلطة والحكم .

(٢) ومن امثلة هذه المقومات ما جاء في الآية الكريمة التي تقول « واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » وهذا دون شك يكشف عن طبيعة الحكم التي اساسها العدل . وهكذا .

(٣) انظر في هذا الصدد المدارس الفكرية والمفكرين السياسيين الذين ينتمون الى كل منها ، واراؤهم في النصف الثاني من هذا الكتاب .
ويكفي ان نشير هنا الى الآراء التي قدمها المفكر العربي ابن خلدون عن « العصبية » التي قصد بها التعبير عن روح الجماعة في المجتمعات السياسية وعلاقة كل ذلك بقوة الدولة ، والتي اسهم فيها من قريب وبعيد في الكشف عن طبيعة فكرية اتسم بها المجتمع العربي الاسلامي في بعض حقبه التاريخية .

التي نجت عن الظروف التي مر بها ، كما تكشف لنا عن الحلول التي قدمت لحل المشكلات ، سيما ما يتعلق بالحلول التي قدمت للمشكلات السياسية ، في الحقب التاريخية المختلفة . ومثل هذا الكشف عن الحلول يساعدنا ولاشكاً في الوقوف على الاسس التي استند عليها في الحل . ومن خلال هذه الزوايا المختلفة يمكن الوصول الى الاطار العام الذي حددها جميعا . ولا يخفى انه من خلال الزوايا المختلفة ، ومن خلال الاطار العام ايضا ، يمكن للباحث من الوصول الى طبيعة العلاقة السياسية بين الراعي والرعية او بعبارة ادق هل ان العلاقة من حيث انطلاقتها الفكري وتطبيقها العلمي هي علاقة تقوم على الاكراه ام انها علاقة تقوم على الحرية ؟ وهل كانت الحرية مقصورة على بعض الناس ؟ وهل كان الرأي يقوم على صنف معين من الناس ؟ . وهكذا يمكن القول ان دراسة هذه الامور تساعد في الخلاصة من الوقوف على طبيعة الفكر السياسي العربي الاسلامي الذي نحن باشد الحاجة الى دراسته بروح علمية وبوحي من العصر الذي نعيش فيه .

ما هي القوى الرئيسية المكونة للفكر العربي الاسلامي ؟

ان الدراسة العلمية التحليلية الدقيقة للقوى الرئيسية المكونة للفكر العربي الاسلامي عامة والفكر السياسي خاصة ، تكشف لنا ان هناك ثلاث قوى رئيسية عملت على بناء كيانه . وهذه القوى الرئيسية الثلاث هي : اولا - القوى الطبيعية وثانيا - القوى القدسة وثالثا - القوى البشرية .

القوى الطبيعية :

ان للقوى الطبيعية علاقة بالفكر العربي الاسلامي . وتبرز هذه العلاقة من خلال الاجابة على : اولا - ما علاقة القوى الطبيعية بالفكر العربي الاسلامي ؟ وثانيا - اذا كانت هناك علاقة فما هو دور القوى الطبيعية في بناءه وتكوينه ؟ وبالنسبة للسؤال الاول ، فان الاجابة عليه تأخذ بالباحث الى دراسة البيئة الطبيعية التي نشأ فيها وهي الجزيرة العربية . وتشير تضاريس هذه الجزيرة الطبيعية

انها هضبة واسعة مترامية الاطراف ، تميل في كثير من مساحاتها الى الانسباط •
وانها ذات مناخ يمتاز بقسوته وشدة حرارته خاصة • ومثل هذه الظواهر
الطبيعية قد اثرت من بعيد وقريب على طريقة الحياة واسلوب التفكير ، وعلى
السجاياء التي تحلى بها ابناء هذا الاقليم بوجه خاص ، والتي اصبحت على مر
الزمن اساسا للنظام الاجتماعي عند العرب •

ان طبيعة الارض الواسعة ، والصحراوية منها بالذات ، قد كونت في
نفوس ابنائها حب البحث والتحري عن اراضي صالحة للعيش • وقد كانت
نتيجة حب البحث والتحري ، ان تكونت في نفوس الباحثين صفات لا بد من
توفرها • ومن هذه الصفات الاعتماد على النفس والشجاعة وعشق الحرية^(١)
والشفقة والصبر والسخاء •

ولتوضيح هذه السجاياء التي نحن بصدددها - والتي كان للظواهر الطبيعية
التأثير الملحوظ فيها ، هذا الى جانب التأثيرات الاخرى - فاننا نورد على سبيل
المثال لا الحصر التفاعل ما بين المحيط الطبيعي الذي نشأ فيه العربي قبل الاسلام
وبين تأثيره على احدى هذه السجاياء ، وهي عشقه للحرية • وما يمكن قوله هنا
ان قسوة المحيط الذي ربى في العربي روح الثقة بالنفس ، قد ربى فيه روح
الاعتزاز بنفسه وبحريته ايضا ، التي كان يبذل الغالي والرخيص من اجل
الحفاظ عليها • حتى اذا ما خاتمه قواه من الدفاع عنها عن طريق القتال ، فانه
كان يضحى بكل ما يملك ، متخذاً سبيل الهجرة كحل اخير لضمان تلك
الحرية • على ان هذا التفسير لا يجوز ان يبالغ فيه الى الحد الذي يقال فيه
ان هجرة العربي كان سببها الوحيد هو الحفاظ على حريته ، وانما المقصود
بها ان هجرة العربي دفاعاً عن حريته هو سبب ملحوظ وذو صلة ببيئته الطبيعية
من بين اسباب اخرى •

(١) انظر نبيه امين فارس ، حضارة العرب (بالانكليزية) ، ١٩٤٤ ،
الذي يرى هو واخرون من امثال ديلائيديا وغيره ان عشق العربي لحريته قد
جعلت منه ان يكره كل حكم مستبد • وهذا الكره كان سجية عامة عند العرب
قبل الاسلام ، ص ٥٠ •

هذا وان ما يعنى الباحث والباحث السياسي بوجه خاص ، هو ليس الكشف عن العادات والسجايا التي اثرت فيها البيئة والقوى الطبيعية ، وانما مقدار ما تركت هذه النواحي في التفكير الاجتماعي والاقتصادي ، وفي التفكير السياسي والنظام السياسي الناجم عنها . فلقد كانت قسوة الطبيعة بمشابهة التحدي للعربي ، وكان عليه ان يستجيب لهذا التحدي بالصبر والاحتمال واعداد خطة اقتصادية للتغلب على المصاعب التي امامه ، فكانت خطته في التجارة الخارجية اجابة اقتصادية على هذا التحدي ، وكان تكتله مع الافراد الذين يرتبطون معه برباط الدم والقربى ، في مجابهته للمصعوبات الطبيعية القاسية ، ان ادى الى ولادة نظام سياسي قبلي يجمع ابناء القبيلة الواحدة والاقليم الواحد ، كاجابة سياسية للتحديات نفسها . والذي يعنينا هنا بوجه خاص هو ان هذا التفكير السياسي مهد لظهور تفكير سياسي ونظام سياسي^(١) يقوم على الحرية والمساواة . وقد تمثلت هذه المساواة في ان النظام السياسي قد ضم ابناء قبيلة واحدة ترتبط برباط الدم وتقوم علاقاتها على المساواة بين الابناء جميعا . كما تمثلت هذه المساواة في ان الارض المجذبة عموما لم تترك مجالا لظهور مستغل ومستغل ، والى ظهور الصراع من اجل المادة التي ظهرت في بيئات كثيرة اخرى . واذا صح التعبير فان القوى الطبيعية قد ساعدت على قيام عدالة اشتراكية طبيعية .

والخلاصة التي يمكن الوصول اليها في ضوء ما تقدم ، هي ان القوى الطبيعية قد لعبت من بعيد وقريب في التأثير على التفكير والتنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي في البيئة العربية^(٢) .

(١) للرجوع الى تفاصيل الموضوع انظر : النظرية السياسية القبلية والاقليمية من هذا الكتاب .

(٢) يثير البعض ان القوى الطبيعية التي وجدت في الجزيرة العربية ، ليست خاصة فريدة بها ، وانما هي توجد في كل البيئات المشابهة لها . ونحن نجيب هذا البعض بالقول ، ان الجزيرة العربية هي اقدم بيئة نزلت منها اقدم الموجات البشرية في التاريخ . وهذا يعنى ان ما ظهر فيها كان اصيلا وسباقا ، وان ما ظهر في البيئات الاخرى المشابهة ، لا ينفي مثل هذه الاصاله من جهة ،

القوى القدسية :

ويتجلى دور القوى القدسية في انه دور ذو تأثير بارز في بناء الفكر العربي الاسلامي . ويتمثل اول ما يتمثل هذا الدور في ان الرسالة الاسلامية (١) ذات الصفة القدسية قد اوجدت الارتباط الوثيق بين العقيدة الدينية والعقيدة السياسية (٢) . وقد ظهر هذا التأثير في حياة العرب السياسية ، ثم انتقل من العرب الى المسلمين كافة الذين انضموا الى لواء الاسلام . فلقد كان العرب قبل الرسالة الاسلامية يمهدون الشؤون الدينية للكهان ، وقد كانوا بوجه عام عبدة للاصنام ، وكان دور الكاهن دور الوسيط بين الانسان والرب الذي كانوا يعتقدون به قبل مجيء الرسالة الاسلامية . وعندما جاءت الرسالة الاسلامية تحوّل الامر وتحول الاتجاه في التفكير الديني والسياسي . وقد تمثل هذا التحول في ان اوجد علاقة وثيقة بين العقيدة الدينية والسياسية . والسؤال هو كيف اوجدت الرسالة هذه العلاقة ؟ ويتلخص الجواب في ان الرسالة الاسلامية قد تميزت بانها رسالة شاملة ، وهذا ما جعلها تختلف عن جميع الرسائل المقدسة التي سبقتها . فقد كانت الرسالة اليهودية والمسيحية رسالة لتنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق ، ولم تستطع ان تتعدى هذا المدى وهذه الحدود (٣) ، بينما الرسالة الاسلامية جاءت بمفهوم جديد لم يكن معروفا لدى المسيحيين واليهود



ثم ان تفاعل القوى الطبيعية مع العرب ليس معناه الوصول الى نفس النتائج ، من جهة اخرى ، ولعل اهم سبب في ذلك ان الانعكاس لهذه القوى لا يظهر بنفس الصورة على المجموعات البشرية المختلفة .

(١) للوقوف على الجوانب الخلقية البارزة في الدستور الاسلامي الاعلى (القرآن الكريم) انظر

S.H. Al-Shamma: The Ethical System Underlying The Qur'an, 1959. (A Thesis presented to the University of Edinburgh.

(٢) انظر « من روح الاسلام » للاستاذ عبدالرحمن البراز ، مطبعة العاني ، ١٩٥٩ ، صص ١٦٢-١٩٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

وحتى العرب الوثنيين . فلقد نظمت الرسالة العلاقة بين الخالق والمخلوق ، وكذلك نظمت حياة الانسان في دنياه وآخرفته وربطت بين الحياة الدنيا والاخرة بجسر طويل . ومن مظاهر هذا الربط ان الرسالة الاسلامية جاءت بمفهوم عقائدي يتمثل فحواه في قول الرسول (ص) « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى انها نظمت الحياة الدنيا تنظيما شمل جميع جوانب الحياة . فلقد جاءت الرسالة بخطة سياسية واقتصادية واجتماعية . وبكلمة واحدة انها خططت لجميع جوانب حياة الانسان . وهذا الشمول الذي نحن بصدده جعل العقيدة السياسية جزءا من العقيدة العامة . وهذا توجيه جديد في التفكير بالنسبة لحياة العرب . وتجلي اهمية هذا التوجيه في ان العقيدة السياسية انعكس عليها شيء من القدسية . ومن هنا اصبحت مخالفة العقيدة السياسية خروجا على العقيدة الدينية . اما الجانب الثاني من التأثير فهو ان الرسالة الاسلامية القدسية اوجدت ارتباطا ما بين العمل السياسي والعمل الديني من الناحية التطبيقية ايضا^(١) ومن امثلة ذلك ان اي اصلاح في العمل السياسي يقرب المرء من عقيدته وعمله الديني ، ذلك لان صفة الاصلاح السياسي له معنى متداخل بالعقيدة والعمل الديني . وهذا شيء جديد في التفكير العربي . ثم ان الرسالة وجهت العمل السياسي توجيها يقترن بصفة الخير والخدمة . وانها اعطت لمعنى السياسة معنى الادارة : ادارة تعمل على اصلاحهم وخيرهم ونفعهم .

(١) يقول د . محمد ضياء الدين الريس : « لم يعد هناك شك في ان النظام الذي اقامه رسول الله (ص) والمؤمنون معه بالمدينة - اذا نظر اليه من وجهة مظهره العملي وقيس بمقاييس السياسة في العصر الحديث يمكن ان يوصف بانه « سياسي » ، بكل ما تؤديه هاته الكلمة من معنى . وهذا لا يمنع ان يوصف في نفس الوقت بانه « ديني » ، اذا كانت وجهة الاعتبار هي النظر الى اهدافه ودوافعه والاساس المعنوي الذي يرتكز عليه » . انظر كتابه « النظريات السياسية الاسلامية » ، مصدر سبق ذكره ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٣ .

اما الجانب الثالث من تأثير الرسالة كقوة قدسية فهو انها اوجدت ارتباطا وعلاقة بين القيادة الدينية والقيادة السياسية . وقد ظهر هذا في اتجاه الرواد الاوائل الذين ساروا على نهج الرسول (ص) الذي جمع بين مفهوم القيادة السياسية والقيادة الدينية^(١) . وقد كان هذا له اثره في مفهوم السياسة نظريا وتطبيقيا بحيث اسهم في خلق استقرار في الدولة وفي خلق وحدة القيادة التي جاءت نتيجة لارتباط العقيدة الدينية بالعقيدة السياسية .

هذا واذا ما نظرنا الى الرسالة القدسية من زاوية رابعة ، فاننا نجد تأثيرها ، بالإضافة الى ما تقدم قد بدأ في تحويل العقلية العشائرية والقبلية الى عقلية جديدة تمثل بالشعور والتفكير بمستوى اعلى من مستوى العشيرة والقبيلة : الى مستوى التفكير العربي والى مستوى التفكير الموحد . فالقبائل العربية ، كانت ، وكما يدل عليه الشعر والادب الجاهلي ، تتصارع فيما بينها تفاخرا من بعضها على بعضها الاخر . وعندما اتت الرسالة الاسلامية فانها اوجدت قاعدة جديدة وهي الاخوة العربية . وما التحام المهاجرين بالانصار الا دليل على هذه الاخوة . ولم تطف هذه الاخوة عند العرب وانما امتدت الى جميع المؤمنين بالعقيدة الاسلامية الواحدة . وهكذا نجد ان القوى القدسية كانت ركنا اساسيا من اركان القوى المكونة للفكر العربي الاسلامي .

القوى البشرية :

ان اول ما يتبادر الى الذهن ، هو ما هي هذه القوى البشرية او المجموعات البشرية التي لعبت الدور المهم في بناء الكيان الفكري العربي الاسلامي . وعند البحث في هذه المجموعات البشرية نجد انها تتمثل في الثقافات الممثلة لها . وهذه الثقافات هي الثقافة العربية والفارسية والبيزنطية التي عبرت عما لديها وما لدى الثقافة اليونانية من قيم . والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما الذي عمل على تقابل

(١) يقول المستشرق توماس ارنولد (T. Arnold) : « كان النبي (ص) رئيسا للدين ورئيسا للدولة في نفس الوقت » . انظر كتابه الخلافة (The Califate) ، ص ٣ .

هذه الثقافات ؟ والجواب هو الرسالة الاسلامية التي فتحت مبادؤها الباب امام كل تفاعل فكري مفيد طالما انه لا يتعارض مع مبادئها الانسانية . وما هو جدير بالذكر هنا هو ان تقابل الثقافات في ظل الحرية الفكرية التي وفرتها الرسالة الاسلامية قد عمل على الاخذ والعطاء وعلى الاغناء والاعتناء . ولا شك ان الذي عمل على هذا التقابل هم العرب ، اصحاب الثقافة العربية التي انصهرت انصهارا كاملا مع المبادئ الاسلامية . ومن هنا اصبحت القوة البشرية العربية^(١) الحاملة للرسالة الاسلامية ، والمثلة للثقافة العربية قوة رئيسية اجتذبت لها القوى البشرية الاخرى . ولا شك ايضا ان ما دفع على هذا الانفتاح والتقابل هو ايمان العرب الحقيقي بقيم الرسالة الانسانية المتفتحة اولا ، وقيادتهم الفريدة التي حملت وطبقت تلك القيم الانسانية بامانة وعلى اتم وجه الامر الذي عمل على الانفتاح والتسامح امام الافكار وامام القوى البشرية الاخرى المثلة لثقافات غير عربية . وما جعل الثقافة العربية ان تكون ثقافة أم في بوتقة التفاعل الفكري وتنصهر فيها الثقافات الاخرى ، هو ان ذلك التفاعل الفكري كان قد تم في عواصم عربية (كدمشق وبغداد والقيروان وغيرها) ، انعكست فيه طابع الثقافة العربية الذي احتواه اطوارها العام ، وما ضمه ذلك الاطار من قيم مشربة بروح الاسلام . واخيرا وليس آخرا ، فان لغة التفاعل والتقابل الفكري والحضاري هي اللغة العربية التي قدر لها ان تكون لغة الدولة ولغة العلم ولغة كل الممثلين للثقافات الاخرى الذين جذبتهم قيم الرسالة الاسلامية الانسانية . وهكذا تصبغ الثقافة العربية قاسما مشتركا اعظم التقت معها الثقافات الاخرى في ظل القيم الاسلامية . وهكذا ايضا ، تم ، تشييد فكر وحضارة فريدة . اما كيف تم هذا التفاعل الفكري ، فهو ما سنبينه في دراستنا لاصول الفكر العربي الاسلامي في فصل تال من هذا الكتاب .

(١) انظر « من وحي الاسلام » مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٩ وما بعدها ، انظر كذلك الاستاذ ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية ، ط ٢ مطبعة التضامن ، ١٩٦٩ ، ص ١٦٧ .

مقارنة بين الفكر العربي الاسلامي والفكر الغربي :

حاولنا فيما سبق وبالطريقة التحليلية الكشف عن طبيعة الفكر العربي الاسلامي من اكثر من زاوية واحدة . ونحاول الان بالكشف عنه من زاوية اخرى، غير الزوايا السابقة، وهي الزاوية المقارنة، وذلك عن طريق دراستنا له بطريقة المقارنة ، التي تساعدنا على الكشف والتعرف على طبيعته اكثر فأكثر . وسنحاول المقارنة مع الفكر الغربي ، لانه ذو تماس وثيق مع الفكر العربي الاسلامي عبر القرون الطويلة . هذا وان المنهاج الذي سنتبعه في هذه المقارنة ينطلق من ثلاث زوايا رئيسية : الزاوية الاولى وهي التي تبحث في كلا الفكرين من حيث بعدهما الزمني ؛ والزاوية الثانية وهي التي تبحث في مركز الانسان بالنسبة لهذين الفكرين ؛ اما الزاوية الثالثة وهي التي تعنيا اكثر من غيرها وهي الزاوية السياسية فهي تتناول بحث الموضوع من نظرة كل منهما الى السياسة .

البعد الزمني :

ولتناول الزاوية الاولى وهي البعد الزمني . ان الغرض من دراسة هذا الجانب من منهاج البحث هو الحصول على جواب للسؤال : ايهما اقدم زمنيا الفكر العربي الاسلامي أم الفكر العربي ؟ وكذلك الحصول على جواب لسؤال آخر وهو هل صحيح ما يقوله المتعصبون من بعض الاوربيين والمستشرقين من ان الفكر العربي الاسلامي والسياسي منه على وجه الخصوص هو تقليد للفكر اليوناني او انه كما صوره البعض فكر يوناني مكتوب بلغة اخرى . ولتعد الى الفكر العربي الاسلامي متسائلين متى بدأ ؟ وفي الحقيقة ونحن نحاول الاجابة انه من الصعب دراسة الفكر العربي الاسلامي من دون الرجوع الى التاريخ القديم والى تاريخ الجزيرة العربية والى الموجات السامية التي خرجت منها . وبالنسبة للجزيرة فانه وكما هو معروف ان الجزيرة العربية هي اقدم بقعة في العالم ، خرجت منها اقدم الموجات البشرية في التاريخ . ويعود العمق الزمني لقدمها على ما يزيد على (٥٠٠٠ سنة ق.م) . ان المهم هنا هو ان تعلم ان الجزيرة العربية قد خرج

منها موجات عرفت بانها موجات سامية^(١) . ولكن بعض علماء الآثار في العصر الحديث اخذ يسميها بالموجات العربية . والسبب في ذلك لان هؤلاء العلماء قد وجدوا ان القاسم المشترك في اللوحات الاثرية هو مصطلحات وحروف اللغة العربية التي تكررت عند اغلبية تلك الموجات والاقوام التي خرجت من الجزيرة العربية . ومن هذه الموجات موجة ذهبت الى وادي الرافدين والتي شكلت حضارة وادي الرافدين ، وموجة اخرى ذهبت الى مصر وشكلت ما عرف بحضارة وادي النيل . ومنها موجة الفينيقيين الى لبنان ، هذا بالاضافة الى موجات اخرى كالكنعانيين التي ذهبت الى فلسطين وغيرها . والنقطة المهمة بالنسبة لنا هي ليست انواع هذه الموجات وانما تاريخ هذه الموجات وارتباطها بالجزيرة العربية . ان اقدم هذه الموجات هي موجة وادي الرافدين التي تعود حضارتها الى حوالي (٣٥٠٠ ق م) . ومعنى ذلك ان هذا العمق التاريخي البعيد يجعل من الفكر العربي الاسلامي فكرا قديما يمتد الى آلاف السنين .

اما بالنسبة للفكر الغربي وعمقه الزمني ، فان اغلبية مفكري الحضارة الغربية يربطون ما بين الفكر الاوربي الحديث وبين الفكر اليوناني باعتباره القاعدة التي انطلقت منها الافكار الغربية لا سيما الافكار الديمقراطية . وبعبارة ادق ان الفكر السياسي الغربي الحديث يستمد مصادره من الفكر اليوناني القديم . والسؤال الان : ما هو عمر الفكر اليوناني ؟ في الحقيقة ان عمر هذا الفكر لا يتعدى الالف قبل الميلاد الا قليلا ، وانه ازدهر في النصف الثاني منه ، حيث ظهر فلاسفة كبار من امثال سقراط وافلاطون وارسطو . وتشير مصادر التاريخ العلمية الى ان عددا من رجال الفكر اليوناني قد ذهب الى مصر القديمة للاطلاع والمعرفة ومنهم ارسطوطاليس^(١) . كما ان مصادر اخرى تشير الى ارتباط بعض

(١) نكتفي هنا بالاشارة الى العمق الزمني تاركين كل التفاصيل الاخرى الى الموضوع الوارد في فصل لاحق وهو اصول الفكر .

(١) « من اشهر العلماء الذين درسوا في مصر : ارسطوطاليس » ، و « فيثاغورس » الذي ينسب الى جزيرة ساموس او الى مدينة صور ، فقد ذهب

هؤلاء المفكرين بجامعة عين شمس التي تعتبر أقدم جامعة في العالم • ومن هذا الاستعراض نقف على الخلاصة وهي ان الفكر العربي الاسلامي هو ابعد زمنا من الفكر الغربي • وهو يجيبنا على السؤال الثاني ، من حيث ان الفكر العربي الاسلامي يستمد مصادره من اقدم الحضارات في التاريخ وهذا كله لا يثبت قدمه حسب وانما اصالته الفكرية والحضارية • وعليه فان العبارات التي يرددها المتعصبون من ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر يوناني كتب بلغة عربية تدحضها العوامل المختلفة ومنها عامل البعد الزمني •

مركز الانسان :

ان السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف ينظر الفكر العربي الاسلامي الى الانسان ، وهل ان مركز الانسان اساسي أم ثانوي ؟ كما يطرح نفس السؤال من جهة ثانية بالنسبة للفكر الغربي من حيث نظرته الى الانسان •

وبالنسبة للسؤال الاول ، فان بالامكان القول ان مركز الانسان في الفكر العربي الاسلامي هو مركز رئيسي ، وان الاشياء من حول الانسان تأتي كلها بالدجة الثانية من بعده وهي ، أي هذه الاشياء ، تأتي واسطة في نظر هذا الفكر لتؤدي مهمة خدمة الانسان للوصول به الى السعادة • وعلى هذا الاساس فان الانسان يبقى سيد نفسه ، مخططا لمستقبله ، ومنظما لما يحيط به من اشياء بما في ذلك جوانب حياته المختلفة وفي مقدمتها الجانب المادي والجانب الاقتصادي •



الى مصر ودرس فيها ، ثم رحل الى جنوب ايطاليا حيث اسس مدرسة تتببع الاساليب المصرية ٠٠٠ اما « فورفيوس » فقد كان من بلاد سورية ، درس في اثينا ثم درس في روما على افلوطين (المولود بمدينة اسبوط بمصر) ٠٠٠ وكان بين علماء الاغريق عدد كبير من العلماء الذين ذهبوا الى سورية مثل « يامليخا » الذي ينسب الى قنشرين في سورية • وكان اخر رئيس لأكاديمية اثينا • « داماسيوس » اي دمشقي وهو من ابناء دمشق وقد درس في الاسكندرية ثم في اثينا • انظر الاستاذ ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية ، صص ٤٠٣-٤٠٤ •

وللبرهنة على ذلك ، هو ان تأتي الى فحص القيم الفكرية العربية الاسلامية للثبت من صحة هذه النظرة بصورة موضوعية . فما هو مدى هذه الصحة ؟ ان الانسان كما جاء في الدستور الاسلامي هو افضل من في الوجود . وبعبارة ادق ان الدستور الاسلامي المتمثل بالقرآن الكريم يكرم الانسان ويفضله على سائر المخلوقات : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (١) ، ثم تأتي آية اخرى لتعبر عن قيم هذا الفكر ولتقول « خلق الانسان علمه البيان » . بمعنى ان الانسان الذي هو اهم من في الكون قد اعطى العقل القادر على تعلم المعرفة وما فيها من بيان . وقد وضع امام الانسان نظام شامل للحياة يضم قواعدها الاساسية ، وانه بفضل عقله وبيانه يستطيع ان يتفهم هذا النظام الشامل في خطوطه العريضة ، وان يجتهد بالنسبة لخطوطه التفصيلية . ويتمثل هذا النظام الشامل القائم على خطة عامة للحياة (٢) في ان الانسان سيد نفسه وسيد العالم الذي يعيش فيه ، وان الاشياء من حوله تنتظم لتخدم حاجاته وتؤدي الى سعادته . ومع ان الفكر العربي الاسلامي يعترف بتأثيرها وتأثير الظروف التي تصحبها الا انه يضع حدا وحاجزا يمنعها من التأثير المطلق في الانسان . انه يضعها تحت تنظيمه لا بل سيطرته . وهناك الامثلة الكثيرة على هذه السيطرة . ففي القرآن الكريم ، وهو الموسوعة العالمية والثقافية والاجتماعية ، نجد ان هناك تخطيطا تحدد طبيعة نظامه بالاعتدال . ويظهر هذا الاعتدال بقاعدة الدستور الاعلى التي تقول : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٣) . وبديهي ان حياة الامة الوسط هي حياة تقوم على التوازن بين الاشياء وبين العلاقات في داخل المجتمع وخارجه .

(١) الاسراء : ١٧

(٢) اصالة الحضارة العربية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٣ .

(٣) البقرة : ١٤٣

ومما تقدم يمكن للمرء ان يستخلص ان الانسان في الفكر العربي الاسلامي هو السيد وان مركزه في الوجود اساسي وان حياته قد نظمت بنظام معتدل سواء في الجانب السياسي أم الاقتصادي أم في الجوانب الحياتية الاخرى .
 واذا كان ما تقدم يمثل لنا مركز الانسان في الفكر العربي الاسلامي ، فاننا حين نأتي الى الفكر الغربي فماذا نجد فيه ؟ وما هي نظراته الى الانسان ؟
 وهنا من الضروري الوقوف على ما جاء به هذا الفكر من نظريات لنرى مركز الانسان فيها .
 وحين نتفحص تاريخ الفكر الاوربي نجد ان قد ظهرت عدة نظريات مهمة يمكن الوقوف من خلال تحليلها على مركز الانسان . ومن بين هذه النظريات نظرية الابوة والنظرية القطاعية والنظرية الرأسمالية والنظرية الاشتراكية .
 واذا ما حاولنا ان نتفهم مركز الانسان من خلال نظرية الابوة ، نجد انها تميز بين افراد العائلة الواحدة من الناحية المادية ، بحيث يصبح الابن الاكبر بحسب مفهومها الوريث الوحيد من بعد موت ابيه . وهذا ما لا يوجد في الفكر العربي الاسلامي ، حيث ان نظام ميراثه يمنع تسلط اي فرد من افراد العائلة الوارثين وتوزيعها عادلا شاملا .

واذا ما حاولنا ان نتفهم مركز الانسان من خلال نظرية ونظام القطاع ، فاتنا نجده يباع ويشترى مع الارض التي يملكها القطاعي^(١) . ومثل هذه الصورة تمثل صورة ونظرة دنيا الى الانسان .

وبانتقالنا الى نظريات الفكر العربي الحديثة ، نجد ان النظرية الرأسمالية قد جاءت وكما اعلن مناصروها باعطاء الانسان حريته وبافساح المجال له في التثبث الفردي الاقتصادي الذي يعمل على سعاده ، التي لها انعكاسها على سعادة المجتمع ، كون المجتمع يتألف من مجموع الافراد . ولكننا نجد ايضا ان هذه النظرية تنطلق من قاعدة الربح^(٢) . وقاعدة الربح هذه تدفع بالانسان الى

(١) انظر د. عبدالحميد متولى : الوجيز في النظريات والانظمة السياسية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٠١ .

(٢) انظر د. راشد البراوي : النظام الاشتراكي ، ص ١٢٩ ، كذلك انظر د. ريموند كيتل وترجمة د. فاضل زكي محمد : العلوم السياسية ، جزء ٢ ، بغداد ، ١٩٦٤ ، ص ١٩٦ .

الخضوع والاستغلال • ومعنى ذلك ان الربح غاية وان الانسان واسطة • وهذا يعني ايضا ان وازع الربح المادي يجعل الانسان يتصرف تصرفا فظيما بحيث يطلب في المجتمع النفوذ السياسي الى جانب نفوذه الاقتصادي • ومن هنا يصبح الفرد الذي لا يملك ، مسخرا من قبل ذلك الفرد الذي يملك • وهذا بعينه ما يؤدي الى عدم المساواة في المجتمع •

ولقد جاءت النظرية الاشتراكية كرد فعل للرأسمالية لمحاربة الاستغلال ، وهدفت اعادة تنظيم الحياة الاقتصادية بحيث ينتفع من الثروة القومية اكبر عدد ممكن في المجتمع • ولكن الاشتراكية الاوربية ، بانواعها المختلفة ، من جهة اخرى ، التي جاءت لتقول بالكفاية في الانتاج والعدالة في التوزيع ، لم تستطع ان تتخطى المحور المادي^(١) الذي جعل منها ان تبدأ بالمادة وتنتهي بها^(٢) • وهذا ما يجعلها تفرق عن نظرية العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية ، التي تنطلق من قاعدة الكفاية في كل شيء •

والخلاصة التي نصل اليها في هذه المقارنة ان الانسان في الفكر الاسلامي لا يسمح للاشياء المحيطة به ان تسيطر عليه • وعلى ما يظهر ان الفكر الاوربي على الرغم من كل التقدم الذي حققه بعض نظرياته في الميادين المختلفة ولا سيما الميدان المادي منه ، قد بدت فيه ثغرات تعطي للاشياء مجالا للسيطرة على شؤون الانسان •

النظرة الى السياسة :

ان المقارنة الموضوعية بين نظرة كل من الفكر العربي الاسلامي والفكر الغربي الى السياسة ، تتطلب اول ما تتطلب الوقوف على الينابيع الاساسية التي استمد

(١) المصدر السابق ، ص ص ٢٠٤-٢٠٥ •

(٢) يقول د • بطرس بطرس غالي (واخرون) في : دراسات في المجتمع العربي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ : « ان الاشتراكية تدعو الى تأميم رأس المال • والفكرة الاساسية فيها هي احلال الملكية الجماعية لرأس المال محل الملكية الخاصة » ، ص ٢٣٥ •

كل منهما قوته والتطورات التي مرت بهما من بعد ذلك • وتطبيق ما تقدم على الفكر الغربي نجد انه وكما يقول المختصون فيه قد استمد قوته وينابعه من التراث اليوناني • وب نظرة سريعة الى الفكر اليوناني نجد انه قد استطاع في كثير من جوانبه ان ينقل الانسان الى المستوى الذي تقارب فيه السياسة مع مستوى الاخلاق الفاضلة^(١) • ومن هنا فان من الممكن القول ان الفكر الغربي في بداية انطلاقه قد نظر الى السياسة نظرة قائمة على الاخلاق • وان هذه النظرة قد استمرت كذلك الى القرن السادس عشر الميلادي : أي الى ظهور احد مفكري الغرب المشهورين وهو ماكيافلي ، الذي بظهوره تغير مجرى تاريخ الفكر الغربي والسياسي منه بالذات • وقد ظهر هذا التغيير نتيجة للاراء التي جاء بها هذا المفكر ، والتي جعلت السياسة تسير على طرفي نقيض مع الاخلاق^(٢) • هذا من جهة ، ومن الجهة الثانية ، فان الفكر الغربي استطاع عبر الزمن الطويل ان يتحول في نظرتة من النظرة الديكتاتورية في السياسة ، الى النظرة القائمة على الحرية التي تمثلت في محاولته لتحرير الانسان من التسلط • وما مشاركة شعوب اوربا في الحكم الا دليل على تطور النظرة الى السياسة من الديكتاتورية الى الحرية • ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل استطاع الفكر الغربي ان ينشر مفاهيمه على النطاق العالمي ؟ ان الاجابة الدقيقة على ذلك تتلخص في انه اذا كان الفكر الغربي قد حقق نشر مفاهيم الحرية بالنسبة لذويه ، فانه على الصعيد العالمي قد فشل فيها ، اذ نشر بدلا منها ما يمكن تسميته بالحرية المبطنة • وهذه الحرية المبطنة ظهرت في اكثر من مظهر في علاقات اوربا وفكرها مع غيرها من شعوب

(١) انظر جورج سيباين (ترجمة حسن جلال العروس) : تطور الفكر السياسي : الكتاب الاول ، في بحث المثل السياسية العليا ، ص ١٢ وما بعدها •
(٢) « ينصح ماكيافلي بارتكاب عدة رذائل • طالما كانت تمهد للامير ادراك اهدافه ، وذلك عملا بالمبدأ المعروف : « الغاية تبرر الوسيلة » وهو مبدأ تنكره المبادئ الخلقية السليمة - كما هو معلوم - والواقع ان هذا المبدأ يصح ان يلخص اهم ما جاء به ماكيافلي من اراء في الميدان السياسي » • انظر د • عبدالحميد متولي ، مصر ، سبق ذكره ، صص ١١٦-١١٧ •

العالم . ذلك ان شعار الحرية الذي حملته الغربيون بعد نهضتهم قد تقوقع على نفسه بحيث ترجم بانه حرية التسلط على الاخرين : انه حرية الاوربي في الاستعلاء على الاخرين . وهذا النوع من الحرية المبطنه ادى في مفهومه وتطبيقه ، الى الاستعمار وبالتالي الى الامبريالية . ومن مظاهر هذا النوع من التسلط والاستعلاء ، نظرة الاوربي الاستعلائية والتسلطية نحو شعوب افريقيا ومن قبل ذلك الى شعوب آسيا . والاكثر من ذلك ان دولا ديمقراطية اوربية اخذت تنشر مفاهيم خاصة بالحرية عن طريق ما اسمته برسالة الرجل الابيض التي بدت في ظاهرها تحررية انسانية ، ولكنها كانت في حقيقتها رساله استعباد الانسان الابيض للانسان الافريقي الاسود . ولعل من خير الأمثلة على مفاهيم الحرية المبطنه ، ما اعلنته دولة غربية ديمقراطية عريقة ، (وهي بريطانيا) على لسان قائدها الجنرال مود أبان فتح بغداد ، حين خاطب الجماهير بقوله « اتنا جئنا محررين لا فاتحين ، . والصورة الحقيقية التي ظهرت انها حرية تسلط على الاخرين وحرية من يخدم ذلك التسلط . ومن هنا يصبح مثل هذا المفهوم في الحرية حرية سائبة تبعد عن القيم الانسانية . وفي الحقيقة ان هذا المفهوم السائب في الحرية هو الذي ادى الى قيام معاهدة سايكس بيكو لاقسام البلدان العربية ، وهو بعينه الذي ادى الى مأساة فلسطين : تلك المأساة التي لعبت فيها مفاهيم الحرية السائبة الدور الكبير .

والان كيف ينظر الفكر العربي الاسلامي الى السياسة ؟ نستطيع القول ان الفكر العربي الاسلامي قد نظر منذ نشأته الى السياسة نظرة ترتبط مع الاخلاق . فلقد كانت نظرة الفكر العربي قبل الاسلام الى السياسة نظرة تقوم على الصراحة والاستقامة . وهذه الصراحة والاستقامة هي التي جعلت العربي يكره كل عمل سياسي يقوم على المراوغة . وحين جاء الاسلام فانه لم يتشر هذه المبادئ فقط وانما اكد عليها كدعائم اساسية للحرية . واوضح ، ان الحرية التي ينشدها هي حرية مقيدة وليست سائبة ، حرية مقيدة بالفضيلة وبالاخلاق ،

حرية مقيدة بالضمير وحرية مقيدة بالإنسانية • انها حرية لا تفرق بين عربي
واعجمي الا بالتقوى : وهذه التقوى ما هي الا الاستقامة في العمل •

هذا وان المستعرض للمصور التي ترجمت فيها الافكار لدى كل من ابناء
الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الغربية ، يجسد ان كلا من العرب
والاوربيين فتحوا البلدان واقاموا دولاً وامبراطوريات • ولكن هناك فارقاً في
اسلوب معاملة كل منهما ازاء البلدان المفتوحة • فالاوربيون الذين توسعوا في
مفهوم الحرية الى حدودها السائبة ، قد تحولوا الى اسياذ ومستعمرين • ومن
جهة اخرى فان العرب الذين فتحوا البلدان فانهم لم يسعوا الى اقامة نظم اجتماعية
واقتصادية تجعل من ابناء البلدان المفتوحة تابعين ومستعمرين^(١) • وهذا الفرق
في اسلوب ترجمة الافكار والقيم ربما كان السبب الحقيقي ، في ان الاوربيين
حينما يتركون الاقاليم المفتوحة والمستعمرة فانهم يتركونها كثيبة تعكس كآبتها
التأخر والضعف •

وصفوة القول فان بالامكان القول ان الفرق الاساسي بين نظرة الفكر
العربي الاسلامي الى الانسان وبين نظرة الفكر الغربي هو مكان الانسان ونظرته
الى ذاته والى الاخرين •

هل ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر محلي ام انه فكر عالمي ؟

من الضروري وقبل البحث في تفاصيل الموضوع ، الوقوف اولا على ما
المقصود بكل من الفكر المحلي والفكر العالمي •

وبكلمة موجزة فان بالامكان القول ان الفكر المحلي هو ذلك الفكر الذي
ينشأ في منطقة معينة ويبقى في حدود تلك المنطقة ولا يتخطاها • اما السبب في
بقاء هذا الفكر في حدود منطقتة فهي (اولا) الفاعلية و (ثانيا) الغنى الفكري
و (ثالثا) التعصب الفكري • ذلك ان اهم ما يميز الفكر المحلي هو انه فقير

(١) يقول غوستاف لوبون « والحق ان الامم لم تعرف فاتحين متسامحين
مثل العرب » انظر كتابه حضارة العرب ، ط ٣ ، ١٩٥٦ ، ص ٦٠٥ •

في افكاره • وهذا الفقر هو الذي يجعل منه فأقدا للفاعلية وبالتالي فأقدا للحركة •
 الى جانب هذا الفقر ، ما يحمله الفكر المحلي من اراء متعصبة تعمل كحاجز
 يعزله عن غيره من الافكار • وبعبارة اخرى ، وكما يطلق عليه علماء اجتماع
 السياسة ، انه فكر ستاتيكي : اي انه فكر راكد ، لانه لم يأت بافكار اجتماعية
 وسياسية جديدة تجذب الاخرين ، ولذلك فانه يولد ويترعرع ويقبر في مكانه •
 اما الفكر العالمي ، فانه ذلك الفكر الذي ينشأ في مكان معين ويترعرع
 ويزدهر وينتشر خارج حدود منطقته الجغرافية • وعن طريق هذا الانتشار
 يتحول الفكر من فكر محلي الى فكر عالمي • ولعل من اهم اسباب هذا الانتشار ،
 الغنى الفكري الذي تقوم عليه افكاره ونظرياته ، وما يحويه هذا الغنى من آراء
 جديدة ينجذب اليها الاخرون • يضاف الى ذلك ما يحويه هذا النوع من الفكر
 من فاعلية : بمعنى ان له قوة الانطلاق والحركة الذاتية • واخيرا وليس اخرا ان
 هذا النوع من الفكر لا يقوم على افكار متعصبة تمنعه من الانتقال • وبعبارة
 ادق انه فكر انساني لا يتعصب لنفسه دون غيره ، فكر يفتح الباب لجميع بني
 الانسان لاعتناقه •

وهناك امثلة عديدة في تاريخ الفكر الانساني على ما يعرف بالفكر المحلي •
 ومن هذه الامثلة ، الفكر العبراني القديم الذي يدعى الفكر الصهيوني الحديث
 صلته به • وفي الحقيقة فان الفكر العبراني يعود لتقوم نشأوا في العراق (١)
 قرب بابل ، قدر لهم بمرور الزمن من ان يعبروا الفرات (ولذلك سموا
 بالعبرانيين) الى سيناء ثم الى فلسطين حيث حكموها مدة سبعين سنة كغزاة •
 ولقد سبى العبرانيون في عهد البابليين واعيدوا الى بابل وهو ما عرف في التاريخ
 بالسبي البابلي • والشئ المهم بالنسبة لدارس هذا الفكر الذي انقرض بانقراض

(١) يقول علماء التاريخ والاثار ان العبرانيين يشكلون احدى الموجات
 السامية الصغيرة التي نزحت من الجزيرة العربية الى وادي الرافدين •
 انظر في هذا الصدد : كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : العرب
 والامبراطورية العربية (نقله الى العربية نبيه امين فارس ومخير بعلبكي) ، دار
 العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٣ ، ص ١٣ ، كذلك في :
 T.W. Wallbank, "Civilization: Past & Present" 1942, pp. 48, 57.

اهله هو انه فكر محلي ، وان ما يدعيه الصهيونيون بصلتهم به فهو امر يفتقر الى الحججة والتأييد التاريخي . ذلك ان الصهيونيين الذين يؤلفون مجموعات بشرية لها فكر سياسي عديم الصلة بالفكر العبراني . ومما يلحظ في هذه المجموعات البشرية الصهيونية ان ما لديها من افكار وآراء في السياسة وفي غيرها تعود بتاريخها الى القرن التاسع عشر . واساس هذه الافكار التي تبلورت في مؤتمر بال (بازل) في عام ١٨٩٧ ينطلق من الصهيونية (نسبة الى جبل صهيون) التي تهدف الى تشكيل دولة صهيونية في فلسطين . وهؤلاء الصهيونيون الذين يعتقدون اليهودية يدعون انهم من نسل العبرانيين . ومثل هذا الادعاء يفتقر الى الحججة ، ذلك لان العبرانيين^(١) الذين انقضوا قبل الاف السنين وهم اسويون لا صلة للصهيونيين الذين جلعهم اوربيون من روسيا وغيرها من الاقطار الاوربية ، والذين استغلوا اسم جبل صهيون والدين اليهودي لربط يهود العالم بهم وبافكارهم السياسية .

والذي يعنينا من الفكر الصهيوني هو انه فكر متعصب ايضا لانه يهدف الى اقامة دولة ذات باب مغلق ويقوم على افكار غامضة ، وما هو واضح منه فهو متعصب . فلو كان الفكر الصهيوني غير متعصب لكان بإمكان غير اليهودي ان يصبح صهيونيا . اضع الى ذلك ان اصحاب الدعوة ليسوا متدينين بالرغم من تسترهم وراء الدين . والاكثر من ذلك ان ما يطلقون عليه بالدعوة العالمية ، ليست بالعالمية حقا ، لانها دعوة مغلقة على جماعة معينة وهم اليهود الاوربيون حسب . ومثل هذا لا يجعل من الفكر الصهيوني فكرا عالميا لانه يقوم على افكار عنصرية مغلقة . وكل ذلك يجعل منه وكرا محليا .

والسؤال الذي يتطلب الاجابة ، وبعد ما تقدم ، هو هل ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر عالمي ام انه فكر محلي ؟ والجواب انه فكر عالمي . ويمكن البرهنة على ذلك من خلال نفس معايير التمييز ما بين الفكر المحلي والفكر

(١) انظر د . فاضل زكي محمد : الكونكرس الامريكى ونكبة فلسطين ،

العالمي • فقبل كل شيء هناك معيار الغنى الفكري • وانفكر العربي الاسلامي هو فكر غني ، لانه اتى بافكار جديدة لم تكن معروفة من قبل • فالانسان قبل قيام الفكر العربي الاسلامي كان يصنف على اساس طبقي (سائد ومسود) • ويكفي الاشارة هنا الى ان ما كان سائدا لدى الفرس والرومان من صلة بين الحاكم والمحكوم لا تعدى علاقة السائد بالمسود • اما الاسلام والفكر العربي الاسلامي فقد غير هذه المفاهيم واستبدلها بمبادئ جديدة • وتتجلى هذه المبادئ الجديدة بالقواعد الاسلامية التي تقول « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، « خلق الانسان علمه البيان » ، « كل نفس بما كسبت رهين » ، « ووفى كل ذي علم علمه » • وما يمكن استنتاجه من هذه القواعد ان ما جاء به الفكر العربي الاسلامي من خلال رسالته ، يشكل ثورة جديدة ، اذ اصبح التمييز بين الانسان والانسان هو البيان والمعرفة والكفاءة • كما اصبحت العلاقة بين الانسان والانسان في الدولة علاقة تقوم على كرامة الانسان ومساواته بغيره (١) •

وتأتي عالمية الفكر العربي الاسلامي ، بالاضافة ، من انه فكر ذو فاعلية ، فهو قبل كل شيء فكر تميزت افكاره بتغلغلها الى اعماق الانسان •

ومن خلال التغلغل العميق تظهر القاعدة الاولى وهي الايمان الحقيقي بالمبدأ ، كما تظهر القاعدة الثانية وهي ان الايمان الحقيقي بالمبدأ يؤدي الى التضحية الحقيقية من اجله • ان هذه التضحية الحقيقية قد تصل الى بذل النفس والنفس • ومثل هذا دلالة على فاعلية هذا الفكر • ولتوضيح هذه الفاعلية اكثر فاكسر ما برهنت عليه احداث التاريخ العربي الاسلامي في صحة مبادئها القائل ان الجماعة القليلة تغلب الجماعة الكبيرة •

(١) من اقوى الدلائل على المساواة ما جاء في الشريعة ، وهي عماد الفكر العربي الاسلامي ، من آيات واحاديث تؤكد على المساواة والحرية الاجتماعية • ومن هذه الآيات قوله تعالى « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » • (الحجرات ١٣) • وقول الرسول (ص) « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالحق » ، وقوله ايضا « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء سلطان الا بالحق » •

ومن هنا يمكن القول ان قيمة الحضارة العربية الاسلامية تتجلى بما جاءت به من افكار ذات فاعلية استطاعت ان تتغلغل في النفس لبشرية التغلغل العميق الذي جعلها ان تضحى بكل مآلديها من اجلها .

واخيرا فان عالمية الفكر العربي الاسلامي ، تتجلى ، بالاضافة ، في كونه فكر غير متعصب . وللبهنة على ذلك ان الدولة التي قامت على اكتاف العرب وسطر دستورها بلغة العرب وازدهرت على يد قواد عرب وفي عواصم العرب ، كانت مبادؤها حريصة كل الحرص في ان تحتاط لمنع اي غرور او تعصب يبدو منهم ازاء اشقائهم المسلمين بان خاطبتهم : « ان اكرمكم عند الناس اتقاكم » ومن امثلة عدم التعصب ايضا رفض الخليفة عمر بن الخطاب من الصلاة في كنيسة بيت المقدس بعد الفتح خوفا من ان يتخذها المسلمون مسجدا وبذلك يتعصبون لدينهم ضد الدين المسيحي . وهذا مثل صارخ على انسانية الافكار التي آمن بها العرب ، وعلى تسامحهم مع الاديان الاخرى .

ولاشك ان كل ما تقدم يجعل من الفكر العربي الاسلامي فكرا عالميا وانسانيا .

الفصل الثالث

السمات المميزة^(١)

خصائص الفكر العربي الاسلامي :

ليس من المبالغ فيه القول انه اذا كان الانسان يحمل اسم الانسان في كل الحضارات ، فان النظرة الى الانسان تختلف من حضارة الى اخرى . ان النظرة السياسية الى الانسان في الفكر العربي الاسلامي لها من الخصائص ما يجعلها متميزة عن غيره من الافكار . وما يعنينا في هذا الفصل بوجه خاص هو دراسة هذه الخصائص بالتفصيل .

فماذا نقصد بالخصائص ؟ انها بكلمة موجزة السمات المميزة للفكر العربي الاسلامي . وما دام موضوعنا يتعلق بالخصائص السياسية ، فان بالامكان حصر خصائصه السياسية اولا باصاته .

اولا - اصالة الفكر العربي الاسلامي :

لكي نتفهم اصالة الفكر العربي الاسلامي ، والفكر السياسي منه بالذات ، علينا ان نتفهم اولا ما المقصود بالاصالة ؟ ان الاجابة العلمية الدقيقة تتطلب الوقوف على الافكار التي تتميز بالاصالة . وبعبارة ادق ، الوقوف على الفكر الاصيل وما يضمنه من افكار تميزه عن الفكر المقلد . ولنبدأ بدراسة الفكر الاصيل .

الفكر الاصيل :

ان الفكر الاصيل كالثبته الطبيعية ، ينبت في بيئته الطبيعية وينمو في اجواء تلك البيئة . وبلاضافة ، فان الفكر الاصيل المنبت هو ذلك الفكر الذي تشرح

(١) لتوضيح العلاقة بين الطبيعة العامة والسمات المميزة نقول : انه اذا كانت الطبيعة العامة هي الصورة الشاملة الناجمة من تفاعل الاجزاء ، فان السمات المميزة هي الصورة الناجمة من كل جزء من الاجزاء ، والمعبرة عن خصائصه الدقيقة التي تميزه عن غيره .

افكاره ومبادئه جانبا من جوانب البيئة التي ينشأ فيها والتي ترسمها بمجموعها شخصية تلك البيئة العامة • وعند الوقوف على سمات الافكار الاصلية التي يضمها الفكر الاصيل نجد ان هذه السمات تعكس قيم البيئة التي تنشأ فيها ، كما تعكس اسلوب حياة تلك البيئة • ويتمثل هذا الانعكاس في تجانس تلك الافكار مع التقاليد السائدة في البيئة المعنية • كما يتمثل ايضا في تقبل الرأي العام السائد لها ودون اية صعوبة او اعتراض من قبله نحوها • ومن كل ما تقدم يمكن القول ان علاقة الفكر الاصيل ببيئته الطبيعية كعلاقة الغذاء السهل الهضم في الجهاز الهضمي للكيان العضوي •

الفكر المقلد :

اما الفكر المقلد فهو كالنبتة المنقولة من بيئتها الطبيعية الى بيئة غريبة • وكما هو معلوم ان الجو الطبيعي للنبتة الطبيعية غالبا ما يختلف عن الجو الطبيعي للنبتة الغريبة • ويتمثل هذا الاختلاف في الاحتمال الكبير بعدم ملائمة البيئة الجديدة للنبتة المنقولة •

ان هذه الحالات التي تطرقنا اليها غالبا ما يظهر ما هو شبيه لها بالنسبة للافكار المنقولة من بيئة طبيعية الى بيئة غريبة • فقبل كل شيء ان انتقال الافكار في مثل هذه الحالات ، يتم بصورة مقصودة وتعمل عليه عوامل كأن تكون سياسية او عسكرية او اقتصادية او غيرها • وغني عن البيان ان الافكار التي تنقل بصورة مقصودة من بيئة لآخرى ، هي عملية فكرية مقلدة ، وان حصيلتها الفكر المقلد •

ان ما هو جدير بالانتباه هو ان عملية نقل الافكار الى بيئة هي غير بيئتها غالبا ما تلاقي صعوبة القبول ، بالنظر لغرابتها الناجمة من الاختلاف بين البيئات والظروف المختلفة المصاحبة لها • وهكذا يمكن القول ان الفكر المقلد هو فكر لا يمت الى البيئة التي قدر له ان ينمو فيها ، وهذا ما يجعله غالبا مرفوضا كرفض الجهاز الهضمي في الكيان العضوي للغذاء الغريب •

ولنأتي الان لتجسيد هذه المعاني على الفكر العربي الاسلامي • فعندما نقول ان دقائق الفكر العربي الاسلامي وجزئياته هي اجزاء ودقائق عربية اسلامية ، فان ذلك يعني انها عربية اسلامية في منبتها واجوائها وظروفها الطبيعية الخاصة بها والتميزة عن غيرها •

ولتوضيح ما تقدم فان من المفيد الرجوع الى امثلة من النظريات والمبادئ التي قامت في البيئة العربية الاسلامية ، كمبدأ الشورى او نظرية الخلافة مثلا ، او غيرها من النظريات التي نبتت ونمت في بيئة عربية اسلامية • فماذا نجد في هذه النظريات والمبادئ ؟ ان اول ما نجده هو ان هذه النظريات ومنها نظرية الخلافة^(١) مثلا كانت قد عملت على اخراجها ظروف عربية اسلامية بحتة وليس لبيئة اخرى دخل فيها • وهذا ما يساعدنا على القول ان نظرية الخلافة هي نظرية اصيلة وليست نظرية مقلدة •

ومقابل ذلك ، لنأتي الى النظرية الديمقراطية العربية التي نقلت الي اجزاء كثيرة من الوطن العربي لتحقيق اهداف معينة ، فماذا نجد فيها ؟ اتنا نجد اول ما نجد ان هذه النظرية التي نبتت في بيئة غير عربية ، ونقلت من اوربا الى المنطقة العربية ، والتي اريد لها ان تعيش في البيئة العربية الاسلامية قد لاقى صعوبة في تنفيذها ، لاختلافها مع القيم العربية • وقد ترتب عليها ان تأخذ شكلا سطحيا مما ادى الوصول الى عكس نتائجها المطلوبة • فبدلا من ان يعبر الشعب عن نفسه في الديمقراطية ، نجد ان الديمقراطية المصطنعة قد جاءت وفق ظروف مصطنعة وفي ظل نفوذ دول استعمارية • وقد نجم عن ذلك ان اخذت الديمقراطية المصطنعة تعبر عن رأي القلة واصبح مفهوم البرلمان من حيث تطبيقه مفهوما ارستقراطيا لا شعبيا • هذا في الوقت الذي كان يجب ان يكون شعبيا • وهذا بالضبط ما ادى الى فشلها •

(١) ان نظرية الخلافة ، وكما سنرى في مكان لاحق من هذا الكتاب ، انها جاءت تجسيديا حيا لمبدأ الشورى ، وهو المبدأ الاساسي الذي قام عليه الفكر العربي الاسلامي ، والذي توصل من خلاله اهل الحل والعقد الى اختيار خليفة للرسول (ص) لقيادة الدولة والامة •

ان اقل ما يمكن قوله في ضوء ما تقدم هو ان فكرة الديمقراطية في ظل مفاهيمها الغربية المقصودة ، كانت قد دفعت بها الدول المسيطرة الى الوطن العربي دفعا ، بحيث جاءت اليه وفقا لمفاهيم وظروف غربية ، الامر الذي جعلها ان لا تتلائم وظروف البيئة والاحوال العربية . والذي حدث هو ان افكارا سياسية وافكارا اقتصادية نقلت الى المنطقة العربية لتخدم اهداف الغرب تحت اسم الديمقراطية ، وليس الاهداف الديمقراطية التي سعت شعوب الامة العربية من الوصول اليها . انها جاءت لتقيم حكومات وطنية ومجالس برلمانية صورية لتخدم مصالح المستعمر الاقتصادية والعسكرية والسياسية .

وقد كان الخطر من جراء هذا العمل كبيرا . فبدلا من اعتزاز العرب بفكرهم وحضارتهم الانسانية التي دوخت العالم ، وبدلا من ان ينهضوا نهضة حقيقية تبعث من افكارهم وتقاليدهم وتفتح الى ما في العصر الحديث من افكار مفيدة بعد الغفوة التي اصابتهم لزمان طويل ، واذا بهم يفيقون ليجدوا انفسهم مطوقين ، بافكار غربية وتطبيق غريب حتى عن الديمقراطية نفسها . والاكثر من كل ذلك انتشار كلمة الديمقراطية في حياة الناس اليومية دون علم انها ستار لاستعمارهم .

والادهى من كل ما تقدم ان بعض الكتاب العرب « المستغربين ، اخذوا يفحموا كلمة الديمقراطية^(١) في الفكر العربي الاسلامي اقحاما ، بصور حاولوا من خلالها افهام الناس ان الديمقراطية العرجاء التي جاءت اليهم انما هي سيان ومقومات الفكر العربي الاسلامي . والحق ان هذا الاقحام السطحي كان سيئا في نتائجه ، لانه جهل ان الفكر العربي الاسلامي يحوي بين طياته نظريات ومبادئ ابعده عمقا واغزر معنى واغنى فكرا ، وتحت اسماء عربية اسلامية تحمل بين دفتها روح الفكر العربي الاسلامي ، وتقاليده بيئته العربية الاسلامية . وغنى عن المعرفة ان كلمة الديمقراطية الحقيقية تعود تسميتها الى العالم الاوربي ، وهي تتألف من (ديمو) (دكراس) : اي حكم الشعب . انها نشأت في اليونان ومن ثم انتشرت

(١) محمد المبارك : الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٥١ .

في اوربا وخاصة اوربا الغربية • فالتسمية اذن اجنبية ، ثم ان معانيها تعكس قيم الحياة اليونانية والغربية • كما ان الديمقراطية بصورتها المباشرة تعكس بوجه خاص الحياة اليونانية القديمة ، وانها لم تقم عفوا وانما نمت تحت شروط وجو معين •

ان ما يعنينا ليس التسميات بقدر ما يعنينا ان الديمقراطية التي نقلت الى المنطقة العربية انما طبقت تطبيقا مغلوطا • انها طبقت في جو غير مماثل لجوها ، انها طبقت في مجتمع يثن من الجهل والتسلط والمصالح •• وهذا جو ليس فقط انه غير ملائم لظروفه ، وانما هو غريب ومختلف بتقاليده ونظراته وشخصيته • فلقد كان اجدى كثيرا للعرب المستغربين معرفة انفسهم (قيمهم ونظرياتهم وافكارهم الغنية) قبل ان يقلدوا غيرهم • فلقد غاب عليهم ان النهضة الفكرية الحقيقية تبدأ بالافكار الاصيلية التي جاءت بها ثقافتهم وحضارتهم ، وان التفتح على الغير ، لا يتم بالتقليد السطحي ، وانما هو يتم بالشكل الذي لا يتعرض مع قيم بيئتهم التي ترفض التسلط الذي جاء اليهم في نوب وفكر وديمقراطية مقنعة^(١) •

ثانيا - الترابط ما بين السياسة والاخلاق :

لتفهم هذه السمة المميزة في الفكر العربي الاسلامي ، من الضروري الوقوف على جوهر الثقافة العربية وكنه الرسالة الاسلامية •

ان النظرة الدقيقة الى كل من الثقافة العربية والرسالة الاسلامية التي جاءت صورة فضلى لها لا تستطيع ان تغفل عن الوقوف على حقيقة مهمة ، الا وهي ان الاساس الذي ارتكز عليه كل منهما هو اساس خلقي قبل اى شئ آخر • وهذه الحقيقة تبدو اكثر وضوحا حينما نقف على ما احتوته الثقافة العربية والرسالة الاسلامية من قيم خلقية ، كالوفاء بالوعد والأنفة والصراحة وكرامة الانسان • ويزداد هذا الوضوح خاصة بالوقوف على ما ابتدأت عليه وانتهت اليه الرسالة

(١) ان الشكل الذي لا يتعارض مع افكار البيئة المعينة ، هو الشكل الذي ينسجم وافكار تلك البيئة ، والاهم من ذلك انه يجب ان يتم بصورة ذاتية لا قسرية •

الإسلامية • « ذلك ان صاحب الرسالة وهو النبي العربي ، امر اول ما امر ان يهدي الناس الى التي هي اقوم • واول ما يدخل ضمن هذا المعنى هو بناء مجتمع خلقي فاضل • وقد كان الرسول القائد خير من اؤتمن على قيادته ورسالته • فكان اول خطاب له الى الناس قوله « انما بعثت لاتيتم مكارم الاخلاق » • والذي يتبين من هذا القول ان المجتمع الذي جاء لقيادته هو مجتمع يضم في جوانبه قيما خلقية ، الا ان تلك القيم تحتاج الى رص قوي • ومن هنا وضع الرسول هدفه الاعلى الذي كان يصبو اليه ، وهو توكيد اهمية القيم الخلقية في المجتمع العربي وبراها ووضعها في المكان اللائق بها كي يكون له القدرة على تحمل مسؤولية نشر الرسالة وتعميمها بين جميع بني الانسان • حتى اذا ما انتهى صاحب الرسالة من اكمال رسالته ، كان الجواب الذي استلمه هو « وانك لعلي خلق عظيم » • والسؤال الذي لا يزال يتطلب الاجابة بعد هذا العرض السريع لطبيعة الثقافة العربية ولطبيعة الرسالة الاسلامية الخلقية ، هو ما المقصود في الترابط ما بين السياسة والاخلاق ؟ وهنا فان بالامكان القول انه اذا كانت القيم التي يستند اليها الفكر العربي الاسلامي ، هي قيم خلقية ، فن معنى ذلك انها قيم تدخل في كل جانب من جوانب حياة الانسان ، وان من بين هذه الجوانب هو الجانب السياسي • والان يأتي السؤال نفسه : كيف يتم هذا الارتباط بين السياسة والاخلاق ؟ ويوضع السؤال بصيغة اخرى ما هي القواعد التي تعمل على ربط السياسة بالاخلاق ؟ ان اول هذه القواعد ، ونحن نجيب على السؤال هي تلك القاعدة العليا التي تقول « ان لكل عمل سياسي مقياس خلقي » (١) • وبعبارة ادق ، ان العمل السياسي لكي ينجح في البيئة العربية الاسلامية ، فانه لابد له ان يفي بشروط كثيرة ، وان اول هذه الشروط هو الشرط الاخلاقي • وهذا الشرط في الحقيقة لم يكن ليبدأ بالرسالة الاسلامية • فهو يمتد الى الاصول العربية بالذات والى اقدم الفترات التي نشأ وتكون فيها المجتمع في الجزيرة العربية •

(١) الرئيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٣٨ •

ومما يؤيد ذلك اننا حين نأخذ نماذج من هذه الاصول ، نجد ان التأكيد على الجانب الخلقي في المجتمع العربي القديم امر واضح . لناخذ مثلا الوفاء بالوعد ، فماذا نجد فيه . اننا نجد انه سمة اساسية من سمات الثقافة العربية . ان مضمون هذه السمة الاساسية يستقر على قاعدة خلقية ليس فقط في العمل الاجتماعي وانما في العمل السياسي ايضا . ذلك ان الثقافة العربية في اصولها لا تقبل للشيخ ان يكذب . واذا ما وعد واخلف فانها لا تستطيع ان تسامحه ، لان القيم العربية تعد من يخلف في وعده من ذوي الاخلاق الواهنة . انه يعد في نظر القيم العربية شيخ غير صالح لقيادة قبيلته . ومن الامثلة ايضا ، على هذه الاصول الصراحة . فالصراحة في حقيقتها تعكس بساطة المجتمع العربي البسيط غير المعقد ، الذي يجعل من ابائه ان يسلكوا سلوكا يتجاوز وتلك البساطة ، سلوكا يتسم بالاستقامة والصراحة . فاذا ما انحاز اي فرد عن هذا الطريق فانه يترجم بانه فرد منافق غير مرغوب فيه . والذي يبدو هو ان مثل هذه القيم هي قيم اخلاقية دون شك .

واذا ما سرنا في هذه الاصول ودخلنا الى مفاهيم الرسالة الاسلامية ، فماذا نجد فيها^(١) . اننا نجد اول ما نجد ان الرسالة تطلب من المؤمن بها ان يكون له ضمير وان يكون هذا الضمير حيا . وان من اولى واجبات هذا الضمير هي مراقبة الانسان في اعماله وسلوكه^(٢) . وقدما قالت العرب « ارسل حكيمًا ولا توصه » . ان المعاني البعيدة لهذه الكلمات هي ان الرجل الحكيم المتفهم للحياة تفهما صحيحا يعتبر اول ما يعتبر ان اعماله هو محاسب عليها، وان اول من يراقبه على ذلك هو ضميره

(١) يلخص الاستاذ ناجي معروف الاساس الذي تنطلق منه المفاهيم الاسلامية الاخلاقية بقوله « ان الاسلام ثورة على الرذائل ، ودعوة الى نبذ الباطل ، والتمسك بمكارم الاخلاق ، والتعاون على البر والتقوى » . انظر كتابه اصالة الحضارة العربية ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩٢ .

(٢) انظر محمد قطب : « الانسان بين المادية والاسلام » ، دار احياء الكتب العربية ، دمشق ، ١٩٦٠ ، ص ١١٨ .

الحي • وان حكمته تضي عليه بعد نظره ، فتجمله يرى الاشياء بوحي من
المسؤولية وعندها يسلك السلوك المطلوب • ولعل ذلك هو السبب في توصية
العرب من ان الحكيم الذي يرسل الى الغير فانه بغير حاجة الى التعليمات لانه يعلم
ماذا يقول وماذا يعمل •

ثم ان الرسالة تطلب من المؤمن بها تانيا ، انه اذا ما قام بعمل ، وليكن ذلك
العمل سياسيا ، فان وجهة ذلك العمل يجب ان تكون نحو الخير ، وان الوصول
الى الخير لا يمكن ان يتم الا بالعمل الخير وبالعامل الشريف • وحينما خرجت
السياسة عن هذا الاتجاه الخير وسارت في طريق الفساد في بعض العهود وجدنا
ان شيخا كبيرا من دعاة الاصلاح وهو الشيخ محمد عبده جاء ليعبر عن استيائه
واستياء ابناء عصره ، بسبب انحرافها عن الطريق المرغوب فيه في القيم العربية
الاسلامية وليقول ، « ما دخلت السياسة امرا الا وافدته » •

وليس ما تقدم حسب ، وانما تقول القيم الفكرية العربية الاسلامية عن طريق
الرسالة ، ان الوسيلة يجب ان تكون من جنس الغاية • ذلك انه اذا كانت الغاية
شريفة فليس هناك الا طريقا واحدا لوسيلتها • وذلك الطريق هو ان تكون هي
شريفة ايضا •

واذا ما حاولنا بعد هذا التحليل ان نجرى مقارنة هذا الفكر مع الفكر
الغربي من هذه الزاوية ، نجد ان الفكر الغربي منذ بداية نشأته وحتى نهاية
القرن الخامس عشر كان كالفكر العربي الاسلامي يقوم على الترابط ما بين
الاخلاق والسياسة • وبرز من اظهر هذا الجانب هم اليونانيون الذين اكد كبار
فلاسفتهم امثال افلاطون وارسطو على خلقية السياسة • الا ان هذه الاخلاقية
في السياسة توارت بمجيء ماكيافلي الذي ، وكما مر معنا ، جاء بفلسفة جديدة
كان لها الشأن الكبير في تغيير وجهة الفكر الغربي توجيها جديدا يرى ان ليس
هناك علاقة بين سلوك الافراد والدول ، وانه لمن الخطأ المزج بينهما • ذلك ان ما
قد يعتبر لا اخلاقيا بالنسبة لسلوك الافراد قد لا يكون كذلك بالنسبة للدول ،
لان اساس عمل الدول ينبع من مصالحها ، وانها قد تسلك سلوكا مختلفا لتحقيق

غاياتها ومصالحها . ومن هنا نجد ان هذا الاتجاه قد اوجد له تبرير ، وهو ان الوسيلة ليس من الضروري ان تكون من جانس الغاية . فتحقيق مصلحة الدولة التي هي غاية شريفة بنظر هذا الاتجاه ، ليس من الضروري ان يقوم دوما على وسائل شريفة . وعن طريق هذا التبرير ظهرت النظرية الاستعلائية القومية الاوربية وظهر معها الاستعمار والامبريالية . وما اسرائيل الا نموذج من نماذج الاستعمار الصهيوني الغربي . فاسرائيل هدفها الانتصار على العرب والسيطرة على اراضيهم وابعاد اصحاب الارض عن حقوقهم ولا يهمها ان تسرق وان تتش ، اذ ان الاساس ليس الوسيلة ، وانما الهدف الذي يجب الوصول اليه بكل وسيلة (١) .

وهكذا يتبين لنا مما تقدم ان اخلاقية السياسة سمة مهمة من سمات الفكر العربي الاسلامي .

ثالثا - فلسفة الحكم المقيد :

هناك امران ربما من الضروري القاء بعض الضوء عليهما من قبل الدخول في تفاصيل فلسفة الحكم المقيد التي هي سمة اخرى من سمات الفكر العربي الاسلامي . ويتمثل الامر الاول بفلسفة الحكم وماذا تعني ، اما الامر الثاني فانه يتمثل بفلسفة الحكم المقيد وماذا تعني . ويمكن القول بهذا الشأن ان لكل امة تاريخ فكري ، وان هذا التاريخ يتكون عبر الزمن الطويل ، وانه يقوم على قيم تختلف من امة لامة . وما فلسفة الحكم الا جانب من جوانب الفكر ونظريته بالذات . وبعبارة ادق ، ان فلسفة الحكم توضح الاتجاه السياسي للفكر المعين . اما بالنسبة لمصطلح الحكم المقيد ، فانه ينبع من مفهوم التقييد والتحديد للعلاقة

(١) من نماذج الاتجاه الماكيفلي الغربي الذي تطبقه اسرائيل اليوم في البلدان العربية سرقتها الزوارق الخمس التي حظرتها عنها فرنسا . وكذلك سرقتها تصاميم طائرات الميراج من سويسرا . ان ما يلفت النظر هو ان الدول الغربية التي حصل داخل ارضيا مثل هذه الوسائل لم يؤد ما قامت به اسرائيل الى تغيير علاقاتها الودية - سيما سويسرا - معها كالعلاقات الدبلوماسية والعلاقات الاقتصادية وغيرها مما يدل على ان المصالح هي الغالبة .

بين الحاكم والمحكوم • اى ان هناك قيود توضع على نظرية او فلسفة الحكم فوجهه هذا الاتجاه او ذلك •

ولدراسة فلسفة الحكم المقيد في الفكر السياسي العربي الاسلامي لابد لنا من الوقوف على تصنيف عام وشامل للنظريات السياسية التي ظهرت عبر التاريخ • واية محاولة لتصنيف نظريات الحكم في العالم لا يمكن لها ان تخرج عن صنفين كبيرين ومتمايزين • فالصنف الاول هو صنف الحكم القائم على الاكراه والسيطرة من قبل الحاكمين على المحكومين • اما الصنف الثاني فهو صنف الحكم الذي يقوم على الاقناع • اى ان العلاقة فيه بين الحاكم والمحكوم تقوم على الاقناع وليس على الاكراه • واسلوب الاقناع هذا قد ادى بعض المفكرين ان يسموا نظرياتهم التي تدخل ضمن هذا الصنف بالنظريات القائمة على الحرية ، بعكس النظريات الاخرى ، التي يطلقون عليها بالنظريات القائمة على الديكتاتورية •

فبعد هذا العرض السريع ، يأتي السؤال وهو الى اين تنتمي فلسفة الحكم في الفكر السياسي العربي الاسلامي؟ والجواب ان فلسفة الحكم العربية الاسلامية تقوم على التقييد او الحكم المقيد • والدليل على ذلك :

اولا - ان الحكم في هذا الفكر مقيد بوجه عام بقانون الشريعة الاسلامية^(١) وباركانها بالذات والتي هي القرآن الكريم والحديث والقياس والاجماع • فالشريعة الاسلامية تقوم اساسا على حرية الفكر وعلى تقييد الراعي امام الرعية • فبينما نجد ان الشريعة تقول « وشاورهم في الامر » فانها في مكان آخر تقول لمن يختلف معها ، ولصاحب الرسالة بالذات ، « وجادلهم بالتي هي احسن » ولا تكفي الشريعة بما تقدم ، وانما تضع قيودا خلقيا عاما يقول « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور » • وهذا القيد الخلقي للعمل السياسي يخضع له الراعي والرعية في آن واحد • وهذه تتمثل في ان العطرسة والتكبر من قبل الراعي تجعل من العلاقة مع الرعية علاقة غير

(١) انظر : النظريات السياسية الاسلامية ، للريس ، ص ٣٣٩ •

حقيقية : علاقة تجعل من الرعية خائفين ومنافقين ومنافسين ومتغطرين وهو ما ترفضه كل الرفض . فاذا ما اصر المتغطرس على غطرسته ، والمنافق على نفاقه ، عندها لا يترك امر كل منهما على حاله وانما يحال الامر للحساب الدقيق ، وهنا تأتي الشريعة لقول في دستورها « ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . والذي يستخلص من كل ما تقدم ، هو ان حكما عربيا اسلاميا ينطلق من الحرية ، ولكن هذه الحرية منظمة بقيود اخلاقية يعم خيرها على كل من الراعي والرعية . وان الخروج عليها لا بد وان يؤدي الى الحساب كما يؤدي الامثال بها الى المكافاة ، حتى ولو كان وزن الاعمال يقدر « بمثقال ذرة » .

ثانيا - ان الحكم بوجه خاص مقيد بقانون اعلى وهو الدستور الاسلامي المتمثل بالقرآن الكريم . وسبيل الحكم في هذا الدستور هو سبيل مقيد بالعدل ، ويبدو هذا التقييد واضحا بالركون الى القاعدة الدستورية العليا والتي تقول « وإذا حكمتم بين الناس ن تحكموا بالعدل »^(١) . وهذه قاعدة اساسية في فلسفة الحكم العربي الاسلامي التي تنطلق منها كل القواعد الفرعية الاخرى . والذي يمكن تبيانه هنا هو ان هذه القاعدة قد قيدت الحكم ووجهته توجيهها واضحا وهو العدل . بمعنى ان اى خروج للحكم نحو طريق التعسف والظلم يبعده عن سمته العربية الاسلامية التي خطتها الرسالة الاسلامية وحدد اطارها العلم الفكر العربي الاسلامي .

ثالثا - ان الحكم الذي نحن بصدده مقيد بتقاليد الثقافة والحضارة العربية الاسلامية . ويكفي ان نشير هنا الى احدى هذه القيود كنموذج من نماذج القيود المفروضة على نظرية الحكم العربي الاسلامي . من ذلك مثلا نزوع ابن الثقافة العربية الى الصراحة . وتمثل هذه الصراحة في انها تكاد تغطي على حياته الخاصة منها والعام . وهذه الصراحة في الحياة العامة التي تكونت عبر الزمن واصبحت من تقاليد الثقافة العربية ولا تزال ، قد تحطت الحدود غير الرسمية بحيث دخلت حياة الفرد الرسمية ايضا ، سيما الحياة السياسية منها . ولعل من

(١) النساء : ٥٨ .

خير الامثلة التي يمكن ان تورد في هذا المقام خطاب الاعرابي الموجه الى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) حين علق على قول الخليفة « فان رأيتم في اعوجاجا فقوموني » بقوله « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » . ومثل هذا القول لرئيس دولة وقائد امة لا يمكن ان بوصف بالنسبة للدارس لسماة الثقافة العربية الا بالصراحة المتناهية المعبرة عن الثقة بالنفس من قبل الاعرابي ، وبصراحة رئيس الدولة تجاه رعيته بطلبه منهم تقويم اعوجاجه ، ناهيك عما تحويه من تواضع جم .

وما يمكن ان يروى في هذا المقام ايضا ، ما بدا على الفاتحين العرب من دهشة بعد فتح بلاد الفرس ، حين قال احد رسلهم الى قائد الفرس « اننا تعودنا ان تسمي قوادنا باسمائهم فنناديهم يا عمر ويا علي لا كما تنادون اتم قوادكم » . وهكذا يتبين في الخلاصة ان فلسفة الحكم هي فلسفة مقيدة بقيود معنوية ومادية تنبثق من قاعدة ثقافية عريضة وتوج بالقيم الاسلامية الانسانية .

رابعا - الفكر العربي الاسلامي فكر مرن وليس بفكر متصلب :

تعتبر سمة المرونة في الفكر ، بالاضافة الى ما تقدم ، سمة من سمات الفكر العربي الاسلامي . ومعنى ذلك ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر غير متصلب . فما هو الفكر المتصلب ، وما هو الفكر المرن اولا ؟ ان الفكر المتصلب يتميز في انه ذلك الفكر الذي يعيش في الماضي . ويوصف ايضا بانه فكر محافظ . ومعنى ذلك انه يتمسك باتجاهاته في الماضي . ولقد ظهرت تنظيمات سياسية تابعة من هذه الفكرة . ومن اشهر هذه التنظيمات السياسية التي تعبر عن الفكر المحافظ حزب المحافظين البريطاني الذي ظل ومازال يعتقد ان النظام السياسي والاقتصادي البريطاني الناجح هو ذلك النظام الذي ينطلق من نشاط الفرد على المدى الواسع ، ومن تحديد دور الدولة في المجتمع . والذي يتبين من هذا ان الفكر المحافظ يريد الحفاظ على افكار الماضي . وهذا يعني انه يرجع الى الوراء في تقسيمه للامور ، وهذا ما دعا بعض المفكرين بتسميته بالفكر الرجعي .

وهذه الظاهرة ، ظاهرة المحافظة على تراث الماضي ، والميل الى الرجوع اليه في تقييم الاشياء تشكل ميزة مهمة من ميزات الفكر المتصلب . أما الظاهرة الثانية في الفكر المتصلب ، فهي ان مقاييسه لا تقبل التطور المطلوب . ومعنى ذلك انه لا يسير مع تطور الحياة ، وانما يتخلف عنها ، اى انه اذا ما سار فانه يسير ببطىء شديد بحيث تظل المسافة ما بين سرعة التطور وسرعته قائمة . ويبدو هذا الفكر في ظاهرتيه الثابته انه يقاوم الافكار الجديدة . وتظهر هذه المقاومة في تصديه للافكار الجديدة وتقديم الحجج في عدم صلاحها ، لخلوها من التجربة الطويلة التي يملكها هو .

وإذا ما قارنا ما تقدم من ميزات للفكر المتصلب مع الفكر المرن ، نجد ان الاخير ، يتميز اول ما يتميز بانه فكر لا يعيش في الماضي وانما يعيش في الحاضر . وبالإضافة فان مقاييس الفكر المرن تقبل التطور . اى انه يتقبل كل الافكار الجديدة التي تجعل منه اكثر انسجاما وصلاحا مع المجتمع المتطور . واخيرا ، فان الفكر المرن ، هو فكر عملي . ذلك لانه يتخذ من الواقع الذى يعيش فيه اساسا لتطوير افكاره . والاكثر من ذلك ان نظرتيه المرنة تساعده على التطلع الى المستقبل . معنى ذلك انه يؤمن ان تغير الظروف سيعمل على تغير الواقع (١) الامر الذى يجعله اكثر ايجابية ، واكثر تفاؤلا بالمستقبل .

والسؤال الآن ، الى اى من هذين النوعين ، ينتمي الفكر العربي الاسلامي والفكر السياسي منه على وجه الخصوص ؟ وهنا نستطيع ان نقول مقدما انه ينتمي الى الفكر المرن . وللبهنة على مرونته نقول :

(١) ان علاقة الانسان بالحياة وبظروفها المتغيرة تتمثل بنظر الفكر المرن

في :

- أ - ان الانسان يتغير بتغير حياته وبتوسع مداركه . وهذا التغيير يخلق ظروفًا جديدة مما يستوجب النظر اليها نظرة جديدة .
- ب - ان مقاييس الحياة والحياة السياسية بالذات يجب ان تأخذ بنظر الاعتبار هذا التغير في الإدراك : اى ان المقاييس لايسد وان تنسجم مع تغير الظروف .

اولا - ان الشريعة الاسلامية التي تشكل الهيكل العظمي بالنسبة للفكر العربي الاسلامي هي شريعة تقبل بالتطور . فالذي يقف على طبيعتها يجد ان ما جاءت به من مبادئ عامة ومبادئ سياسية خاصة تتناول في الاغلب الاعم الخطوط العريضة ومن دون ان تدخل في التفاصيل الجزئية الدقيقة^(١) . فالقرآن الكريم مثلا لم يضع شروطا تفصيلية دقيقة بالنسبة للخلافة ، وانما اكتفى بوضع قاعدة عامة وهي ان الاستخلاف يتم بالشورى ، تاركا كل تفصيل دقيق للاجتهاد . وهذا بحد ذاته يجعل من مبادئها وافكارها مرنة وليست متصلبة .

ثانيا - ان وجود المدارس الفكرية ذات الاتجاهات والمذاهب المختلفة لدليل على ان هذا الفكر لا يقوم على الحرية وحسب وانما هو دليل على مرونته ايضا .

ثالثا - ان من مقومات الفكر العربي الاسلامي هو انه فكر يقوم على قاعدة الاجتهاد . وقاعدة الاجتهاد هذه تساعد المفكر او المجتهد في ان يصل من خلال تعمقه ودراسته لتاريخ الافكار والمبادئ الى استنباط قاعدة جديدة تنفرد عن غيرها في حججها واسلوبها . وهذه السمة التي سبقت ما عرف في الفكر الغربي بسوابق تجعل من الفكر العربي فكرا مرنا .

رابعا - ان مقومات الفكر العربي الاسلامي ، بالاضافة هو انه فكر يعتمد على الواقع العلمي والعملية . ويتمثل هذا الواقع العلمي والعملية في ان اساليب البحث فيه لا تتخذ طريقا ومسلكا واحدا ، وانما تعتمد على مناقشة ما هو متوفر فعلا من آراء علمية مختلفة ، وذلك بغية الوصول الى الرأي الأكثر ارجحية الذي يمثل رأي اغلبية علماء العصر . ومثل هذه النزعة العلمية في اهدافها واساليبها لا شك انها من خصائص الفكر المرن .

والذي يمكن استنتاجه من كل ما تقدم ، ان الفكر العربي الاسلامي يفتح الباب امام كل الافكار الجديدة التي لا تحدث خلافا في كيانه . وهذا الباب

(١) انظر عبدالكريم الخطيب : الخلافة والامامة ، دار الفكر العربي ،

١٩٦٣ ، ص ١٦٠ .

المفتوح يمكن اعتباره من الاسباب الاساسية في استمراره ودوام شريان الحياة فيه • ولو لم يكن كذلك لانهى امره منذ زمن بعيد •

ان اي عرض سريع لانواع التحديات التي جوبه بها الفكر العربي الاسلامي ، لا يمكن الا وان يؤدي في الخلاصة ، الى القول ان التحديات التي ظهرت في صور مختلفة كتحديات اليهود في عصر الرسول وتحديات الشعوبية في العصور الاموية والعباسية ، وتحديات الصليبيين والمغول والاستعمار الحديث من بعدها ، لم تستطع كلها من القضاء عليه ، ليس فقط بسبب ما يتميز به من مرونة وانما ما يحويه من حيوية وافكر صالحة لاكثر من عصر معين •

خامسا - النظرة الكلية الى السياسة والنظرة الحضارية الى الدولة :

والنظرة الكلية الى السياسة والنظرة الحضارية الى الدولة ، وهي السمة المميزة الاخرى للفكر العربي الاسلامي ، ترى ان السياسة في مفهوم هذا الفكر هي جزء من كل متكامل ، تتفاعل فيه الاجزاء فتؤثر وتتأثر • وبعبارة اوضح ان السياسة ومفاهيمها لا تنشأ من عدم وانما تتأثر بالاوضاع الدينية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية • كما هي من ناحية اخرى لها دورها المعلوم الذي يزداد ويقل تبعاً للظروف التي يمر بها المجتمع • ومن هنا يمكن القول ان الفكر السياسي العربي الاسلامي يتميز بنظرته الكلية الى السياسة ، تلك النظرة التي تفهم السياسة من خلال تفهمها للحياة عامة • وهو بهذا يختلف على اي فكر يفصل ما بين نواحي الحياة المختلفة •

ومن هنا يمكن تفسير العلاقة بين الدولة والحضارة • ذلك ان هناك في الفكر العربي الاسلامي تلازم قوى بين الدولة والحضارة • فالدولة لها رسالة حضارية^(١) • وهذه الرسالة الحضارية تتمثل في ان على الدولة ان تلعب دورها المرموق في تجسيد ما يحتضنه الفكر والحضارة من قيم ومفاهيم • ومن هنا

(١) انظر الاستاذ ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية ، ط ٢ ، مطبعة التضامن ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ص ١٧١-١٧٢ •

يصبح الانجاز الحضاري في ظل مفهوم الفكر العربي الاسلامي ان هو الا انعكاس لمستوى الدولة . فاذا كانت الدولة في المستوى الذي يريده لها هذا الفكر فلا بد ان تعمل في الداخل على احلال الامن والاستقرار وحفظ حقوق وكرامة الانسان ، وبالتالي خلق الجو المناسب لتحقيق التقدم الفكري والحضاري بالذات . وهذه النواحي الداخلية في حياة الدولة هي نواحي مترابطة كل الترابط مع بعضها . ذلك ان امن الدولة له صلة بادارتها ، وان استقرارها له علاقة بسياستها ، ثم ان حفظ كرامة الناس واحلال المساواة بينهم كلها اشياء مترابطة لتقدم الفكر والحياة بوجه عام ، وفي كل هذه الامور يكون للدولة الدور الكبير . واذا كان هذا يخص دور الدولة في الداخل ، فان دورها في العلاقات التي تنشؤها في الخارج ما هو الا انعكاس لوضعها في الداخل . فالعلاقات الخارجية تزدهر حين تكون صحة الجسم السياسي في داخل الدولة جيدة وقوية . والدولة التي لا تملك الصحة الجيدة لا تستطيع ان تحقق اية رسالة هادفة في علاقاتها مع الخارج .

ومن هنا ايضا كانت الدولة في نظر الفكر السياسي مصنفة الى صنفين كبيرين :

الصنف الاول . وهو صنف الدولة البدائية ، وهي التي لاتتوفر فيها العدالة . كما لا تتوفر فيها شروط التقدم التي تعتبر الاساس للرفعي الحضاري .
الصنف الثاني . وهو صنف الدولة الحضارية وهي التي تحمل رسالة تهدف الى تحقيق التقدم الحضاري .

والفكر العربي الاسلامي يطلب من دولته ان تكون دولة حضارية . فلقد اتخذ من الدولة الاداة الفعالة التي تعمل على تطوير المجتمع واحلال التقدم فيه ، وعلى خلق الجو الملائم الذي يتناسب ومستوى الرسالة الاسلامية . هذا وان العبرة في هذا الفكر هي ان الدولة متى ماتخلت عن رسالتها الحضارية فانها تنزل الى مستوى الدولة البدائية ، الامر الذي يعدها عن الهدف الذي يسعى الى تحقيقه الفكر العربي الاسلامي . والعبرة ايضا ان الدولة والحضارة

تسيران جنباً الى جنب ، فكلما قامت الدولة من جانبها بواجباتها في احلال الحق والعدل في جميع الميادين من حياة المجتمع ، كلما طال عمرها واتسعت حياتها بالحيوية والقوة . اما اذا اخفقت في تحقيق هذه الامور في المجتمع فمعنى ذلك ان حياتها اتسعت بالضعف والوهن ، وانها تعمل على تقصير عمرها .

والشيء المهم الذي يؤكد عليه الفكر العربي الاسلامي هو ان الحق والعدل والفضيلة لا يجوز لها ان تسود في داخل مجتمعها ويحرم منها بني الانسان في الخارج . وهذا يعني ان الرسالة لم تأت لاسعاد الانسان الذي ينتمي الى حضارتها ، وانما اتت لاسعاد كل بني الانسان . ومن هنا تصبح مسؤولية الدولة العربية الاسلامية مسؤولية مضاعفة : الاولى تعميم الحق واخير العدل بين ابنائها والثانية تعميم نفس هذه المثل على جميع بني الانسان ، وعندما تكون الدولة العربية الاسلامية قد حققت رسالتها الحضارية والانسانية .

سادسا - العدالة الوسيطة والخير العام الغاية :

ويشكل الخير العام الهدف الاعلى بالنسبة لمفهوم الفكر العربي الاسلامي^(١) . وهذا المصطلح، مصطلح تحقيق الخير العام يقابله في المفاهيم الفكرية الحديثة تحقيق ما يطلق عليه بالرفاهية . والدولة التي تتولى مثل هذه المهمة وتتمكن من الاخذ بيد مواطنيها الى مستوى الرفاهية هي دولة يطلق عليها بدولة الرفاهية . ودولة الرفاهية هذه التي يتحدث عنها مفكرو القرن العشرين لم تكن بالدولة الغربية على مفاهيم الفكر العربي الاسلامي . كما لم يكن بالغريب على مفاهيم هذا الفكر ما نهر من قبل ، من افكار ومذاهب جاء بها مفكرون غربيون كمذهب المنفعة مثلا الذي تحدث عنه المفكر الغربي بنتام . فالمنفعة والنفع العام الذي اراد بنتام^(٢) نشره هو الخير العام الذي جاء به الفكر العربي الاسلامي . فلقد رسم الدستور الاسلامي المتمثل بالقرآن الكريم الهدف الاعلى الذي يجب ان يوجه اليه

(١) انظر محمد اسد : منهاج الاسلام في الحكم (تعريب منصور محمد ماضي) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٧٠ .
(٢) انظر التفاصيل في :

W.T. Jones: Masters of Political Thought, pp. 368-383.

المجتمع بقوله « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . واي تحليل دقيق لهذا المبدأ لا يمكن له ان يخرج عن ذلك الهدف الاعلى المتمثل بتحقيق الخير العام للمجتمع . ومن هنا نفهم ان وجهة السياسة التي ارادتها الرسالة الاسلامية هي تلك الوجهة الهادفة لتحقيق الخير العام . اما الوصول الى هذا الخير العام ، فانه يتحدد بطريق ومقياس معين ، وذلك هو طريق العدالة . وبعبارة اخرى ان الطريق للوصول نحو خير المجتمع السياسي العام هو ذلك الطريق الذي يقوم على العدالة بين الناس جميعا .

هذا وان العبرة في العدالة قيد البحث ليس الاقوال وانما العدالة في التطبيق . وان المسؤول الاول عن تطبيقها ليس فرد واحد او جماعة واحدة ، وانما المسؤول هو كل الافراد وكل الجماعات . ومصداق ذلك ما أكد عليه صاحب الرسالة الاسلامية الرسول القائد حين قال « كلکم راع وكلکم مسؤول عن رعيته » . والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن للفرد والجماعة من تحمل لا بل تحقيق مثل هذه المسؤولية ؟ والجواب الدقيق على ذلك هو الوازع الذاتي الذي يتغلغل في اعماق النفس البشرية . ومثل هذا الوازع لا يتكون عند الانسان بسهولة ، وانما يجب عليه من قبل ذلك ان يدخل في امتحان تحمل مثل هذه المسؤولية . ويتضمن هذا الامتحان قواعد رئيسية ثلاثة :

القاعدة الاولى وهي التي تنطلق من ان الانسان الذي يرجى له العيش في مجتمع الخير ، فانه لا بد له ان يؤمن بمبادئه وعقيدته ايمانا حقيقيا . وهذا الايمان الحقيقي هو غير الايمان الكاذب . فبينما الايمان الحقيقي يتفق ظاهره مع باطنه ، فان الايمان الكاذب هو ذلك الايمان الذي يظهر ظاهره شيئا ويخفي باطنه شيئا آخر .

اما القاعدة الثانية، فلها تتمثل في ان الايمان الحقيقي بالفكرة وحده، هو الذي يدفع الانسان الى التضحية والى التضحية الحقيقية بالذات . وهذا النوع من التضحية هي تضحية تنبع بكل صدق من دوائر النفس البشرية ، وهو يختلف عن التضحية الكاذبة التي تتمثل فيها التضحية على الظاهر وليس على الباطن .

والشيء الحقيقي بالنسبة للايمان الحقيقي والتضحية الحقيقية هي انها ،
تصبح واجبة حينما تكون الفكرة المعينة فكرة انسانية سامية •

ولقد كانت المبادئ والافكار التي جاءت بها الرسالة والفكر والحضارة
العربية الاسلامية تمثل المبادئ الانسانية اصدق تمثيل • وهذا ما دفع الرواد الاوائل
الى الايمان الحقيقي بمبادئهم والى التضحية الحقيقية من اجلها ، ف ضربوا بذلك
مثلا اعلى في التضحية من اجل المبدأ والعقيدة والفكرة • وهذا هو السر الذي
دفع هؤلاء الرواد الاوائل العرب المسلمون الى الايمان بالجهاد وبالاستشهاد ، الذي
يمثل اعلى صورة من صور الجهاد ، والذي تستمرخص فيه النفس • كما ان هذا
هو السر الذي ادى بالمبادئ الى الانتشار في سائر انحاء العالم : ذلك ان الفكرة
الانسانية تحمل عوامل جذبها ونجاحها بنفسها •

واذا ما حاولنا ان نجري مقارنة ما بين الافكار والمبادئ العربية الاسلامية
وما بين غيرها من المبادئ والافكار التي ظهرت عبر التاريخ الانساني ، نجد ان
الافكار والمفاهيم النازية التي انتشرت في المانيا ايام هتلر سرعان ما نبذتها الاغلبية
الساحقة من الالمان بعد زوال هتلر • والاكثر من ذلك ان الالمان اخذوا يسمون
انفسهم بالديمقراطيين والاشتراكيين • وان دل هذا على شيء فانما يدل على عدم
تغلغل تلك المفاهيم تغلغلا حقيقيا في نفوس الالمان • وربما كان الهم من ذلك
افتقارها الى المعاني الانسانية النبيلة التي لا تميز بين الانسان والانسان •

كما نجد ايضا ان المفاهيم الديمقراطية الغربية وان كانت قد جاءت بأفكار
تدعو الى الثورة ضد الطغيان والى الاعتزاز بالانسان كونه يولد حرا^(١) ، الا
ان هذه الافكار لم يستطع الغربيون من تعميمها على جميع بني الانسان بدليل انهم
مارسوا نقيضها في بقاع آسيا وافريقيا • وربما كان من اسباب ذلك عدم الايمان
الحقيقي بها ، اذ لو كان الامر كذلك لما سمح فكر الغرب نشر مبادئ الحرية

(١) جون لوك وجان جاك روسو •

جنباً الى جنب مع المبادئ الاستعمارية التي اقل ما يمكن القول عنها انها مبادئ تقوم على استعباد الانسان للانسان ، الامر الذي يبعدها من ان تكون مبادئ انسانية^(١) .

وهكذا يمكن القول في الخلاصة ان من المبادئ البارزة في الفكر العربي الاسلامي هي انه جاء بمبادئ هدفت الى نشر مفاهيم حقيقية في العدالة والمساواة ، يستطيع الانسان ، مهما كان نوعه ولونه ، من ان يعمل جنباً الى جنب في سبيل بلوغها ، ومن الوصول بالتالي الى تحقيق نفعه وخيره العام . ولو لم تكن هذه الافكار والمبادئ تنبع عن ايمان حقيقي لوجدنا ان الناس من بعد سقوط الدولة العربية والاسلامية وقد انفضوا من حولها . فلقد بقيت هذه الافكار قائمة وظل معتقوها يضحون من اجلها لزمان طويل . وما الحركات الاصلاحية الحديثة ، الا مظهر من مظاهر مقاومة ما جابهته المبادئ العربية من تحديات ، ومظهر من مظاهر استمرار الايمان المتغلغل في عروق ابنائها .

وان ما بدا من تأخر على الامة العربية في هذه العصور الحديثة لا يمكن ان يفسر الا بظاهرة من ظواهر فتور عزيمتهم في التضحية من اجل مبادئهم . وهذا ما يؤدي الى القول انه اذا ما اراد ابناء الحضارة العربية من ان يستعيدوا مركزهم العالمي المرموق ، فان طريقهم واملهم الوحيد هو بالرجوع الى الايمان الحقيقي بمبادئهم ، وبذلك ، وبذلك فقط يستطيعون من استرداد حقوقهم ومكانتهم في العالم .

وهكذا فان ما تقدم بحثه من سمات وخصائص لتجعل من الفكر العربي الاسلامي فكراً متميزاً .

(١) يورد الاستاذ محمد المبارك مثلاً على ما تقدم بقوله ان « نقص الحضارة الحديثة يبدو في ٠٠٠ ان دائرة تحقيقها لبعض اهدافها ضيقة ، فبينما نجد ان الحق في مجتمع معين كالمجتمع الانكليزي مثلاً ، يضمن الى حد كبير نجد الانكليزي نفسه ينتهك هذا الحق ولا يقره في مجتمع اخر ٠٠ » . انظر كتابه : الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، صص ٣١-٣٢ .

الفضيلة الشرعية

الاصول الفكرية

ما المقصود بالاصول ؟

يقصد بالاصول الفكرية ، النبايع التي استقى منها الفكر العربي الاسلامي افكاره وعليها بنى كيانه . ولما كانت هذه الدراسة تعنى بجانب معين من هذا الفكر وهو الجانب السياسي ، لذا فان التركيز سينصب على دراسة النبايع السياسية ، هذا مع عدم اغفال دراسة النبايع الاخرى ، وذلك تمشيا مع النظرة الكلية والحضارية التي يتميز بها الفكر والحضارة العربية الاسلامية .

ولدراسة الاصول الفكرية العربية الاسلامية دراسة علمية دقيقة فانه لا بد من الوقوف على تلك الاصول التي يمكن ان تسمى بالاصول الرئيسية وعلى تلك الاصول التي يمكن ان تسمى بالاصول الفرعية . كما لا بد لنا عند دراسة هذين النوعين من الاصول من الاخذ بنظر الاعتبار مسألة التاريخ واسبقية المجموعات البشرية التي اسهمت في بناء هذا الفكر منذ اول نشأته ، وكيف تفاعلت هذه المجموعات البشرية المختلفة مع غيرها ، وذلك بغية الوصول الى النظرة المتكاملة لهذا الكيان الفكري . كذلك فان من الضروري ملاحظة أي من هذه المجموعات والقوى التي صنعت لنا اللبنة الاولى من هذا الكيان ، والتي لعبت دورا رئيسيا ، وأي من المجموعات لعبت دورا ثانويا . وفوق كل ذلك فان دراسة هذه الاصول المختلفة لا بد وان تتم وفقا للحجج العلمية والوقائع التاريخية الخاصة بجوهر الفكر العربي الاسلامي والتي تشهد بدور كل مجموعة .

ومما تقدم يتضح للمعنى بدراسة الاصول، الوقوف على الحقيقتين الرئيسيتين

• التاليتين

١ - السبق التاريخي : والمقصود به الوقوف على المجموعة المعينة من المجموعات البشرية التي كانت قد سبقت غيرها تاريخيا في التفاعل مع الرسالة الاسلامية
اولا •

٢ - السبق الفكري : والمقصود به الوقوف على اي من المجموعات البشرية المعنية كانت افكارها المعبرة عن ثقافتها قد لعبت دورا رئيسيا وتركت اثارا عميقة ، واي منها كان قد لعب دورا ثانويا •

وبادىء ذى بدء ، وقبل الدخول في تفاصيل دراسة اصول الفكر العربي العربي الاسلامي ، نستطيع القول على ضوء ما تقدم ، ان ينبوع العربي بشكل ينبوع الاول في هذا البناء الفكري • وليس معنى ذلك ان العرب وحدهم هم الذين اشادوه باكملة • وعلى العكس فان العرب وان مدوا الفكر العربي الاسلامي بالينبوع الاول من حيث التاريخ والاهمية ، الا ان افكارهم قد تفتحت بمرور الزمن على الافكار التي جاء بها الساسانيون واليونانيون والبيزنطيون ، والذي تم في ظل المبادئ الانسانية الاسلامية التي سمحت بقيام مثل هذا الانفتاح • وفي ضوء ما تقدم فاننا سندرس هذه الاصول مبتدئين بالاصول العربية •

الاصول العربية :

يستمد الفكر السياسي العربي الاسلامي اصوله العربية من التقاليد والافكار السائدة في البيئة العربية • وهذه الاصول العربية يرتبط تاريخها بتاريخ الجزيرة العربية وبالموجات السامية المختلفة التي خرجت منها بالذم • والواقع ان الجزيرة العربية كانت مأهولة منذ اقدم الازمان باقوام سامية متشابهة • • وان تسمية الاقوام التي كانت تعيش في جزيرة العرب بالاقوام السامية ابتكرها المستشرق شلوزر سنة ١٧٨١ للميلاد استنادا الى الانساب الواردة في سفر التكوين وليس لها سند في تاريخ وعلم وآثار الجزيرة • والتسمية العميقة التي لها سند من كل ذلك ، هي « الاقوام العربية » • ذلك ان جزيرة العرب هي مقر هذه الاقوام التي تذكر باسم العروبة في كتب اليونان والرومان

القديمة ... وان اسم العرب الصريح اخذ يطلق على اهلها المستقرين في داخلها او على تخومها الشمالية جزئيا او كلياً منذ الفين وخمسمائة سنة . كذلك على ما تدل عليه النقوش الدستورية ونصوص اسفار « العهد القديم » (١) . وهذه الاقوام على الرغم من اختلافها في اللهجات كانت تتكلم اللغة العربية . واذن فان « اطلاق تعبير الاقوام العربية على سكان جزيرة العرب والبلاد المجاورة لها اصبح علميا وتاريخيا وواقعيا اكثر دقة من تعبير الاقوام السامية ، لانه يمتد في سنده الى حقبة سحيقة في اقدم ويتصل بالواقع الراهن » (٢) .

والجزيرة العربية في الازمان السحيقة كان حالها على غير ما اصبحت عليه في القرون التي سبقت الاسلام . « فقد كانت اقل جفافا واثل جديا . . ولم تكن بالشكل المدقع والنظام القبلي المعروف ، وانما كانت فيها مدن مزدهرة وحضارة يانعة (٣) . وتأتي في مقدمة الادلة على تقدم هذه الاقوام العربية القديمة ما حوته لغتهم العربية القديمة من ثروة لغوية واسعة « مما يدل على انها ليست لغة متأخرة وانما لغة قوم حضريين » (٤) . ولم يكن هذا الرأي خاص بالمفكرين العرب وانما أيدهم مفكرون من امم اخرى ومستشرقون من امثال غوستاف لوبون الذي رأى ان ما انجزه العرب من ابداع وحضارة لم يكن ليقوم بغته وانما لا بد وان يقف ورائهم تاريخ طويل وتدرج في سلم الرقي (٥) . وقد قال ما نصه : « كان للعرب . . لغة ناضجة وآداب راقية وكان العرب ذوي صلات تجارية بارقي امم العالم عالمين بما يتم خارج جزيرتهم ،

(١) انظر محمود الشرقاوي : المجتمع العربي ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠ . وانظر بشأن التفاصيل د . جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » والاستاذ عطية الابراش وزملاؤه في كتاب « الامم السامية ولغاتها » .

(٣) د . عبدالعزيز عزت : الايديولوجية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ،

ص ١٢٠ .

(٤) المصدر السابق . ص ١٢٠ .

(٥) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٦ .

فالعرب الذين هذا شأنهم كانوا ، لا ريب ، من ذوي القرائح التي لا تتم الا بتوالي الوراثة وبثقافة سابقة مستمرة ، والعرب الذين صقلت ادمغتهم على هذا الوجه استطاعوا ان يبدعوا حضارتهم الزاهرة بعد خروجهم من جزيرتهم في مدة قصيرة ،^(١) ثم قال « ان جهل الناس لهذا الماضي الطويل لا يعنى عدم وجوده »^(٢) .

ومن هؤلاء المفكرين المستشرقين ، بجانب لوبون الفرنسي ، المؤرخ الامريكى باتون الذى يتحدث عن الموجات التي هاجرت من الجزيرة حيث قال ما نصه : « ان هجرة سامية ذكرت في التاريخ هي مجيء جماعة من الساميين الى البقعة التي بين مصبي دجلة والفرات و ٠٠٠ [التي] ثبت لها حضارة زاهرة في ذلك القطر في القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد »^(٣) . « وذهب العلامة سايس الانكليزي الى ان قبيلة كانت نازلة عند مصب النهرين ، وانها طليعة قبائل النبط والآراميين الذين نزحوا من شمال بلاد العرب ونزلوا دولة بابل مخيمين على ضفاف الفرات ٠٠٠ »^(٤) . ويذكر لنا فيليب حتي في كتابه « تاريخ العرب » الى ان الهجرة العربية الاولى يعود تاريخها الى حوالى ٣٥٠٠ ق ٠٠٠ وكانت في شقين : شق ذهب الى سينا ، فمصر ، وشق اخر ذهب الى دجلة والفرات وهؤلاء هم البابليون^(٥) . وقد اعقتب الهجرة الاولى هجرة تانيا (حوالى منتصف الالف الثالث ق ٠٠٠) وضمت الكنعانيين والعموريين : حيث استقر العموريون في سوريا والكنعانيون في فلسطين والفينيقيون في لبنان .

والمهم من كل ما تقدم ، ان نعلم ان هذه الهجرات كانت نتيجة لتغير احوال الجزيرة العربية الطبيعية . والمهم ان نعلم ايضا ان ابناء الجزيرة العربية الذين

(١) المصدر السابق ، ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦ .

(٣) د . عزالدين نورة . في كتابه « محاضرات في المجتمع العربي » ص ٤٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٥) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، جزء ١ ، ص ١٣ (الترجمة العربية) ؛

كذلك فودة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٤ .

عرفوا بنظامهم القبلي والاقليمي في القرون القريبة الى الاسلام ، كان اسلافهم في القرون البعيدة منه ، قد حققوا تقدما ولم يكونوا جهلاء ، وهذا ما تدل عليه لغتهم وادابهم ، ثم انهم هاجروا على اثر تبدل احوال قلب الجزيرة الى اطرافها حيث اقاموا اقدم الحضارات واعرقها في العالم (وهي حضارة ما بين النهرين وحضارة وادي النيل المشاطرة لها) ؛ وتوصلوا الى اقامة الشرائع القويمة وفي مقدمتها شريعة حمورابي الشهيرة التي هي بحق اعلى واقدم شريعة ظهرت في العالم . كما انشأوا في شمال الجزيرة وجنوبها دولا متقدمة كالمعينية والسبائية والحميرية والمناذرة والغساسنة والانباط وتدمر .

وبعد هذا العرض السريع يجدر بنا ان نقف على طبيعة مقومات البيئة العربية قبل الاسلام .

طبيعة البيئة العربية :

لقد تميزت البيئة العربية بقبايلها واقايلها بتقاليد خاصة وطابع عام خاص بها يختلف عن غيره .

وهذا الطابع العام للبيئة العربية يتمثل بالتركيب الاجتماعي غير المعقد . ولقد نشأ هذا التركيب الاجتماعي غير المعقد نتيجة للتجانس بين اسلوب حياة القبائل والاقاليم العربية فكريا وثقافيا وحضاريا^(١) . ويمكن ترجمة عدم التعقيد سياسيا بالقول ان المجتمع العربي قبل الاسلام كانت تنعدم فيه الحواجز بين الحاكم والمحكوم . فالحاكم او الرئيس لم يكن حكر لجماعة او طبقة اجتماعية معينة . وانما الرئيس المرغوب هو الرئيس الذي يمثل سواد الشعب ويعبر عن تقاليده ويؤكد على ما يؤكد عليه . فأي فرد تتوفر فيه الصفات التي يضعها الشعب وتضعها البيئة وتقاليدها يمكن ان يكون رئيسا . ومثل هذه النظرة في البيئة السياسية العربية قبل الاسلام ، لاشك انها تعكس ما يعرف بالتجانس في البيئة

(١) لقد بدا هذا التجانس لدى كل قبائل واقاليم الجزيرة . ومع ان كل قبيلة كانت تتعصب لابنائها ، الا ان التعصب شيء والتجانس في اسلوب الحياة شيء اخر .

البشرية • اذ انها كانت تمنع كل ترفع قد يشعر به الرئيس ، وكل نقص
تسهر به الرعية • ولقد ادى التجانس البشرى والفكري بالذات ، الى انعدام وجود
الطبقات الاجتماعية بالمعنى الذى تألفه في عصرنا ، وما يتبع ذلك من علاقات
معقدة وشعور مختلف عند ابناء كل طبقة • • وهذا التجانس الفكري في النظرة
الى الامور عامة والحياة السياسية خاصة قد اوجد علاقات وصلات اجتماعية
وسياسية مباشرة • وهذا معناه انعدام الحواجز بين الحاكم والمحكوم •

وانعدام الحواجز وعدم التعقيد في البيئة العربية قبل الاسلام قد عمل على
خلق الثقة في نفس الفرد العربي • والى غرس الشعور في نفسه ان ثقته بنفسه
تجعله يشعر ان لا فرق بين من في يده السلطة وبين الشخص الفاقد لها • كما
عمل انعدام الحواجز الى اللقاء المستمر بين الحاكمين والمحكومين كما هو
واضح في الاشعار والمناسبات واللقاءات المختلفة • وقد ادى كل هذا الى انتشار
فكرة الشورى والاستشارة والعقل الجماعي في حل الامور السياسية كما سنرى
في الصفحات المقبلة من هذا الكتاب •

القيم الاجتماعية والسياسية :

بعد الوقوف على الطابع العام للبيئة العربية ، من المفيد ان نتعرف على مقدار
ارتباط البيئة بالقيم العربية من قبل الاسلام ومن بعده ، وان نتعرف على حقيقة
هذه القيم •

وقبل دراسة حقيقة القيم العربية وارتباطها بالبيئة العربية ، من المهم ان نضع
في حسابنا ان القيم العربية ، شأنها شأن القيم في البيئات الاخرى ، فيها المحاسن
والمساوى •

ولعل اهم ما كان قائما من مساوى في المجتمع العربى عامة قبل الاسلام ،
هو ان كل قبيلة وكل عشيرة كانت تعصب لابنائها • ويمثل هذا التعصب من
الوجهة العلمية الموضوعية البحتة نقضا بالنسبة لحياة العربى قبل الاسلام • ومع
ان هذه العصبية القبلية كانت قد عملت على احلال مجتمع قبلي متماسك الا

انها في عين الوقت كانت عقبة في سبيل اقامة دولة موحدة تغطي على الحدود القبلية والاقليمية *

ان هذا التعصب القبلي قد ادى الى قيام ظاهرة اجتماعية اخرى الا وهي الغزو والنزاع القبلي . ومع ان النزاع كان يحدث نتيجة لشدة حساسية العربي واعتزازه واعتداده بنفسه وبقبيلته وقيادته ، الا انه كان يترك اثارا غير محمودة على ابناء الجزيرة العربية ككل *

على ان الدارس الموضوعي لهذه الظاهرة يجد ان النظام القبلي لم يكن ليقوم على قواعد اعتبارية . على العكس فقد كان هناك هدنة واشهر حرم ، يقف فيها القتال والنزاع . وتكرر عادة في خلال فترة السلم الاجتماعات والمبارزات الادبية والشعرية . ويلتقي الناس جميعا من قبائل واقاليم مختلفة ، شمالية وجنوبية في اسواق تجارية بجانب التقاءهم في اسواق ادبية . كما كانت هناك تقاليد دينية قبل الاسلام تدعو الى زيارة مكة والكعبة بالذات لاداء الواجبات الدينية . ومن هنا يمكن القول ان النزاعات وان تركت اثار وخسائر وراءها ، الا انها من الجهة الاخرى لم تكن مطلقة ، وانما كانت تخضع لقيود وتقاليد واعراف . ومن هنا يمكن القول ايضا ان العلاقات السلمية والسهر على تقويتها كانت مهمة في حياة العربي قبل الاسلام *

ومما تقدم نفهم ان حياة العربي ونظام دولته القبلية والاقليمية كان يحكمها قانون ، وهذا القانون هو قانون او دستور التقاليد . وحينما نحلل المعاني البعيدة لهذه التقاليد او دستور التقاليد بالذات ، نجد انه يتمثل في قيم اجتماعية عاشت الجماعات العربية ضمن اطارها *

واذا كان ما تطرقنا اليه من عصبية ونزاعات وحروب ، كانت تعمل عليها هذه القيم ، فان هناك بجانبها قيما اجتماعية اساسية ، وسياسية بالذات، حرى بنا ان نقف عليها ايضا *

وتأتي في مقدمة هذه القيم ، الالتزام والوفاء بالوعود والعهود . فمن ناحية عامة ، كان يعتبر من يخلف وعده ويتخلى عن عهده ، انسانا لا يمت الى السمائل العربية بشيء . وهذه ناحية تمثل احدى القيم العربية الاصيلة . ويمكن تحليل هذا المبدأ بالقول ان البيئة التي وجد فيها العربي ، ليست بالبيئة الغنية ، وانما هي بيئة تضم الجبال القفراء وتكثر فيها الصحارى الواسعة . وقد ترتب على ابناءها ان يكون فيها الانسان صلبا ثابتا لا متذبذبا . فكان عليه ان يعتر بنفسه وباقواله وبافعاله ، والا هلك . وبمرور الزمن اصبحت هذه السجاييا جزءا من التقاليد العربية والقيم العربية بالذات . واصبح من لا يفي بالوعد ولا يقيم العهد انسانا غربيا عن البيئة العربية . حتى ان القبائل اخذت تتفاخر في اشعارها وآدابها كيف انها تحفظ الوعود والعهود وكيف ان عملها هذا يعتبر جزءا من شرفها وكرامتها ، وان من يكسرها يلفظه المجتمع . وقد كتب لهذا النوع من القيم الاجتماعية العربية ان تحظى بتأييد الرسالة الاسلامية حيث جاءت الآية الكريمة تقول : « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » . وهذا خط واضح يربط ما قبل الرسالة وما بعدها في حياة العربي ، كما يوضح لنا اهمية الشرف في العمل السياسي والاجتماعي .

وبجانب ما تقدم من القيم الاجتماعية العربية ، يأتي مبدأ التأكيد على الصراحة والاستقامة في العلاقات بين الحاكم والمحكوم . فالقائد لا بد وان يكون له رأي واضح ويتمسك بالخلق . وهذا ما ظهر عند محمد (ص) قبل الرسالة حيث رضيت به فئات الناس والقبائل المختلفة ليفصل بينها في وضع الحجر الاسود في الكعبة . ومن هنا يظهر لنا اصالة هذه الظاهرة الاجتماعية ومنبتها العربي القديم .

وثمة ظاهرة اجتماعية وسياسية اخرى يلحظها الدارس للبيئة العربية ولقيمتها وتلك هي ظاهرة الثورى . وهذه الظاهرة تعبر عن نزعة العربي الى الوقوف على رأي اقرانه خاصة من عرف منهم بالرأي السديد ورجاحة العقل ، في شؤونهم المختلفة . والمهم بالنسبة لنا ان نعلم ان ابناء العرب كانوا يجتمعون

بصورة مستمرة في دار يقال لها (دار الندوة) • وكانت هذه الدار في الحقيقة دارا للتشاور وتبادل الرأي يؤمها العرب من كل حذب وصوب • ولا يخفى ما لهذه الدار من اهمية بالنسبة لشؤون القبائل العربية المختلفة من اقتصادية واجتماعية وسياسية • وما هو جدير بالملاحظة هو ان الرأي الذي يقف عليه الاغلبية ويبلغه الحكم بينهم كان يلتزم به الناس بصورة ادبية • وغني عن البيان ان هذا الالتزام الادبي يعبر عن اهتمام العربي بالوعود والعهود التي يقطعها على نفسه ، وهو ما سبق واشرنا اليه •

اما ظاهرة عدم قبول الضيم ، فتلك ناحية يجدر التطرق اليها ايضا • وعدم قبول الضيم تعني من بين ما تعني عدم الاستكانة الى الذل والخضوع • فلم يكن العربي ليرضى ان يكون ذليلا لعربي اخر • ذلك ان الاستكانة والخضوع لم تكن من الامور المقبولة في بيئته وثقافته • لان الاستكانة تعبر عن الخوف والضعف وانوهن في النفس • وكل هذه الخصال بعيدة كل البعد عن الشجاعة والاياء التي تربى وتحت كل قبيلة عربية ابناها على التحلي بها • والادب العربي مليء بتأكيد على الشجاعة وعلى عدم الاستكانة والخضوع التي كانوا يفضلون الموت عليها • واما معانيها السياسية فانها تعني نزعة ابن البيئة العربية الى « الحرية » فكرا واعملا • وعدم قبول الضيم بتعبير دقيق هو عدم الصبر وعدم تحمل النفس العربية على اهانتها واذلالها من قبل الاخرين • واذا ما اردنا ترجمة عدم تحمل الاهانة الى المصطلحات السياسية الحديثة ، لوجدنا انها تعني الثورة على كل طغيان وعدوان • وهذه الثورة تعبر على نزعة العربي الى الحرية والى الحرية السياسية بالذات • والان وبعد الوقوف على هذه القيم الاجتماعية الرئيسية يجدر بنا الوقوف على الاصول السياسية العربية •

الاصول السياسية العربية :

في الحقيقة ، ان الباحث السياسي الذي يتشعب امامه الموضوع وتقل فيه المصادر المباشرة لا يمكنه انوقوف على كل الاصول ودقائقها ، وانما بإمكانه في مثل هذه الحالة من الوقوف على الخطوط العريضة التي تشكل الهيكل العظمي للجسم السياسي العربي •

فما هي هذه الاصول ؟ وبالامكان الوقوف على هذه الاصول من الجوانب

التالية :

١ - من حيث طبيعة النظام السياسي :

يمكن القول من حيث العموم ان الجزيرة العربية لم تستطع في الفترة التي سبقت الاسلام من ان تقيم نظاما سياسيا يضم بقاعها المختلفة ويوحدها جميعا .
اذ ان ما ظهر فيها فعلا هو قيام عدة دول في الشمال والوسط والجنوب عملت على قيام كل منها ظروف طبيعية واجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة . وكانت هذه الدول قد حققت درجات طيبة من الرقي ، وخاصة دول الجنوب فيها .

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان دول جنوب الجزيرة كانت قد حققت نظاما حضاريا عاليا في الزراعة والري والصناعة اليدوية . اما دول شمال ووسط الجزيرة فقد امتازت في تقدم نظمها واساليبها التجارية .

وكانت رقعة الدول العربية تتفاوت بين رقعة مدن تجارية صغيرة وبين رقعة اقاليم واسعة نسييا . والملاحظ ان هذه الدول العربية كانت تجمع تنظيماتها السياسية بين التنظيم السياسي القبلي وبين التنظيم السياسي الاقليمي . والملاحظ ايضا ان دول الشمال والوسط كانت تمثل فيها رقعة المدن التجارية الصغيرة ، والاساس القبلي من حيث التنظيم السياسي .
اما دول الجنوب فكانت تمثل فيها الاقاليم الحضرية الواسعة نسييا ، والاساس الشعبي (التي تلتحم فيه قبائل عديدة) من حيث التنظيم السياسي .
ومن خير الامثلة على النوع الاول الذي ضم دول الشمال والوسط دولة الغساسنة المدنية التجارية ، التي قامت بسبب وقوعها على الطريق التجاري المؤدي الى الشام ، ودولة مكة^(١) التجارية القبلية ، التي تحول اليها الطريق التجاري بعد

(١) ان دولة مكة التجارية القبلية يجب الا يظن انها دولة بدائية . ذلك ان مركزها التجاري ، الذي ازداد اهمية بعد سقوط دول الشمال ، ومركزها الثقافي والديني قد جعل منها ان تحتل مركز الصدارة قبيل ظهور الاسلام ، ناهيك عن نظامها السياسي الذي وان اطلق عليه بالنظام القبلي ، الا انه كان



انقراض دول الشمال • ومن خير الامثلة على دول الجنوب الاقليمية الحضرية ،
الدولة السبائية التي ضم اقليمها اقليم اليمن وما جاورها •

وفيما عدا ذلك فان دول الجزيرة العربية القديمة كانت تشترك بخصائص
عامة يمكن ان يقال عنها انها دول طابعها التقاليد ، وتجمعها التقاليد العربية
بالذات • وهذه التقاليد يمكن ترجمتها بانها دساتير لهذه الدول • ذلك اننا لانزال
في دراستنا الحديثة للقوانين الدستورية نعتبر التقاليد والعادات من مصادر هذه
الدساتير المهمة • واذن فان النظام العربي السياسي قبل الاسلام هو نظام تقوم
دولته على القانون : قانون التقاليد •

ولقد خلقت التقاليد العربية الواحدة واللغة الواحدة علاقات بين تلك
الدول من تجارية وادبية وروحية وغيرها • وانها بالتالي خلقت مجتمعات
سياسية متماسكة في داخل كل منها ، متماسكة بعضها مع البعض الاخر • وهذا
التماسك بعينه كان يعبر عن وحدة فكرية عربية •

وجدير بالذكر ، ان اهم ما يؤكد عليه في الدول الحديثة هو توفر الوحدة
الفكرية والنظرة المتقاربة التي تعمل على خلق رأي عام غير منشق ومجتمع
متماسك •

وسنرى كيف ان هذه الوحدة الفكرية ، او قل عنها وحدة القيم ، نقول
كيف انها تقابلت مع المبادئ التي جاءت بها الرسالة الاسلامية وجها لوجه فيما
بعد •• وكيف ان هذا التقابل ادى الى الانسجام وعدم التعارض بين القيم
العربية السياسية وبين القيم السياسية التي جاءت بها الرسالة • ويكفي ان نشير

نظاما جمهوريا لا يشبهه ما هو متعارف عليه في الغرب ، وانما كان عربيا يتمتع
فيه الفرد باقصى درجات الحرية مقابل حكومة مختارة ذات صلاحيات حكومية
محدودة • للرجوع الى التفاصيل الاخرى ، انظر نبيه امين فارس : الحضارة
العربية ، وكذلك برنارد لويس : العرب في التاريخ ، وفيليب حتي : تاريخ
العرب •

هنا الى ان الرسالة الاسلامية انطلقت من اطار اسمه الوحدة الفكرية ، ويكفي ان نشير ايضا ان وحدة المبادئ الفكرية العربية قد التقت الى حد كبير مع المبادئ الفكرية الاسلامية •

ب - من حيث طبيعة الحكم :

ان السؤال الذى يتبادر الى الذهن هنا هو ما هي طبيعة الحكم في المجتمع العربي قبل الاسلام ؟ وقبل الاجابة على السؤال يمكن القول ان بالامكان تشخيصها عن طريق دراستنا للتاريخ الادبي العام ، وللمعلقات والسير والاشعار • ومثل هذه الدراسة توصلنا الى فكرة واضحة وهي عدم تمرکز السلطة والخوف من تمرکزها •

وعدم سمرکز السلطة هذا والخوف من تمرکزها ادى الى التأكيد على ما يسمى بالحكم الاستشارى المقيد • اى ان طبيعة الحكم يقوم على اساس مقيدة • والذى يقيد الحكم هو دستور التقاليد •

وهنا يفرض سؤال اخر نفسه الا وهو : مع من يبحث رئيس دولة القبيلة في امور الدولة ؟ انه يبحث مع ذوي المركز الاجتماعى ، ممن يتوفر فيهم السن الملائم ورجاحة العقل واشتهر في خدمة الناس ومحبتهم ، الذين اذا قدموا رأيا فانه سيكون محترما ومقبولا من قبل الاخرين • وهؤلاء المستشارون يشكلون ما كان يسمى بالمجلس القبلي^(١) ، كما سنرى فيما بعد عند بحث نظرية دولة القبيلة بصورة تفصيلية • والمهم ان نعلم ، ان رئيس هذا المجلس هو رئيس الدولة • وان مستشاريه هم اعضاء المجلس الذين يجتمعون به على الدوام •

وما هو مهم بالنسبة لنا ايضا هو ان نعلم ان هذه الطبيعة الاستشارية في الحكم قد انسجمت انسجاما كلياً مع المبادئ السياسية التي جاء بها الاسلام فيما بعد الذى اكد اول ما اكد على الشورى • وليس يخاف ان هذه الطبيعة تختلف عما الفه جيران العرب من الفرس حيث كانت السلطة متمركزة في شخص الامبراطور وهو ما سنراه عند دراستنا للاصول الساسانية • وانه يختلف كذلك عن طبيعة الحكم

(١) والمجلس الاقليمي بالنسبة للسلول الاقليمية التي قامت في جنوب الجزيرة والذى ضم ابناء القبائل المتحمة مع بعضها في كيان شعبي نسبي •

لدى اليونانيين ، التي جاء بها فيلسوفهم الكبير افلاطون ، وكذا على الملك الفيلسوف الذي لا يحدده قانون .

ان تاريخ العرب القديم يؤكد كل التأكيد على تقييد سلطة الحكم . وهذا معناه الاختلاف بين وجهة النظر العربية وبين وجهة نظر كل من الفرس واليونان وكذلك الرومان الذين اخذوا عنهم الكثير في نظرتهم السياسية وزادوا عليه في التطبيق بحيث اوصلوا بالرئيس الى ان يكون حاكما مطلقا .

ج - من حيث مفهوم الرياسة :

كيف كان العرب قبل الاسلام ينظرون الى رئيسهم ؟ وكيف يأتون بشيخ القبيلة ؟ هل بالوراثة والجاه ام على قواعد اخرى ؟

في الحقيقة ان الطابع الغائب على الرياسة عند العرب هو الابتعاد كل البعد عن مفهوم الرياسة التي تقوم بالوراثة ، والتأكيد على ان تكون الرياسة آتية من رضى الناس . بمعنى اخر آتية عن اختيار الناس للرئيس .

واذا كان هذا هو الطريق ، فما هي مقاييس هذا الاختيار ؟ انها تتمثل في رجاحة العقل وفي الشجاعة والاقدام والتضحية في سبيل الآخرين والاخلاص لهم . وكل هذه تعابير عن القيم الاجتماعية العربية^(١) . ذلك ان العربي الذي يطبع من نعومة اظفاره على الشجاعة ، لا يمكن ان يرى قائده الا شجاعا يرمي

(١) يقول محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة ٨ ، ١٩٦٣ ، ص ٧٩ ، و'ساس حياة البادية ٠٠ انما هي القبيلة ٠٠٠ اما رجل البادية الزاهد في الرخاء ، المبرم بطمأنينة الاستقرار ، فلا يخدعه عن شيء من حريته الكاملة رجاء فيما يفرح به اهل المدن من جاه او مال ، ولا يرضى بما دون المساواة الكاملة بينه وبين افراد قبيلته جميعا وبين قبيلته وغيرها من القبائل . وانما تنتظم حياته ما ينتظم سائر الخلق في حب البقاء والحرص عليه والدفاع عنه ، على ان يكون ذلك كله متفقا مع قواعد الشرف التي تملئها عليه حياة البادية الحرة . وكذلك لم يكن ايسر عند هذه القبائل من القتال اذا ثبت خلاف لم يتيسر في ظلال قواعد الكرامة والمروءة والشرف الفصل فيه ، .

بنفسه اول من يرمي للذود عن حياض قبيلته • وان العربي الذي يطبع على احترام الصغير للكبير ، والذي يعكس مقدار مالاختلاف في السن من اختلاف في التجربة ، لا يمكن ان يرى رئيسه الا شيخا و ابا كبيرا قد اكسبته السنون خبرة ودراية يضحي من اجل ابناؤه بقلب ابوي كبير • ومن هنا كانت النظرة الى الرياسة نظرة تعكس قيم البيئة العربية واصالتها • ان هذه السمائل التي كان يتوق اليها العربي من شجاعة وتضحية و اخلاص جاء الاسلام يؤكد عليها افوى تأكيد •

و خلاصة لما تقدم يمكن القول ان مفهوم الرياسة عند العرب كان يتحدد بالاختيار وليس بالوراثة او بالاكراه • وان من اهم شروط الاختيار هذه كانت تتمثل في صفات مهمة منها :

اولا - ان تتوفر في الرئيس الشجاعة والتضحية من اجل القبيلة ولا زالت اثارها قائمة لحد اليوم ، وقد انسجمت هذه الصفة مع الرسالة الاسلامية •

ثانيا - ومنها مروءة القائد واتصافه بالروح القائمة على التضحية السائدة ولا تزال هذه الصفة قائمة •

ثالثا - ومنها ايضا ان تتوفر فيه صفة المركز الاجتماعي الذي يعمل عليه رجاحة العقل وسداد الرأي وعدم الاستئثار بالرأي وقبول المشورة واحترام التقاليد •

د - من حيث ابعاد السلطة :

ان السلطة عند العرب الاقدمين كان يمارسها رئيس القبيلة ويشترك فيها معه مجلس القبيلة او الاقليم • وكانت السلطة تنفذ قراراتها عن طريق ما يستقر في اذهان الاغلبية • وان اختلفوا ، فان الرئيس يعمل على التقريب بين وجهات النظر املا في الوصول الى قرار • الا ان هذه القرارات والصلاحيات تتحدد بحدود سياسية واجتماعية فقط • ولا دخل للسلطة بالمسائل الدينية • اذ ان الدين من شأن اولئك المكرسين حياتهم لشؤون الدين • وقد ظلت هذه الحدود مؤكدا عليها فيما بعد في المسائل الشرعية • وهكذا نلاحظ ان لهذه الامور جذورا في المجتمع

العربي القديم • ومع ان بعض المفكرين العرب والمسلمين بعد الرسالة كانوا يريدون من الخليفة ان يكون متفقا في شؤون الاسلام ، الا انهم لم يكونوا يريدوا من كل هذا الاسعة الاطلاع والاجتهاد •

الاصول الساسانية

توطئة :

من المهم جدا ان نعلم ان الفرس حين احتكوا بالعرب من قبل الرسالة ومن بعدها ، فانهم لم يحتكوا مع امة جاهلة وانما احتكوا مع عرب الجنوب وهم الذين عرفوا بحضارتهم ورفيهم ، ومع عرب العراق وهم الذين تقف وراءهم اعرق وادم حضارة في التاريخ وهي حضارة ما بين النهرين ؛ ومع الرواد العرب الاوائل وهم حاملين لاعلى المبادئ الانسانية التي ظهرت في التاريخ •

ومع كل ما تقدم ، فان اللقاء كان مفيدا • وقد عملت العبقريّة العربية في ظل المبادئ الاسلامية على ان تتفاعل مع كل ما هو مفيد وممكن طبعه بطابع التقاليد العربية الاسلامية • وكان في مقدمة مجالات اللقاء تجارب وفنون الفرس في الادارة والمالية • وغني عن البيان ان ما افاد به الفرس من جراء احتكاكهم

(١) الدوري ، النظم الاملاية ، ص ٢ ،

لقد صور بعض الكتاب خطأ من ان قواعد نظام الحكم الاسلامي ونظام الحكم العباسي بالذات في اوائل العهد العباسي ، كان قد قسام على اسس وفلسفة سياسية ايرانية ، « ويلوح ان الاتجاه الى النظرية الايرانية في لحكم قد سيطر الى حد انس الناس انه لا يوجد لغير الفرس فلسفة سياسية ، فاصبح الكتاب حينما يعددون خصائص الاجناس ومفاخر الشعوب ، ابان « خصومة » « الشعوبية » المشهورة في القرنين الثاني والثالث ، يخصون الفرس بالتفوق في السياسة •• فاستقر آنذاك عند الناس ان الفرس اصحاب السياسة ، والروم اصحاب الحكمة ، والسبب في هذا •• راجع الى اتجاه الكتاب العالمين بالفارسية ، وهم المتربون عند الخلفاء العباسيين الاول ، حتى عهد الرشيد ، الى التراث الفارسي وحده •• انظر في هذا الشأن الاصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام ، الجزء الاول ، تحقيق عبدالرحمن بدوي ، ص ص ٦-٧ •

بالعرب وبالمبادئ الاسلامية ، ان قد جعل التاريخ الاسلامي يشكل المع صفحة
في تاريخهم قاطبة •

على ان ما يهمننا على وجه الخصوص هو ان نقف على نظرة الساسانيين الى
السياسة قبل الاسلام من حيث طبيعة الحكم وشكل النظام السياسى وعلاقة
السياسة بنواحي الحياة المختلفة • فنحن ندرس هذه النظرة لتعلم مقدار التفاعل
الذي حصل بين النظرة الساسانية الى السياسة وبين النظرة العربية الاسلامية •
وافضل دراسة للاصول الفارسية والاصول الساسانية بالذات هي دراسة
التقاليد السياسية الساسانية • ودراسنا للتقاليد الساسانية السياسية توجي
الينا بالانتباه الى المسائل المهمة التالية :

شكل النظام السياسي :

وعند دراستنا لشكل النظام السياسى عند الفرس عامة والساسانيين خاصة نجد
انه لم يكن قبلنا ولا اقليميا كما وجدناه في دراستنا للاصول العربية وانما كان
نظاما ملكيا • وكان يطلق على الملك لقب شاهنشاه (ملك الملوك) والامبراطور
العظيم • وكل هذه الاوصاف كانت تطلق لتضفى على الحاكم الابهة والاهمية
التي لا تحدها حدود •

ونحن لا يهمننا من شكل النظام السياسى الساساني الالقاب والمظاهر التي
تمنح لرئيسه بقدر ما يهمننا مقدار الالتقاء بين الفكرة العربية الاسلامية والفكر
الساساني •

اما وأن الفكر الساساني كان قد احتك بالفكر العربي وبالمبادئ الاسلامية
فهذا ما يشكل حقيقة تثبتها الوقائع التاريخية والاحداث • وبعبارة اخرى ان
التفاعل بين الفكرين كان قد تم • اما كيف كانت نتيجة هذا التفاعل فذلك هو
الامر المهم الذى يتطلب منا الوقوف عليه •

ان الدراسة الموضوعية الدقيقة تظهر لنا ان الفكر السياسى العربي الاسلامي لم
يتأثر تأثيرا ملحوظا نتيجة تفاعله مع الفكر الساساني من حيث شكل النظام

السياسي • ذلك ان النظام الساساني قبل كل شيء كان نظاما يقوم على الحكم الديكتاتوري المطلق ويضع حدا فاصلا بين الحاكم والمحكوم • وبعبارة اخرى ان العلاقة بين الحاكم والمحكوم في النظام الساساني هي علاقة سيطرة من قبل الراعي وخضوع من قبل الرعية^(١) • اي ان السلطة العليا المتمثلة في الملك الامبراطوري تعمل ما تشاء وعلى الرعية الطاعة • وهذه الطاعة تفرضها التقاليد الساسانية السياسية والاجتماعية • فالملك او الامبراطور العظيم لا تجوز مخالفته بسبب انه وسلالته المألقة قد فضلها الله على الآخرين^(٢) • والملك لا تجوز مخالفته ، بجانب ما تقدم ، بسبب ان الديانة الزردشتية (وهي الديانة الرسمية للدولة) تصفي على رئيس الدولة صفة قدسية^(٣) •

والذي يمكن استنتاجه مما تقدم ان التقاليد الاجتماعية والدينية • قد وضعت الامبراطور الايراني - الساساني في مكان علوي^(٤) ، وعزله عن شعبه ورعيته • وقد ترتب على هذا الانعزال عدم مقابله لرعيته الا في فترات خاصة من ايام السنة • والغرض من هذه المقابلة سماع الامبراطور لشكاوي الرعية • وقد اعتاد الساسانيون الاول ان يأذنوا للناس اذنا عاما مرتين في السنة ، في النوروز وفي

(١) الدوري ، مصدر سابق ص ١١ ، انظر كذلك بشأن التفاصيل تراث فارس الذي اشرف على نشره أ. ج. ابري ، ونقله الى العربية محمد كفاي وآخرون ، واشترك في كتابه ومراجعته د. يحيى الخشاب ، دار الكتب الجامعية • ومما جاء فيه القول : « اما الملك فكان اقرب المخلوقات ، عند الايرانيين القدماء من الله ، وحين يتحدثون اليه لا يذكرون اسمه ، بل يقولون انتم الاله وقد استكم • والملك هو العظيم الاول (مردان بهلم) وكان له امتيازات يميزه بها الشعب » • فصل في اسلام فارس ، ص ١٢ •

(٢) انظر الجاحظ في كتابه « التاج في اخلاق الملوك » ، ص ١٦٥ •

(٣) انظر Christensen في كتابه *L'Iran sans les Sassaniades* ،

ص ٩٢ •

(٤) للاطلاع على تفاصيل اكثر عن اوضاع المجتمع الاجتماعية والاقتصادية راجع ابو الحسن علي ندوي (Abul Hasan Ali Nadawi) في كتابه الاسلام والعالم (Islam & the World) لاهور ، (بلا تاريخ) ، ص ص (٣١-٣٩) •

المهرجان لسماع شكواهم ، وكانوا يحرمون الوقوف في طريق منظم • وكان يجلس مع الملك في هذه المناسبات رئيس الدين الاعلى^(١) • والاكثر من كل ما تقدم ان للملك صلاحيات واسعة تؤهله التصرف بحياة المواطنين كيفما شاء • فكان « للملك حق الحكم بالحياة والموت على الرعية ... »^(٢) وكانت قرارات الملك تنفذ في الحال اذ كان الجلاد يجلس بجانبه حين يتخذ قراراته^(٣) •

وحينما تقابل هذا الشكل العام من النظام السياسي الساساني بالشكل العام للنظام السياسي العربي وللنظام الاسلامي الذي جاء مؤيدا للنظام العربي من حيث الاساس والجوهر ، نجد انه يختلف عنه في طرازه وابعاده •

ومع ان الفكر السياسي الساساني قد تقابل وتفاعل مع الفكر العربي الاسلامي ، الا ان حصيلته التفاعل هذا كانت حصيلته سلبية • ويتركز هذا التفاعل السلبي في ناحيتين اساسيتين :

الناحية الاولى ، وهي ان النظام العربي الاسلامي الذي يقوم على التشاور بين الحاكم والمحكوم لم يتأثر لا بل لم يأخذ لا فكرا ولا روحا بفكرة « تمرکز السلطة » في النظام الساساني الذي نجم عنه قيام حكم ديكتاتوري مطلق كما نسميه بلغة عصرنا •

والناحية الثانية ، وهي ان النظام العربي الاسلامي الذي يقوم على القانون والدستور ويجعل منه فوق الحاكم ، لم يتأثر الا سلبيا بالاطار الساساني الذي يجعل من الراعي ان لا يتحدد بقیود وبالتالي فانه فوق اي قانون ودستور •

وهذان الناحيتان توضحان لنا اكثر فاكثر عند بحثنا طبيعة الحكم في النظام الساساني •

(١) انظر د • الدوري ، مصدر سبق ذكره • ص ١٢ ، انظر ايضا Christensen ، ص ص ٢٩٥-٢٩٦ •

(٢) الدوري ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢ •

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢ •

طبيعة الحكم :

ان التحليل الدقيق لطبيعة نظام الحكم الساساني يرينا اول ما يرينا انه نظام حكم تقوم طبيعته على « تمركز السلطة » في يد الحاكم الذي يطلق عليه « بملك الملوك » او الابهراطور الاعلى . وهذا ما يجعل ان يكون مصدر القوة السياسية بعيدا عن الشعب وبعيدا عن اية مراقبة بالذات .

ومثل هذه الطبيعة في الحكم الساساني تجعل منه يختلف عن طبيعة الفكر العربي^(١) وطبيعة المبادئ الاسلامية التي حملوها بعد ظهور الرسالة . ذلك ان طبيعة الحكم العربي قبل الرسالة ، كما المحنا اليها سابقا ، كانت تقوم على (المشورة) بين الراعي والرعية . وكان الراعي او شيخ القبيلة يجتمع وقومه من اهل الرأي السديد والحكمة في دار الندوة للمباحثة في مشاكلهم بغية توصلهم جميعا الى ما يعيد الامور الى نصابها . وكانت القاعدة في اتخاذ الاحكام هي « ان رأي الجماعة خير من رأى الفرد » وبظهور الاسلام نجد ان رسالته جاءت مدعمة لنفس هذه التقاليد حيث جاءت الاية لتؤكد (وامرهم شورى بينهم) . وصفوة القول ان تمركز السلطة هذا في يد الملوك الساسانيين قد ابعدهم عن استشارة الرعية ورفعهم الى منزلة علوية عليهم وجعل من الرعية مقابل ذلك اذلاء صاغرين لما يقرره لهم الملك او الامبراطور .

واذا كان تمركز السلطة في الحكم الساساني بيد الملوك قد جعل منهم مترفعين منزلين عن شعوبهم ، فان تمركز السلطة هذا كان يدعمه الدين الزردشتي . . . ذلك ان هذا الدين قد اعطى صفة قدسية لهم . وهذا ما جعل اوامرهم ان تطاع اطاعة عمياء . لان مخالفتها تعني مخالفة احكام الدين . ومن هنا نجد ان الدين الزردشتي قد عاون على الحكم الذي يقوم على الاكراه .

(١) « فمن خصائص هذا النظام (الساساني) التي كانت غريبة على العرب انه كان يقوم على ملكية وراثية مطلقة وحكومة مركزية تتركز في يدها السلطة . . » انظر تراث فارس المؤلف باشراف أ . ج . ابري وترجمة محمد كفاي واخرون ومراجعة يحيى الخشاب ، دار الكتب العربية ، سنة ١٩٥٩ ، ص ٩٢ .

اما بالنسبة للدين الاسلامي ، فانه جاء مناديا ان « لا اكراه في الدين »
 ومعنى ذلك انه لا يجوز استخدام الاكراه في اجبار الناس للدخول في الاسلام .
 ومن هذه القاعدة يمكن ان يقاس عليها في امور الحياة الاخرى بالقول ان لا
 اكراه في الحياة ولا اكراه في السياسة والحكم بالذات . ومن هنا نجد كيف
 ان الفكرة الساسانية الدينية التي تؤيد صلاحيات الحاكم المطلقة ، لم تجد
 لها سبيلا في التعاليم الاسلامية ، وانما على العكس من ذلك فانها جاءت لتخفف
 من سلطة الحاكم ولتجعل منه انسانا خادما قبل أن يكون سيديا^(١) . ولهذا جاءت
 الآية الكريمة لتقول « لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . وعلى
 هذا الاساس فالدين والدولة في الاسلام جاءا ليخدما بني الانسان خدمة انسانية
 وليعاملاه على اساس ان له قيمة ، وفي هذا يستتب الاستقرار وتنتشر العدالة
 الاجتماعية .

وبالاضافة فان الناحية المهمة الاخرى ، التي يلحظها الدراس الموضوعي
 لطبيعة الحكم الساساني الا وهي ان الحكم محصور بقئة معينة من الناس ، وتلك
 هي سلالة الملوك . وهذه الطبيعة في الحكم الساساني ليس انها تقسم الناس الى
 طبقة حاكمة معينة (بالوراثة) واخرى محكومة وحسب ، وانما تفنقد الى النظرة
 القائمة على الكفاءة والمساواة . وغني عن البيان القول ان الاسلام ومبادئه ابعدا ما
 تكون عن الحكم القائم على الطبقات وعلوية بعضها على بعض . وان الحكم مفتوح
 لكل من تتوفر فيه شروط الاستقامة والكفاءة والادارة والايمان بتعاليم الاسلام
 القائمة على العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس جميعا .

٣ - مفهوم الرياسة :

ان النظرة الى مفهوم الرياسة في الفكر الساساني هي نظرة تغلب عليها
 الوراثة اكثر من الاختيار . أي ان الرئيس لابد وان ينتمي الى سلالة ملكية

(١) لقد اشتهر حكم عمر في انه كان افضل من طبق المبدأ الذي وصفه
 الرسول القائد « خادم القوم سيدهم » وهذا ينفي ما جاء به اربري وجماعته من
 كتاب تراث فارس بالقول « لقد كان النظام الذي وضعه عمر يحمل طابع النظام
 الفارسي . . . » ص ٩٣ .

عريقة يتوارث ابناءها العرش • وقد اصبحت هذه النظرة بعد مرور الزمن من التقاليد السياسية التي كان يعتز بها الساسانيون • وقد بنيت هذه النظرة الى الرياسة على حجج تستقر في حصر الرياسة بافراد العائلة المالكة ، على اعتبار ان العرش لا يصلح لغير ابناءها ، • ولان الله فضلها على العالمين ،^(١) • ومن الحوادث التاريخية السياسية التي تؤيد ذلك احتجاج الملك يزيدجرد الاول على محاولة الشعب الفارسي تنحية ابنه عن العرش اذ قال • ان هذا فساد في صلب المملكة ان تولوا رجلا ليس من اهلها ،^(٢) • •

ومن هنا تحددت علاقة الرئيس بالمرؤسين • فهم من جهة لا حول ولا قوة لهم في مجيء وتوالي الملوك الذين يتحدد مجيئهم بمبدأ الوراثة • وهم من جهة اخرى ، لا سلطان لهم عليه • على العكس فان مفهوم الرياسة الذي كان يحاط بالابهة والترف والبدخ والتعالى على الشعب^(٣) ، كان يقابله من جانبهم الخضوع والطاعة العمياء •

وحينما نحلل مفهوم الرياسة ، والنظرة الى الرئيس والى المرؤسين اكثر فاكثرا ، نجد ان الطاعة العمياء المفروضة على الشعب كانت تتمثل في ان الرئيس سيد وان الشعب عبد له • فهو يتصرف فيه كيفما يشاء : انه يحدد لقاءه معهم ، الذي كان نادرا جدا وفي مواسم خاصة • وانه هو الذي يسوقهم الى الحروب^(٤) • مهما كانت نوعيتها ومهما كانت قسوتها • وليس هذا فحسب ، فان للملك الامبراطور حق الحكم والموت على الرعية^(٥) •

(١) الدوري ، النظم الاسلامية ، ص ١١ •

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ ، انظر كذلك التاج في اخلاق الملوك ، ص ١٦٥ وما بعدها •

(٣) انظر ابو زيد شلبي ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، ص ١٨ •

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨ •

(٥) الدوري ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢ •

وغني عن البيان ان النظرة العربية من قبل الاسلام ومن بعده تختلف كل الاختلاف عن التقاليد الساسانية في الرياسة . ويكفي ان نقول هنا ان النظرة العربية تعتمد اساسا على الاختيار وعدم حصر الرياسة في سلالة معينة . وخير مثال للتدليل على ذلك ان الزبراء قد وصلت الى ان تكون ملكة لدولة تدمر في وقت كان العالم يهين المرأة ويقلل من شأنها . ثم ان المبالغة في السلطة وفي اهمية الرئيس واعطائه الالقاب الكثيرة شيء لم يأتلف مع تقاليد العرب قبل الاسلام وبعده . فالعربي الذي امتاز بالبساطة ، لم تكن قيادته على خلاف ذلك . واما من جانب الاسلام من حيث انه دين ونظام اجتماعي للحياة ، فهو نظام تقوم فيه القيادة على الخدمة وليس على السطوة ، كما انها لا تقوم على البذخ والابهة . واذما حصل مثل ذلك عبر التاريخ العربي الاسلامي ، فانه نتيجة لتأثر بعض قادة العرب بالنظرة الساسانية . وكان هذا عن طريق الاحتكاك . على ان هذا لا يمت بصلة الى النظرة الاسلامية بأي حال من الاحوال . فيذكر لنا التاريخ ان بعض الخلفاء العباسيين كانوا قد تحلوا بمظاهر الابهة والبذخ ، التي اتهم من الفرس . ويؤكد لنا المعنيون بالشؤون العربية والاسلامية ان هذه المظاهر التي بدت في سلوك بعض القادة والخلفاء في العصر العباسي ، قد ابعدهم عن حقيقة الافكار السياسية الاسلامية من جهة ، وعملت على اضعاف الدولة عامة من جهة اخرى . ذلك ان مفهوم الابهة والمبالغة في الرياسة باذات شيء لا يتوافق مع الرياسة في الفكر العربي الاسلامي . وخير دليل على ذلك قول الرسول القائد محمد (ص) « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » الذي طبقه وخلفاؤه روحا وعملا ، يجعل من كل فرد قائد ومسؤول في وقت واحد .

والسؤال الان اذا كان الالتقاء بين الفكرين العربي الاسلامي والساساني سلبيا في اصوله واتجاهاته الفكرية ، فهل هناك التقاء في الاساليب ؟ والواقع ان العرب المسلمين قد اقتبسوا عن الساسانيين بعض اساليبهم في تنظيم المالى والاداري والبريدي . فكما تشير الوقائع التاريخية ان النظام الساساني في الخراج والنقد كان قد مارسه العرب لبعض الوقت الى ان جاء الامويون حيث اجرؤا عليه

التعريب والتعديل الذي يتفق ومتطلبات الظروف والاحوال الاجتماعية العربية^(١) .

٤ - ابعاد السلطة :

ان ابعاد السلطة في الفكر الساساني الايراني عامة والساساني بالذات تنطلق من تقاليد المجتمع الفارسي ومن النظرة الى الدين بوجه خاص ، التي كان لها الانر الكبير في تحديد ابعاد السلطة . فالديانة الزردشتية - التي لا تزال بعض آثارها باقية لحد اليوم - نظرت الى الحياة السياسية والقيادة السياسية نظرة تعطى القائد السياسي هالة من القدسية الالهية . وهذه الهالة القدسية هي التي ساعدت ملوك ساسان في ان يركزوا سلطتهم السياسية اكثر فاكثر . فكانوا يستمدون مصدر قوتهم من اصول دينية قدسية الهية^(٢) .

وعند نظرنا الى الفكرة العربية الاسلامية نجد انها التقت مع النظرة الفارسية في زاوية معينة وتلك هي الارتباط بين الدين والسياسة ، ولكن دونما ان يضفي الدين قداسة الهية على الرئيس . فالفكرة الفارسية الساسانية التي اعطت هالة من القدسية الالهية الى رئيس الدولة لم يقبل بها الفكر الاسلامي ابدا . وهنا يجدر بنا ان نوضح حقيقة مهمة الا وهي ان القدسية ليس معناها الجلال والوقار والاحترام للرئيس ، الذي يقدمه الرعية للراعي عن وعي وادراك ، وانما يتحدد معناها في ان الرئيس جزء من كيان الاله ، وهو بهذا يكون الممثل له والناطق بلسانه . وهذا شيء يخالف التقاليد العربية والاسلامية^(٣) لان محمد (ص) ، في نظر الاسلام

(١) انظر الاستاذ ناجي معروف ، المدخل الى الحضارة العربية ، ص ١ .
(٢) يقول ابو الحسن الندوي في كتبه الاسلام والعالم ، (بالانكليزية)
« ان الايرانيين كان يسودهم الاعتقاد ان هذه القدسية تتغلغل عميقا في عروق الحكام » . ثم يقول « ومن هنا كان حقهم في علويتهم واطاعتهم حقا مقدسا » ، ص ١٤ .

(٣) يقول مؤلف فصل فارس والعرب في تراث فارس ، « ولقد كان من بين الساسانيين من جعلوا انفسهم اشباها لله (God like) في صورهم المنقوشة على نقودهم . وكذلك كان من بين العباسيين من ادعى امجادا الهية ، ص ٩٨ .

ما هو الا بشر ولا تجوز عبادة البشر • ثم ان الدستور الاسلامي حين يخاطب الرسول بقوله « و ما انت عليهم بربيب » ، يدل على المدى الواسع الذي يعطيه للرعية في ممارسة حريتهم السياسية والاجتماعية والدينية • وهذا شيء بعيد عن القداسة ، وشيء بعيد عن عبادة الاشخاص والملوك والرؤساء بالذات •

وكخلاصة لما تقدم ، نقول ان هناك التقاء بين التقاليد الساسانية والتقاليد العربية الاسلامية من حيث ترابط الدين مع السياسة • ولكن هذا الترابط يعني في الاسلام شيء وفي التقاليد الساسانية شيء آخر • واذا كن الدين يمثل جزءا او جانبا من النظام الاسلامي القائم على ارتباط والتماسك بين نواحي حياة المجتمع المختلفة ، فانه يسيطر على الجوانب المخلفة في الفكر الساساني •



ونحن وان كنا نتفق مع الشق الاول من رأيه ، الا اننا نختلف معه في الشق الثاني ، لانه لا يمكن لاي خليفة ان يعلن مثل هذا في ظل الاسلام ، لان مثل هذا الاعلان يجعل منه مناقضا لنفسه ولعقيدته •

تمهيد

من الضروري وقبل البحث في الاصول اليونانية ، معرفة حقيقتين مهمتين ، الاولى وهي ان العرب حينما احتكوا بالساسانيين وبالبيزنطيين ، فانهم احتكوا بدولتين كانتا قائمتين اثناء قيام دولتهم العربية الاسلامية بقيادة الرسول . وقد كان هذا الاحتكاك مباشرا . اما احتكاكهم باليونان فقد كان بصورة غير مباشرة وعن طريق انتقال تراثهم الى البيزنطيين الذين كان لهم ان يحتك بهم وبحضارتهم العرب والمسلمون .

اما الحقيقة الثانية ، فهي التي تتمثل في الخطأ الذي وقع فيه بعض الكتاب الذين اشاروا الى ان دور العرب الحضاري هو دور « نقل » للتراث اليوناني لا أكثر ولا أقل^(١) . وبصدد هذه الحقيقة الثانية ، فان الباحث الدقيق مطالب في ان يقتفي ما انجزه العرب ككل من تقدم فكري وحضاري عبر اقرون العديدة . وهو مطالب كذلك في ان يقتفي كيف ان لكل حضارة اصيلة كالحضارة العربية الاسلامية اصول اساسية ترتبط بمحيطها اولا^(٢) . وكيف ان سنن التقدم تقوم على

(١) يدحض الاستاذ عبدالحليم محمود في كتابه « التفكير الفلسفي في الاسلام » المشاكل الفلسفية التي اثيرت في البيئة الاسلامية قبل عصر الترجمة . فهو يؤكد ان « لمشكلات الفلسفات الخاصة بالتنزيه والعدل ، وصلة الله بالانسان والعالم ، ووجود الخير والشر ، والحرية والاختيار ، قد اثيرت ونوقشت ، وابدئ فيها زعماء الفكر الاسلامي اراءهم المختلفة التي يستند كل منها الى ادلة عقلية تستأنس بالنقل ، او ادلة نقلية يؤيدها العقل » ؛ من قبل ان تترجم الكتب اليونانية الى العربية . ص ٢٢٦ . ثم يتابع قوله في ص ٢٤٥ : « ليس معنى ما تقدم ، اننا نريد ان ننفي كل اثر للفلسفة اليونانية في الفلسفة الاسلامية : ذلك ما لا يقول به منصف » . فالتأثير شيء والنقل شيء اخر .

(٢) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٣٧ .

الآخذ والعطاء بين الحضارات المختلفة^(١) . ويكفي ان تشير هنا الى ان الباحثين من امثال كوستاف لوبون قد اصاب كبد الحقيقة حين قال ان العرب « انجزوا في ثلاثة او اربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الاغارقة في زمن اطول من ذلك كثيرا ، وكان تراث اليونان العلمي قد انتقل الى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل ، ولما آل الى العرب حولوه الى غير ما كان عليه فنلقاه ورثتهم مخلوقا خلقا آخر^(٢) . وعلى ضوء ما تقدم من حقائق يجب ان تدرس الاصول اليونانية في الحضارة العربية الاسلامية .

شكل النظام السياسي :

ان شكل النظام السياسي اليوناني قد جاء مليا لحاجات اليونانيين وانعكاسا لظروفهم الطبيعية والاجتماعية . فكما هو معلوم ان بلاد اليونان بلاد جبلية كثيرة الجزر مما جعلها ان تقسم الى مناطق صغيرة تفصلها فواصل طبيعية . وقد تكون على مر الزمن تقاليد محلية لكل منطقة صغيرة . وكان لتظافر العامل الطبيعي والعامل الاجتماعي ان ظهر في بلاد اليونان دول مدينة صغيرة من اشهرها اسبارطة واثينا .

ومن هنا كان شكل النظام السياسي اليوناني قد تميز باستقلال المقاطعات او المدن الصغيرة التي ساعدت الظروف على قيامها . وهذا الاستقلال الطبيعي قد انعكس كذلك في نزعة الفرد الطبيعية الى الاستقلال ، وخاصة في المقاطعات التي

(١) يقول محمد حسين هيكل في كتابه حضارة محمد : « ان مهد حضارة الانسان الاول ، في مصر كان او في فينيقيا او في اشور ، كان متصلا بالبحر الابيض المتوسط ، او ان مصر كانت اقوى المراكز التي صدرت الحضارة الاولى الى اليونان ، وان حضارة عالمنا في هذا العصر الذي نعيش فيه ، لاتزال وثيقة الصلة بالحضارة الاولى » ، ص ٦٦ طبعة ٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ .

(٢) يقول ابن سينا في هذا الصدد : « وبعد فقد نزعنا الهمة بنا : ان نجتمع كلامنا فيما اختلف اهل البحث فيه لا نلتفت فيه لفتنة عصبية او هوى او عادة او الف . ولا نبالي مفارقة تظهر منا لما الفه متعلمو كتب اليونانيين الفا عن غفلة وقلة فهم » . مقتبس في التفكير الفلسفي في الاسلام ، لعبدالحليم محمود ، ص ٢٤٧ .

ساعدتها ظروفها على ذلك • وبرز مثال على هذه النزعة الاستقلالية المتمثلة بالحرية ، ما مارسته دولة اثينا من حياة سياسية واجتماعية قائمة على الحرية • على ان هذه النزعة الى الحرية لم يكتب لها ان تنتشر في سائر بلاد اليونان ، بالنظر لاختلاف التوازن بين المدن وحب الدول القوية التسلط على الضعيفة • وتاريخ اليونان حرب سجل بين اثينا الديمقراطية واسبارطة العسكرية ومحاولة الاخيرة وامانها من السيطرة على غيرها من المدن والاقاليم •

وما تقدم يبين لنا ان النظام السياسي اليوناني قد تميز بدول صغيرة بعضها نزع الى الحرية وبعضها الآخر سار الى جانب الارستقراطية والاستبدادية • والآن ماهو وجه الاحتكاك بين النظامين العربي الاسلامي واليوناني وكيف تم ؟ ان التاريخ ، في الحقيقة ، يشير الى ان اليونانيين كانوا قد اخذوا بعض افكارهم من الشرق نتيجة احتكاكهم بالبابليين والكلدانيين والمصريين القدماء (١) ، كما يشير ايضا الى احتكاك العرب والمسلمين بالفكر اليوناني الذي كان قد تم على اوسع مداه في العصر العباسي • وكان ذلك عن طريق تقدم روح البحث والتطلع عند العرب والمسلمين مما دعاهم الى التطلع والوقوف على مآثر الحضارات الاخرى وفي مقدمتها الحضارة اليونانية (٢) •

(١) يذكر لنا (C.L. Wayer) (ويبير) ، ان افلاطون في محاوره طيماوس (Timaeuss) يتكلم « على لسان كاهن مصري يخاطب اليونان بلغة مثل لشعب عال في ثقافته متطور في فكره يتكلم الى شعب متأخر قائلا : « انكم يا معشر اليونان دائما اطفال بالنسبة لنا وليس بينكم شيخ عجوز في المعرفة ، انكم صغار في عقولكم !! » ، مقتبس من قبل الدكتور حسن شحاته سعفان في كتابه « اساطين الفكر السياسي والمدارس السياسية » ؛ ص ٢٢ ؛ انظر كذلك الى ما يقوله الاستاذ حنا الفاخوري من ان « الديانة والفلسفة اليونانيتين بشكليهما الكلاسيكي والاسكندري ، والفكر الحديث بجملته ، مدين للكثير من مقوماته لصر ، تاريخ الفلسفة العربية ، ص ١٩ •

(٢) والدليل على روح البحث واساليبه عند العرب والمسلمين ، هو ان ما وصلوا اليه كان قد ابتعد عن الاساليب العلمية اليونانية • ومن هذه الاساليب العلمية « المناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة ، المستمرة ، والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني » • انظر عبدالحليم محمود ، (مصدر سبق ذكره) ص ٢٥٣ •

والسؤال الآن كيف كانت النتيجة ؟ ان طراز النظام السياسي اليوناني الذي احتك به العرب المسلمون والافكار التي جاءت حوله من قبل فلاسفة الاغريق من امثال افلاطون وارسطو لم يظهر تأثيره الواضح على العرب . فالعرب الذين وحدهم الرسول كونوا دولة واحدة يقوم اساسها على وحدة العقيدة والثقافة دون قيامها على وحدة الاقليم والاقليم الصغير المتمثل بالمدينة . الا ان الاتجاهات والآراء الفلسفية التي جاء بها فلاسفة اليونان في الانسان وقيمه وعلاقته بمجتمعه ودولته قد استوقفت المفكرين العرب والمسلمين وشحذت الهمم فيهم بحيث اخذوا ينظرون الى السعادة والانسان والعدالة بعمق فلسفي وعلمي استمدوا بعض طرقه واساليبه من الفكر اليوناني . على انهم لم يقفوا عند هذا الحد ، وانما اخذوا يشتقون طرقا فلسفية جديدة تتفق في بعض آرائها مع الفلسفة اليونانية وتختلف عنها في مواطن اخرى . من ذلك مثلا اختلاف النظرة الى الحرية بين اليونانيين الذين عدوا انفسهم القوم المتحضر وغيرهم بربر ، عن نظرة الفكر العربي الاسلامي القائمة على المساواة في الحرية لبني الانسان جميعا . ومن ذلك ايضا اختلافهم مع بعض افكار الفيلسوف اليوناني الكبير افلاطون الذي يضع في جمهوريته الملك الفيلسوف في درجة عليا من الكمال بحيث لا يحتاج الى القانون . أي انه وضعه فوق القانون . وغني عن البيان ان الفكر العربي الاسلامي تقوم دولته على القانون ويستند الى شريعة اسلامية انسانية يهتدي بها الراعي والارعية .

طبيعة الحكم والرياسة :

لقد نظر فلاسفة اليونان الذين يأتي في مقدمتهم افلاطون وارسطو الى الحكم نظرة تجمع بين المثالية والواقعية . فافلاطون فيلسوف اليونان الكبير كان يرى ان الحكم يجب ان يقوم على الكفاءة . ذلك انه قال ان الافراد يختلفون بطبيعتهم من حيث الكفاءة ، وان مسألة الحكم يجب ان تعتمد من اعلى قمة الهرم الى قاعدته على مبدأ استخدام كل فرد حسب قابليته . ومن هنا كانت طبقة الحكام عنده طبقة ذكية حاذقة ، طبقة تفلسف الحكم وتصل به عن طريق كفاءتها الى افضل

ما يكون • ومثل هذا النوع من الرياسة والقيادة ، لا يحتاج بنظر افلاطون الى قانون ضابط لاعمالهم ، لانهم هم القانون وتمثل فيهم الحكمة والفلسفة والكمال •

اما بالنسبة للفيلسوف ارسطو فانه رأى ان الحكم يجب ان يقوم على الواقعية لا المثالية • وتتجسد الواقعية هذه عند ارسطو بالتوازن بين الامور لا التطرف فيها • ويقصد بالتوازن الحد الوسطي في الامور ، وهذا بعينه الذي يكسب الحكم صفة الواقعية • وبنظر ارسطو ان هذا التوازن المعتدل من الممكن تحقيقه عن طريق الرضى والاقناع وتربية الحاكمين على المسؤولية - وكل هذا يمثل الديمقراطية عنده • وبنظره ايضا ان هذا الطريق الوسط من الأفضل ان يحدد بقانون يسير وفقه الجميع حاكما ومحكوما ، لان من خصائصه ان يمنع التعتن بالرأي والتطرف ، وبذلك يصبح المرجع الاعلى في الحكم •

والواقع ان طليعة مفكري وفلاسفة اليونان ، كانوا يرون ان اهداف الحكم يجب ان تكون خيرة ، وان تأخذ بيد الناس الى طريق اقامة المجتمع الفاضل السعيد • فبينما رأى افلاطون ان المجتمع الفاضل السعيد يمكن تحقيقه عن طريق اعطاء كل ذي حق حقه في المجتمع ، فان ارسطو كان يرى ان القانون الحق هو الذي يوصل الى الحياة الفاضلة ، والمجتمع الفاضل •

ولقد جذبت هذه الاراء المفكرين والفلاسفة العرب اليها ، فأخذوها بالدراسة والتحليل ، خاصة حينما وجدوا انها تتلاقى في بعض اهدافها مع الرسالة الاسلامية • وهذه ناحية مهمة يجدر الانتفات اليها • وهي ان المفكر والفيلسوف العربي والاسلامي الذي قامت شريعته ورسالته الاسلامية على الانسانية وخدمة جميع بني الانسان ، كان يدفعه حب التطلع والتعرف على افكار واحوال الغير • وهذه صفة امتاز بها الفلاسفة والمفكرون العرب المسلمون •

ويأتي في مقدمة ما وجد المفكرون والفلاسفة العرب المسلمون انهم متفقون عليه مع الفكر اليوناني ، هو نزعة طليعة فلاسفتهم الى اقامة حكم دنيوي

تقوم اهدافه على السعادة والفضيلة • ولا غرابة في هذا طالما ان اهداف الرسالة الاسلامية التي آمن بها هؤلاء المفكرون ، كانت تقوم على العدالة والكفاءة واقامة دولة الفضيلة والسعادة لجميع بني الانسان •

على ان العرب المفكرين لم يتفقوا مع تفاصيل الاهداف والوسائل التي جاء بها اليونان ، وخاصة تلك التي لا تأتلف وتقاليدهم والمبادئ التي جاءت بها الرسالة الاسلامية • من ذلك مثلا اختلافهم مع اليونان ، في تفضيلهم لانفسهم على الاقوام الاخرى الذين كانوا يعتبرونهم اقواما متوحشة • فالعرب المسلمون رأوا كما رأت الرسالة الاسلامية ، ان المجتمع الفاضل والدولة الفاضلة لا تقوم على التمييز بين الاقوام : سواء كانت يونانية ام غير يونانية • وانما تقوم على مبدأ ان « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوي » • ومن هنا كانت المساواة بين الناس جميعا في ظل الدولة لا تحددها حدود • واختلف فلاسفة العرب والمسلمين كذلك مع نظرية افلاطون المثالية في الحكم • فافلاطون الذي لم يخضع رئيس الدولة لشريعة^(١) ، فان المفكرين والفلاسفة العرب والمسلمين ، وفي مقدمتهم الفارابي والغزالي ، رأوا ان القانون اساس كل دولة ، وانه فوق الجميع ، ويخضع له الحاكمون والمحكومون في آن واحد • وفي هذا نراهم يقتربون من افكار ارسطو التي اشبعوها دراسة وتحليلا • وهذه ناحية تمثل لنا الالتقاء الايجابي بين افكار بعض فلاسفة اليونان من امثال ارسطو وافكار المسلمين من امثال الفارابي •

وئمة ناحية اخرى ، الا وهي اتفاق الفكر العربي الاسلامي واليوناني الذي عبر عنه ارسطو في ضرورة قيام الحكم على الرضا والمشورة • ولكن العرب المسلمين الذين نادى شريعتهم بقيام الحكم على الشورى ، واعتمادهم على اهل الحل والعقد من اصحاب التجربة والحكمة في المجتمع ، اختلفوا مع الوسيلة التي نادى بها الفكر اليوناني والتي تجعل من الحكم دوريا • انهم رأوا في الحكم اختيار

(١) انظر د • عبدالحميد متولى : الوجيز في النظريات والانظمة السياسية

دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ •

الحاكمين برضا المحكومين ، وبمشورة اصحاب الحكمة والتجربة (اهل الحل
والعقد) •

وليس ما تقدم فحسب ، وانما اختلف الفكر العربي الاسلامي مع الفكر اليوناني
من حيث طبيعة الحكم في ان اليونانيين رأوا ان نجاح الحكم يتحقق في ظل الدولة
الصغيرة • في حين ان الفكر الاسلامي رأى ان نجاح الحكم لا يعتمد على الحدود
الافليمية بقدر ما هو يعتمد على العقيدة الانسانية التي يؤمن بها مواطنوا الدولة
حكاما ومحكومين ، التي هي بحد ذاتها تعمل على تحقيق النجاح بالنسبة لحكم
الدولة •

اما مفهوم الطبقات والطبقة الحاكمة بالذات التي اكد افلاطون على رعايتها
رعاية خاصة ، فهو ما اختلف معه الفكر العربي الاسلامي ايضا • فالطبقة لم يقرها
الفكر العربي الاسلامي كما ان الحكمة ، بنظر افكر العربي الاسلامي ، لا تأتي من
الحكام فقط ، وانما تأتي من اى مكان (او اى وعاء) • والناس الذين يمتنون المهنة
المختلفة ، لا تجعل منهم المهنة طبقة متميزة وانما وسطا (١) • ولا مانع من ان يظهر
منها جميعا الحكماء والقادة •

وهكذا نجد من هذا العرض السريع المتقدم اوجه التفاعل بين الفكر
الاسلامي واليوناني والذي نستشف منه كيف ان فكر الامة - اية امة - لا يمكن
ان ينزل اساسا عن تقالدها وشرائعها • كما توصل ايضا ، ان انفتاح افكر العربي
الاسلامي على غيره ، لم يفقده قط اصالته (٢) •

(١) المقصود بذلك ان كل جماعة تمتن مهنة معينة او تشترك في خط
فكري معين تنتمي الى وسط معين • مثال على ذلك وسط الاطباء ووسط
الفلاسفة ووسط الشعراء ووسط السياسة وما الى ذلك •

(٢) يقول الدكتور سامي النشار • اننا لم تكن عالة على اليونان وان فكرنا
لم يكن موصول الوشائج بفكرهم ، واننا لم تكن ابدا صورة من صور اليونان
حقيقة ومشوهة بل كان لنا - على العكس تماما - الكيان المستقل والينبوع الذي
تفجر منه النور المشرق الذي سطع على اوربا ••• انظر انور الجندي : معالم
الفكر العربي المعاصر ، الثقافة العربية المعاصرة ، ص ٢٤٥ •

« الاصول البيزنطية » :

توطئة :

ظهرت امبراطورية بيزنطة^(١) أو الامبراطورية الرومانية الشرقية على مسرح التاريخ بعد انقسام روما وكان ذلك في القرن الرابع للميلاد واستمرت هذه الامبراطورية زهاء عشر قرون . وهي تعتبر ابنة الامبراطورية الرومانية ، حيث أخذت عنها كثيرا من افكارها ، الا ان بيئتها كانت شرقية واغلب بقاعها اسيوية . واتخذت لها عاصمة ، بيزنطة وهي مدينة قديمة ، اتحدت معالمها الان مع استنبول . والشئ المهم بالنسبة لروما هو ان درس الحرية الذي اخذته عن ائينا لم تستطع ان تحافظ عليه ، الامر الذي ادى الى قيامها على اسس ديكتاتورية والى انقسامها . ولذلك نجد روما التي ارادت ان تؤسس امبراطورية علمية تراها وقد ضحت بمبادئ الحرية في سبيل مبادئ الامبراطورية المتسلطة . وما بيزنطة الا وريثة روما وتقاليدها ، التي اثبت التاريخ انها زادت وغولا في تثبيت حكم سياسي قائم على السيطرة والاكراه^(٢) .

وهذه الامبراطورية بالذات هي التي احتك بها العرب والمسلمون . ويهمننا من ذلك ، نوع ونتائج الاحتكاك الذي تم بين العرب والبيزنطيين ، وخاصة ما هو متصل بالاتجاهات والافكار والنظم السياسية . وخير طريقة للتعرف على نوع الاحتكاك وتناججه هو دراسة جوانب مختلفة ومهمة من حياة الدولة البيزنطية بغية التعرف على ما تركته من تأثير على الحياة والنظام السياسي العربي الاسلامي ، مبتدئين بدراسة شكل النظام السياسي البيزنطي .

(١) للوقوف على تفاصيل التاريخ السياسي لبيزنطة : انظر د . سعيد عبدالفتاح عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي ، الجزء الاول .
(٢) انظر نورمان بينز (تعريب د . حسين مؤنس ومحمود يوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٧٨ .

شكل وطبيعة النظام السياسي البيزنطي :

ان الكثير من التقاليد البيزنطية كانت مستمدة من التقاليد الرومانية . ذلك لان اصولها تمتد الى روما وتقاليدها . وان النظام السياسي في بيزنطة هو نظام امبراطورى . وان شكل هذا النظام يمتاز بانه نظام يقوم على الديكتاتورية المطلقة . وبعبارة اخرى انه نظام اوتوقراطي يسيطر على شؤونه فرد يمتلك صلاحيات مطلقة (١) . ومن خصائصه الفريدة هو انه نظام كان يقوم على القسر وعلى الطاعة العمياء . فلقد اضفت تقاليد روما على بيزنطة ان يكون رئيس الدولة حاكما بأمره .

وكان لاحتكاك بيزنطة بالشرق الساساني بعض التأثير الواضح في حياة الامبراطورية ، وحياة ومركز الامبراطور بالذات . من ذلك مثلا ، تحلي الامبراطور بمظاهر شاهنشاه ساسان القائمة على الابهة والفضامة والمبالغة (٢) . وكان لهذه الابهة والفضامة ان زادت الامبراطور استبدادا على استبداد . ويرى بعض المؤرخين ان افعال امبراطور بيزنطة في الغطرسة والاستبداد الشديد كان من تأثير الاحتكاك بالساسانيين (٣) . ومن امثلة ذلك ، ان الاباطرة البيزنطيين ، تشبها منهم بالساسانيين ، اخذوا يضعون انفسهم في مستوى هو فوق مستوى البشر ، وكانوا ينظرون الى الرعايا وكأنهم عبيدا لهم (٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ٨٥ : كذلك د . محمد كامل ليلة : النظم السياسية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٣٨٩ .

(٢) الدورى ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢ . انظر كذلك للرجوع الى التفاصيل ، نورمان بينز . (ترجمة د . حسين مؤنس باشراف د . محمد مصطفى زيادة) : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤ ، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ .

(٣) نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب حسين مؤنس ، ص ٧٨ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

ومن هذا يفهم ان التطورات التي مرت بالنظام البيزنطي قد اعطته شكلا سياسيا امبراطوريا يقوم على تمركز السلطة المطلقة التي يضعها بيد شخص الامبراطور دونما رقابة من احد . اما الرعية فلا اثر لهم ، سوى تفانيهم في تقديم الطاعة العمياء لشخص الامبراطور .

واهم ما يجب الالتفات اليه هو ان الاحتكاك بين العرب والبيزنطيين كان قد تم في وقت كانت بيزنطة تعيش في ظل نظام ديكتاتوري اتوقراطي للحكم . ويكفي ان نقول هنا ان التفاعل الذي تم بين العرب والبيزنطيين كان سلبيا . ذلك ان ما افه العرب من حياة تقوم على الحرية وتبادل الرأي (الشورى) ، كان من الطبيعي ان يتنافر ويتباعد مع الافكار القسرية البيزنطية .

ثم ان ما مارسه نظام بيزنطة من قسرية واتوقراطية ونزعات امبراطورية ، كانت قد قدمت دروسا قاسية للعرب عرفتهم على المآسي التي لاقى منها الانسان في ظل النظام البيزنطي . وهكذا يتبين في الخلاصة ان طبيعة الحكم البيزنطي يقوم على طبيعة اتوقراطية : اى حكم الفرد المطلق الذي يضع الفرد القائد في مكان بعيد الصلة عن المواطنين وعن الاحتكاك بهم .

واذا كانت نظرة البيزنطيين قد اختلفت في اساسها عن نظرة العرب ، بناء على ما تقدم من اسباب ، الا ان الاحتكاك ما بينهم وما بين العرب لم يمنع العرب من الانتفاع من الاساليب الادارية التي مارسها البيزنطيون في ادارة شؤون دولتهم (١) .

مفهوم الرياسة :

هناك صفة سياسية بيزنطية مميزة تقرب من الصفة الفارسية . وتمثل هذه الصفة في تمركز السلطة في يد فرد ، يعمل كحاكم مطلق ، وتنتقل السلطة من بعده عن طريق الوراثة الى سلالة عرشه . ونفهم من هذا ان مفهوم السلطة والرياسة لا يقوم على الحرية والرضى ، وانما يقوم على الاكراه وبحصر الرياسة في سلالة

(١) بينز ، مصدر سبق ذكره ، صص ٣٥٩-٣٦٠ .

معينة . وهذه السلالة هي التي يحق لها وحدها القيادة والرياسة . ومن اهم ما يميز هذه السلالة التي تتمركز حولها الرياسة هي ناحية الابهة والجاه واستعباد الاخرين . وكما المحنا اليه في الصفحات السابقة فان هذه النظرة تلتقي مع النظرة الفارسية في الجاه والوصولان الذي يطغى على امبراطور الدولة . وهذا الالتقاء يتوضح لدينا حين نعلم ان الدولتين قد احتكنا مع بعضهما ، وانهما نشأ ووجدا في منطقة شرقية آسيوية .

لكن مثل هذه النظرة لم تجد اي تقابل مع النظرة العربية الاسلامية ، بالنظر لاختلاف ذلك مع طبيعة الفكر العربي الاسلامي وطبيعة نظام دولته الذي يتخذ حكم الجماعة اساسا له ، وهو بعينه ما يعده عن كل تمرکز للسلطة في يد رئيس الدولة ، وهو ما يعده ايضا عن اي استعباد للرعية .

ابعاد السلطة :

لقد كان من نتائج تمرکز السلطة في ظل النظام البيزنطي ان وضعت الامبراطور امام صلاحيات واسعة . وقد زادت المسيحية من هذه الصلاحيات ، فجعلت منه قديسا و « صار الامبراطور ظل الله ونائبه على الارض » (١) . وبمرور الزمن اخذت ابعاد سلطة الامبراطور تتوسع اكثر فاكتر ، حيث برهنت الوقائع التاريخية ان الامبراطور اصبح بعد انتشار المسيحية يحكم الكنيسة كما يحكم الدولة ، وكان هو الحكم الاعلى في الخلافات الدينية ، ويعقد المجمع الكنسية ، وكان حامسي الكنيسة ... وناشر الدين (٢) . حتى قال احد البطارقة في القرن السادس للميلاد بانه « لا يمكن عمل شيء في الكنيسة المقدسة ضد اوامر الامبراطور » (٣) . ويتبين من هذا ، ان الامبراطور كان الحاكم بأمره ، هذا على الرغم مما حدث من ثورات قام بها الشعب (٤) والجيش ضد الامبراطور للحد من سلطانه المطلق .

(١) الدوري مصدر سبق ذكره ، ص ١٢ ، انظر كذلك نورمان بينز ،

مصدر سبق ذكره ص ٣٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣ .

تقييم اصول الفكر العربي الاسلامي :

وقفنا في الصفحات السابقة على اصول الفكر السياسي العربي الاسلامي المختلفة .
والآن ، يجدر بنا ان نقف على العلاقة بين هذه الاصول المختلفة والدوافع التي
عملت على قيامها . وهذا ، لا بد لنا من تقييم علمي عام بغية الوصول عن طريقه
الى حقيقة هذه الاصول واهميتها بالنسبة للفكر العربي الاسلامي عامة والفكر
السياسي العربي الاسلامي بالذات .

ولعل افضل تقييم لاصول الفكر العربي الاسلامي ، هو ذلك التقييم الذي
يعالج هذه الاصول من جوانب رئيسية مترابطة الا وهي :-

- (١) البيئة الطبيعية (٢) البيئة البشرية (٣) البيئة الفكرية .

البيئة الطبيعية :

ان الظاهرة الواضحة في البيئة الطبيعية التي نشأ فيها الفكر العربي
الاسلامي ، هي انها بيئة عربية صرفة . ومعنى ذلك ان ينوع الفكر العربي
الاسلامي كان قد ظهر الى الوجود في منطقة معينة هي المنطقة العربية . وهذا
يعني ايضا ان تأثير البيئة الطبيعية العربية ، التي ترعرع فيها الفكر العربي
الاسلامي ، هو تأثير اساسي وما سواها تأثيره ثانوي .

والمهم ان نؤكد ثانية هنا ، هو ان البيئة الطبيعية العربية قد تركت آثارا واضحة
في اتجاهات الفكر العربي الاسلامي لا يمكن التغافل عنها ، سواء تلك التي
سبقت ظهور الاسلام ، او تلك التي قامت بعد ظهوره . وان هذه الآثار ، كانت
قد لعبت دورها في بناء النظام الاجتماعي والسياسي الذي ظهر قبل الاسلام وظلت
آثارها واضحة الى حد كبير حتى بعد ظهور الاسلام . فلقد اسهمت في قيام طراز
للحكم يقوم على اختيار الحاكم دون فرضه بالقوة . ومثل هذا الطراز بعيد كل
البعد عن الطراز الفارسي وكذلك عن الطراز البيزنطي . كما اسهمت في قيام
الحكم الجماعي المتمثل في الشورى بين الجماعة ، الذي اقرته التقاليد العربية

من قبل الاسلام ، واصبح ركنا من اركان الحكم في الاسلام • وهذا الحكم الجماعي الذى نحن بصدده والقائم على المشورة ، لم يظهر لا في النظام الفارسي ولا في النظام البيزنطي ايضا •

وهكذا يمكن القول ، ان للبيئة الطبيعية العربية الدور الملحوظ في رسم اتجاهات الفكر العربي الاسلامي كما يمكن القول ايضا ان الفكر العربي الاسلامي هو اين هذه البيئة منشأ وموطنا واصلا •

البيئة البشرية :

ان التقييم الموضوعي للبيئة البشرية التي اسهمت في رسم خطوط واتجاهات الفكر العربي الاسلامي عامة والفكر السياسي العربي الاسلامي خاصة ، يستلزم من الباحث تقصي نوع المجموعة او المجموعات البشرية للبيئة المعنية ، ودورها لا بل ودور كل منها في ترسيخ كيان هذا الفكر ومن ثم نشره والحفاظ عليه •

ولقد تبين لنا مما تقدم ان الفكر العربي الاسلامي والحضارة العربية الاسلامية نشأ اول ما نشأ بين ظهرائي مجموعة بشرية معينة تلك هي المجموعة العربية • ولقد قرر لهذه المجموعة العربية ان تلعب الدور الرئيس في تثبيت كيان الدولة العربية ونظامها السياسي • كما قدر لها ان تتحمل مسؤولية نشر الرسالة الاسلامية والحفاظ عليها •

ذلك ان النظام السياسي العربي قبل الاسلام ، وما قام عليه من اسس في الحرية والشورى والعمل الجماعي وغيرها ، جاء ليعكس تفكير وعقلية المجموعة العربية اولا وبالذات • وعندما جاءت الرسالة ، فانها جاءت على يد احد ابناء هذه المجموعة العربية وهو الرسول (ص) • وان هذه الرسالة جاءت لتعالج الاوضاع السياسية والاجتماعية عند هذه المجموعة العربية بالذات • وبعبارة اخرى «انها جاءت تلبية لرغبتهم الملحة في تأمين اقصى ما يتوقون اليه» (١) لبناء مجتمع عربي فوي متماسك وموحد • فالرسالة الاسلامية ، من هذه الزاوية ، وان كانت

(١) فودة ، محاضرات في المجتمع العربي ، ص (٢١٧) •

رسالة ذات اهداف انسانية بعيدة ، الا انها جاءت الى العرب اولا ، وبلسانهم بالذات (١) . والمهم في الامر ان نعلم ان الرسالة الاسلامية وان جاءت لتهديب (٢) وصقل سلوك العرب وقيمهم ، الا انها في نفس الوقت اكدت على الكثير من مثلهم العليا في الحياة .

ولقد ايدت آيات كثيرة من دستور العرب والاسلام «القرآن الكريم» على صلة العرب المباشرة بالرسالة الاسلامية . ومن هذه الآيات ما جاءت لتقول « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » (٣) ولتقول ايضا « انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (٤) وليبين ايضا : « وكذلك جعلناكم امة وسطا تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٥) .

يضاف الى ما تقدم ان العرب الاولين كانوا قد تحملوا مسؤولية كبرى في نقل الرسالة ونشرها والدفاع عنها . والحقيقة التي لا مفر منها هي انه لولا امانة العرب الاولين وايمانهم بقيم الرسالة الاسلامية ، ولولا تفانيهم في الذود عنها ، لكان تاريخ الاسلام من حيث انه فكر وحضارة ودولة هو تاريخ غير الذي عهدناه . وفي كل هذا لا توجد لاية امة اخرى مثل هذه الصلة الوثيقة بالاسلام كالعرب .

ومن هنا يتبين لنا ان العرب هم الرواد الاوائل بالنسبة للفكر والحضارة الاسلامية . وما يجب ان يذكر ايضا ان جذور الفكر الاسلامي تكونت ليس في بيئة طبيعية عربية وحسب ، وانما يعود بذورها ونماءها وتثبيت كيانها على يد العرب . وثمة حقيقة اخيرة وهي ان كل من اعتنق الاسلام من اقوام من غير الاصل العربي وعاش في البيئة العربية وتثقف في تلك البيئة هو عربي

(١) البزاز ، من روح الاسلام ، ص ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٣) ابراهيم : (٤) .

(٤) يوسف : (٢) .

(٥) البقرة : (١٤٣) .

ثقافة • وما يؤيد دور العرب الكبير هذا هو انهم عندما تزعزع مركزهم القيادي السياسي والاجتماعي والعلمي وجدنا ان الامر نفسه قد انعكس على ضعف حيوية هذا الفكر • ومثل هذه العلاقة بناء على ما تقدم لا يمكن ان تفسر بانها علاقة مصادفة مطلقا •

البيئة الفكرية :

ان السؤال الذي يثير نفسه الآن ، هو ما اذا كان الفكر العربي الاسلامي عامة والفكر السياسي العربي الاسلامي خاصة هو من نتاج العبقورية العربية والثقافة العربية والقيم العبقورية وحسب ، ام انه حصيلة تفاعل الثقافة العربية والقيم العربية مع ثقافات وقيم اخرى اخصها بالذكر الفارسية واليونانية والبيزنطية • والجواب الموضوعي على ما تقدم لا بد وان يأخذ بنظر الاعتبار حقائق متكاملة ثلاثة :

الاولى ، وهي ان الفكر الاسلامي هو ابن الثقافة العربية اصلا وتاريخا • والثانية ، وهي ان الاسلام من حيث انه رسالة انسانية يشكل المحور الذي يدور حوله الكيان الفكري العربي الاسلامي باكملة •

والثالثة ، وهي ان الروح الجديدة التي غرسها الاسلام في نفوس العرب هي التي فتحت لهم الباب واسعا للاحتكاك مع ابناء الثقافات الاخرى •

هذا وان الحقيقة الصلدة التي لا مفر منها هي ان الفكر العربي الاسلامي لم يكن من مرقعات الثقافات المختلفة • وانما على العكس من ذلك فإنه ينتمي الى ثقافة أم • وهذه الثقافة الام هي الثقافة العربية • فالقيم والمبادئ الاجتماعية والسياسية خاصة ، التي جاءت بها الرسالة الاسلامية ، من امثال الشورى والوفاء بالعهد واختيار رئيس الدولة ، هي في الواقع قيم عربية وتمت بصلة وثيقة بالثقافة العربية وبالتراث العربي • وان هذه هي حصيلة التقاليد العربية لاجيال طويلة •

ومن كل هذا يمكن ان نلاحظ ان الاسلام بمجيئه الى المجتمع العربي القديم جاء ليكون الصورة المثلى التي ابتغاها العرب لانفسهم في الحياة عامة والحياة السياسية خاصة . فلم يكن الاسلام ، بعبارة اخرى ، الا الصورة المهدبة للقيم العربية التي اقرها الاسلام ذاته . ويكفي ان ندلل على ذلك ان ما جاءت به انيم العربية في الشورى والقيادة الجماعية والتحكيم والعدل قد اكدت عليه الرسالة الاسلامية أيضا .

وصفوة القول ان الافكار السياسية التي جاءت بها الرسالة الاسلامية تلتحم في جذورها بقيم التراث العربي القديم . ولكن ما تجب ملاحظته ايضا ان الدعوة الاسلامية التي نادى بها العرب ، كان قد صحبها في عين الوقت احتكاك فكري بينهم وبين الاقوام التي دخلت الاسلام . والمهم في الامر ان تعلم ان هذا الاحتكاك الفكري لم يكن ليحدث كيفما اتفق ، وانما كان في جوانب معينة ، وفي الحدود التي لا تتعارض مع ثقافتهم العربية ومبادئهم الاسلامية التي حملوها ونادوا بها . وبعبارة ادق ، ان الجوانب التي احتكوا بها ، من ثقافات الامم الاخرى ، كانت باختيارهم لان زمام الامور السياسية والقيادية كانت بايديهم . يضاف الى ذلك ، ان العرب بجانب كونهم حملة رسالة اسلامية ، فقد كانوا ايضا حملة ثقافة عربية عريقة تمتد باصولها وجذورها الى حضارة وادي الرافدين والنيل ، وتسجج قيمها مع ما بناه اجدادهم من قيم في كل من بلاد اليمن السعيدة التي اشتهرت برقيها في علوم وفنون الزراعة والتجارة وهندسة الري والصناعة والفن المعماري ، وفي بلاد الفساسة والمناذرة والانباط التي اشتهرت برقيها في ميادين التجارة والسياسة . ومن هنا يتبين ان احتكاك العرب بالغير كان في حدود الجزئيات اكثر منه في حدود الكليات والتي شملت مجالات الفنون والاصول التطبيقية خاصة . فقد اقتبس العرب العباسيون بعض التنظيمات المالية ومراسيم البلاط وفنون الادارة من اصحاب الثقافة الفارسية الساسانية ، كما اقتبس العرب الامويون من قبلهم بعض انظمة

الجيش والبريد المتبعة عند البيزنطيين^(١) . الا ان هذه المقتبسات لم تكن لتقف عند حدها الفارسي والبيزنطي وانما « نمت بنفسها » ، وبما افادته من المصادر الاخرى ، حتى وصلت مرحلة من التطور لم تصل اليها الانظمة الساسانية او البيزنطية^(٢) . وهكذا فان الحقيقة التي لا مفر من ذكرها هي ان البيئة الفكرية العامة والبيئة الفكرية السياسية بوجه خاص ، هي عربية اسلامية اساسياً ، وان كل ما عداها كان فرعياً .

(١) الاستاذ ناجي معروف ، المدخل في تاريخ الحضارة العربية ، ص ٩ ، انظر كذلك الامبراطورية البيزنطية تأليف نورمان بينز (N. Baynes) ترجمة حسين مؤنس ، اشراف محمد مصطفى زياده ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٦٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

الفصل الحاشي

ابعاد الفكر السياسي العربي القديم

(من قبل ومن بعد الرسالة)

التعريف بابعاد المجتمع العربي القديم : المجتمع القبلي - الاقليمي :

من الضروري ان يتعرف اى باحث يهدف الى تحديد معالم مجتمع القبيلة^(١)، ان لا يغفل عن الاشارة الى كل من حدود المجتمع الاجتماعية وحدوده السياسية، والى العلاقة القائمة بينهما ، على اعتبار ان الحدود السياسية للمجتمع القبلي او الاقليمي بما في ذلك انطاق الذى تمتد اليه السلطة ، قد وضعتها التقاليد والقيم الاجتماعية الى حد كبير .

ونحن اذ نحاول التعريف بالمجتمع القبلي ، من زاويته الاجتماعية والسياسية ، نجد من الضرورى القول اولا ، ان مجتمع القبيلة السياسي ، لم يكن عند العرب الاقدمين هو الفريد من نوعه ، وانما كانت قد نشأت في الاصقاع العربية ، وخاصة الاصقاع الشمالية والجنوبية من الجزيرة العربية ، مجتمعات اقليمية ومُدنية كانت اكثر حضرية وكانت قد حققت تقدما طيبا ، عبرت بحدودها

(١) ان نواة مجتمع القبيلة هي العائلة وبنمو العائلة تكونت العشيرة وبنمو الاخيرة وتوسعها تكونت الافخاذ والبطون فالقبائل . وانباء القبيلة يرتبطون عادة برابطة الاصل الواحد . ولا يوجد للقبيلة عدد محدود فهي تزداد وتقل بحسب ظروفها واحوالها . فقد تنقسم القبيلة الكبيرة الى قسمين او اكثر . وقد يضاف اليها افراد جدد عن طريق الانتساب . راجع بهذا الصدد جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، دار الهلال ، جزء (٤) ، ص ١٦ ؛ كذلك خدا بخش (Khuda Bakhsh) في السياسة في الاسلام (Pilitics in Islam) الفصل الرابع كذلك د . صالح العلي : محاضرات في تاريخ العرب ص ١٤-١٣٩ ؛ كذلك احمد امين : فجر الاسلام ، الفصل الاول .

النطاق القبلي السياسي الى حد كبير . على ان هذه الاصقاع الشمالية والجنوبية
التي قلنا انها قد ارتفعت بمستوياتها الى الحدود الاقليمية - المندنية السياسية ،
لم تكن لتشكّل الا اجزاء معينة من الاصقاع العربية التي تحدت بقيتها ، في
الفترة التي سبقت الرسالة الاسلامية ، بالحدود القبلية . ولعل البيئة الطبيعية
كانت من الاسباب المهمة التي دعت الى ان تكون اصقاع عديدة من نظم الجزيرة
قبيلة ، وهذا ما سنراه في الصفحات المقبلة من هذا الكتاب

المقومات السياسية والاجتماعية للمجتمع العربي :

ان اية دراسة تحليلية دقيقة لمقومات المجتمع العربي القبلي الاقليمي القديم ،
لا بد وان تأخذ بنظر الاعتبار ، التقاليد العربية الاقليمية والتقاليد القبلية بالذات .
وهذه التقاليد ان هي الا حصيلة ما تعود عليه مجتمع القبيلة والتي اصبحت عبر
السنين الطويلة قواعد ملزمة تأخذ بها القبيلة كموجه لها في حياتها العامة .
واذن فان بالامكان القول ان الاساس او القاعدة الواسعة التي يقوم عليها
المجتمع القبلي هي التقاليد العربية والتي يمكن ان تسمى بدستور المجتمع .
وبتحليل هذه التقاليد ، يتوضح لنا ان هذه التقاليد قد حددت معالم حياة
القبيلة المختلفة .

واولى هذه المعالم ظاهرة بساطة المجتمع القبلي . وتمثل هذه البساطة في
اسلوب العيش والعمل والتنظيم . فاما اسلوب العيش فهو يعتمد اكثر ما يعتمد
على الطبيعة : فهم يتخذون مما تقدمه الطبيعة اساسا لمأكلهم وبناء مساكنهم . ثم
هم يتبادلون بما عندهم مع غيرهم من القبائل عن طريق المقايضة . ومثل هذا
الاسلوب البسيط في الحياة الذي فرضته الى حد كبير الظروف الطبيعية ، قد
جعل العربي لا يميل الى الصناعة والزراعة . على ان مثل هذا الاسلوب في
العيش الذي كان ينطبق على القبائل العربية في المناطق اوسطى والشمالية ، فانه لم يكن
كذلك في الاقاليم الجنوبية حيث حققت تقدما عاليا في الاستقرار وعاشت ضمن

نظام حضارى زراعى تجارى متقدم • ولكن على الرغم من هذا الاختلاف
في اسلوب العيش الحضارى ، الا انها كانت جميعا مؤتلفة في قيمها ، وذلك نتيجة
للاتصال الثقافى والدينى والاجتماعى بينها ، والذى يعكس بدوره على المفاهيم
السياسية ايضا •

لقد كانت قساوة الطبيعة ان اضطرت العربى القبلى الى الانتقال الى الاجزاء التي
توفر الغذاء له والكلاً لماشيته بصورة افضل •• وقد كان هذا الانتقال يتم في
مواسم معينة • ومن هنا كانت هذه الظاهرة - ظاهرة الانتقال - تمثل احدى
مقومات مجتمع القبيلة ايضا •

وربما كانت لهذه الظروف الطبيعية والاجتماعية الاثر في ان تتجه القبيلة
الى الغزو والحرب الذى كان يعد في زمانه اسلوبا من اساليب التفاوض بين
القبائل ، وضربا من ضروب سيطرتها على غيرها • ولقد سببت ظاهرة الغزو
والحرب هذه الى تحالف القبائل الضعيفة واتحادها امام القبائل القوية • على ان
هذا التحالف كان ايضا عرضة للتغير بينها تبعا لتغير ظروف القبائل نفسها : فاما
ان يطول او ان يقصر ، او قد ينقسم عرى التحالف ، وينتهى بتحالف مضاد^(١) •
ومع ان حياة القبائل العربية كانت تتخللها الغزوات والحروب ، الا انه كان
يعلو عليها قيم خلقية - اجتماعية تخضع لها كل حياتها • وهذه القيم الخلقية
والاجتماعية التي بنتها التقاليد العربية عبر السنين - كانت تضم من بين ما تضم
الوفاء وتقدير الوعد والشرف وحسن الجوار والاريجية وغيرها^(٢) • وكما

(١) انظر احمد امين ، فجر الاسلام ، ص ٩ •

(٢) للرجوع الى التفاصيل الاخرى ، انظر جرجي زيدان ، تاريخ التمدن
الاسلامي ، ج ٤ ، ص ص ٣٤-٣٨ • يقول جرجي زيدان بشأن الجوار • ومن
قبيل الوفاء بالمعهد وحفظ الذمام ايضا ، فان البدوى يحافظ على
جاره محافظته على نفسه • والمقصود بالجوار في الاصل ان يحافظ الرجل على
جاره القريب ، وهو من قبيل التعاون الطبيعى حتى قيل « جارك القريب ولا اخوك
البعيد » • ص ٣٥ • اما بشأن الوفاء فهو يقول « ترى الوفاء مطبوعا في اقوال
اهل البادية واشعارهم وامثالهم ، ويتجلى في عاداتهم واخلاقهم وفي سائر اعمالهم
وهو فيهم سجية وفي سواهم صناعة وتكلف » • ص ٣٥ •

وصفها احد المفكرين العرب^(١) بانها تدور حول مثل اعلى يتركز حول ما سماه « بالمروءة » . فالمروءة التي تعنى بها العرب فى شعره ونثره ورواها فى اسماره ، وتفاخر بها فى حروبها ، ليس من أسهل تحديد حدودها ، ولا يمكن النظر اليها الا بصورتها العامة .

فمن بين ما تعنيه المروءة فى الحياة العامة ، محاسبة النفس ازاء الاخرين ، ورفضها الخروج فى السلوك عن كل ما يمكن ان يسمى بالانصاف . ثم هى المروءة فى الحرب وحسن معاملة المغلوب^(٢) . ومن مظاهر المروءة ايضا ان يكون المرء كريما مستجيبا ومغيثا للباس والفقر .

وبجانب ما تقدم ، تأتي ظاهرة اخرى فى مقومات مجتمع القبيلة العربية قبل الاسلام ايضا وتلك هى ظاهرة الولاء للجماعة . وتمثل هذه الظاهرة فى ولاء الفرد العام لقييلته ومناصرة اخيه ظلما او مظلوما . ولا يقتصر هذا الولاء على نصره ابن القبيلة لآخيه من قبيلته ، وانما يذهب الى أبعد من ذلك فيأخذ لتأر أخيه الذى قتل من اجلها . وهذا الارتباط المباشر من قبل الافراد بقبائلهم ما هو الا مظهر من مقومات المجتمع القبلي العربي قبل الاسلام ، والذى عرف بالعصية القبلية^(٣) .

(١) انظر احمد امين ، فجر الاسلام ، ص ١٠ .

(٢) لقد تكونت بمرور الزمن ، تقاليد عربية بشأن الحروب بين القبائل وكيفية قيامها ومعاملة الاسرى . وكانت هذه التقاليد « قائمة على مبادئ اخلاقية هي مبادئ الشرف والمروءة » وكانت من اهم المصادر التي كونت قوانين السلم والحرب فى الاسلام ، ، فيما بعد . انظر د . صالح العلي : محاضرات فى تاريخ العرب ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٣) يقول المستشرق الكبير بروكلمان فى كتابه ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ١ (تعريب د . نبيه امين فارس ومنير بعلبكي) : ص ١٦ « ان البدوى كائن فردي النزعة مفرط الانانية قبل كل شيء » . ثم يقول ايضا ان جميع الافراد « متساوون ضمن اطار القبيلة » فى الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصية الدموية ، فالبدوي ملزم بان ينصر اخاه فى الملمات ، وليس له ان يتنازل ان هو ظالم او مظلوم ، . ونحن اذ نتفق معه فى الشق الثانى من تحليله ، الا اننا لا نتفق معه تماما فى الشق الاول اذ كيف يكون البدوي اناني لنفسه وللجماعة فى وقت واحد ؟

اما روح المشورة وتبادل الرأي بين رجال القوم - والتي سبق وان شرحنا جانباً منها في الصفحات السابقة - في القبيلة ، فهي ظاهرة بارزة في حياة القبيلة . فقد كان لقبيلة قريش مثلاً داراً للشورى هي دار الندوة ، ولا شك ان مثل هذه الروح الجماعية في النظر الى مصلحة القبيلة كان لها الاثر الكبير في منع قيام الاستئثار بالرأي ، من جهة ، والى تغليب رأى الجماعة من جهة اخرى .

وثمة ظاهرة اخرى في مقومات المجتمع القبلي العربي الا وهي ظاهرة اللجوء الى التحكيم عند ظهور الخلاف بين الافراد والقبائل على السواء . ويقول المستشرق بروكلمان في هذا الصدد ان « الخلافات التي قد تنشأ بين اعضاء القبيلة الواحدة على ملكية شيء ما ، تسوى في المجالس اليومية » . اما حين ينشب الخلاف بين افراد ينتسبون الى قبائل مختلفة فيلجأ المختصمون الى رجل مشهود له بالتمقل والحكمة ، او الى امرأة تمت لها هاتان الميزتان ، وكثيرا ما يكون الحكم في هذه الحال كاهنا او عرافا . ولكن حكم الحكم لا يكون ملزما للمختصمين الا اذا ارتضاه الفريقان ، او حتمه تفوق احدهما على الاخر في فوته وبأسه ، (١) . والملاحظ ان اللجوء الى التحكيم بحد ذاته يعبر عن نظام سائد في المجتمع . اصف الى ذلك ان صفة الالتزام عند قبول الحكم من قبل الفريقين المتخاصمين ، يعبر عن دقة هذا التنظيم . وغني عن البيان ان التحكيم وفق هذا النوع من التنظيم لا يزال متبعا في وقتنا الحاضر .

واذا كانت البيئة الطبيعية قد دفعت العربي الانتقال من مكان لآخر ، فان البيئة الاجتماعية وما فيها من قيم خلقية سائدة في المجتمع العربي قبل الاسلام ، كالتأكيد على المروءة والشرف وتقدير الوعد ، قد دفعته الى التعامل بنجاح مع غيره من الامم ومهدت له « الطريق لتجارة واسعة منظمة ؟ [فلقد] كان كثير من القبائل يحمون القوافل من تعدي قبائل اخرى في نظير جعل يأخذونه وكثيرا ما

(١) انظر كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية : « العشر» والامبراطورية العربية ، ج ١ ، ص ٥٣ .

يردون النجمل اذا عدا عاداً على قافلة فلم يستطيعوا رده ، وزاد في نجاحها علمهم بالصحراء وسبلها ، ومواضع الامن والخوف فيها ، وقدرتهم على تحمل القيظ وغناء اسير^(١) . ومن اشهر هذه القبائل ، القبائل اليمنية ، وقبائل الحجاز التي كان لها الهمنة على مقدرات التجارة بين اليمن وحضرموت والهند والشام ومصر .

ومما تقدم يمكن القول ان العربي لم يكن منعزلاً عن الامم الاخرى منذ اقدم ايام حياته . وهذه ظاهرة يمكن القول عنها لا كونها احدى مقومات حياة المجتمع العربي القبلي - الاقليمي القديم وحسب ، وانما كان لها الانعكاس في بناء شخصيته وحضارته التي قدر لها ان تكون فيما بعد حضارة عالمية .

واذا كان ما تقدم قد مكنتنا من التعرف على المقومات التي قام عليها المجتمع العربي القديم ، فان الذي بقي امامنا هو استخلاص المثل السياسية العليا منها .

المثل السياسية العليا :

يتبين لدارس المجتمع العربي القبلي - قبل الاسلام ان المثل السياسية العليا ذات صلة وثيقة بمقوماته من جهة ، وانها تمثل بحد ذاتها جانباً من جوانب حياة المجتمع ، الا وهو الجانب السياسي من جهة اخرى .

فما هي هذه المثل السياسية العليا في المجتمع القبلي الاقليمي العربي قبل الاسلام اذن ؟

العصية السياسية :

واول هذه المثل السياسية التي يلحظها دارس المجتمع القبلي العربي قبل الاسلام هي العصية^(٢) . ولتفهم المعنى السياسي للعصية ، من الضروري القول

(١) انظر احمد امين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ .

(٢) انظر كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه امين فارس ومنير بعلبكي ، ص ٢٢ ؛ انظر كذلك بحث العصية في مقدمة ابن خلدون ص ١٠٨ وما بعدها .

اولاً ان رابطة الدم في العائلة قد توسعت الى العشيرة فالخذ فالطن فالقبيلة • وهذه الرابطة ، كانت الدافع الاول في تكوين الشعور « بالولاء » للقبيلة الواحدة عند افرادها (١) • الا ان هذا الشعور بالولاء قد عمل من جانبه ايضا على تحديد حدود المجتمع السياسي بالقبيلة • فهذا الشعور والولاء او العصية الى القبيلة عند الافراد ، قد خلق مثلاً سياسياً اعلى وذلك هو ان الدولة القبلية هي الدولة المثلى (٢) • وماذا يعني هذا ؟ انه يعني ان ذهن العربي القبلي قبل الاسلام بوجه عام لم يستطع ان يأتي بقاعدة سياسية تتعدى تكوين مجتمع سياسي صغير • وهذا المجتمع السياسي الصغير ما هو الا صورة مجزأة لمجتمع العرب الكبير الذي ربطته التقاليد والعادات واللغة المشتركة • ولم يكتب لهذا المجتمع المجزء بدول قبلية عديدة في الشمال ودول اقليمية في الجنوب ان يلتئم في صورة سياسية او بالاحرى بدولة موحدة الا بعد الاسلام ، كما سنرى •

النزعة الى الحرية السياسية :

والى جانب العصية السياسية تأتي نزعة العربي الى الحرية السياسية • وربما كان مبعث هذا الشعور عند العربي ظروف بيئته الطبيعية والاجتماعية (٣) التي

(١) انظر د. جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ : القسم السياسي مصدر سبق ذكره • يقول د. جواد علي في ج ١ من كتابه ص ٣٦٥-٣٦٦ : « ٠٠٠ ويبقى الفرد متمتعاً بعطف قبيلته عليه ، وبحمايتها له ما دام قائماً بواجباته المترتبة عليه ، شاعراً بعظم التبعية • فاذا اقرتف جرماً ، او قام بعمل ينافي شرفه او شرف قبيلته فقد حماية قبيلته له ، وهام على وجهه طريداً » يلتمس مجاورة رجل من قبيلة اخرى او قبيلة بعيدة • وتكون هذه الفترة من حياة الانسان شراً فترة تمر في حياته » •

(٢) انظر فرانس ستولمن (Franz Stuhlman) في كتابه (Der Kampf Um Arabien Hambusy) ص ٥ ، حيث يقول « ان الحياة الصحراوية التي طبعت اصحابها بطابع الافراط في حب الحرية والفرديّة ، قد اثرت كثيراً في الحياة السياسية والتفكير السياسي في بلاد العرب فاقتصرت كل الفعاليات السياسية على فعااليات القبيلة ٠٠٠ » اقتبس د. جواد علي ، نفس المصدر ، ص ٣٧١ •

(٣) انظر احمد امين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٤ •

رَبَّتْ فِيهِ الشُّعُورُ بِالْكَرَامَةِ وَالْإِعْتِرَازَ بِهَا وَاعْتَبَارَهَا شَيْئاً مَرْتَبطاً بِوِلَايَةِ لِعَشِيرَتِهِ وَقَبِيلَتِهِ . فَالْعَرَبِيُّ الْقَبْلِيُّ ، كَانَ يَرَى أَنَّ حُرِيَّتَهُ وَكَرَامَتَهُ شَيْءٌ لَا يَبْدُ مِنْ تَوْفُرِهَا فِي حَيَاتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ . وَكَانَ يُعْتَبِرُ أَنَّ دِفَاعَ قَبِيلَتِهِ عَنْهُ وَعَنْ شَرَفِهِ وَكَرَامَتِهِ وَعَرْضِهِ وَاجِبٌ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَالْعَشِيرَةِ الَّتِي يَنْتَمِي لَهَا . ذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْهَا وَهِيَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا ، أَيُّ الْعَشِيرَةِ وَمَنْ نَمَّ الْقَبِيلَةَ ، الَّتِي لَا تَحْمِي شَرَفَهُ وَعَرْضَهُ الَّذِي هُوَ شَرَفُهَا وَعَرْضُهَا ، هِيَ قَبِيلَةٌ لَا تَسْتَحِقُّ الْوِلَاةَ . وَخَيْرٌ لَهُ هَجْرُهَا وَالغَضَبُ عَلَيْهَا . وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الْحُرِيَّةُ وَالْوِلَاةُ شَيْئَانِ مَرْتَبطَانِ أَشَدَّ الْإِرْتِبَاطِ بِحَيَاتِهِ . فَالْعَرَبِيُّ يَثُورُ عَلَى كُلِّ سُلْطَةٍ تَحَاوَلَتْ أَنْ تَحْدُ مِنْ حُرِيَّتِهِ (١) ، وَلَكِنَّهُ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى ، فَانَّهُ يَعْمَلُ مَعَ السُّلْطَةِ حِينَ يَقْتَعِ أَنَّهَا تَسْمَى حَقّاً مِنْ أَجْلِ ضَمَانِ حُرِيَّتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَمَسَاوَاتِهِ مَعَ إِبْنَائِهَا الْآخَرِينَ (٢) . وَانَّهُ يَشْعُرُ بِالْوِلَاةِ لَهَا وَالدِّفَاعِ عَنْ حَيَاضِهَا مُقَابِلَ ذَلِكَ . وَهَذَا هُوَ السَّرُّ فِي إِرْتِبَاطِ ابْنِ الْقَبِيلَةِ بِقَبِيلَتِهِ الَّتِي يَرَى فِيهَا الْحَامِيَّ لِحُرِيَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ وَشَرَفِهِ وَعَرْضِهِ . فَهُوَ يَطِيعُهَا لِهَذِهِ الْإِسْبَابِ ، لَا كَمَا جَاءَ فِي رَأْيِ لَامَانَسِ الَّذِي صَعِبَ عَلَيْهِ التَّوْفِيقُ بَيْنَ حُرِيَّةِ الْعَرَبِيِّ الشَّخْصِيَّةِ وَطَاعَتِهِ لِقَبِيلَتِهِ (٣) . وَلَقَدْ وَقَعَ أَحْمَدُ أَمِينٌ فِي الْخَطَأِ نَفْسَهُ حِينَ قَالَ عَنِ الْعَرَبِيِّ الْقَبْلِيِّ قَبْلَ الْإِسْلَامِ : «أَمَّا نَاحِيَتُهُمُ الْخَلْقِيَّةُ فَمِيلٌ إِلَى حُرِيَّةٍ قَلَّ أَنْ يَحْدُهَا حَدٌّ ، وَلَكِنَّ الَّذِي فَهَمُوهُ

(١) مَعَ أَنَّنَا نَتَّفَقُ مَعَ رَأْيِ لَامَانَسِ فِي جَانِبِ ثَوْرَةِ الْعَرَبِيِّ عَلَى السُّلْطَةِ الَّتِي تَحَاوَلَتْ أَنْ تَحْدُ مِنْ حُرِيَّتِهِ ، إِلَّا أَنَّنَا لَا نَتَّفَقُ مَعَ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ مِنْ عَدَمِ خُضُوعِهِ لِلْسُّلْطَةِ . انظُرْ آرَاءَ الْمُسْتَشْرِقِ لَامَانَسِ ، الْمَقْتَبَسَةَ فِي كِتَابِ أَحْمَدِ أَمِينِ مَصْدَرِ سَبْقِ ذِكْرِهِ ، ص ٣٤ .

(٢) أَحْمَدُ أَمِينٌ ، الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ص ٣٨ .

(٣) يَقُولُ لَامَانَسُ فِي هَذَا الصَّدَدِ : « ٠٠ وَيَبْلُغُ حُبُّ الْعَرَبِيِّ لِحُرِيَّتِهِ مَبْلَغاً كَبِيراً ، حَتَّى إِذَا مَا حَاوَلَتْ أَنْ تَحْدُهَا أَوْ تَنْقُصَ مِنْ أَطْرَافِهَا هَاجَ كَأَنَّهُ وَحْشٌ فِي قَفْصٍ ، وَثَارَ ثَوْرَةٌ جَنُونِيَّةٌ لِتَحْطِيمِ أَغْلَالِهِ وَالْعُودَةَ إِلَى حُرِيَّتِهِ ؛ وَلَكِنَّ الْعَرَبِيَّ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى مُخْلِصٌ مَطِيعٌ لِتَقَالِيدِ قَبِيلَتِهِ ٠٠٠ » مِنْ دُونِ أَنْ يَجِدَ الصَّلَةَ الْوَاضِحَةَ بَيْنَ بَيْنِ هَذَيْنِ السُّلُوكَيْنِ . انظُرْ أَحْمَدَ أَمِينِ ، فَجْرُ الْإِسْلَامِ ، مَصْدَرِ سَبْقِ ذِكْرِهِ ، ص ٣٤ .

هي الحرية الشخصية لا الاجتماعية ، (١) . فلو كان الامر بهذا الاطلاق ، فكيف نفسر اذن طاعة العربي لقبيلته ؟ والحقيقة ان طاعة العربي لقبيلته هي لون من الوان الانسجام والتكامل بين الحرية الشخصية والحرية الاجتماعية . وقد اكد هذا الرأي جواد علي بقوله « والعربي مجبول على الحرية ، وهو لا يطبق الخضوع لاحد سوى قبيلته على ان لا يؤثر ذلك في حريته الشخصية » (٢) . وقد اعجب المؤرخون اليونان والرومان من امثال « هيرودتس » « بحب العرب للحرية » (٣) ، ورأوا في ذلك سببا قويا لمقاومتهم للاستبداد ، « فذكروا انهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الاسيوية الذي لم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم » (٤) . ولقد وفق جواد علي في الربط بين الحرية الشخصية والحرية الاجتماعية ، موضحا ان حدود الحرية الاجتماعية قد اقتصرت على القبيلة فقط (٥) . وهذا ما منع من التحام القبائل بعضها ببعض وتكوينها لمجتمع كبير واحد . وظلت هذه القبائل على هذه الحال الى ان جاء الاسلام فوحدها في امة واحدة .

النزعة الى الحق والعدل :

والمعنى في حياة العربي القبلي قبل الاسلام ، يجد انه كانت تسوده في حياته

-
- (١) الاستاذ احمد امين ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .
(٢) للرجوع الى التفاصيل الاخرى انظر د . جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٧٠ وما بعدها . يقول د . جواد علي من بين ما يقول في هذا الصدد « والعربي من هذه الناحية شديد التعلق بالحرية ، والاعرابي يشعر ، وهو في الحضر بين سكان القرى او المدن ، انه في سجن لا يطاق لكثرة القيود التي تقتضيها عادات المتحضرين ، ويسعى للعودة الى وطنه حيث ينطلق حرا كما يشاء . والقبائل تشعر هذا الشعور نفسه ، فهي تعيش متمتعة باعظم قسط من الحرية ، لا تضحى بها الا لمقتضيات المحافظة على الحياة حيث ترتبط بواجبات التحالف مع القبائل الاخرى للدفاع عن النفس وتأمين ضروريات الحياة » .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه .

فيما اجتماعية - سياسية معينة ، عكست في الاغلب بيئته الطبيعية التي عاش فيها وعكست عاداته الاجتماعية التي توارثها . وليس في هذا غرابة . ذلك ان لكل مجموعة بشرية طبائعها وطرزا لحياتها وتقاليدها تكونت لديها عبر السنين والاجيال .

والواقع ان العربي القبلي لم تكن سجاياه كلها سجايا حسنة ، ولكنه شأنه ، شأن كل مخلوق له سجايا حسنة واخرى سيئة . ومع ان العربي القبلي كان قد تحلّى ببعض الصفات والقيم السيئة التي اوردها بعض المفكرين^(١) ، من المستشرقين خاصة ، كالنزوع الى الحرية المفرطة ، والغزو ، والحروب المتكررة بين القبائل ، الا ان هناك من المحاسن الكثيرة ما كان قد غطى على تلك المثالب . والمهم ان تعلم ان المفكرين المعتدلين من امثال احمد امين وغيره ، مع اعترافهم ببعض مثالب العربي قبل الاسلام ، الا انهم اشادوا في نفس الوقت الى المبالغة الزائدة فيها من قبل البعض من جهة ، وسوء الفهم عند البعض الاخر من المفكرين من جهة ثانية ، والتناقض عند البعض الاخر ، من جهة ثالثة^(٢) . وهذا ليس معناه ان ليس للعرب مثالب . على العكس فان العرب ، كما اسلفنا ، لهم مثالب ، ولكن المهم ان تعلم ان لهم محاسنا تطغى على مثالبهم وذلك عند وضع جميع مفاهيمهم وقيمهم في الميزان . ومن هنا كان الخطأ ، كل الخطأ في نفي كل مثابة عن العرب^(٣) . والمهم بالنسبة لموضوعنا الان الوقوف على قيم العربي القبلي ومثله السياسية .

(١) راجع احمد امين في مناقشته لآراء المفكرين عن العربي قبل الاسلام في كتابه فجر الاسلام ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٤ وما بعدها .

(٢) يقول ابن خلدون في مقدمته ص ١٣٥ ان العرب « اهل انتهاج وعبث » . ويرد عليه احمد امين بقوله « وقد ناقض ابن خلدون نفسه ، اذ يقرر في موضع آخر من مقدمته ما يفهم منه استعداد العربي بطبيعته للتحضر » ، مشيراً الى قول ابن خلدون ان العرب « تطوروا بطور الحضارة » . المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٣) يقول الالوسي في بلوغ الارب « ان العرب لما كانوا اتم الناس عقولا واحلاما ، واقربهم افهاما ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، واورثهم كل منقبة جلييلة » . ج ١ ، ص ١٤٤ .

ومهما يكن فقد كان للعربي القبلي الاقليمي قبل الاسلام ، من القيم والمثل الاجتماعية والسياسية الحسنة ما يستحق كل اشارة .

ومن اهم هذه المثل الاجتماعية والسياسية نزعة العربي الى الحق واذعانه له اولا وقبل كل شيء . فيقول العلامة ابن خلدون في معرض وصفه لسجايا العرب ومثلهم العليا ، وهم . . . اسرع الناس قبولا للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج الملكات ، وبراعتها من ذميم الاخلاق . . . ،^(١) وعند اجراء تحليل لما جاء به العلامة ابن خلدون نجد ان طبيعة العربي عامة وطبيعة عقليته بالذات تتمثل في انها اولا عقلية تقوم على الاستقامة وعدم المغالطة . اذا ما سلامة الطبع الا تعبير للاستقامة وعدم النزوع الى المخاتلة واللف والدوران وعدم المغالطة بالذات . وقد كونت هذه الطبيعة في التفكير قاعدة خلقية اساسية في توجيه سلوك العربي الى سلوك يقوم على الفضيلة ويحقر كل سلوك يقوم على الرذيلة . فطبع العربي ، اذن ، كما يراه ابن خلدون ، سليم خير ، وهذه السلامة وهذا الخير هو ما جعله سريعا في قبول الحق والاذعان له .

وعند ترجمة هذه الاقوال الى معانيها الاجتماعية والسياسية ، فان بالامكان القول ان البيئة الاجتماعية التي عاش وترعرع فيها العربي القديم هي بيئة اجتماعية تقوم بالاساس على قيم اجتماعية تستهجن الرذيلة وتقدر الفضيلة . ولما كان العربي قد تأثر بالمحيط الاجتماعي وقيمه ، لذا وجدناه وقد تشرب بسلامة الطباع . وسلامة الطباع هذه هي التي جعلته يميل الى الحق ويدعن اليه في علاقاته الاجتماعية مع الافراد الاخرين من ابناء بيئته الاجتماعية . واذن فان الميل الى الحق والاذعان له يمكن ان يكون مثلا اعلى عند العربي .

واذا كان ما تقدم يوضح لنا المعاني الاجتماعية ، فان المعاني السياسية لها لابد وان تنسجم مع نفس المفهوم الاجتماعي العام ، طالما ان السياسة تمثل جانبا معينا من حياة المجتمع الواحد . ويتوضح اكثر ، فان بيئة اجتماعية كهذه التي لا تسمح

(١) المقدمة ، ص ١٢٧ .

لابناءها الا طريق الاستقامة والاعتراف بالحق ، لا ترضى في ان تقوم العلاقة السياسية بين الراعي والرعية على غير الطريق السليم او المستقيم . وهذه الطريق المستقيم ان هي الا طريق الحق . طريق يستوجب في الراعي الحق ان يتحلى بالفضيلة والمروءة والشهامة وخدمة الرعية بروح حقة تقوم على احلال المساواة بين افراد المجتمع السياسي القبلي ، وهى بهذا تطمئن كرامة الافراد جميعا وحقهم المتساوي في المشاركة في بناء المجتمع السياسى . وهى من جهة اخرى تستهجن كل عمل ، سواء أكان من جانب الراعي او الرعية ينحو نحو الظلم .

ومن هنا اصبحت هذه القيم مثلا سياسية عليا عند العربي القبلى - الاقليمي قبل الاسلام . ومن هنا كان العربي مرهف الحس والشعور في ان الخروج عنها يتطلب منه الثورة عليها طالما انه يقرنها بكرامته الشخصية ، وحقه في الحرية والحياة القائمة على المساواة . ومن هنا ايضا كانت الزعامة السياسية تستقر في أفضل^(١) الناس واقوامهم خلقا وتمسكا في احقاق الحق لكل مظلوم . حتى اذا ما توفر ذلك اطاع الافراد زعماءهم مختارين لا مكرهين .

المثل الاعلى في القيادة :

واما السلطة في مثل العربي القبلى العليا قبل الاسلام فانها تلك القيادة التي تقوم لتعكس المثل الاعلى لرجل القبيلة عنده . فهو يرى في هذا المثل الاعلى المحافظة على قيم القبيلة في انشهامة والشجاعة والمروءة والتعاطف واحقاق الحق وانصاف المظلوم .

والذي يبدو من هذا ان القيادة في مثل العربي القبلى قبل الاسلام هي قيادة معبرة عن قيمه الاجتماعية وفلسفته في الحياة . ومن هنا نفهم ان القيادة

(١) يؤكد الاستاذ محمد كرد علي ، في كتابه الاسلام والحضارة العربية في ان قبيلة قريش لم تشتهر بين اقرانها الا بضرها المثل الطيب في التعامل الاجتماعي والسياسي مع القبائل الاخرى . فهو يقول في معرض وصف نوعية قيادتها وعلاقاتها مع الغير ، ان اهم الاعمال التي فيها قيام مجتمعهم قد احيل النظر فيه الى اذداد من بطون معروفة ، فكان من ذلك نظام جمهورية صغرى تولى زمامها امثال الناس ، ص ٣٩ .

التي ترتضيها القيم القبلية العربية هي قيادة غير أمرة بأي حال من الاحوال^(١). ذلك لان القيادة الامرة هي صورة من صور الظلم لا العدل والحق ، والعربي بطبعه يأبى الظلم ويثور عليه ، لان ذلك يتعارض مع قيم مجتمعه التي تدعو الى اقامة العدل والحق . ثم ان القيادة الامرة من جهة اخرى ، توحى له الاهانة لشخصه والتقليل من كرامته ، وهذا ما لا يرتضيه ، لان الكرامة الشخصية ، اساس يجب ان تقوم عليه حياته في علاقته مع اسرته وعشيرته وقبيلته وحتى في عمله . ومن الطريف في هذا الباب ، ان العربي كان يحقر بعض الاعمال ، لا لسبب سوى انها تجلب المهانة الى شخصه وتعارض مع كرامته .

وحينما يسير الباحث في تحليل المثل الاعلى في القيادة اكثر فاكثر يجد انها تتمثل في خدمة الجماعة ، بحيث يصدق عليها المثل العربي السائد « خادم القوم سيدهم » . ومن هنا كانت المثل السياسية العربية اقبلية في القيادة قيادة لا تقوم على الامتيازات ابدا . ذلك ان اى امتياز يمارسه القائد على قبيلته يعنى عدم المساواة وبالتالي اقرار قيام الطبقات . وفي الحقيقة ان العربي لا يقر مبدأ عدم الامتيازات للقيادة او للطبقة وحسب ، وانما هو يثور على كل قيادة تريد ان تفرض نفسها بالقوة وتضع لنفسها امتيازات على الاخرين^(٢) . وبهذا المعنى فان القائد في المفاهيم العربية القبلية هو فرد من افراد القبيلة ، ولا اكثر من ذلك . الا ان هذا الفرد ليس بفرد ضعيف ، وانما هو فرد شجاع وهو اول من يلبي دعوة الدفاع عن قيم قبيلته ويضحى بالنفس والنفيس من اجلها ، وهو حكيم في تصرفاته ، قد اكسبته السنوات الطوال هذه الحكمة ، وهو فوق كل ذلك ، فان ما يميزه عن غيره من الافراد هي الواجبات والمسؤوليات التي يتحملها في خدمة قبيلته وافرادها^(٣) .

(١) انظر د. فودة ، ص ٢٥٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

(٣) انظر ، بروكلمان ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١١٧ .

نظرية ونظام الدولة القبلية

طبيعة نظرية ونظام الدولة القبلية :

قبل البحث في تفاصيل الموضوع ، من الضروري القول ان نظام الدولة القبلية ان هو الا التجسيد القلي لنظريتها وان كليهما انعكاس للعقلى العربية ، ولطبيعة هذه العقلى بالذات . واذا ما نظرنا الى الموضوع بعمق اكثر نجد ان نظام الدولة القبلية يمثل التجسيد السياسى للنظام الاجتماعى الذى قام عليه مجتمع اقبيلة . فهذا النظام الاجتماعى هو الذى خلق مجتمعا قبليا عربيا قائما على العصبية القبلية ، وهو الذى خلق كلا من نظرية ونظام دولة القبيلة التى تحددت بحدوده . والواقع ان هذا النظام الاجتماعى قد بدا جليا في دولة القبيلة سواء أكان ذلك في نظام رياستها أم في مجلس شورتها أم في اساليب تعاملها مع ابناءها أو غيرها من القبائل .

والمهم ان نعلم مما تقدم ، ان النظام الاجتماعى الذى خلق نظرية ونظام دولة القبيلة السياسى ، قد لعب الدور الكبير فى تحديد ولاء المواطن - لدولته القبلية . فالقبيلة التى هي امتداد خط دم العائلة والعشيرة قد حددت مفهوم خط الولاء لابناء القبيلة الفكرى ، بمفهوم خط الدم . وبديهي ان مثل هذا المفهوم يجعل من وحدة الاقليم امرا تابعا لوحدة الدم .

واذا كان ما تقدم هو احد نتائج النظام الطبيعى والاجتماعى السائد عند القبيلة العربية ، فان هناك نتائج اخرى لا غنى عن ذكرها ، قد اوجدها هذا النظام ايضا . ومن اهم هذه النتائج المهمة الاخرى ، هي ان النظام الاجتماعى القبلى قد خلق دولا عربية عديدة . وبمعنى آخر ان هذا النظام - قد عجز عن ضم العرب جميعا في دولة واحدة . والواقع ان هذا التعدد في الدول قد ظل كذلك الى ان جاءت الرسالة بمفاهيم جديدة تمكنت من جمع الدول المتعددة في دولة عربية اسلامية واحدة .

والذي يجب الاشارة اليه بعد هذا التمهيد اخذص بطبيعة النظام القبلي ، هو الوقوف على مقوماته وطرز بنائه السياسي .

رئيس الدولة :

يرمز الى مدبر شؤون القبيلة بالرئيس او الشيخ او السيد^(١) . فما الرئيس فكان يقصد به القائد^(٢) . والذي يتضح من ذلك ، ان الرئيس هو اعلى شخصية سياسية واجتماعية في دولة القبيلة . وهذه الشخصية السياسية هي التي تتكلم باسم القبيلة في احوال السلم والحرب . وربما كانت تسمية الرئيس بالقائد مشتقة من قيادته لقبيلته في حروبها وغزواتها مع غيرها من القبائل .

ورئيس الدولة صورة تقاليد دولة القبيلة . فلقد لعبت هذه التقاليد الاجتماعية والتقاليد السياسية بالذات بمثابة الدستور الذي يسير بهديه مجتمع القبيلة السياسي . فهي التي وضعت او على الاصح حددت الطريقة التي يأتي بها رئيس الدولة لتولي عمله . ومع انه لم يكن هناك نظاما دقيقا ، كما هو الحال في الدستور الحديثة ، الا ان الخطوط العريضة كانت من الواضح بمكان بحيث حددت طريقة مجيء الرئيس بالانتخاب^(٣) . اي ان موافقة القبيلة ورضاها امر ضروري . وتم هذه الموافقة عن طريق اتفاق الرأي على فرد من افراد القبيلة ليكون رأسا او رئيسا عليها . على ان هذا الاختيار او الانتخاب لا يكون مطلقا ، وان هناك اشتراطات

(١) راجع د . صالح العلي . محاضرات في تاريخ العرب ، مصدر سبق ذكره ، يقول د . صالح العلي بصدد مصطلح الشيخ : « اما الشيخ فكان المقصود به عادة الكبير السن سواء ساد ام لم يسد » . ص ١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ،

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦ . يقول د . صالح العلي في هذا الصدد « واذا حدث وانتخب رجل بعد ابيه فان ذلك يكون عادة لما يتصف به الرئيس الجديد من مميزات تؤهله للمنصب ، لا بنوته للرئيس القديم » . ثم يقول : « والواقع ان العرب لم تكن تفضل ان يخلف الابن اباه لما قد يجره ذلك من تقرير مبدأ الوراثة في الرئاسة وما قد يؤديه من تقييد حرية البدوي » . انظر كذلك ابن خلدون في مقدمته في هذا الموضوع ، ص ص ١٣٠-١٣١ ؛ وانظر ايضا الاغانى ، ج ١٧ ، ص ١٠٦ .

فرضها دستور القبيلة • وتأتى في مقدمة هذه الاشتراطات مركز ذلك الفرد الاجتماعي بحيث تمثل فيه قناعة القبيلة بان هذا الفرد هو اجدرهم لياقة لتولي اعباء ادارة شؤون القبيلة بمعاونة مجلسها • اى انه الشخص الاجدر بكسب الاحترام الشخصي^(١) ، لدى افراد القبيلة • ومما يعمل على تحقيق هذا النوع من الاحترام عند افراد القبيلة هو ان يكون اكبرهم سنا • وكان يراد بهذا الشرط ان السنين الطويلة قد اكسبت صاحبها الخبرة الواسعة بشؤون وحاجات قبيلته • فهو اذن اجدر من يحافظ على تقاليدنا ويدود عنها ويحقق امنها وكرامتها بين القبائل الاخرى •

وتتمثل هذه الخبرة الواسعة في صفات تميزه عن غيره • ومن هذه الصفات • الحنكة والتبصر في الامور والشجاعة والسخاء^(٢) • فأما الحنكة فكان يراد بها الذكاء والمقدرة على تصريف شؤون القبيلة بجدارة ومهارة • واما الشجاعة فكانت تتطلب من القائد في اوقات الازمات والحروب في ان يقود افراد قبيلته في المعركة والوصول بها الى النصر • اما ما يخص التبصر في الامور فكان الغرض منه ان يتحلّى القائد بالصبر والحلم وعدم التسرع ، وذلك حفاظا على مصلحة قبيلته • والملاحظ ايضا ان التقاليد العربية ، قد اضافت شرطا آخر في القيادة وذلك هو السخاء • وهذه سجية اصيلة فرضتها البيئة العربية التي امتازت بالقسوة والفقر ، وفرضت معها الحاجة الى قائد تمثل فيه صفة الابوة بحيث يضحى بكل غال ورخيص من اجل ابناؤه •

وإذا كان ما تقدم يمثل لنا الصفات والسجايا الواجب توفرها في القائد المختار ، فان هناك امورا اخرى تتطلب من هذا القائد • وهذه الامور تتمثل في مسؤولياته تجاه قبيلته •

(١) انظر تاريخ الاسلام ، ج ١ ، د • حسن ابراهيم حسن ، ص ٥٢ •

(٢) د جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ، مصدر سبق

ذكره ، ص ٣٧٢ •

وما يجب ان لا يخفى عن البال هو ان مسؤوليات رئيس القبيلة تنطلق من مفهوم الواجبات اكثر منه الحقوق والامتيازات . وبعبارة ادق فان مسؤوليات رئيس دولة القبيلة تفرض عليه واجبات الخدمة والتضحية من اجل قبيلته ، ودونما ان يكون له امتيازات او سلطات امرة على قبيلته^(١) . ومن ذلك مثلا ، الواجبات الملقاة على عاتقه في معاونة الضعفاء والمنكوبين وفي فتح بيته ليكون مضيافاً لكل من يفد اليه^(٢) . ومن ذلك ايضا واجباته في فض المنازعات والحكم في الخلافات وتولى المفاوضات الدبلوماسية مع القبائل الاخرى وادارة المناقشات في مجلس القبيلة وقيادة القبيلة في الحرب^(٣) .

وصفوة القول ، ان الواجبات التي مر ذكرها ، هي خدمات يؤديها الرئيس لقبيلته . والاكثر من ذلك ان هذه الخدمات التي يجب على الرئيس تأديتها لا يقابلها اية حقوق او امتيازات او سلطة . فهو لا يستطيع مثلا اصدار أي قرار بمفرده ، وانما عليه ان يحظى بتأييد الاكثية الساحقة في مجلس قبيلته . فالقرار ، بعبارة اخرى ، هو قرار مجلس القبيلة ، وليس قرار الرئيس ، اذ لا يجوز له التصرف ، بالنظر لعدم تملكه سلطة قانونية يمنحها اياه قانون التقاليد . وحتى انه لا يستطيع ان يمنع احدا من الكلام او فرض رأيه على الاخرين . اضافة الى ذلك ، ان الرئيس ليس لديه سلطة الزامية لتنفيذ اوامره . فلم تكن له شرطة لتنفيذ اوامره او سجون يسجن بها من يعصيه^(٤) .

والسؤال الذي يفرض نفسه الان هو من اين يستمد الرئيس سلطته اذن ؟ في الحقيقة ان سلطة رئيس دولة القبيلة تنبثق من حيث الاساس لا من سلطته الزامية وانما سلطة اقناعية . فالرئيس في كل واجباته واعمله يتطلب منه ان يمتلك حجة الاقناع وشخصية نفاذه تستمد قوتها من السلطة الادبية . وبهذه

(١) انظر د. فودة ، ص ٢٦٠ ؛ انظر كذلك :
Reuben Levy: The Social Structure of Islam, Cambridge. 1965,
p. 24

(٢) د. صالح العلي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

الصورة فإن الشيء الوحيد بيد رئيس دولة القبيلة عند اعلان قبيلته الحرب على قبيلة اخرى ، هو ليس اعلانه التجنيد الاجباري^(١) ، لعدم وجود سلطة او قانون تمكنه من هذا الاعلان ، وانما استخدامه نفوذه الادبي في حث ابناء القبيلة على النهي للحرب ذودا عن مصالح القبيلة وليس أي شيء آخر .

مجلس الدولة القبيلة :

يمثل مجلس القبيلة في نظام الدولة القبلية العربية قبل الاسلام السلطة العليا التي ما فوقها سلطة . ويعود السبب في ذلك الى نظرة العربي قبل الاسلام ، او العقلية العربية قبل الاسلام التي رأت في ان قيام مجلس القبيلة يمنع رئيس القبيلة من اي استئثار بالسلطة . ذلك لان العرب ، وكما اسلفنا ، كانوا يرون في الاستئثار بالسلطة مهما كان نوعها انتهاكا لحريتهم وكرامتهم واهانة لاشخاصهم . وبناء على ذلك فان مجلس القبيلة من الناحية النظرية هو الهيئة التي يمكن لها مشاركة رئيس القبيلة في تسيير شؤون القبيلة ، الا انه من الناحية العملية يعمل اكثر بكثير من ذلك . ففي هذا المجلس تتم المناقشات في شؤون القبيلة كافة . فهو الذي يبت في منازعاتها وحروبها وامنها ورخائها وفض المنازعات بين ابناءها وتنظيم حياتها . والاكثر من ذلك ان ما يراه مجلس القبيلة لا يمكن للرئيس مخالفته لانه وان كان له مسئولية ادارته ، الا انه ينظر اليه كفرد من افراده يأتمر بأوامره . والصفة التي تميزه عن غيره من الافراد ، هو انه ملزم بتطبيق او تنفيذ قراراته .

والواقع ان اعضاء مجلس القبيلة لا يأتون كيفما اتفق ، وانما هم اولئك الانسخاص البارزون في القبيلة ، ممن اشتهر بمركزه الاجتماعي وتضحيته وامانه وطول تجربته ومخالطته ، ومعرفته بدقائق شؤون القبيلة . فهم الذين يتحدثون باسم القبيلة . وهؤلاء الاعضاء بكليتهم يمثلون عقل القبيلة وعصبها الحساس .

(١) المصدر السابق نفسه .

ومن هنا كانت مسؤوليات مجلس القبيلة ، بلغة العصر ، مسؤوليات تشريعية • وعن هنا كان المجلس برلمان القبيلة • والمهم ان نعلم ان القانون الذي يسير المجلس يهديه ، هو دستور تقاليد القبيلة • ودستور تقاليد القبيلة هذا اذن ، هو الذي يجب ان يتخذ على ضوءه المجلس قراراته ومواقفه • هذا من جهة • ومن الجهة الاخرى ، فان المجلس حين يشرع قانونا فانه يصبح بمرور الزمن جزءا من تقاليد القبيلة ايضا • كما ان القرارات التي يتخذها هذا المجلس تجدر ملاحظتها وعدم مناقضتها طالما انها تتوفر فيها شروط المحافظة على أمن القبيلة وسعادتها • وفيما عدا ذلك ، فان عليه اتخاذ القرار او الموقف الذي يحفظ وحدة القبيلة وتماسكها وامنها •

ومن الجدير بالذكر ان قرارات مجلس القبيلة ، غالبا ما تتخذ باجماع الآراء • وكل ذلك تحاشيا من فتح ثغرة للخلاف بين كبار القوم ، وخاصة في المسائل الخطيرة كاعلان الحرب مثلا • اما في الاحوال الاعتيادية فانه يكفي اتفاق آراء اغلبية الاعضاء^(١) ، وفي هذه الحالة ، على الاقلية ان تخضع لمشيئة الاكثرية •

والذي يمكن ان يستنتج من مجلس القبيلة في نظام دولة القبيلة السياسي ، هو ان اسلوب معالجة الحكم عند الدولة القبيلة العربية لم تكن بدائية كما يتصور البعض • ذلك ان هذا الاسلوب لا يزال متبعا حتى في عصورنا الحديثة وفي احدث النظم السياسية المعاصرة • ثم ان العضوية في مجتمع سياسي صغير ، كالمجتمع القبلي ، لم تكن عضوية فرضتها المصالح • على العكس من ذلك • فان عضوية المجلس كانت محصورة بكبراء القوم وكفؤيهم ممن اشتهروا برجاحة العقل وبعد النظر • ومثل هذا شيء • ترجو تحقيقه احدث النظم السياسية في العالم اليوم • والاكثر من ذلك ، فان اللجوء الى مشورة العقول المتعددة ، قد ابعدت نظام دولة القبيلة العربي عن التعسف والتمركز في السلطة والرأي • وهذا ما جعل هذا النظام ان يكون بعيدا عن التسلط والاستبداد •

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٤ •

الفرد والمجتمع في الدولة القبلية :

وتقصد بالفرد والمجتمع في الدولة القبلية العربية قبل الإسلام من حيث نوع العلاقة القائمة بين ابن القبيلة الفرد وبين مجتمعه السياسي ، هل هي علاقة قانونية أم سياسية أم أنها غير ذلك . هذا من جهة . ومن الجهة الأخرى فأننا نجد أن السؤال الذي يمكن أن يثار هو مدى حرية الفرد في هذا النوع من المجتمعات السياسية ، وهل هي ذات حدود مطلقة لم حدود مقيدة ؟ ثم ما هو الوازع الذي تقوم عليه هذه الحدود ؟ وبعبارة أخرى كيف نوفق بين الأفراد وبين واجباتهم تجاه مجتمعهم ، هل هناك تعارض بينهم ، أو صدام ؟

والواقع أن الاجابات على الاسئلة المتقدمة لا بد وان تقوم على تفهم الحقيقة وهي أن العربي القبلي ينظر الى علاقاته السياسية مع مجتمعه من زاويتين : الأولى ، حرته الشخصية والثانية ، حرته الاجتماعية . فاما من حيث حرته الشخصية ، فإنه يرى نفسه مساويا لاي فرد آخر في القبيلة . وهو يعترض ببعض القيم ككرامته الشخصية واحترامه وحسن معاملته . انه ينظر الى الكرامة والاحترام والمساواة في المعاملة ، نظرة تقوم على الفكرة التي تقول ان هذه المسائل هي من صميم حقوقه ولا يجوز لاحد ان يهينها او ان يعتدي عليها (١) . وكما استلفنا في السابق ، ان اية اهانة تلحقه من جراء الاعتداء على اي من هذه المسائل ، تجعله يثور ويغضب ويرفض ويطالب باستعادتها سواء كان ذلك

بوسائل اللين او الشدة . والواقع ان العربي القبلي كان ينظر الى حرته الشخصية نظرة لا تنبثق من التزام سياسي او قانوني (٢) وانما هو يرى انها تنبثق من التزام ادبي وخلقى . وبهذا الالتزام الادبي والخلقى ، ينطلق منه العربي لتفهم مجتمعه او بالأحرى قبيلته ، وروبيتي من خلاله علاقته معها . وبعبارة أخرى ، ان حرته الشخصية ،

(١) انظر R. Levy في كتابه *The Social Structure of Islam* ،

مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٢ .

(٢) د . صالح العلي ، مصدر سبق ذكره ، محاضرات في تاريخ العرب ،

ج ١ ، ص ١٣٣ .

لا يجوز له ان يغالى بها الى الحدود المتناهية طالما انه يشعر انه يرتبط بعائلة
وبعشيرة وبقبيلة • وسبب عدم المغالاة في الحرية الشخصية يحدد فيه سلوكا
منسجما مع حرية الجماعة او بتعبير آخر مع الحرية الاجتماعية •

والحقيقة ان الدافع الى كل هذا - اي الى الانسجام بين حرته الشخصية
وحرته الاجتماعية - هو ان رابطة النسب والدم لا تقطع عند حدود القبيلة •
وهذه الرابطة - رابطة الدم او الاصل الواحد ، تفرض عليه واجبا اجتماعيا
وخلقيا بحيث انه باختيار منه يرى ان عليه التضحية بشيء من حرته
الشخصية (١) - عندما يستدعي الامر الى ذلك - في سبيل مجتمع قبيلته الذي
علاقته معه تشكل صورة مكبرة لعلاقته مع عائلته • ومبعث هذه التضحية
شعوره بمسؤوليته الخلقية تجاه الجماعة التي ينتمي اليها برباط الاصل الواحد
والنسب الواحد • ومثل هذه المسؤولية والشعور تجعل منا ان نقول ان العربي
القبلي هو فردي من حيث انه يتمسك بحقوقه الشخصية ومصالحه ، الا انه
فردي في حدود : فهو فرد من جماعة ويشعر بمسؤولية تجاه هذه الجماعة (٢) •
وتمثل هذه المسؤولية في روحه العالية تجاه جبرته واخوته ، وفي نجدتهم اذا
ما اصيبوا بمكروه او اذى ، وفي تلبية نداء رئيس قبيلته للخوض في غمار الحرب
والدفاع عن القبيلة حين يداهما خطر • وهنا لا بد من القول ثانية ان الدافع الى
روح الاخوة والجوار والمسؤولية تجاه الجماعة هو دافع ذو صبغة اخلاقية (٣) •
ومن هنا جاز لنا القول ان الفرد يشعر ان له وظيفة اجتماعية يشترك هو
واخوانه فيها على قدم المساواة •

(١) انظر Levy ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٢ •

(٢) يفسر بعض الكتاب من ان « الشعور بوحدة الفرد مع الجماعة » يمتد
الى الحد الذي يدافع فيه الفرد عن اخوانه الاخرين سواء كانوا ظالمين او
مظلومين • وبهذا يكون قد تحمل مسؤولية كبيرة جدا ؛ قد تعرضه لفقد حياته
بسبب نصرته اخوانه حتى في حالة اعتدائهم على الغير • للرجوع الى التفاصيل
انظر لامانس • مهد الاسلام ، قسم ٣ ، ص ٧٥ وما بعدها ؛ بشر فارس : مباحث
عربية ، ص ٧٥ وما بعدها •

(٣) د. صالح العلي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٣ •

وما يمكن استخلاصه مما تقدم ان العلاقات السياسية بين الفرد والجماعة تنبثق من حريتين متداخلتين : الاولى حرية شخصية والثانية حرية اجتماعية . والجدير بالذكر ان الحرية الاجتماعية هي اوسع من الحرية الشخصية . وهي بمسألة اخرى ، هي حرية المجتمع : او قل حقوق المجتمع على الافراد التي يتعاون في ادايتها الافراد . وهذا الاداء يجعل من الحرية الاجتماعية واجبا على الافراد . وهكذا فان الشعور تجاه رابطة الاصل هو التزام خلقي من جانبين : جانب الدفاع من قبل الفرد عن جماعة ، وجانب الحماية من قبل الجماعة للفرد . ذلك لان وجود كليهما مرتبط برباط واحد ، وانهما التزام خلقي واحد . ولان تواني الفرد عن دفاعه عن حقوق قبيلته لا يعرضه للخروج عن الجنب الخلقي من تقاليد وحسب ، وانما يعرض نفسه لفقدان الحماية من قبيلته ايضا . انه في الواقع ترابط يفرضه دوام بقاء القبيلة والفرد وان عدم التفريط به هو مبعث الشعور بالمسؤولية الخلقية .

الفكر العربي القديم : ما بعد الرسالة

مثل الرسالة الإسلامية السياسية العليا :

لقد كانت الرسالة الإسلامية ذات اثر كبير في حياة العرب عامة ، وانها سببت لهم تحولا كبيرا في حياتهم السياسية خاصة .

فكما هو معلوم ان حياة العرب القبلية - الاقليمية قبل الاسلام كانت تسودها المنازعات - وكانت دول القبائل والاقاليم - وان كانت تقوم بينها محالفات وهدنة في اشهر معينة من السنة ، الا ان حياتها لم تخل من الغارات على بعضها البعض ، ومن الحروب . وليس من المبالغ فيه ان تلك الحروب كانت تقوم اكثر ما تقوم بناء على تعصب القبائل ضد بعضها البعض ، وذلك بفعل ارتباطها برباط الدم .
وأول ما عملت عليه الرسالة الإسلامية هو نشرها فكرة السلام بين القبائل وبعبارة اخرى ان اول عمل قامت به الرسالة هو اقضاء على المنازعات والغارات والحروب بين القبائل وحثها على التصالح فيما بينها - لان الصلح هو خير لها جميعا .

وبعبارة ادق ، فان فكرة المصالحة جاءت لتقول للقبائل ان الخلافات تعمل على قيام حياة قلقه وغير مستقرة . وان العمل على القضاء على الخلافات معناه القضاء على الحياة المقلقة التي تسود القبائل واستبدالها بحياة مستقرة آمنة لهم جميعا .

ولم يكن من السهل القضاء على الخلافات القائمة على العvisية في بداية الامر . ذلك ن مثل هذه الخلافات لا يمكن ان تزول ما دام الأفق السياسي لابناء القبيلة قد تحدد بحدود العvisية القبلية . واذن فكان لابد من ازالة الحجة القائمة على الحدود القبلية بحجة اقوى تأثيرا واكثر اقناعا . ولقد جاءت هذه الحجة الإسلامية الجديدة بفكرة الأخي بين القبائل جميعا . ولا شك ان هذه الفكرة الجديدة كان لها تأثيرا كبيرا على حياة العرب السياسية والاجتماعية .

وكان هذا التأثير يتجلى في انها غيرت تفكير وافق العربي القبلي السياسي والاجتماعي . فبعد ان كان ضيقا ضمن المفهوم القبلي - الاقليمي ولا يتسع لآكثر من ابناء القبيلة الواحدة ، او ابناء الاقليم الواحد التي تتحد فيه عدة قبائل ، اصبح هذا الافق في معناه الاسلامي متسعا كل الاتساع بحيث شمل كل العرب ، وكل من آمن بالعقيدة الاسلامية بالذات (١) . ومن هنا اصبح العربي المسلم اخ للعربي المسلم الاخر ، على الرغم من اتمائهما الى قبيلتين مختلفتين . وطبيعي ان فكرة قوية كهذه ، تستند على قيم روحية وانسانية واقناعية ، كان لها ان تكسر الحدود القبلية المتعصبة . وكسر الحدود هذا عمل بالتالى على هدم اكيان القبلي السياسي الذى ساد الجزيرة قبل الاسلام .

على ان فكرة المؤاخاة التي جاءت بها الرسالة الاسلامية لم تكن لتكفي لتفويض دعائم النظام القبلي - الاقليمي وما حواه من تعصب ، الا لتأتي بفكرة قويمه اخرى ، تدعم الفكرة الاولى . ذلك ان فكرة التألف والمؤاخاة تبقى رمزا نظريا لا يترك اثرا ملموسا الا اذا وضعت موضع التطبيق . ولا شك ان ذلك كان يحتاج الى مبدأ أو قاعدة تقوم بعملية دفع الفكرة هذه من من عالمها النظري الى عالمها التطبيقي . وقد جاءت الرسالة الاسلامية بهذا المبدأ الذى تمثل بالمساواة لا بين العربي والعربي وبين المسلم والمسلم وانما بين الانسان والانسان ايضا . ومعنى ذلك ان الناس يجب ان ينظر اليهم نظرة متساوية ، لا فرق بين اسود وابيض وغني وفقير وعربي وغير عربي . فالمؤمنون اخوة ، متساوون في حقوقهم . وان كان هناك تفضلا بين الفرد والاخر ، فان هذا التفاضل لا يقوم بسبب العصبية او اللون او الجنس ، وانما هذا التفاضل يكون باعمال الصالح . فخير الناس هو من كان مستقيما في عمله ، ومن كان مسؤولا يعلم ما له وما عليه ولا يعتدى على الاخرين . والاكثر من كل ذلك ان ما يفضل انسانا على انسان آخر ، هو مقدار عمله الصالح الذى ينفع به الاخرين : أي ينفع به مجتمعه واخوانه . فخير الناس انفعهم للناس .

(١) الريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٣٧ .

وعلى هذا الایس جاءت الآيات الکریمات لتقول « یا ایها الناس انا خلقناکم من ذکر واتی وجعلناکم شعوبا وقبائل لتعارفوا •• ان اکرمکم عند الله اتقاکم •• » وجاء الرسول (ص) لیؤكد بعد اتمامه الرسالة فی حجة الوداع علی هذه المساواة بین الناس ولیقول « ایها الناس ان ربکم واحد وان اباکم واحد ، کلکم لآدم وادم من تراب » ان اکرمکم عند الله اتقاکم • وليس لعربی علی عجمی ولا لعجمی علی عربی ولا لاحمر علی ایض ولا لأبیض علی احمر فضل الا بالتقوی • وحسبنا ان نشیر هنا الی ان مبدأ المساواة بین الانسان والانسان ومبدأ التفاضل علی اساس العمل الصالح والخدمة للآخرین هو من المبادئ التي سبقت کل ما جاءت به النظریات الحديثة من افکار ، وهو یتحق منا کل اهتمام وتقدير •

ولعل ما عمل علی الاسراع فی تجسید ما تقدم من افکار ووضعها موضع التطبيق هو ان الرسالة لم تترك البناء الاجتماعي الجديد من دون بناء سیاسی جدید ایضا ، وظیفته السهر علی حماية المثل والقیم الاجتماعية الجديدة • وقد تمثل هذا البناء السياسي الجديد فی انه اقام دولة جديدة وقواعد تقوم علیها هذه الدولة الجديدة ونظامها السياسي • وكان لابد لهذه القواعد من ان تستند علی اساس يقوم علی کیان الحكم السياسي • اما اساس هذا الحكم الاسلامی الجديد فهو العدالة الاجتماعية • ووظيفة الدولة وفق ما جاءت به العدالة الاجتماعية قد تحددت فی اخذ الحق من الظالم ونصرة المظلوم (١) •

والواقع ان قبول وانتشار فكرة العدالة القائمة علی اخذ الحق من الظالم وانصاف المظلوم قد تمكنت من النجاح نتیجة ارتباطها بمفاهیم روحية سماوية تستمد قوتها من صلب الرسالة الاسلامية والایمان بها (٢) • وقد كان من نتائجها خلق مواطنین ذوي معنوية عالية • وقد خدمت کل هذه الدولة فالتحم الایمان

(١) تؤكد الآية الکریمة (٤٢) من سورة الشوری علی تحقیق الحق وابعاد الظلم ومحاسبة الظالمین بقولها « انما السبیل علی الذین یظلمون الناس ویبغون فی الارض بغير الحق • اولئک لهم عذاب الیم • »

(٢) انظر الدورى ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦ •

بالرسالة مع الايمان بالدولة الناشئة والساخرة على الرسالة الاسلامية ومبادئها •
ومن مظاهر هذا الالتحام ان التحدث التضحية من اجل العقيدة مع التضحية
من اجل الدولة •

وليس ما تقدم فحسب ، فان الرسالة قد جاءت بدستور اسلامي اعلى
يخضع له الحاكم والمحكوم • وتتجلى اهمية هذا الدستور الاسلامي الاعلى في
كونه قد تضمن قيودا واضحة لا تستطيع الدولة ان تحيد عنها^(١) • وبهذا
الدستور الاعلى اصبح الحكم الاسلامي حكما مقيدا كما اسلفنا • ولا يسع
الباحث في مقومات الدولة العربية الاسلامية الا وان يلتفت الى هذه الناحية
البارزة التي اخذ رجال الفكر السياسي المحدثين يؤكدون عليها للتمييز بين
الحكم المطلق وبين الحكم المقيد • وبهذه المفاهيم الانسانية المقيدة ، تصبح الدولة
الاسلامية التي اسسها الرسول محمد (ص) صاحب الرسالة الاسلامية قد
سبقت الدولة الحديثة في نشر مفاهيم الحكم المقيد للحفاظ على حرية الناس
وامنهم من تعسف الحاكمين •

ولم تكن الرسالة الاسلامية في وضع نظام الحكم المقيد ، من دون ان
ترسم له طريق تجسيده • ذلك ان نظام تقييد الحكم لا يكفي ان يأتي بدستور
تضمن احكامه صور التقييد لوحدها ، من دون ان تجد له جهازا للمراقبة •
وتتمثل المراقبة هذه في ضرورة اخذ الحاكم او الراعي مشورة اهل العقل او
كما اسمتهم الشريعة الاسلامية باهل الحل والعقد • وتتجلى وظيفة هؤلاء بالتنبه
على موضع الزلل ومناقشة الامور السياسية وغيرها مناقشة تضمن كشف الحق
والعدل والحقيقة • وفي كل هذا مراقبة للحاكم من اى تصرف فردي في تسيير
دفة الحكم • ومع ان العرب قد مارسوا « الشورى » في ظل قانون تقاليدهم
القبلي - الاقليمي في السابق الا ان الرسالة ، وان جاءت لتؤكد على الاستمرار
في تطبيق مبدأ الشورى في الحكم ، فان تأكيدها كان يحمل صفة سماوية روحية

(١) الرئيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢١ •

أمرية في وجوب سير الحكم على هذا النمط ، والا فانه يخرج عن الرسالة ويصبح بخروجه هذا خروج عن اطاعة الله ورسوله (١) .

وفي الحقيقة فان المثل السياسية العليا التي جاءت بها الرسالة الاسلامية قد تركت نتائج ايجابية مهمة في حياة العرب السياسة . واهم ناحية ايجابية اقامتها الرسالة هي انها وحدت العرب ، الذين ظلوا ينتمون الى دول متعددة ومبعثرة . تقول انها وحدت العرب سياسيا باقامة دولة واحدة وحكومة واحدة ودستور واحد . وبذلك فقد شعر العرب بكيانهم السياسي وكيانهم القومي الموحد لأول مرة في تاريخهم .

وثمة ناحية ايجابية اخرى تركتها الرسالة الاسلامية الا وهي انها حملتهم ودولتهم الموحدة مسؤولية نشر المبادئ الاسلامية - السياسية منها وغير السياسية - والدفاع عنها . وهذه المسؤوليات كانت ولا شك مسؤوليات كبرى . فلقد رأت في العرب - وهم الذين يؤلفون امة امتاز تاريخها بالنزعة الى الحق والعدل والفضيلة - انهم خير من ينشر القيم الاسلامية بأمانة . (كتم خير امة اخرجت للناس) . ولهذا اصبح العرب مادة الاسلام في التاريخ . وما يمكن قوله هنا هو ان العرب المسلمين الاوائل لو لم يتحملوا الرسالة الاسلامية بصورة صادقة ومنبثقة عن ايمان وتضحية ، ويتحملوا مهمة نشرها والدفاع عنها بأمانة ايضا ، لاصبح تاريخ الاسلام والدولة العربية الاسلامية والحضارة العربية الاسلامية ذاتها ، غير التاريخ الذي عرفناه .

ولكل ما تقدم ، وبالنظر لعظم الافكار والنظريات التي جاءت بها الحضارة العربية الاسلامية ، فان من الضروري الوقوف على هذه النظريات السياسية بشئ من التفصيل . وهذا ما سنبحثه في الفصل التالي .

(١) بدت الشورى في اعلى مظاهرها التطبيقية في عقد التحكيم السياسي الذي جرى في صفين بين الامام علي ابن ابي طالب وبين معاوية بن ابي سفيان في ١٥ صفر سنة ٣٧هـ الموافق ٦٥٧ للميلاد ، فلقد كانت من اهم الاسباب التي دعت الامام علي (رض) الى الرجوع الى الشورى ، الامتثال الى اوامر الشريعة الاسلامية .

لَقْضِ الشَّيْءَ

الابداع الفكري

توطئة :

ان الحديث عن الابداع الفكري ينقلنا الى الحديث عن الامم عبر الازمان المختلفة • فلقد اثبت لنا التاريخ الانساني الطويل ان الامم التي ظهرت على مسرح التاريخ كانت تمثل احد نوعين : اما انها امم استطاعت ان تبني لها فكرا عميقا وتقيم حضارة واسعة الانتشار فاصبحت على اثر ذلك امما مبدعة ، او انها امم لم تستطع بافكارها ان تخرج عن بيئتها ، ولم تستطع ان تقيم حضارة وفكرا مبدعا • وبعبارة ادق فان سبيل التقدم والابداع وان كان مفتوحا امام جميع الامم ، الا ان الذي يصل هذه الاهداف ينحصر في تلك الامم التي لها ارادة وتصميم • وان هذه الارادة يعمل على تكوينها عقلية الامة وظروفها الطبيعية ونظمها الاجتماعية والاقتصادية • والشئ المهم في هذا الباب هو ان هذه الامم التي تصل مستوى عال من الرقي هي امم مبدعة • وان هذا الابداع لا يتم الا بمراحل ، وبصورة تدريجية •

ولقد عكف العلماء في الماضي والحاضر على دراسة هذه المراحل الفكرية التي تمر بها الامم ووجدوا^(١) انها تتمثل في خمسة عصور رئيسية وان اختلفت في سرعتها وبطئها • ويتمثل العصر الاول في انه عصر سرعة التصديق واعتناق الخرافات • ثم يليه العصر الثاني الذي يطلق عليه عصر الشك ويتميز بالتحري • اما العصر الثالث فانه يتميز بتملك الامة لعقيدة ، ويطلق عليه بعصر العقيدة والايامن • يلي ذلك ، العصر الرابع وهو عصر العقل • ويتكامل ظهور عصر

(١) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٤٠

العقل بعد تكامل العقيدة والايان عند الامة • والسر في ذلك ان العقيدة تشكل القوة الدافعة للامة لاستخدام عقلها الذي يوصلها الى النبوغ والابداع ، خاصة اذا كانت العقيدة قائمة على اساس الاخذ بيد الامة وتحريكها الى الامام •

وقد تظل الامة ممتلئة لمعالم التقدم الحضاري والفكري ما دامت عقيدتها راسخة ، وما دام ابناءؤها يملكون الفاعلية الدافعة • الا ان هذا التقدم الحضاري والفكري ، يصاب ببطء في سيره ، متى تزعزعت اركان العقيدة عند ابناءها وهو ما يؤدي الى ضعف ارادة التصميم عندها • وهذا يتمثل في العصر الخامس والاخير وهو عصر الهرم والشيخوخة • الذي هو عصر التأخر والسبات •

وعندما تحاول تطبيق هذه المراحل على الامة العربية نجد ان الامة قد خضعت لها بصورة قلما حدثت لامم اخرى^(١) وتمثل هذه الصورة الخاصة بدخول العقيدة الاسلامية الى عقول وقلوب ابناءها ، التي قدر ان يكون لها شأن عظيم لا في تاريخ العرب حسب وانما في تاريخ بني الانسان اجمع • والمهم ان نعلم ان العقيدة الاسلامية هي التي خلقت الارادة والعزم والتصميم الذي دفع بالعرب اشواطاً بعيدة في سلم الرقي والحضارة البشرية ، وهي التي نقلت الثقافة والفكر العربي الى المستوى العالمي •

وكل هذا بلا شك كان قد تم عن طريق التفتح الفكري والنضوج العقلي الذي وصلته الامة العربية بزمن قصير اذا ما قيس بالازمان الذي مرت به الامم الاخرى •

ان هذا التفتح الفكري هو الذي فتح في ظل المبادئ الاسلامية ، باب تلاحم الفكر العربي مع الفكر غير العربي ، وهو الذي ادى في ظل الحضارة العربية الاسلامية ، الى الابداع الفكري •

وفي صدد الحديث عن التلاحم الفكري ، فان من المهم جدا ان لا تقع كما وقع بعض المفكرين في الخطأ الجسيم الذي يصور الفكر العربي الاسلامي بانه

(١) احمد امين ، المصدر السابق نفسه ، (١٧)

فكر يوناني كتب بأحرف عربية • او كما قال البعض الاخر انه فكر استمد قوته من الفكر والفلسفة الفارسية • فمثل هؤلاء ينكرون على الفكر العربي والثقافة العربية كل اصالة • ولقد نسي هؤلاء ان الفكر عامة ، والفكر السياسي خاصة ، لا يمكن ان يخرج من دائرة النظام الطبيعي والاجتماعي والسياسي الذي ينشأ فيه • وعلى هذا النحو فلا يمكن انكار حقيقة تأثير ابيثة الطبيعة العربية على فكر العرب وعلى قيمهم السياسية بالذات • كما لا يمكن انكار جوهر النظام الاجتماعي العربي الذي قام على القيم العربية ، والتي تعود الى ما قبل الاسلام بالاف السنين • ثم انه لا بد من القول مرة بعد اخرى ان الدولة العربية الاسلامية التي تم في ظلها التلاحم الفكري قد قامت وسط بيثة وقيادة وثقافة عربية •• وانه عن طريق الخلفاء والقادة العرب جرى هذا التلاحم الفكري الذي نحن بصده • وان هؤلاء القادة ، كانوا ياتمرون باوامر الشريعة الاسلامية التي حددت بكل وضوح ان طلب العلم فريضة ، وان التعامل مع الغير يجب ان يتم بوحى من العدل والمساواة • وبهذه الروح انفتح الفكر العربي على غيره من الافكار • والواقع ان اول من بدأ بالوقوف على الفكر الاجنبي هم المتكلمون • فلقد وجد المتكلمون وهم يدافعون عن القيم التي جاء بها الاسلام ، ضرورة رد المناهضين له بنفس المنطق الذي جاؤا به • فاخذوا يتطلعون بالدرس والتمحيص لقواعد المنطق اليوناني واساليبه ، الذي تأثرت به اليهودية والمسيحية^(١) • ومن هنا كان المتكلمون • اول من [تطلع] الى الفلسفة اليونانية في الاسلام • وكان المتكلمون حلقة الاتصال بين من سبقهم من المسلمين الذين وقفوا عند نصوص القرآن والحديث ، وبين من اتى بعدهم من فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا وابن رشد ، وكان موقفهم جديدا لانهم سلكوا غير طريق السلف ، وتعرضوا لمسائل كثيرة لم يتعرض لها من هو قبلهم^(٢) •

والشيء المهم الواضح بالنسبة لنا ، هو ان الفضل في كل هذا التلاحم الفكري هو الاسلام ، الذي جعل الناس بنعمة الله اخوانا • هذا من ناحية ، ومن

(١) احمد امين ، ج ١ ، ضحى الاسلام ، ص ٤٠١ •

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠٢ •

ناحية اخرى ، فان المستعربين من الفرس ، لم يكونوا لينبغوا الا في ظل الثقافة العربية ، ولغتها التي كانت لغة المجتمع والدولة ولغة القرآن بالذات . ومن هنا كانت اللغة اقوى من اى رباط بين اناس ، بما في ذلك رباط النسب . فلفارسي الذى ترعرع في ظلال الثقافة العربية اصبح عربيا في تفكيره ولغته وعاداته . وان ما اثير من ان الفلسفة العربية هي فلسفة كتبت بحروف عربية ، لم يثرها الا ثلة من المتعصبين للتراث اليوناني او التراث الفارسي . حتى ان بعض المتعصبين قد بلغ به التعصب الى حد « أنسى الناس انه يوجد لغير الفرس فلسفة سياسية » (١) .

وهذه « الشعوبية الثقافية » التي دارت رحاها خلال ثلاثة قرون (الثاني والثالث وارابع للهجرة) اذن ، « كنت ذات شعبتين : شعبة تدور معركتها بين معسكر العرب ومعسكر غير العرب ؛ وشعبة يحتدم النضال فيها بين فريق المناصرين للثقافة او الحضارة الايرانية ، وفريق المناصرين للثقافة او الحضارة اليونانية » (٢) . وكما يذكر عبدالرحمن بدوي ان « معركة الشعبة الاولى لم تكن معركة عقلية فكرية خالصة ، بل كانت مزيجا من الدوافع : اخصريه الجنسية ، والسياسية الادارية النازعة الى بسط النفوذ والاستئثار بالسلطان في مرافق الدولة ، والثقافة الادبية والدينية احيانا . اما معركة الشعبة الثانية بين انصار الفرس وانصار يونان فكانت معركة عقلية روحية خالصة ، لم يشبها من جانب انصار يونان شائبة من عنصرية جنسية وان كنا لا نخليها من دوافع دينية ، وذلك لان معظم انصار يونان كانوا من المسيحيين او من النصارى الذين اعتنقوا الاسلام او دخلوا الاسلام في الجيل الثاني او الثالث من اسرتهم ، بينما كان معظم او كل انصار فارس ممن انحدروا من أصلاب زردشتيه أو مانويه او مزدكية . . » (٣) ، ومن الطريف في الامر ان انصار كل فريق كان قد

(١) بدوي ، الاصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام ، ج ١ ،

ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

انتحل طائفة هائلة من المؤلفات ، نسبوها الى اشخاص بارزين في التاريخ القومي للفرس او اليونان ، او الى كبار رجال الفكر عند هؤلاء او هؤلاء : فحلوا افلاطون وارسطو مؤلفات ، كما نحلوا هو شنج وتنسر وزرادشت آثارا تكشف عن مدى تقدم الفرس في الاداب والسياسة . وبرز الفريق اليوناني شخصيات يونانية ورومانية بارزة ، وعلى رأسها جميعا : الاسكندر المقدوني ، وهادريانوس (١) .

واذا كان لاندماج الفرس بالعرب وعيشهم في ظل دولة واحدة في ظل الاسلام طيلة زمن طويل ، قد اضعف من حدة المتعصبين من كلا الفريقين ، وخاصة في العصور الحديثة ، الا ان هذا التعصب بالنسبة للتراث اليوناني (او الغربي كما اخذوا يسمونه) قد ظل عند فريق كبير من المستشرقين الغربيين حتى العصور الحديثة ، باستثناء القرن العشرين الذي اظهر لنا قلة من المستشرقين بدأت تخرج عن دائرة تعصبها بالاعتراف بعلو شأن الحضارة العربية الاسلامية . وفيما عدا هذه القلة فانك لتجد من المستشرقين من امثال ديلاسي اوليري وغيره من ظل يؤكد على ان الفكر العربي لم يكن فكرا انتجته قرائح عربية ، وانما هو فكر باللغة العربية « قام به قلة من العرب وكثرة من غيرهم » (٢) . والشئ الذي اراد اوليري ان يضرب به العرب ، لا من كونهم ساميين وان العقل السامي يمتاز بعدم الاصاله ، كما تعود غيره من المستشرقين ، وانما جاء بمعنى جديد وهو « ان يسلب العرب اي تفكير فلسفي ، ويجعل الفلاسفة من طينة غير طينة العرب تماما » . (٣) :

ان ما عرضنا من آراء وافكار بصدد الفكر العربي الاسلامي ، لا يمكن ان يغير من الحقيقة التي لا يمكن انكارها وهي ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر اصيل ، وان المحاولة في فصل العرب عن الاسلام او الاسلام عن العرب

(١) المصدر السابق ، ص ٩ .

(٢) انظر ديلاسي اوليري : الفكر العربي ومكانه في التاريخ ، ترجمة تمام

حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ص ٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦ .

امر لا يقبل الفصل او التجزئة مطلقا • لان عز الاسلام جاء عن طريق العرب ، كما ان عز العرب جاء عن طريق الاسلام • ثم ان كل من عاش في بلاد العرب وتكلم اللغة العربية وأحس بما احسه العرب هو في الحقيقة عربي بالاحساس والمكان واللغة^(١) • ان ما يجب ان لا يغيب عن الذهن هو ان جميع هؤلاء المفكرين واثلاسفة والفقهاء قد اجتمعوا على غاية واحدة هي الرغبة الصادقة في خدمة لغة العرب وثقافة العرب ، فكان كل واحد منهم عربي الفكر ولو كان غير عربي الدم والنسب ،^(٢) •

والمهم في الامر ان العرب لم يعزلوا انفسهم عن الحضارات وتيارات الافكار الاخرى • وكان ذلك ، وكما المعنا من قبل ، قد تم بفعل التعليم التي جاءت بها الشريعة الاسلامية والتي حظت على طلب العلم والمعرفة • فلقد كانت ازل آية قرآنية نزلت على الرسول (ص) ، تتحدث عن العلم ، وعن اهمية العلم وطلبه • انها جاءت لقول له « اقرأ بأسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم • » ويكفي ان نقول هنا ان القرآن الكريم ردد كلمة العلم وطلب العلم في سورة واياته ما لا يقل عن (٧٦٥) مرة • وهذا دليل قوى على تقدير العلم • كما ان الاحاديث الشريفة كانت هي الاخرى تؤكد على العلم والعقل وطلب المعرفة • ومن هذه قول الرسول (ص) « اول ما خلق الله العقل ولم يخلق افضل منه » • وقوله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » • ومن هذا القول نفهم ان التعاليم الاسلامية قد ساوت بين جميع الناس في طلب العلم • وهذا ما يدعونا الى القول ان روح العدالة والمساواة قد جذبت كل مفكر ، حتى ولو كان من اصل غير عربي ، للبحث والدراسة والتتبع •

والحق ان التلاقح الفكري سنة من سنن تاريخ الفكر البشري • فلا توجد حضارة عالمية ظهرت على مسرح التاريخ من دون ان تكون قد اخذت

(١) المصدر السابق ، ص ٦ •

(٢) المصدر نفسه •

ممن سبقها واعطت لمن جاء بعدها من حضارات • والحضارة العربية الاسلامية ،
بطبيعتها المتسامحة والمتفتحة وبطبيعة مقوماتها الاساسية ، قد تفتحت على افكار
الفرس واليونان والرومان والهنود • وهذا ما حدث بالنسبة للحضارة اليونانية
بالذات ايضا • فاحتكاك اليونان بلحضارات الشرقية امر تؤيده وقائع التاريخ •
فقد كان الطب والهندسة وانرى مزدهرة في مصر ، وكان الفلك خاصة
مزدهرا في العراق • وكذلك حمل الفينيقيون الاحرف الهجائية في الشرق الى
اليونان وحملوا معها ورق البردي فساعدت الكتابة على نضج التفكير وعلى
انتشار نتائجه • ولقد تم احتكاك اليونان بالشرق عن طريق التجارة وعن طريق
الرحلات العلمية خاصة ، فان ثاليس اول فلاسفة اليونان قد زار مصر وزار
العراق في الاغلب وكذلك تعلم فيثاغورس في مصر من الكهان ، (١) •

وإذا كان كل هذا قد حدث بالنسبة للفكر اليوناني وحدث بالنسبة للفكر
العربي الاسلامي ، فانه قد تم كذلك بالنسبة للحضارة الاوربية المعاصرة • اذ
يكفى ان نشير هنا ان الحضارة العربية الاسلامية ، ومفكروها وفلاسفتها بالذات ،
قد لعبوا الدور الكبير في يقظة اوربا وفي نهضتها الحديثة • ومن الطرافة بمكان ،
ان الفكر اليوناني الذي درسه وشرحه وعلق عليه وانتقده المفكرون العرب
والمسلمون ، كان قد اخذه الاوربيون عن طريق هذا الدرس والشرح
والتعليق • وبعبارة اخرى انه جاء الى الاوربيين بعجينة وذوق عربي اسلامي •

ان ما تقدم ينبها الى حقيقة اخرى ، الا وهي ان كل فكر متميز يبني
شخصيته الخاصة به • وهذه الشخصية تعكس البيئة والظروف التي نشأ فيها
اكثر من اى شيء اخر • وابتناء الفكر اى فكر - لا يأتون بالافكار من عدم
وانما يأتون بها بوحى من ، وبصورة تعكس القيم التي يعيشون في ظلها •
وحينما ينمو وينضج ، فانه يحتك بافكار غيره فيأخذ منها ويعطيها بالصورة
التي تسمح وتفق وتسمح مع مقوماته • وقد يأخذ فكرة من فكر اجنبي فيدرسها

(١) عمر فروح ، الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب ، بيروت ،

ويطبع عليها قيمة وافكاره ويفاعلها معه ، فيحذف منها او يضيف ، او يرفضها
رفضاً باتاً . . . (١) وقد يتكر الفكر شيئاً جديداً من مواد اولية مختلفة : من
محيطه ومن غير محيطه . ويتمثل هذا الابتكار في العجينة الجديدة التي يصنعها
او قل يتكرها . على انه في كل هذه الاحوال ، يظل في افكاره اصيلاً ومبدعاً .
لان الابداع هو ان يقولب الفكر الاشياء والآراء بقالبه وباسلوبه ويضفي عليها
شيئاً من روحه وقيمه وبشئته .

وهذا ما تم بالفعل بالنسبة للفكر العربي الاسلامي الذي تلاقح مع غيره .
وكل الذين اسهموا في عملية التلاقح هذه وكتبوا بلغته العربية (٢) وتأثروا
بتقاليد المجتمع العربي والجو العربي والنظام الاجتماعي العربي هم عرب
ثقافة ومسلمون عقيدة وايماناً .

وبعد كل هذا فان بالامكان القول ان التلاقح بين الفكر العربي والفكر
الفارسي وبين الفكر العربي الاسلامي والفكر اليوناني ، كان قد تم بدافع
ذاتي من المفكرين وذلك للوقوف على رأي الامم الاخرى في ميادين مختلفة
ومنهما الميدان الفكري السياسي (٣) . وان هذا التلاقح كان قد تم بعد نضوجه .

(١) يقول الدكتور تمام حسان في مقدمته لكتاب ديلاسي اوليري الذي
ترجمه ، ان من بين اصحاب الفلسفة العرب المسلمون من اتخذ له الفلسفة
الاغريقية نقطة ابتداء ، وجدوا شيئاً فشيئاً ، عمق الهوية بين هذه الفلسفة وبين
الالهيات الاسلامية . فاخترتوا لانفسهم طريقاً فكرياً خاصاً لا يتعارض مع
الاسلام . ولا يتطابق مع فلسفة الاغريق . انظر اوليري مصدر سبق ذكره ،
صص ١٠-١١ .

(٢) يقول يرنارد لويس Bernard Lewis في كتابه « العرب في
التاريخ » ص ١٣٣ "The Arabs in History" ، ١٩٦٠ ، ما معناه لقد كان
للسلطة العربية التأثير البالغ ، لا على العرب وحدهم وانما على كل الاقوام
الاسلامية (من غير العرب) الاخرى التي عاشت خارج الاراضي العربية .
وتتجسد اهمية هذه اللغة التي انكب على دراستها كل مسلم ، في انها عكست
عقلية العرب وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية وغيرها .
(٣) لقد كان التلاقح في الميدان الفكري السياسي ، وكما رأينا ، من
القلة بحيث لم يتعرض الا الى المسائل الفرعية .

اي بعد ان رسم معالمه ورسخ اركانه • اضيف الى ذلك ان التلاقح الذي تم ظل محافظا على ثقافته العربية ومبادئه الاسلامية • ثم ان من نتائج هذا التلاقح ان حصلت تطورات فكرية ، وظهرت افكار جديدة لا صلة لها بالمحيط التي جاءت منه قبل التلاقح • كذلك فان الافكار التي اهتدى اليها افلاسفة العرب المسلمون قدر لها ان تقدم خدمة انسانية وحضارية كبيرة •

اساليب المعرفة والبحث في الفكر العربي الاسلامي :

لا يبالغ المرء حين يقول ان الفكر العربي الاسلامي يتميز عن غيره في انه فكر اعطي للمعرفة ولتطورها بالذات مكانا رئيسيا • ولا ينكر احد دور شريعة هذا الفكر وهي الشريعة الاسلامية في جعل المعرفة ان تحتل هذا المكان الرئيسي • والسر الخطير في شريعة هذا الفكر هي انها اكدت على الكليات دون الجزئيات ، وبذلك تركت الباب مفتوحا للعقل والاجتهادات التي تعد اساسا في تطور المعرفة • والاهم من كل ذلك ، ان ركن الاجتهاد العقلي هذا ، قد اعتبر ركنا اساسيا من اركان الشريعة الاسلامية •

ومن هنا اصبح الفكر العربي الاسلامي فكرا يقوم على مبادئ فريدة تقوم على الاخذ بسنة التطور والارتقاء ، وهذا ما جعله ان يكون صالحا لكل عصر • ويؤيد الباحثون في تاريخ الفكر الانساني ، ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر عمل على تخليص الانسان من التعصب الذي خيم على الانسان طيلة ازمان وعهود طويلة •

والسبيل الى تقدم المعرفة وتطورها يتمثل اساسا في فصح المجال امام العقل لاستخدام كل ملكاته بخلق الظروف المناسبة لها للعمل • فلقد وضع الدستور الاسلامي المتمثل في القرآن الكريم الاساليب الدقيقة التي تأخذ بالعقل الى ادراك الحقيقة دونما عاطفة او غرور • وبعبارة اخرى ان الفكر العربي الاسلامي كان قد اهتدى الى الطريقة العلمية في البحث من قبل ان يهتدي اليها الفكر الاوربي الحديث بعدة قرون • فلقد ظل علماء الغرب يؤمنون بنظريات ارسطو اكثر من الف

عام ، ويرونها دستورا لا سبيل الى نقضه ، ولا الى الانحراف عنه بأي حال .
فركدت العقول ، وخدمت الافكار ووقف ركب الحضارة وال عمران ، حتى
تحررت العقول من سلطان ارسطو ، وبدأت تضع اراءه ونظرياته موضع
التجربة والاختبار ، فما اثبتته البحث الدقيق قبلته وما نفاه البحث رفضته ، ولو
زكته الاف السنين ، (١) . ويرجع الفضل في هذا التحرر الى علماء من امثال
بيكون وديكارت وكنت الذين وضعوا اسس التقدم واسس الحضارة الاوربية
الحديثة (٢) .

الا ان ما وصل اليه الفكر الاوربي من تحرر وانطلاق كان دون شك متأثرا
بتعاليم الحضارة العربية الاسلامية ، وهذا ما اقره جميع علماء اوربا المنصفين .
وأولى خطوات المنهج العلمي (٣) اتى اهتدى اليها مفكرو وفلاسفة الحضارة
العربية الاسلامية من امثال الحسن بن الهيثم والغزالي ، واخوان الصفا ،
تطلق من القاعدة التي تقول « ان الشك اساس اليقين » ، حيث اهابوا بالعقول
في ان تتحرر من اغلال الخرافات وقيود التقاليد ، التي تستند الى هذه
الخرافات .

وتمثل الخطوة الثانية في طريقة البحث العلمي بجمع المعلومات الحسية
والمادية لغرض تأملها ومشاهدتها تمهيدا لبحثها ودراستها . (٤) وقد اكد اقرآن
الكريم على تأمل « جميع ما يقع عليه الادراك الحسي والعقلي من المدركات
الى أكبر الكائنات من الذرة والذبابة والبعوض الى الجبال ومواقع النجوم » . (٥)

(١) الاستاذ ابو المجد في محاضراته المعنونة « الملكات العقلية في القرآن
الكريم » التي القاها في الموسم الثقافي الثاني لجامعة الازهر في ٣ نوفمبر
(تشرين الثاني) سنة ١٩٥٩ ، ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) للرجوع الى تفاصيل خطوات المنهج العلمي العربي الاسلامي في
البحث ، انظر سيد ابو المجد ، المصدر السابق صص ١٠-١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

حيث تقول الآية الكريمة « ان الله لا يستحي ان يضرب مثلاً ما لبعوضة فما فوقها » .

اما الخطوة الثالثة في منهج البحث العلمي ، فانها تتمثل بالتدقيق والموازنة بين الاشياء مادية كانت أم معنوية^(١) . ومن الامثلة على الموازنة قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر ، والمجاهدون في سبيل الله باموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيماً » .

ثم تأتي الخطوة الرابعة من منهج البحث العلمي ، والتي تتمثل بالحكم القائم على الدليل والبرهان^(٢) . وهنا يصل البحث والتقصي اقصى درجاته . فبعد ان يستنفد الباحث خطواته في التحرر الفكري والتأمل والموازنة والتدقيق ، يأتي الى مرحلة الحكم القائم على الاجتهاد . ومن الضروري ان يكون الاجتهاد في اوصول الى الحكم ، متجردا ونزيها . والمجتهد في الرأي والحكم ، ليس من الضروري ان يكون دوما مصيبا ، طالما ان الانسان معرض للخطأ . كما ان المجتهد الذي يقع في خطأ في حكمه ، لا يعتبر مقصرا . وتجتلي عظمة الشريعة الاسلامية في انها تشجع وتكافيء كلا من المصيب والمخطيء . ويتمثل ذلك ان المجتهد ان اصاب فله اجران ، اما ان اخطأ فله اجر واحد . وهذا الاجر « هو اجر الباحث عن الحقيقة بعمق واخلاص »^(٣) . ويورد لنا القرآن الكريم امثلة على اقتران الاحكام بالبراهين والادلة العقلية ، من ذلك قوله : « ما لكم كيف تحكمون افلا تذكرون ؟ ام لكم سلطان مبين ، فاتوا بكتابكم ان كنتم صادقين » ، ويقول ايضا « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

ان ما تقدم ليس الا استعراض سريع للمنهج العلمي والاسلوب العلمي الذي قام عليه الفكر والحضارة العربية الاسلامية . والمهم ان هذا الاستعراض

-
- (١) المصدر السابق ، ص ١٢ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ١٣ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ١٣ .

قد بين لنا كيف ان البحث عن الحقيقة يقوم على استخدام العقل ، والوصول عن طريقه الى الاحكام القائمة على البرهان . وبما أن العقول تهتدي الى اجتهادات مختلفة وفقا لما تيسر لها من مشاهدات وتأملات ومدركات ، من هنا نجد ان المفكرين والفلاسفة قد ظرفوا سبلا مختلفة وانضموا بنتيجتها الى مدارس ومذاهب مختلفة ايضا ، الا ان هذه المدارس ، والتي سنقف عليها في مكان اخر من هذا الكتاب ، لم تكن تتخرج جميعا عن الضوابط العقلية^(١) ، التي حددتها لهم الشريعة الاسلامية . من ذلك مثلا ان لا يصدر الباحث احكاما جازمة قبل ان يتروى . ومن ذلك ايضا الا يصدر الباحث احكاما الا في حدود اختصاصه ، وان لا يكابر ، ويقول الحق ويدعو له ويدافع عنه .

ومما يستلفت النظر ان التأكيد على التخصص يساير احداث ما وصل اليه الانسان في العصر الحديث . كل هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى ، فان المذاهب التي ظهرت من بين جمهرة الباحثين العرب والمسلمين ، انها تتجاوب ، لا بل تجمع بين اهم ما ظهر من مذاهب في نظريات المعرفة في عصرنا بما في ذلك المذهب التجريبي (Empericism) والمذهب العقلي (Rationalism) والمذهب النقدي (Criticism) وغيرها .

ومن هنا جاز لنا القول ان نظريات البحث والمعرفة التي اهتدى اليها المفكرون والفلاسفة من ابناء الحضارة العربية الاسلامية ، كانت متنوعة وشاملة وتتجاوب واحداث نظريات المعرفة اليوم . فلقد بحثوا واجتهدوا في مسائل المادة والروح والدين والفلك والطب والاقتصاد والسياسة وغيرها ، واستخرجوا النظريات المختلفة من بحوثهم .

وكون هذا الكتاب يعني اول ما يعني بالفكر السياسي ونظرياته ، لذا فانا سنقتصر على مجالات المعرفة السياسية .

(١) راجع التفاصيل في المصدر السابق ، ص ص ١٧-٢٣ .

مجالات المعرفة السياسية : النظريات السياسية العربية الاسلامية :

لكل فكر نظرياته الخاصة به واتجاهاته ؟ والفكر العربي الاسلامي ، كونه فكر متميز ، فانه قد قام على افكار ونظريات سياسية خاصة به . واشيء المهم الذي يجب الانتباه اليه هو ان الافكار والنظريات والمبادئ السياسية العربية الاسلامية هي بنت محيطها العربي الاسلامي ، وانها عملت على نشأتها متطلبات الظروف والاحوال . فكما ان نظرية العقد الاجتماعي التي كتب عنها المفكر الغربي هوبز كان يريد منها التوافق مع الظروف القائمة في محيطه وعصره ، كذلك فان نظرية الخلافة في الفكر العربي الاسلامي هي بنت ظروفها ودفعت بها الاحوال الخاصة بالمحيط العربي .

ثم ما يجب ان نعلمه بالاضافة الى ذلك ، ان هذه الافكار والنظريات لم تنشأ دفعة واحدة ، وانما نشأت في فترات مختلفة ، وان كلا منها يعكس الفترة التي نشأت فيها هذه النظرية ، او تلك . واذا ما اردنا ان نجري تصنيفا للنظريات والمبادئ السياسية العربية الاسلامية وفقا لفتراتها فان بالامكان عمل التصنيف التالي :

١ - النظريات السياسية لفترة ما قبل الاسلام . وهذه النظريات بدأت بقيام المجتمع السياسي العربي في الجزيرة العربية وانتهت بقيام الاسلام . وفي هذه الفترة ظهرت نظريات سياسية متعددة منها : نظرية الدولة القبلية ومنشأها التقاليد العربية . وقد طبقتها الدول العربية المختلفة خاصة تلك التي ظهرت في وسط وشمال الجزيرة . فالتقاليد السياسية في تلك الفترة هي المؤلف والدول القبلية والاقليمية هي النظم السياسية التي طبقت الافكار التي جاء بها الفكر العربي .

والدولة القبلية كما رأينا لها مفاهيمها ومن اولى تلك المفاهيم هو قيام الدولة على العصبية . وبجانب هذه النظرية هناك نظرية « المجالس القبلية » التي اوجدتها التقاليد العربية القائمة على الشورى والتي تغلغت في حياة المجتمع السياسي العربي اكثر فاكثر في عصر الرسالة . ولكن جذورها وجدت في

التقاليد العربية • كذلك هناك نظرية « الرياسة » • فالرئيس كما تقول التقاليد العربية هو الشيخ : اى شيخ القوم او سيدهم او رئيس دولتهم • والمهم ان نعلم ان نظرية الرياسة كان لها مفهومها خاصا ، وشروطا معينة وان من اهم شروط الرياسة ان لا يأتى الرئيس بالوراثة وانما بحسب مبدأ الاختيار • ويجب توافر شروط فيه ، منها سنه ومركزه الاجتماعى ومقدار تضحيتة للقبيلة ، ثم اعتراف القبيلة بهذه الصفات • وكل ذلك يجعل من هذه المفاهيم مجتمعة مفاهيم لنظرية سياسية هي نظرية الرياسة القبيلة •

(٢) النظريات السياسية لفترة ما بعد الاسلام • وهذه تبدأ بالرسالة وتنتهى بفترة الركود التى ركد فيها المجتمع وتأخر ، وكان ذلك في اواخر العصر العباسى في المشرق وأواخر العصر الاندلسى في المغرب • والرسالة الاسلامية التى يتوجها الدستور والمبادئ التى جاء بها الرسول كقائد سياسى واجتماعى ودينى ، فانها تتسع لكل ما جاء به الفقهاء من آراء ومبادئ واجتهادات ودراسات • واذا ما اردنا تصنيف الأفكار والنظريات السياسية في هذه الفترة نجد انها تتحدد ب :

١ - نظريات سياسية جاء بها الدستور الاسلامى • ومن هذه النظريات نظرية « العدالة الاجتماعية » ، و « نظرية الشورى » (التى تمتد جذورها الى البيئة العربية قبل الاسلام) ونظرية « العقد السياسى » •

٢ - نظريات سياسية جاء بها الرسول القائد ولم يفصلها الدستور الاسلامى فجاءت على شكل نظريات ومبادئ وافكار منها :

آ - ان الرسول فى اول يوم تأسيسه للدولة كان قد وضع اسس نظرية العلاقات الدوائية العربية الاسلامية •

ب - نظرية « التآخى الاجتماعى » التى طبقها الرسول وفق قاعده الاخوة^(١) او المؤاخاة - سياسيا واجتماعيا • وكان الغرض منها احلال تماسك فى المجتمع • فقد قام بالفعل بتكوين وحدة سياسية قوية •

(١) الآية الكريمة « انما المؤمنون اخوة ... » •

ج - مبدأ الاغلبية في العمل الجماعي يطلق عليها الكثرة الكاثرة (اي الساحقة) • ويتبين أهمية هذا المبدأ في قول الرسول (لا تجتمع امتي على خطأ) وهذا المبدأ يكون ركنا اساسيا في الشريعة الاسلامية ، الذي عرف بركن الاجماع وهو ما اجمعت عليه اغلبية القوم في الرأي السياسي والاجتماعي ، والذي جاء الرسول المؤسس لدولته العربية الاسلامية له مفسرا ومجسدا • وقد اصبح بمرور الزمن ، قاعدة ثابتة •• بحيث ان كل اجماع في عصر من العصور على رأي ، اصبح يشكل نظرية او مبدأ جديدا ••

٣ - نظريات سياسية جاءت من ابداع واجتهاد المفكرين والفقهاء والتي قدموها في فترات مختلفة ومنها :

- (١) نظرية التطور التي جاء بها الغزالي •
- (٢) نظرية استاازل عن الحقوق التي جاء بها الفارابي •
- (٣) نظرية الخلافة التي جاء بها اهل الحل والعقد في المحنة بعد وفاة الرسول بوحي من روح الدستور الاسلامي •
- (٤) نظرية العمران التي جاء بها ابن خلدون •

ان ما تقدم في المواقع لا يشكل الا امهات النظريات والمبادئ التي جاء بها الفكر العربي الاسلامي والتي سنقف عليها في الصفحات التالية من هذا الكتاب •

نظرية العقد السياسي

اهمية العقود في الفكر العربي الاسلامي •

لا يبالغ المرء حينما يقول ان الافكار القويمة التي جاءت بها الرسالة الاسلامية قد اثرت في حياة العرب وعملت على تحول تفكيرهم السياسي تحولا كبيرا •

ولقد قلنا فيما تقدم ان من هم مظاهر الرسالة الاسلامية هي انها عملت على لَم شمل العرب ، بعد ان كانوا مبشرين متشتتين • وقد تمثل لم الشمل هذا بالنسبة الى العرب في انهم ظهروا بنتيجته امة واحدة ، بعد ان كانوا قبائل ودول متباعدة • ولكن المهم من كل هذا هو ان هذه المبادئ كان يربط بينها خيط مشترك ، وهذا الخيط المشترك هو الذي جعل من هذه المبادئ مجتمعة ، ان تكون فكرًا عرف « في التاريخ البشري بالفكر العربي الاسلامي » • ولقد تميز هذا الفكر العربي الاسلامي في نظريته الخاصة الى الكون والحياة بصورة تختلف عن افكار الامم الاخرى • ولقد تجلت هذه النظرة الخاصة الى الكون والحياة ، في انها نظرة متسقة ومتكاملة ، ومن هنا تنجلي نظرية العقود العامة في التفكير والحضارة العربية الاسلامية •

وتبرز اهمية فلسفة العقود العامة ، في انها تشمل تنظيم جوانب الحياة الانسانية المختلفة بما في ذلك الجانب الروحي^(١) والجانب الاقتصادي والجانب السياسي والجانب الاجتماعي وغيرها من الجوانب الاخرى •

(١) تبرز اهمية العقود في جانبها الايماني الروحي ، في الصورة التي ترسمها الآية الكريمة (المائدة : ١) حيث تقول : « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » • وتتمثل هذه الصورة في ان من اهم صفات المؤمنين بالرسالة الالتزام بما يعقوبه مع الغير من عقود واتفاقات ، وانهم اذا ما اتصلوا عن التزاماتهم هذه ، فان ذلك يعمل على زعزعة واضعاف ايمانهم • ويصور الرسول حالة المتصل بالمنافق حيث يقول : « اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا ائتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » •

وقد جاء هذا التنظيم الذي تنبثق اسسه من الشريعة الاسلامية على شكل اتفاقات « تنشئها الارادات الانسانية الحرة » ويتم بها التعامل بين الناس في احوال خاصة وبشروط معينة « (١) » . وحينما تتم هذه الاتفاقات ، فانها تظهر على شكل عقود ملزمة . وخير طريقة لتفهم هذه العقود هو ان ترجع الى التصنيف الذي سار عليه علماء الشريعة الاسلامية ، في شروحاتهم للعقود المختلفة . وينطلق هذا التصنيف ، من القاعدة الفقهية التي تقول ان حياة الانسان من وجهة نظر التفكير العربي الاسلامي ، ترتبط بنوعين من العلاقات : الاول وهو الذي يحدد علاقة الانسان بربه وبخالقه ، وبواجبات الانسان تجاهه ، وهذه كلها ينظمها باب العبادات والنوع الثاني وهو الذي ينظم التعامل بين الانسان والانسان ، والذي ينظمه « باب المعاملات » . واذ يهدف النوع الاول الى كل ما من شأنه ان يجعل هذا الانسان ، او العبد عبدا صالحا عند ربه ، فان النوع الثاني ينظم كل ما يجعل من مجتمع الانسان صالحا وسعيدا . وفي الواقع فان عقود المعاملات كثيرة نذكر منها عقد البيع ، وهو الذي ينظم معاملات البيع والشراء ، وعقد الصلح وعقد الشركة وعقد الايجار وعقد الهبة وعقد البيع وعقد الخلافة وعقد الهدنة وغيرها (٢) .

والذي يهم الباحث السياسي من كل هذا هو تبيان مكان العقد السياسي بالنسبة للعقود الاخرى .

العقد السياسي :

ان العقد السياسي في الفكر السياسي العربي الاسلامي هو ذلك العقد الذي ينظم الجانب السياسي من حياة المجتمع العربي والاسلامي . وهو بذلك ، يرسم الخطوط الرئيسية لاتجاهات الفكر السياسي ايضا . وفي الواقع فان العقد السياسي وجد على انواع كثيرة . فكما ذكرنا ، ان كل عقد ينظم الجانب السياسي ، او بعبارة ادق له صفة سياسية ، هو عقد سياسي . ومن اهم العقود السياسية

(١) الرئيس ، ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

العقد الذي تنشأ بموجبه الدولة العربية والاسلامية • وكما هو معلوم ان الدستور الاسلامي الاعلى هو الذي يحدد نوع الدولة ونظام حكمها • ثم ان هناك عقد الرياسة او ما يسمى بعقد الامامة او الخلافة • وهو الذي يحدد نوع الرياسة والحكومة في الدولة العربية والاسلامية • وهناك ايضا عقود سياسية اخرى ايضا ذكرنا بعضها مثل عقد الهدنة ، وهو الذي ينظم شروط ايقاف القتال والاسرى ومعاملتهم ومبادلتهم ، وعقد البيعة ، وهو العقد الذي يبايع فيه رئيس الدول الجديد (او الخليفة) ، ومنها عقد المعاهدة وهي التي تنظم العلاقة السياسية او الاقتصادية او الثقافية بين الدولة العربية والاسلامية وبين غيرها من الدول •

ومما تقدم يتبين لنا ان تنظيم حياة المجتمع السياسية العربية الاسلامية في قواعد ، كان فيها الفكر العربي الاسلامي سابقا ، خاصة حينما نعلم انها ترجع تاريخيا الى القرن السابع للميلاد^(١) على اقل تقدير •

وهو بذلك قد سبق فلسفة العقد الاجتماعى التي ظهرت فى الفكر الاوروبى الغربى فى القرن السابع عشر للميلاد وبعده^(٢) • ولا يقتصر الامر على الجانب

(١) فى الحقيقة ان الكتاب يؤيدون ان فكرة العقود تعود الى ابعده من هذا التاريخ ، خاصة حين نربط بين العرب قبل الاسلام وبين اجدادهم الذين رحلوا من جزيرتهم الى الهلال الخصيب والاطراف المجاورة الاخرى ، من امثال البابليين والمصريين القدماء والذين يعود تاريخهم الى حوالى ٥٠٠٠ سنة وعلى سبيل المثال يقول د. حسين فوزي النجار ان « فكرة العقد الاجتماعى من حيث انها تاريخية ترجع الى عهد بعيد ٠٠٠ ، حيث نرى جذورها فى فلسفات الشرق القديمة ماثلة فى الصين وبابل ومصر ٠٠ انظر مجلة الكتاب العربى فى عددها الخامس اكتوبر (تشرين اول) ، ١٩٦٤ ، ص ١٢ •

(٢) يشير د. عبدالرزاق السنهورى الى ان الفكر العربى الاسلامى قد احاط كل الاحاطة بالمفاهيم والافكار السياسية ، كتلك التى تتحدث عن التعاقد الحر وسيادة الامة على تدبير شؤونها وتفويضها السلطة لمن يمارسها نيابة عنها وغير ذلك ، من قبل ان يحيط بها الفكر الغربى بقرون ، انظر كتابه (Le Califat) ، ص ٥ وما بعدها ؛ وانظر التعليق على نفس الموضوع من قبل الرئيس ، مصدر سبق ذكره ، صص ١٦٦-١٦٨ •

الزمني وحسب ، وانما ان هذه العقود السياسية الى جانب العقود الاخرى ، هي عقود جاءت مستنبطة من واقع عملي للمجتمع العربي الاسلامي . واذا ما قارنا كل هذا ، بمفهوم العقود في الفكر الاوربي - الغربي ، فاننا نجد ان هذه الصفة العملية ، كانت تفقدها تلك العقود . فلقد تصور روسو^(١) ولوك وهوبز ، ما يجب ان تقوم عليه الحياة السياسية في المجتمع الاوربي ، اما الواقع فقد كان يختلف تماما عما تصوره هؤلاء المفكرون .

ماهية العقد السياسي :

والان وبعد هذا العرض الموجز ، ينبغي علينا ان نسائل انفسنا ، عن ماهية العقد السياسي في الفكر العربي الاسلامي ؟ وللإجابة عن هذا السؤال ، وعن ماهية العقد بالذات ، نقول ان العقد السياسي من وجهة نظر الفكر العربي الاسلامي هو اسلوب واقعي في تنظيم حياة المجتمع السياسي . وهذا الاسلوب يهدف الى عدم ترك المجتمع سائبا . ذلك ان ترك المجتمع من دون تنظيم معناه قيام مجتمع تسوده الفوضى . ومن هنا كان العقد السياسي قد وجد ، لاقامة دولة وحكومة وفق نظام معين . وهذا النظام المعين هو النظام الذي حددت حدوده الشريعة الاسلامية . ثم ان هذا العقد السياسي لا ينظم العلاقة بين الافراد والمجتمع وانما ينظم علاقة بعضهم ببعض ايضا .

خصائص العقد السياسي :

ويتميز العقد السياسي بخصائص معينة . ومن هذه الخصائص ، انه اتفاق حر . ومعنى ذلك ان اى اتفاق سياسي داخليا كان ام خارجيا يجب ان لا يتم بالاكراه . ومعناه ايضا ان العقد السياسي الذي تنشئه الدولة ، يجب ان يعبر عن ارادة الأمة .

فاذا كان العقد السياسي داخليا فان ارادة الناس يجب ان تظهر . فعن طريق عقد البيعة مثلا ، وهو العقد الذي تتم فيه مبايعة او مصادقة او انتخاب

(١) الرئيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٧ .

الناس لرئيسهم او خليفتهم ، فان الناس هنا يشكلون طرفا رئيسيا فيه ، بينما يشكل الرئيس او الخليفة الطرف الرئيسي الثاني . والقاعدة هنا ان تولية رجل ما لمنصب الخلافة يجب ان يتم بقناعة كل من الطرفين الحرة . فكما ان الرئيس يجب ان لا يكره على رئاسته ، فان الناس يجب ان لا يكرهوا على رئيسهم .

وبعبارة ادق فان الرئيس المرشح ، عليه ان يخاطب في الناس ، او يعلن لهم انه بمحض ارادته قد آل على نفسه خدمة امته وتولية ادارة شؤونها وحماية معتقداتها . كما ان الامة ، عليها ان تؤيد ان الخليفة الجديد هو جدير بالقيام بهذه المهمة . وتأييد الامة هذا هو الذي يعمل على التعاقد . وهذا التعاقد الذي يتم بمحض ارادة الرئيس و ارادة الامة هو عقد المبايعة او عقد البيعة . وهو عقد سياسي لانه يتناول معالجة الجانب السياسي من حياة الامة ، وهو طريقة تنصيب الرئيس . ومن خصائص العقد عامة والعقد السياسي خاصة ان يقوم وفق شروط واضحة ومؤيدة من قبل الطرفين . وهذه الشروط هي بمثابة القواعد التي تعمل على ترسيخ اركان العقد ، وعلى دوامه ، ما دامت تلك الشروط قائمة . وفي المفهوم العربي الاسلامي ، فان العقود عامة ، والعقود السياسية خاصة ، تستمد مصادرها من الشريعة الاسلامية . والمهم ان نعلم ان هذه القواعد هي القوانين التي تحكم بقيام العقد وبدوامه وببطلانه . ومن هنا كانت العقود في الفكر العربي الاسلامي عقودا قانونية - اي انها تقوم على احكام وتحدد فيها العلاقات بين اطراف العقد بصورة دقيقة وواضحة .

ومما يميز العقد السياسي ، بالاضافة الى ما تقدم ، هو خاصية الالتزام فيه . ومعنى ذلك ان اي اتفاق ، سياسيا كان ام غير سياسي ، يقوم بمحض ارادة الاطراف المشتركة فيه^(١) ، ويتم وفق شروط ارتضتها تلك الاطراف ، يصبح بعدها اتفاقا ملزما على هذه الاطراف المتعاقدة . فالعقد شريعة المتعاقدين . انه القانون الذي يحدد العلاقة بين طرفيه . وهذه العلاقة التي تحدها شروط

(١) الرئيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٩ .

القانون ، هي ملزمة على الاطراف • والغاية من كل هذا هو الاخذ بيد الامة الى شاطئ الاستقرار السياسى • وهذا الالتزام فى حد ذاته ، هو الزام قانونى ، وخلقى فى وقت واحد • فمن حيث انه الزام قانونى فانه يعنى ان هناك قانونا يفرض على المتعاقدين الاخذ والالتزام به • وان هذا الاتفاق ، من جهة اخرى ، هو عهد قد قطعه الاطراف على نفسها فى ان تسير بموجبه • وهذا العهد بمعناه هذا ، هو عهد خلقى يستلزم الوفاء به • وهذا الوفاء الخلقى ، فى الحقيقة ، هو ما يميز السياسة فى الفكر العربى الاسلامى فى كونها سياسة تستقر على قواعد الاخلاق • ولا نبالغ اذا قلنا ان هذه القواعد الخلقية مستمدة من عادات وتقاليد وقيم المجتمع العربى قبل الاسلام ، والتي نالت كل الدعم والتأييد من الشريعة الاسلامية ، التى جاء دستورها الاعلى ، وهو القرآن الكريم ليؤكد للعرب خاصة وللمسلمين عامة ان « •• اوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا • »

اهمية العقد السياسى :

أشرنا فيما تقدم ، كيف ان العقود عامة والعقود السياسية خاصة ، تحتل اهمية خاصة فى الفكر السياسى العربى الاسلامى • والان لتساءل ما هى أهمية العقد السياسى ؟

وفى الحقيقة فان اهمية العقود السياسية تنطلق من الاهداف الانسانية والاجتماعية والسياسية التى جاءت من اجلها •

(اولا) : فقبل كل شئ ، فان اهمية العقد السياسى تنطلق من كونه يسعى على خلق مجتمع سياسى مستقر ومتوازن • وهذا صحيح الى ابعد الحدود • فالمجتمع الذى تتحدد فيه العلاقات السياسية تحديدا دقيقا ومنصفا ، فإنه سيؤول امره الى التوازن والاستقرار • وبعبارة اخرى انه يصبح مجتمعا قائما على نظام • وبهذا التنظيم ، تبرز اهمية العقد لسياسى ، فى المجتمع العربى الاسلامى ، فى كونه يسعى الى خلق مجتمع سياسى منظم •

(ثانيا) : وتأتي الاهمية الثانية للعقد السياسي في كونه يمنع قيام التسلط واحتكار السلطة او التصرف بمقدرات الامة من قبل فرد او افراد قليلين .
كيف ؟ الجواب ان العقد السياسي ، سواء اكان ذلك في عقد الخلافة ، ام في عقد البيعة ام في عقد الصلح ام في العقود السياسية الاخرى ، يحدد وظيفته كل طرف بدقة ويقيده في اعماله وتصرفاته . وهذا يحد ذاته يمنع التصسف والتسلط واحتكار السلطة .

(ثالثا) : ان الاهمية الثالثة للعقد السياسي تنطلق من كونه يخلق نظاما وحكومة دستورية مقيدة . ومن هنا تصبح الدولة العربية دولة دستورية ، او دولة تقوم على قانون اعلى . ودستور الدولة الاسلامية هو الشريعة الاسلامية .
اما قوانينها الاخرى فانها تتحدد على ضوء هذا الدستور .

وهكذا نجد ان العقد السياسي في ماهيته وخصائصه واهميته قد جعل من الدولة العربية الاسلامية دولة سبأقة في نظمها القويمه . ولا يزال نظامها السياسي يضاهي احدث ما ظهر في العالم من انظمة سياسية حديثة .

نظرية العدالة الاجتماعية

المفاهيم الاساسية في العدالة الاجتماعية :

من حيث المعنى :

من الضروري ان نعلم ان هناك علاقة وثيقة بين العدالة الاجتماعية وبين تنظيم المجتمع . وان هذا التنظيم يقوم على خطة فكرية وخطة عملية لتنظيم المجتمع العربي الاسلامي تنظيميا شاملا يخضع له الحاكم والمحكوم والجماعات المختلفة ، وكل من يعيش ضمن نطاقه . وبعبارة اخرى فان العدالة الاجتماعية تمثل لنا فلسفة لتنظيم المجتمع تنظيميا كليا .

واذا كانت فلسفة العقد السياسي التي تحدثنا عنها ، توحي تنظيم جانب من حياة المجتمع وهو الجانب السياسي ، فان فلسفة العدالة الاجتماعية ، بالمقارنة معها توحي تنظيم كل جوانب الحياة من اقتصادية واجتماعية وسياسية وخلقية ونفسية وغيرها ، في كل متاسق . انها القاسم المشترك الذي يتقلل الى كل جانب من جوانب الحياة . وهذا هو المفهوم القريب : انه ابعاد مفهوم الظلم في المجتمع واحلال مفهوم العدل والانصاف ، وبالتالي اعطاء كل ذي حق حقه في المجتمع الذي يعيش فيه ، بحيث يشعر الناس جميعا انهم منصفون في حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، في البيت والاسرة وفي كل مكان ومن هنا كان الاساس في مفهوم العدالة القريب يقوم على انعدام العدوان والظلم والاستغلال ، فاذا ما انعدمت هذه الاشياء ، يكون نظام العدالة الاجتماعية قد اخذ مكانه .

اما فلسفة العدالة الاجتماعية في معناها البعيد فهي تعطي معنى انساني خيرا ، طالما انها لا تميز بين الانسان والانسان ، وطالما انها تشمل كل فرد من بني الانسان مهما كان لونه او عنصره او موقعه الجغرافي .

وهكذا نجد ان العدالة الاجتماعية التي تسعى على ابعاد الظلم وتحقيق الانصاف في معناها القريب ، انها تسعى في معناها البعيد على تحقيق سعادة الانسان .

من حيث المقومات :

ومن حيث مقوماتها فان العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية ، تقوم على اساس عام يتميز فيه الفكر والحضارة العربية الاسلامية عن سواها ، وهذا الاساس في الواقع ينطلق من ميزة فريدة فيه وهي انه لا يضع نصب عينيه امر الفرد لوحده ولا امر المجموع لوحده وانما ينطلق من طريق متوازن يحافظ فيه على مصلحة وسعادة الفرد والجماعة معا^(١) . فالعدل في الفكر العربي الاسلامي معناه ان لا اجحاف للفرد وان لا اجحاف للمجموع ايضا في وقت واحد . وهو بهذا المفهوم يختلف عن سواء من الافكار . فالفكر الاوربي الغربي يختلف عن الفكر العربي الاسلامي في كونه ينطلق من زاوية سعادة الفرد ، ويقيس سعادة المجموع على ضوء سعادة الأفراد . كما ان الفكر الاوربي - الشرقي يختلف ايضا عن الفكر العربي الاسلامي في كونه ينطلق من زاوية سعادة المجموع ، ويقيس سعادة الأفراد على ضوء سعادة المجموع . بينما وكما قلنا ان الفكر العربي الاسلامي يوازن بينهما . وليس هذا فحسب . فان الفكر الاوربي بغربه وشرقه كثيرا ما يقرب في تفسير العدالة الاجتماعية من مفاهيم مادية . ونحن نفهم ان الفكر العربي الاسلامي يختلف عن كليهما في كون مقوماته تجمع لا بل توازن بين المقومات المادية والروحية في وقت واحد .

ومن هنا كانت العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية تقوم على مقومات اصيلة تنبع من روح الحضارة العربية الاسلامية ، ومن هنا كانت الفلسفة التي تعنى بأمر وسعادة المجموع ، وبالأفراد وسعادتهم في وقت واحد هي فلسفة تؤمن بالتماسك الضروري بين الفرد والمجموع ، الذي وصفه الرسول القائد (ص) خير وصف حين رآه « كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » .

(١) انظر سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٨ ، ص ٢٩ .

من حيث الابعاد :

ان خير طريقة يمكن بموجبها توضيح ابعاد العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية ، هو الرجوع الى كل من المفهوم العام والمفهوم الخاص للعدالة الاجتماعية . فمن حيث المفهوم العام ، ينطلق بَعْدُ العدالة الاجتماعية العام من الفكرة التي تقول ان المجتمع يؤلف كلا متماسكا بجمع بين جميع اجزائه^(١) . وهذه الاجزاء التي تضم من بين ما تضم الجانب الاقتصادى والجانب السياسى والجانب القانونى وغيره ، هي التي تكون هذا الكل المتماسك الذي يمثل كل جزء منه جانبا اجتماعيا ، والذي يمثل كله جميع هذه الاجزاء ، التي هي جميع جوانب المجتمع الاجتماعية ، والتي يحكمها جميعا قانون عام هو العدالة . ومن هنا تصبح فلسفة العدالة الاجتماعية ذلك القانون العام الذي يحكم المجتمع بجميع جوانبه . وبهذا المعنى العام تعنى العدالة الاجتماعية في ان يأخذ كل فرد وكل جانب وكل جماعة حقه ونصيبه في مجتمعه من دون ان يؤثر او يصطدم ذلك بحق ونصيب الفرد او الجماعة الاخرى . ومن هنا يمكن القول ان المجتمع الذي يقوم التعامل فيه على اساس ان ينال كل فرد حقه ونصيبه في الحياة دونما اجحاف وانكار لهذا الحق ، ودونما اعتداء او اذى عليه ، هو مجتمع يقوم في حقيقته وواقعه على التعاون والتكافل والحق والخير . ومثل هذا المجتمع الذي يسوده التعاون والتكافل والحق والخير ، هو مجتمع الحضارة والانسانية .

وبانتقالنا الى الاجزاء ، والى المفاهيم الخاصة التي يقوم عليها كل جزء ، نكون قد حددنا الابعاد الخاصة للعدالة الاجتماعية . فالبعد الذي يتناول بحث

(١) انظر سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام ، دار احياء الكتب الغربية ، ط ٢ ، ١٩٥٨ ، حيث يقول : « فهي قبل كل شيء عدالة انسانية شاملة ، لا عدالة اقتصادية محدودة ، وهي اذن تتناول جميع مظاهر الحياة وجوانب النشاط فيها ، كما تتناول الشعور والسلوك ، والضمائر والوجدانات . والقيم التي تتناولها هذه العدالة ليست القيم الاقتصادية وحدها ، وليست القيم المادية على وجه عام ، انما هي هذه ممتزجة بها القيم المعنوية والروحية جميعا » .
ص ٢٧ .

الحياة القانونية في المجتمع العربي الاسلامي وقواعد العدالة التي تحكمه ، يشكل لنا ما نسميه بالعدالة الاجتماعية - القانونية . والبعد الذي يتناول بحث الحياة الاقتصادية في المجتمع العربي الاسلامي ، وقواعد العدالة التي تحكمه ، يشكل لنا ما نسميه بالعدالة الاجتماعية - الاقتصادية . وكذلك الحال بالنسبة للعدالة الاجتماعية السياسية وغيرها من الابعاد .

والمهم ان نعلم ان قواعد العدالة الاجتماعية القانونية ، هي التي تشكل لنا العدالة القانونية العربية الاسلامية ، في ظل الفكر العربي الاسلامي .

ففي ظل العدالة القانونية العربية الاسلامية ، فان الافراد امام هذا القانون هم متساوون . وبعبارة ادق ، ان القانون الاسلامي العادل ، لا يسمح بتطبيقه على فريق دون فريق او فرد دون فرد ، وانما هو قانون يعامل الناس جميعا معاملة متساوية . ثم انه اذا اسيء تطبيق القانون على فرد او مجموعة وشعر ذلك الفرد او تلك المجموعة باجحاف في معاملتهم ، فمن حقهم والحالة هذه ان يعرضوا ظلامتهم كى يدرس امرهم ووضعهم القانوني مجددا . وكل ذلك ليسترد صاحب الحق حقه . ومن هنا يتبين ان العدالة من الناحية القانونية والعملية توجب ان يكون القاضي موضوعيا وحياديا .

واذا كان ما تقدم ، قد وضع لنا بعض مقومات العدالة الاجتماعية القانونية ، فان العدالة الاجتماعية الاقتصادية تقوم على نظرية عامة تنبثق منها كل النظريات الاقتصادية العربية الاسلامية وهذه النظرية العامة تقوم على قاعدتين اقتصاديتين اساسيتين : الاولى وهي التي تتمثل في تكافؤ الفرص ، والثانية وهي تتمثل في عدم الاستغلال (١) .

وهاتان القاعدتان المتمثلتان في اعطاء فرص متساوية لجميع الناس ، ومنع الاستغلال في المجتمع من قبل اية جهة ، يشكلان طريق العدل الاقتصادي الذي تقوم عليه النظرية الاقتصادية العامة في الفكر العربي الاسلامي . والحقيقة فان

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

هذه النظرية العامة تستمد قوتها ومصادرها من روح الشريعة العربية الاسلامية التي تؤكد دعائمها على ان يتمتع الافراد جميعا في الثروة العامة في المجتمع ، لا ان يتعم بها البعض القليل على حساب اغليته الساحقة . وبعبارة اخرى ، ان المجتمع في الفكر العربي الاسلامي لا يبيح في زاويته الاقتصادية لاي فرد ان يعيش على حساب الآخرين . لان المجتمع كما قلنا ، هو بمثابة البنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا . الكل يعمل ما عليه لاقامة وادامة هذا البنيان ، وان اية زلة من قبل اي فرد ستترك اثرها في العمل على تقويض هذا المجتمع .

اما العدالة الاجتماعية في جانبها السياسي والتي يطلق عليها العدالة الاجتماعية السياسية ، فهي تعني اشتراك جميع الناس في تقرير شؤونهم السياسية وعدم الاقتصار على البعض من الناس ، لان الاساس ، وهو النظرية العامة في العدالة ، والتي قلنا انها تستمد قوتها من روح الشريعة الاسلامية ، يقضى بان جميع الناس ، والذين يؤلفون الامة ، هم الذين يقررون . وبهذا المفهوم ، فان العدالة الاجتماعية السياسية تعني ان السياسة والحياة السياسية في الفكر العربي الاسلامي تقوم على رضا الناس وقناعتهم وموافقتهم على اعمال حكامهم . وكل ذلك لكي تستقيم الحياة السياسية في المجتمع . وما الاستقامة الا وجه من اوجه العدالة الاجتماعية .

وكما سنرى في الصفحات التالية من هذا الكتاب ، ان العدالة الاجتماعية السياسية العربية الاسلامية التي تهدف الى اقامة مجتمع مستقيم ، تستند على وسائل فعالة في سبيل اوصول الى هذا الهدف . وتأتي في مقدمة هذه الوسائل اعطاء الناس الحرية في الاعراب عن ارائهم ، ومنحهم الحق في مناقشة آراء الآخرين وتقدها نقدا بناء ، وذلك لتصحيح كل اعوجاج يقف عقبة امام الصالح العام . والشيء المهم هنا هو ان حقوق المنتقد مضمونة ، طالما انه يهدف الى البناء ويمثل هذا الضمان في عدم جواز الاعتداء عليه من اية جهة : حكومية كانت ام غير حكومية .

وهكذا يتبين لنا مما تقدم ان للعدالة بعدا اجتماعيا يتكون من حصيلة ضم الجوانب المختلفة من سياسية واقتصادية وقانونية وغيرها الى بعضها في كل متماسك .

المفهوم من حيث الهدف :

وبعد ان وضحتا العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية من حيث معانيها وابعادها ، يتعين علينا بعدها ان نقف على اهدافها . وهنا نقول ان العدالة الاجتماعية في مفهومها العربي الاسلامي تهدف اول ما تهدف الى تحقيق مجتمع الخير والسعادة . والطريق الى ذلك هو احلال التآلف لا الصراع بين افراد المجتمع ؛ وهذا الطريق يحدده مبدأ « التكافل الاجتماعي » الذي يجمع بين دفتيه كلا الجانبين المادي والمعنوي (١) .

ولتوضح ما تقدم ، يجدر بنا تقديم الحجة التي تؤكد ان العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية تهدف الى بناء مجتمع الخير والسعادة . ولما كانت العدالة الاجتماعية تستمد قوتها من الشريعة الاسلامية ، فاننا حينما نأتي الى الشريعة نجد ان الركن الاول في هذه الشريعة وهو المتمثل في القرآن الكريم يرسم لنا هذا الهدف حينما يقول « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٢) . وواضح ان هذه الآية الكريمة تهدف الى اقامة مجتمع الخير والسعادة الذي نحن بصدد الكلام عنه .

اما كيف نوضح ، طريق الوصول الى السعادة والخير ، فلقد قلنا ، ان هذا الطريق قد تحدد بمبدأ « التكافل الاجتماعي » . (٣) كيف ؟ قبل كل شيء نقول ، ان مبدأ التكافل الاجتماعي ، يعني من بين ما يعني ، كفالة الفرد لمجتمعه .

(١) العدالة الاجتماعية في الاسلام ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٧ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٤

(٣) انظر الشيخ محمد ابو زهرة : التكافل الاجتماعي في الاسلام ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧ ؛ كذلك المصدر السابق ، العدالة الاجتماعية في الاسلام ، ص ٥٩ وما بعدها .

وكفالة المجتمع لافراده • ومن هذه الكفالة المتقابلة يتحقق التوازن • وهذا التوازن الذي يوفق بين الحقوق والواجبات الملقاة على عاتق الافراد والجماعات هو الذي يحقق العدالة الاجتماعية •

ان الشيء المهم هنا هو ان هذه الحقوق حينما تؤمن لجميع الاطراف ، فان الجو يصبح مساعدا على تحقيق التقدم فى المجتمع وعلى تحقيق الاستقرار ، وبالتالي على تحقيق السعادة •

وبمقارنة بسيطة بين الوسيلة والهدف الذي يسلكه الفكر العربي الاسلامي فى فلسفة العدالة الاجتماعية وبين سواء ، نجد ، فى الفكر الاوربي الغربي مثلا ، ان طريق التقدم والسعادة ينطلق من الفرد • وهذا ما نادى به الفلسفة الليبرالية بالذات • فهي التي كانت تقول ان الفرد اذا ما اعطيت له الحرية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، فانه سيعمل ، وسيؤدي عمله هذا الى تقدمه وسعادته ، وبالتالي الى سعادة المجتمع ، لان سعادة المجتمع هي مجموع سعادة الافراد وهذه الفلسفة الليبرالية تتج عنها الرأسمالية الغربية والديمقراطية الغربية •

وطبيعي ان معالجة طريق التقدم فى الفكر العربي الاسلامي تختلف عن الفلسفة الليبرالية ، بالذات ، كونها لا ترى ان الانطلاق يأتي من زاوية الفرد ، وانما هي كما قلنا ، تنطلق من نقطة يتوازن فيها الفرد والجماعة بحيث يؤمن على كلا الجانبين بمقياس العدالة •

واذا ما قارنا ما تقدم بنظريات الفكر الاوربي الاخرى ، كالاشتراكية مثلا نجد انها ترى ان اساس البلاء ، يأتي من انطلاق الافراد واستغلالهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي • وقد وصف هؤلاء الافراد بالذين يملكون "Those who have" وغيرهم الذين استغلهم هؤلاء بالذين لا يملكون "Those who have not". أى ان جماعة الافراد المستغلين سيشكلون بالتالى طبقة لها مصلحتها ، وما دامت المصلحة هذه هي رائدها فانها ستستمر فى استغلالها • وكل هذه الاحوال يجب القضاء عليها اذا ما اريد للمجتمع التقدم والرفعي •

ان هذه الفكرة الأنفة الذكر كان قد جاء بها في الاصل المفكر الغربي هيغل^(١) . فلقد قال ان التاريخ سلسلة من الحوادث المتناقضة . وان حادثة زمنية معينة تصبح بمرور الزمن فكرة عتيقة ، بحيث لا تصلح بعدها للمجتمع . ونتيجة لعدم صلاحيتها وبعدها عن المجتمع وواقعه ، سيأتي المجتمع الجديد بازالة هذا الشيء غير النافع للمجتمع ، بفكرة مضادة لها قريبة من واقعه وتحمل روح العصر الجديد . ونتيجة تناقض الفكرة الجديدة للفكرة القديمة ، فان الفكرة الجديدة ستصدي لها وبالتالي ستفاعل معها . ولكن سير حوادث التاريخ تثبت ان التصدي من قبل الفكرة الجديدة سوف لا يترك تلك الفكرة الجديدة على حالها وانما سيؤدي الامر الى ظهور فكرة مركبة جديدة ، وهي فكرة ثالثة كان قد دفع بها تناقض بين فكرتين ، وكل هذا يحدث بالرغم منا .

ثم اتى مفكر الماني غربي آخر من بعد هيغل وهو المفكر اليهودي ماركس^(٢) الذي قال ان هذا الذي يحدث في التاريخ الذي اشار اليه هيغل هو الديالكتيك ومبعثه الصراع بين الاشياء . فكل فكرة تتصارع مع فكرة مخالفة ومضادة لها ، وينتج نتيجة هذا التصارع فكرة مركبة . وقد اطلق على هذا بنظرية الصراع . ثم قال ولكن المشكلة هي ليست مشكلة تاريخية بقدر ما هي مشكلة مادية . فالطبقة تفكر بفكرة مادية . والرأسماليون يستغلون اكثر فاكتر لمصلحتهم الى ان يؤلبوا عليهم طبقة معاكسة لهم تماما وهي طبقة العمال ، تنور على الاولى حتى ينقلب النظام اقامم . ونتيجة هذا التصارع بين الطبقة المستغلة وبين الطبقة المحرومة تظهر فكرة الاشتراكية العلمية القائمة على اللابيقية .

(١) للرجوع الى التفاصيل ، انظر الفصل ٣٠ من كتاب :

George H. Sabine: A History of Political Thought, Henry Holt Co., New York, 1951.

(٢) للاستزادة في الموضوع يراجع الفصل ٣٣ من المصدر السابق نفسه .

وواضح ان الفكر العربي الاسلامي في عدالته الاجتماعية يمنع قيام أي استغلال ، سواء أكان مصدره الافراد او الجماعات او الطبقات . فهو يعالج الامور عن طريق خلق التآلف بين الاشياء لا الصراع بينها . ويقوم مثل هذا التآلف نتيجة احلال التكامل بين الفرد والمجموع ، وهذا التكامل يؤدي الى التكافل . فلا يستطيع المجتمع ان يعيش بسعادة الا اذا كان متكافلا في افراده وجماعاته ، ومتآلفا فيما بينه بوحى من الانسجام والتماسك الذي تحدنه مفاعيم العدالة الاجتماعية .

فلا انسان وفقا للفكر العربي الاسلامي يعيش في ظل نظام طبيعي واجتماعي متوازن ودقيق . ويتمثل هذا النظام الطبيعي بتناسق وتكامل اجزائه في اطار شامل . فلقد قالت الآية الكريمة « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » . ويتمثل نظامه الاجتماعي بتسيق دقيق تحدد فيه العلاقات بين الافراد والجماعات بحدود الحقوق والواجبات : وهذه الحقوق والواجبات تحددتها قواعد العدالة الاجتماعية الشاملة والدقيقة . واذا ما حصل صراع في المجتمع ، فمعناه ان خلافا غير اعتيادي قد حصل ، وهو ما يجب اصلاحه من قبل استفحاله والا كان ذلك علامة من علامات انهيار المجتمع بأسره .

العدالة الاجتماعية السياسية

« نظرية الحكم العربي الاسلامي »

من حيث المعنى :

تعني العدالة الاجتماعية - السياسية العربية الاسلامية تنظيم الحياة السياسية في المجتمع العربي الاسلامي ، بين الفرد والفرد وبين الفرد والجماعة وبين الراعي والرعية . والمقياس في تنظيم العلاقة ينشق من الجسر الذي يربط ما بين الفرد والفرد والفرد والجماعة وهو جسر العدل . وتؤدي هذه العلاقة الى النجاح اذا كان الجسر يقوم على العدالة بالنسبة للمجتمع افرادا وجماعات . والعدالة الاجتماعية - السياسية هي نظرية الحكم العربي الاسلامي . فكما ان هناك نظرية للحكم الديمقراطي ونظرية للحكم الديكتاتوري ، فان هناك نظرية للحكم العربي الاسلامي . وهذه النظرية كما قلنا هي نظرية العدالة الاجتماعية - السياسية .

وحيثما نقول ان العدالة الاجتماعية السياسية تتحدد فيها العلاقات بين العناصر المختلفة على اساس جسر العدل ، فاننا نقصد بها انصاف جميع العناصر او الاطراف في الجسم السياسي . ويتمثل هذا الانصاف في اعطاء كل عنصر أو عضو حقه . فلا يفضل عنصر على آخر من حيث الحقوق ، فللافراد حقوقهم وأهميتهم في مجتمعهم ، وللجماعات حقوقهم وأهميتهم ، وكل منهم مهم في هذا الجسم السياسي المتكامل . وتفسيرا لذلك ، نقول ان للراعي (رئيس الدولة) حق في الاشراف والتوجيه على شؤون الدولة ، ولكن هذا الحق يتحدد بحدود العدل الذي جاء به القانون الاسلامي او الشريعة الاسلامية . ومن جهة اخرى فان هذا العدل يمنح الحق كذلك الى الرعية . فالعدالة تقضي في ان اشراف الراعي المحدد بالقانون ، تستوجب أن يكون هناك من يراقب حسن تطبيقها . وهذه

المراقبة موكولة الى الرعية التي يغرس فيها هذا القانون بناء ضمير حتى يدفع بها الى ان تقول كلمتها كلما وجدت اعوجاجا لطالب بتقويمه . وهذا بعينه انصاف للمجموع في توكيد حقه ، وهو من الجهة الاخرى ، انصاف للافراد بفسح المجال لهم في الاعراب عن آرائهم وفي ان يلعبوا دورهم السياسي كما يجب .

واذا ما اردنا تفسير ما جاء في الشريعة ، وفي دستورها المتمثل بالقرآن الكريم ان « لا اكراه في الدين » التفسير الواسع ، لتوصلنا الى النتيجة وهي ان لا اكراه في الحياة السياسية : أي لا سيطرة أو تسلط دونما حق . نقول لا سيطرة لجماعة في السياسة على جماعة ، او الفرد على جماعته او الراعي على رعيته الا في حدود الحق والعدل .

واذا كان ما تقدم قد اشار الى معناها من حيث الفكرة ، فان معناها الثاني ، وهو المعنى التطبيقي ، يشير الى ان الاساس الذي يساعد على النجاح في العمل السياسي هو التحسس الذاتي بروح العدل من قبل الافراد ومن قبل الجماعات . وما روح العدل التي تبعث من النفوس وتساعد كل المساعدة في بناء المجتمع السياسي بناء قويا ، الا الضمير المتيقظ في تلك النفوس ، وبعبارة اوسع فان مدى النجاح يزداد ويقل ، من الناحية العملية ، طبقا لايمان الانسان بمبادئه السياسية . فكلما كان الايمان بالعدل اقوى في نفوس الناس كلما كانت فرص نجاح بسناء مجتمع عادل اقوى ايضا . وهذا بالذات ما قصده الرسول القائد حينما قال « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف » . فالذي يؤمن بخالقه ايمانا حقيقيا ، يكون مسلما حقيقيا . ثم ان الذي يؤمن بالمثل التي تحويها الشريعة الاسلامية وبقوانينها العادلة ، من سياسية واجتماعية وغيرها ، فانه ينجح في حياته السياسية والاجتماعية ويعمل على بناء ونجاح مجتمعه ايضا . ومن هنا كانت الشريعة الاسلامية والرسالة الاسلامية هي رسالة تهدف الى ضمان حقوق وواجبات الانسان بقانون عادل ينصف جميع بني الانسان ، وهي بهذا رسالة تهدف الى الخير والى اسعاد الانسان . والطريق الى ذلك هو تربية الانسان العربي المسلم تربية خلقية دقيقة واقعية بحيث تزرع في ضمير الانسان قوة وحيوية تدفع به الى عمل الخير .

من حيث المضمون :

وإذا كان ما تقدم قد فسر لنا العدالة الاجتماعية - السياسية من حيث المعنى، فإن العدالة الاجتماعية من حيث المضمون تعني ، الموازنة في العلاقات السياسية بين الأفراد والأفراد وبين الجماعات . وعن طريق توازن العلاقات تتم العدالة بين هذه العناصر من جهة وينعدم الظلم السياسي من جهة أخرى . ولقد وجد الفكر العربي الإسلامي الذي يستمد قوته من الشريعة الإسلامية ان الإيمان الحقيقي بالفكرة المشفوعة بالإيمان الحقيقي في تطبيقها تطبيقاً دقيقاً هو السبيل الناجح الى منع حصول أرجحية هذا الفرد على ذلك أو هذه الجماعة على تلك . وهذا بعينه هو طريق سياسي عادل ، وهو طريق بعيد عن الظلم السياسي في الوقت عينه .

من حيث المقومات :

لقد قلنا ان العدالة الاجتماعية السياسية هي نظرية الحكم العربي الإسلامي . والواقع ان نظرية الحكم العربي الإسلامي ، شأنها شأن أية نظرية أخرى للحكم، تقوم على اركان او مقومات اساسية .

والسؤال الان ما هي هذه المقومات التي تقوم عليها نظرية العدالة الاجتماعية - السياسية في الحكم ؟ وللإجابة على ذلك ، نقول ان العدالة السياسية العربية الإسلامية تقوم على المقومات الأساسية التالية :

اولاً - الحرية السياسية :

وتعتبر الحرية في نظرية الحكم العربي الإسلامي الركيزة الأولى لاجلال العدالة الاجتماعية السياسية .

وحيثما نحلل مفهوم الحرية في نظرية الحكم العربي الإسلامي نجد انها تقوم على القاعدة التي تقول ان الحرية جزء اساسي من تقدم وسعادة الأفراد والمجموع في وقت واحد . فالفرد لا يستطيع ان يتضلع في مسؤولياته السياسية تجاه حكومته ومجتمعه خير تضلع الا اذا فتحت امامه ابواب الحرية .

كل ذلك من جهة ومن الجهة الأخرى ، فإن الحرية كما جاءت في المفهوم العربي الاسلامي لا تعني انها حرية لا تخضع لتنظيم ولا لفلسفة عامة • على العكس فإن الحرية السياسية تنظمها فلسفة عامة تقوم في اساسها على القانون المتمثل في الشريعة الاسلامية^(١) •

ومن اهم ما تؤكد عليه هذه الشريعة هو ان الحرية السياسية يجب ان تكون موجهة نحو الفضيلة والخير الانساني • ومن هنا نستطيع القول ان الحرية التي تقوم على الفضيلة والخير هي حرية تقبل الصراحة لا المراوغة - في العمل السياسي - والاستقامة ، لا المخاطلة والمباغثة • وهذا بعينه هو المقياس الخلفي في الفكر العربي الاسلامي للعمل السياسي وللحرية السياسية • وتضم الحرية السياسية :

آ - حرية الافراد • والمقصود بها تبادل الآراء وتقليب وجهات النظر وابداء كل رأيه دونما خوف او رهبة •

ب - حرية المجموع • والمقصود بها ، ان تفاعل الآراء في المجتمع العربي الاسلامي الذي يقوم على الحرية يؤدي الى تكوين رأي عام يمثل المجموع • وهذا بحد ذاته ما يسمى بالارادة العامة •

وحسبنا ان تشير هنا الى ان ارادة الجماعة العامة^(٢) هي التي تعمل على كشف الحقيقة من حيث انها السبيل في الوصول الى الحق والعدل • وعلى هذا الاساس جاء القانون الاسلامي المتمثل في القرآن الكريم ليقول « واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » •

وجاء قول مؤسس الدولة العربية الاسلامية الرسول محمد (ص) ما معناه ان السعادة تظل ملازمة الامة ما بقيت تحكم بالحق والعدل • وقد رأى الفيلسوف العربي ابن خلدون ان العدل السياسي ذو صلة بحياة الدولة • ذلك ان الدولة التي

(١) انظر في هذا الصدد ، الشيخ محمد ابو زهرة : التكافل الاجتماعي في الاسلام ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٢٠-٢٢ •

(٢) ارادة الجماعة هي الارادة التي تعبر عن كثرتهم الكاثرة • انظر الرئيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٢٣ •

تقوم على العدل لها ان تأمل حياة تؤدي الى الرقي والحضارة • وعلى العكس فان الدولة التي تقوم على الظلم لها ان تأمل الانحطاط السريع فالفناء •

ثانيا - المساواة :

والمساواة في الحياة السياسية العربية الاسلامية تعني ان لا تمييز بين الافراد على اساس الجاه او الغنى • وتعني كذلك ان لا تمييز على أساس اللون أو العنصر • كما تعني ايضا المعاملة المتساوية امام القانون^(١) • وتعبير أدق ان ليس هناك فرق بين الانسان والانسان في الحياة الاجتماعية والسياسية الا بما يمتازون على غيرهم من كفاءة وخدمة للمجتمع •

والذي يحلل هذه القيم والآراء يجد ان النظرية السياسية العربية الاسلامية في الحكم تقوم على الخير وتؤمن بقيمة الافراد وتعمل على اسعادهم • وحسبنا ان نشير هنا ان هذه القيم هي بحد ذاتها ركائز اساسية لمفهوم العدالة الاجتماعية السياسية • ولهذا جاء الدستور الاسلامي ليؤكد ان لا فرق بين اعجمي وعربي الا بالقوى • والمقصود بذلك من الناحية السياسية المساواة في المعاملة القانونية والسياسية • أي عدم التمييز بين الافراد الا بمقدار « تقواهم » أي اخلاصهم واستقامتهم وخدمتهم لربهم ولانفسهم ومجتمعهم ، ولهذا كله ايضا جاء المفكرون والساسة ليؤكدوا اهمية هذه الناحية في الحياة السياسية • ومن يتمعن في دراسة الخطاب الذي القاه الخليفة المفكر أبو بكر (رض) ، عقب بيعته ، يتبين له كيف ان مبدأ الانصاف في الوقوف بجانب المظلوم واخذ الحق من الظالم يمثل اعلى درجات المساواة فكرا وتطبيقا • فقول الخليفة أبو بكر « الا ان اضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه ، واقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له » ، بمعنى أدق ، هو توكيد للمساواة في اعلى درجاتها بوجه خاص ، وتحقيق هدف انساني سام هو العدالة الاجتماعية بوجه عام •

(١) النظريات السياسية الاسلامية ، مصدر سبق ذكره ، ص ص

ان أي تحليل دقيق لحالات التمييز بين الافراد ، وفقا لمفهوم العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية يرينا انه قد تحدد من حيث الاساس في حالتين مهمتين : وهما الكفاءة والخدمة •

فالتمييز بين الكفاءات هو الذي ادى الى نشوء فكرة اهل الحل والمقد الذين يفضلون على غيرهم في المشورة بناء على رجاحة عقولهم قبل أي شرط آخر • وقد أكد على هذا ، الدستور الاعلى حين قال « وفوق كل ذي علم عليم » • وحين قال ايضا « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ثم قوله « قل لا يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات والنور » •

وإذا كان ما تقدم يؤكد على الجوانب الفكرية من مفهوم العدالة الاجتماعية، فإن الجوانب الواقعية والعملية منها قد تحددت بمقدار خدمة الافراد لمجتمعهم • وهذا التمييز الذي يميز فرد عن فرد هو ليس تمييز انما هو تفضيل للانسان الذي يعمل ، على الانسان الذي لا يعمل • ومن هنا كان المجتمع العربي الاسلامي ، مجتمع يقوم على الحركة والعمل والخدمة ، لا على الجمود والوقوف • والآيات في الدستور الاسلامي تبين لنا كيف ان هناك ميزة للذين يعملون عن الذين لا يعملون وكيف ان هناك تفضيلا للعاملين على القاعدين • فلقد جاء القرآن الكريم : ليميز بين الخاملين والمجاهدين وكيف ان المجاهدين هم اعلى درجة من القاعدين وليبين ان الجهاد معناه الاخذ بحياة الانسان في السلم عامة ، وحياته السياسية خاصة نحو طريق الخير والعدالة • وليبين ان الجهاد في حالة الحرب يعني تحقيق الحق والقضاء على الظلم • فالجهد تكون شرعية، كما سنرى فيما بعد ، اذا قامت على دفع الظلم والاعتداء ، والا لاصبحت الحرب عدوانية ، وهذا ما لا تقبل به العدالة الاسلامية والشريعة الاسلامية • ويكفي ان نشير لهذا التفضيل بين الافراد على اساس خدمتهم ، الحكمة العربية الاسلامية التي تقول « خير الناس من ينفع الناس » • وخير الناس في الحياة السياسية هو ذلك الانسان الذي يأتي بخدمة افضل لبناء المجتمع السياسي •

ثالثا - المسؤولية :

والمسؤولية ركن اساسي من اركان نظرية الحكم العربي الاسلامي . ولا يمكن تفهم المسؤولية السياسية في المفهوم العربي الاسلامي الا بالنظر اليها كسلسلة متكاملة الحلقات . ومعنى ذلك ان المسؤولية العامة تتداخل في المسؤولية الخاصة . وهذا ما يجعلنا ان ننظر الى المجتمع النظرة الى البيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا . ومن هنا نفهم ايضا ان افكر السياسي العربي الاسلامي يقوم على فكرة اسعاد الفرد في مجتمعه السياسي ويوجهه نحو الطريق الذي يؤدي به الى خدمة مجتمعه في وقت واحد . وهذا بالطبع لا يتأتى الا بتربية الفرد سياسيا تربية يقدر فيها اهميته بحيث يشعر انه فرد في مجتمع متكامل له حقوقه من جهة وله واجباته تجاه مجتمعه من جهة اخرى . وبهذا يتحقق المعنى الحقيقي للحكمة القائلة « كللكم راع وكللكم مسؤول عن رعيته » .

ان ما تقدم يؤدي بنا الى القول ان المجتمع - وفق نظرية الحكم العربي الاسلامي او نظرية العدالة الاجتماعية السياسية - هو مجتمع متماسك قاعدته . التكافل الاجتماعي « . أي ان الفرد يكفل المجتمع والمجتمع يكفل الفرد . كل هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى فان المسؤولية السياسية لا تنحصر في القائد السياسي دون المواطنين وانما هي مسؤولية القائد والمواطن معا . وهذه ناحية جديرة بالدرس والتمحيص . لانها في جوهرها تقوم على منطق الحرية والترابط بينها وبين المسؤولية . ذلك ان اقائد السياسي لا يستطيع ان ينفرد في مسؤوليته دون ان يستند على تأييد ورضا المواطنين^(١) . وهذا الرضا بحد ذاته ما هو الا مسؤولية المجتمع السياسي العامة في الدولة . وهو تماما الوجه السياسي من العدالة الاجتماعية . ولهذا نجد ان ابن خلدون المفكر العربي المشهور قد اكد على هذه الناحية بحيث رأى ان العلاقة وثيقة بين تحمل المسؤولية وبين الرقي وال عمران . كما رأى افيلسوف الفارابي نفس هذه الناحية ايضا . وهذا يتبين لنا من قوله

(١) النظريات السياسية الاسلامية ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩٣ .

بما معناه ان السلطة التي تفتقر الى الحكمة والتعقل والمسؤولية هي سلطة تؤول الى الخراب والدمار • ويسمى الفاربي مثل هذا النوع من السلطة بالسلطة الجاهلة • اما السلطة التي تقوم على الحكمة والتعقل والمسؤولية فانها سلطة تؤول الى الرقي والسعادة • وبينما يربط ابن خلدون بين المسؤولية وبين تقدم الامة ورفيها ، نجد ان ابن باجة يرى ان ايفاء الحاكم بمسؤوليته يجب ان يكون الاساس في التمييز بين القيادة والحكومة الصالحة وبين القيادة والحكومة الطالحة • ويلتقي الماوردي مع ابن باجة في هذه الزاوية بالذات ، الا انه يضيف فيؤكد على ان الحاكم العادل يجب ان يكون مطاعا من قبل الرعية •

وهكذا يمكن القول على ضوء ما تقدم ان حكم الحاكمين يجب ان يقوم على توزيع المسؤولية بينه وبين المحكومين او المواطنين • فمسؤولية الحاكم تتجلى في ان يكون حكمه منبثقا من فلسفة تجعل منه كفرد وتجعل من كل فرد آخر ان يعمل في نطاق دائرتين : دائرة مسؤوليته الخاصة تجاه نفسه والتي توجب عليه ان يعلم حقوقه ودوره في المجتمع ، ومسؤوليته العامة تجاه مجتمعه والتي توجب عليه معرفة واجباته تجاه مجتمعه السياسي بوجه عام •

رابعا - القيادة الجماعية :

وتمثل القيادة الجماعية في نظرية الحكم العربي الاسلامي « بمبدأ الشوري » (١) • ومبدأ الشورى يعني ادبيا تبادل الرأي • اما معناه السياسي فهو التفكير الجمعي في معالجة وحل المشاكل السياسية •

والقيادة الجماعية تقوم على مبدأ ذي اهمية كبرى في حياة المجتمع السياسية • فهو يمنع الاستئثار بالسلطة من قبل اي فرد من ناحية ، وهو يعمل الى الوصول الى القرارات التي تقل فيها الاخطاء ويزداد فيها التروي والمناقشة وتقليب وجهات النظر المختلفة •

(١) تقول الآية الكريمة : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الامر » • (سورة آل عمران : ١٥٩) • ان ما يجب ملاحظته هنا هو ان الدستور الاسلامي الاعلى (القرآن الكريم) قد اتى بهذا المبدأ في صيغة الوجوب والالزام •

وحسبنا ان نشير هنا ان مبدأ الشورى او القيادة الجماعية يمثل لنا الحكم الذي يقوم على التوافق والرضا بين الحاكم والمحكوم وهذا ما يجعل من النظرية العربية الاسلامية في الحكم نظرية تقوم على الحرية والاتفاق . ولهذا نجد ان مؤسس الدولة العربية الاسلامية الرسول محمد (ص) قد اكد على ذلك تأكيدا كليا . فيروي لنا ابن تيمية في كتابه « السياسة الشرعية » ، ان الرسول محمد (ص) لم يكن ليكتفي بتطبيق مبدأ الشورى في جميع قراراته وحسب ، وانما اكد عليه كمبدأ اساسي من مبادئ نظرية الحكم العربي الاسلامي . ويروي لنا الرازي ايضا في كتابه «مفاتيح الغيب» ، « ان الرسول محمد (ص) امر بالشورى لانه محتاج الى آراء من يستشيرهم ، ولكن لاجل انه اذا شاورهم في الامر اجتهد كل واحد منهم في استخراج الوجه الاصلح فتصير الارواح متطابقة متوافقة على تحصيل اصلح الاوجه فيها » . والواقع ان تأكيد الرسول القائد جاء تنفيذا للقانون الاسلامي او الشريعة الاسلامية حيث تقول الآية الكريمة : « وشاورهم في الامر » .

وهكذا نجد ان نظرية العدالة الاجتماعية بالنظر لما تحويه من افكار سياسية نمنية ، تستدعي التبع المتواصل والدراسة العلمية المستفيضة للتعرف على كل دقائقها وزواياها بغية بناء مجتمع عربي حديث قوى اصيل يستمد قوته من قيم حضارته العربية الاسلامية السامية .

نظرية الخلافة (الامامة)

نبذة عامة :

قبل البحث في نظرية الخلافة ، من الضروري التمييز بينها وبين العدالة الاجتماعية السياسية . ولتوضيح ذلك ، فإن من الممكن القول انه اذا كانت نظرية العدالة الاجتماعية السياسية هي نظرية الحكم التي تقوم عليها الدولة في الفكر العربي الاسلامي فان نظرية الخلافة هي نظرية رياسة الدولة . ونظرية الخلافة او الرياسة تمثل لنا نموذجا وصورة من صور العقود السياسية التي جاء بها الفكر السياسي العربي الاسلامي . فالخلافة هي عقد يتحدد بموجبه طريق رياسة الدولة العربية الاسلامية . وان هذا العقد يتم بين رئيس الدولة وهو (الخليفة) وهو الطرف الاول ، من جهة وبين الامة وهي الطرف الثاني من جهة ثانية .

ان نظرية الخلافة التي نحن بصدها هي نظرية اقل ما يمكن القول عنها انها وليدة الظروف التي مر بها المجتمع العربي الاسلامي . ذلك ان الدولة العربية الاسلامية التي اسسها الرسول (ص) والتي لم تلاق اية محنة قيادية في حياة الرسول كانت قد اصطدمت بمحنة قيادتها بعد وفاته مباشرة . فلقد بدأ على العرب الحيرة حول من سيخلف الرسول في ادارة دفة الدولة ؟ وكان اول محاولة للاجابة على هذه الحيرة هو ان بدأوا في التشاور في الامر . وقد كان هذا الشاور امرا طبيعيا منذ ان كان منسجما مع تقاليدهم العربية^(١) ، وتعاليم

(١) عندما نقول ان فكرة التشاور هي وليدة التقاليد العربية ، فاننا نعني بها انها وليدة القيم العربية التي تحولت الى تقاليد عبر الزمن الطويل . فقد كان لكل دولة عربية قبل الاسلام دار للرئيس او الشيخ . وكان هذا الدار يؤدي وظيفتين : الاولى سكن الشيخ والثانية مجلس عام للمناقشة والمشاورة بجميع امور القبيلة . ومن هذه الدول مثلا دولة مكة ودولة كندة . فدولة مكة كان درها يسمى بدار الندوة ، وهكذا فان دار السقيفة التي اجتمع فيها اهل الحل والعقد ، والذين توصلوا الى نظرية الخلافة ، لم يكونوا قد توصلوا اليها بمحض ابداعهم الكلي ، وانما الابدع منه ، اسلوب الحياة السياسي الذي تكون لدى العرب عبر الزمن الطويل .

الشريعة الاسلامية • فلقد تعود العرب عبر الزمن الطويل على ان يقرروا امورهم عن طريق تبادل المشورة في مجالسهم القبلية وفي ندواتهم • ثم جاءت الشريعة الاسلامية لتؤكد نفس هذا الاسلوب في التقرير في المسائل المنوعة في الحياة عامة والحياة السياسية خاصة • والمهم ان نعلم انه عن طريق هذه المشورة توصل العرب المسلمون الى نظرية الخلافة او رئاسة دولتهم • ومن هنا كانت نظرية الخلافة وليدة المشورة والمذاكرة • فلقد تمخضت عن هذه المشاورة والمذاكرة التي تمت في دار السقيفة في المدينة الاتفاق على الطريق السياسي الذي ستسلكه الامة وعلى من سيقود ويرأس الدولة •

وتقد جاءت التسمية من واقع حال المجتمعين • ومن هنا ظهر منصب الخلافة ليشير الى منصب الرئيس للدولة بعد الرسول • واذا كانت الخلافة في معناها القريب قد اشارت الى من يخلف الرسول لرئاسة الدولة ، فانها في معناها البعيد قد اشارت الى قيادة الامة^(١) • ومن معانيها الاخرى الامامة^(٢) التي اشتقت من أم الناس ومعناها قادم في الصلاة • ومن هذا المعنى القريب الذي يعني قيادة جمع من الناس لاداء فريضة الصلاة وهي قيادة دينية انبثق المعنى العام البعيد وهو قيادة الناس في المجتمع السياسي • وبمرور الزمن أصبحت الخلافة والامامة كلمتين لهما معنى سياسي واحد وهو رئاسة الدولة^(٣) •

طبيعة نظرية الخلافة

وتمثل طبيعة نظرية الخلافة في انها قد استقرت على افكار وقواعد لا يمكن ان تتحقق من دونها • واهم هذه المبادئ والقواعد :

١ - مبدأ الاختيار : ومعنى ذلك ان نوعية الرياسة لا تأتي بالقسر او الاجبار

(١) الخلافة والامامة ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٣٤٠-٣٤١ •

(٢) يقول ابن خلدون في مقدمته ص ١٥٩ : « فاما تسميته اماما فتشبيها

بامام الصلاة » •

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٠ الذي جاء فيه « ان الشيعة خصوا علياً باسم « الامام » نعتا بالامامة التي هي اخت الخلافة ... ولن يسوقون اليه اليه منصب الخلافة من بعده » •

او العنف ، وانما تأتي بوسيلة الاختيار^(١) . اذ لا اكراه في الدين ولا اكراه في الحياة وبالتالي فلا اكراه في الحياة السياسية وفي قيادتها بالذات . ثم ان هذا الاختيار هو اختيار الامة . فالامة هي صاحبة السيادة او صاحبة السلطة العليا ، التي تسير بوحى من دستورها وشريعتها الاسلامية .

٢ - مبدأ الكفاءة : ويتمثل مبدأ الكفاءة في ان الاختيار لا يقوم على الاعتبار وانما يقوم بحكم العقل والمنطق . ويعطي الاصلحية لتقرير العقل . أي انه يعطي اهل الحل والعقد صفة اصحاب او اهل العقل^(٢) . واستخدام العقل هو الذي يرشد اصحاب الاختيار الى من هو الصالح ومن هو غير الصالح لمنصب الخلافة . ثم ان استخدام العقل دون العاطفة هو وسيلة من وسائل احلال المساواة بين الناس وفتح الباب امام الجميع دون تمييز للترشيح للخلافة وفقا للكفاءة وانخداة والاخلاص والايمان . وفي كل ذلك تحقيق للعدالة بين الناس . وهو في الوقت عينه تحقيق خيرهم وسعادتهم .

٣ - مبدأ الرضا : وهذا يعني ان الخليفة لا يجوز ان يأتي بالاكراه وانما برضا الناس ، لان رضا الناس من رضاء الله . ويتجسد هذا الرضا في مبايعة خليفتهم أي بالمصادقة على اختياره وابدائهم رضاهم عنه . وقاعدة المبايعة ، هي قاعدة رئيسية لا يمكن ان تكون الخلافة بدونها شرعية . فلا خلافة شرعية بدون مبايعة او رضا الناس . ورضا الناس هنا ما رضى عليه

(١) انظر احمد عباس صالح : الاصول الفكرية للحضارة العربية في مجلة الكاتب ، عدد ٧١ ، فبراير (شباط) ١٩٦٧ ، حيث يقول ان « فكرة الخلافة التي تقوم على النظر والاختيار قد عاشت .. في اذهان العرب كفكرة اساسية .. ص ٣٤ : الاعظمي ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ١٤ .

(٢) تظهر اهمية العقل في القرآن الكريم الدستور الاسلامي في آيات كثيرة ، ولعل اقرب الايات الى موضوعنا هي الآية التي تؤكد على عقل الانسان فنقول : « الم نجعل لكم عينين ولسانا وشفقتين وهدينا النجدين » . والمهم هنا ان نعلم ان « نجدين » معناها ملكة الانسان في عقله للتمييز بين الخير والشر والكفوء والضعيف وغير ذلك .

أكثرهم الكثرة • وهذا هو مقياس الرضا والذي يطلق عليه في الأزمات الحديثة بالأغلبية الساحقة • ومع أن أساليب موافقة الناس تختلف من عصر إلى عصر ، إلا أن الحقيقة الثابتة في طبيعة الخلافة تبقى ، وتلك هي أن رضا الناس هو ضرورة من ضروراتها • وإن أي إكراه للناس فيها معناه إبطال لها •

٤ - مبدأ العقلية الجماعية : ويستند هذا المبدأ إلى الأساس العربي والإسلامي وهو الاجتماع بين الناس وتبادل الآراء بينهم إذ إن رأي الجماعة خير من رأي الفرد • وقاعدة رأي الجماعة خير من رأي الفرد لا يقتصر مداها على حياة الأمة السياسية وإنما يمتد إلى جميع جوانب الحياة^(١) • فهناك في الحياة الدينية تأتي هذه القاعدة لتقول إن صلاة الجماعة خير من صلاة الفرد • وهناك في الشريعة الإسلامية ذاتها نجد أن ركني القياس والاجماع وهما ركنان أصيلان يأخذان بالعقلية الجماعية وبرأي الجماعة • واذن فإن الركون في انتخاب الخليفة إلى العقلية الجماعية والركون كذلك إلى نفس القاعدة في طلب الخليفة لرأي الغير يشكل في التفكير العربي الإسلامي نظاماً متكاملًا متناسقًا ، إذ إن الطريق في الحياة السياسية هو جزء من طريق الحياة العام حيث الناس فيه يتشاورون ويتبادلون الرأي كي يبعد عن الحياة كل ما من شأنه أن يعمل على الاستبداد بالرأي والتسلط الذي تآباه الشريعة الإسلامية وتآباه قواعدها في العدالة والمساواة •

ماهية نظرية الخلافة :

من الضروري أن نعيد إلى الأذهان القول إن هذه النظرية هي وليدة البيئتين العربية والإسلامية وإنما ظهرت وفقًا لمتطلبات الحاجة • وإنه لم يظهر مثل هذه النظرية في مكان وحضارة أخرى ، ولذا فهي نظرية أصيلة ولم تقلد أية نظرية أخرى •

(١) د • عبدالكريم زيدان : الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية ، مطبعة سلمان الأعظمي ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٢٣ ، ص ٢٧ •

وحيثما نتحدث عن ماهية نظرية الخلافة فاننا نقصد بذلك حقيقتها او بتعبير اوضح المحور التي تدور عليه افكارها . وعند البحث في هذا المحور نجد ان نظرية الخلافة تقوم على الدعائم التالية :

اولا - ان نظرية الخلافة هي نوع من انواع العقود :

والمقصود بذلك ان الفكر العربي الاسلامي الذي يستند الى دستوره وتقاليدته ، ينظم احوال المجتمع من جميع جوانبه المختلفة . وان هذا التنظيم جاء على شكل عقود . وقد وضع الدستور الاسلامي هذه العقود خير توضيح .

والمهم ان نعلم ان نظرية الخلافة هي احدى نظريات العقود السياسية . وهذه النظرية تتناول تنظيم المجتمع السياسي وفق قواعد ، وان مجموع هذه القواعد يشكل هذا العقد السياسي . وعقد الخلافة يتم من قبل طرفين رئيسين : الاول وهو طرف المرشح لمنصب الخلافة والثاني وهو طرف الامة^(١) . واذن فان نظرية الخلافة هي عقد بين الحاكم والمحكوم او كما اصطلح عليها الفكر الاسلامي عقد يتم بين الراعي والرعية ، والمقصود بالراعي الرجل المسؤول الموجه والمدير للشؤون السياسية . اما الرعية فهم الذين يختارون الراعي . وهم يتألفون من جميع ابناء الامة . وفكرة الراعي او القائد تقوم على الاساس الذي يقول انه لا يمكن للمجتمع ان يقوم من دون ان يكون له قائد او راعي يأخذ على عاتقه تنظيم اموره وفق الشريعة الاسلامية . فالقيادة في الفكر العربي الاسلامي واجبة وعدم وجودها يؤدي الى الفوضى . ولكن الشيء المهم ان الراعي او الموجه او القائد للامة لا يمكن ان يفرض عليها فرضا وانما يجب ان يأتي عن طريق اختيارها وموافقتها ، وهنا يأتي الطرف الثاني من العقد وهو الذي يتمثل في الرعية او الامة . واساس وجود الرعية هنا هو ان فرض الراعي على الرعية بالاكراه يتنافى ومنطق الشريعة الاسلامية والفكر الاسلامي القائم على العدل . فالاكراه وجه من وجوه الظلم . ثم ان الاكراه لا يمكن ان يؤدي الى

(١) انظر الخلافة والامامة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧٤ ؛ كذلك محمود

فياض ، الامامة والسياسة ، ص ١٦ .

استقرار حياة الامة . كما انه لا يمكن ان يؤدي الى سعادتها . ذلك ان الاكراه
معناه فرض امتيازات من جانب على الجانب الاخر . وفي هذا افتقاد للمساواة
وافتقاد للعدالة .

واذن فان رضاء الامة واختيارها لراعيتها هو شرط من شروط هذا العقد
السياسي . وليس هذا فحسب ، فان هذا الرضا يجب ان يتم كذلك من جانب
الراعي الذي يرضى بقيامه بهذه المهمة .

ومن هنا يصبح العقد السياسي المتمثل في الخلافة اتفاقا حرا يقوم على
الاختيار والموافقة من الجانبين : القائد والامة . ومن هنا ايضا يظهر لنا ان
الفكر العربي الاسلامي في نظرياته وفي نظرية خلافته - التي هي احدى العقود
السياسية - قد سبق ما جاء به مفكرو الغرب المحدثين من افكار متشابهة بقرون
عديدة . ذلك ان التأكيد على الاتفاق الحري بين الحاكمين والمحكومين الذي
تحدث عنه بعض المفكرين الغربيين من امثال لوك وروسو كما اسلفنا لا يعطيهم
أي سبق حضاري ، طالما ان الحضارة العربية الاسلامية التي سبقت حضارتهم
بقرون عديدة ، قد جاءت بما يشبه هذه الافكار وطبقتها بالفعل . ومن هنا
ايضا كان الفكر العربي الاسلامي سباقا في نظرية الارادة ، الارادة العامة التي
تمثل في الامة وفي سيادتها على تقرير شؤونها .

ثانيا - ان نظرية الخلافة تركز على فكرة الترشيح :

وهذه تبعد نظرية الخلافة عن النظريات الوراثية التي ظهرت في الاقاليم
والحضارات التي عاصرت او سبقت تأسيس الدولة العربية الاسلامية . وتتلخص
فكرة الترشيح في ان يرشح للناس جماعة ممن اشتهر في الحكمة والدراسة
والعقل والمعرفة بالشؤون الاسلامية وظروف المجتمع واحواله ، وممن اتصف
بالاتزان والروية في اعماله وآرائه . ومهمة الترشيح هذه التي نحن بصددنا
هي من مهمة مجلس شورى يسمى اعضاء باهل الحل والعقد^(١) . وهؤلاء يقع

(١) هم « الذين تثق بهم (الامة) وترضى برأيهم لما عرفوا به من الاخلاص
والاستقامة والتقوى والعدالة وحسن الرأي والمعرفة بالامور والحرص على مصالح
الناس » . الفرد والدولة في الشريعة الاسلامية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩ .

عليهم تقديم شخص تتوفر فيه مؤهلات القيادة للامة . وقد يجوز ان يقدموا هذا الشخص من بينهم او من غيرهم . الا ان هذا الترشيح او الايحاء الذي يوصى به اهل الحل والعقد ، والذي يجب ان يقوم على رأيهم جميعا او رأي اكثرينهم ، يظل بحاجة الى ان يعرض على الامة للمصادقة عليه^(١) . وبدونه لا تكتمل مقومات هذه النظرية .

ان ما هو مهم في موضوع الترشيح هو ان يتم من قبل مجلس الشورى المتمثل في اهل الحل والعقد . وان ما هو مهم ايضا ان اهل الحل والعقد يختلفون من زمان لزمان ومن مكان لمكان^(٢) . ولكن الشيء الثابت فيهم هو ان يكونوا ممن اشتهر برجاحة عقله وخلقه ومركزه الاجتماعي العالمي بين ابناء قومه في الزمان والمكان الذي يعيش فيه . والسبب في ذلك على ما يظهر من دراستنا لروح الشريعة الاسلامية وتعاليمها ، هو ان ما يقررونه سواء آكان ما يعرض عليهم من آراء ، او ما يعرض عليهم من الغير لدراسته والتقرير فيه ، نقول ان ما يقررونه يجب ان ينال تقدير واحترام الامة . ومن هنا يبدو ان جوهر الفكر العربي الاسلامي يقوم على تقدير العلماء والحكماء وذوي الاخلاق الفاضلة من ابناءها ، ممن اشتهر في التضحية من اجل سعادتها وخدمتها ، وممن اشتهر في الاخلاص لها .

ثالثا - ان نظرية الخلافة تركز على فكرة البيعة :

وفكرة البيعة مقوم اساسي من مقومات نظرية الخلافة التي بدونها لا يتم

(١) انظر ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ، ج ١ ، ص ١٤٢ ؛ كذلك المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢) يرى د . عبدالكريم زيدان « ان ما يوافق احوال العصر ان تقوم الامة بانتخاب اهل الشورى الذين يشاورهم رئيس الدولة في المسائل العامة ، ويخولون ايضا سلطة انتخاب رئيس الدولة اذا شغل منصبه ، على ان يكون لرئيس الدولة الحق في مشاوره اهل الاختصاص في موضوع اختصاصهم سواء كانوا من اهل الشورى المنتخبين او من غيرهم » . انظر كتابه الفرد والدولة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦ .

العقد ولا يصبح الخليفة قد اشغل خلافته بصورة شرعية • وهذا يقودنا الى تقديم بعض التفصيلات عن البيعة •

ان فكرة البيعة تتم عادة في مرحلتين : الخاصة والعامة^(١) • فالبيعة الخاصة هي تلك العملية التي يتوصل فيها اهل الحل والعقد - وهم بمثابة نواب الامة والمتحدثين باسمها - الى ترشيح شخص يتفقون عليه بالاجماع او بأغلبية الآراء • وهذا الايضاء من قبل اهل الحل والعقد - وهم الذين يتحدد عددهم وفق حاجة كل ظرف وزمان - هو العملية التي يطلق عليها بالبيعة الخاصة •

اما البيعة العامة فانها تتعلق بمصادقة الامة او الشعب على رأي اهل الحل والعقد • والقاعدة التي تقوم عليها البيعة هي القاعدة الكفائية ، او ما يطلق عليها « بفرض الكفاية » • ومعناها ان يكفي بمن تتوفر فيه شروط اللياقة والامكانية لقيام بمهمة الانتخاب او بمهمة المبايعة او الادلاء بالرأي بالتأييد او الرفض • وتفسير ذلك يؤدي بناء الى القول ان الفكر العربي الاسلامي الذي يستمد اصوله الاولى من الشريعة الاسلامية يميز بين ما هو حق وبين ما هو ممكن • فمع ان الاختيار هو من حق كل فرد من ابناء الامة ، الا ان ممارسة هذا الحق ليس بمقدور الجميع • ذلك ان الناس يختلفون في اعمالهم وظروفهم واعمالهم ومقدرتهم • وهذا الاختلاف يجعل البعض من ابناء الامة قادرا على ممارسة حقه دون الاخرين ، وبهذه الوساطة يكفي بمن يسمح له ظرفه وعمله ورشده في انتخاب (او مبايعة) الخليفة نيابة عن الجميع • وبهذا ايضا يسقط الواجب عن الاخرين • ولذا سمي هذا الواجب من الواجبات الكفائية • وان الشروط المطلوبة فيمن تتوفر فيه شروط الاختيار يطلق عليها احيانا بالشروط الكفائية • وهي تعني نفس ما تعنيه المصطلحات السياسية الحديثة المسماة بالشروط الانتخابية • ان ما تقدم يساعد على القول ان الوسائل التطبيقية التي يستند اليها الفكر العربي الاسلامي هي وسائل تجعل منه ان يكون فكرا مرنا •

(١) انظر الاحكام السلطانية للماوردي ، ص ٤ وما بعدها ؛ كذلك الرئيس

مصدر سبق ذكره ، ص ص ١٧٥-١٧٦ •

فبالنسبة الى اختيار الخليفة ، نجد ان هناك مبدأ ، ولكن هذا المبدأ ليس بمطلق وانما فيه استثناء . فالتقاعدة ان الانتخاب فرض على جميع ابناء الامة ، الا ما استثنى ، ممن لا يقدر عليه . وهذه هي الناحية التي تجعل من هذا الفكر مرنا ، وتجعل منه ان يكون عمليا وواقعا . وهذا الاستثناء الذي جاء في هذا الفكر هو الاخر محدد ، كما ذكرنا . فيستثنى من لم يستطع حضور المكان الذي جرى فيها انتخاب الخليفة ، ان يقدم مبايعته الى الولاية ، او ان يؤديها في وقت متأخر . ويستثنى كذلك من كان مريضا او ناقصا في ملكاته العقلية او من لم يبلغ سن الرشد .

واذن فمتى ما حصلت قناعة اغلبية الناس عند ذلك تم الخطوة او المرحلة الثانية من المبايعة وهي المبايعة او البيعة العامة . وباتمام هذه الخطوة او المرحلة يصبح رئيس الدولة او الخليفة شرعيا .

ان المهم في كل ما تقدي هو ان هذه الازاء في الانتخاب التي وضعت قواعدها قبل ثلاثة عشر قرنا من الزمان لا تزال تضاهي احدث ما جاء من نظريات وافكار سياسية في الانتخاب والتمثيل في العالم .

الالتزامات في نظرية الخلافة :

من الضروري ولغرض تسهيل وتنظيم بحث الموضوع ، الاحاطة بالجوانب المختلفة لهذه الالتزامات . وعلى هذا الاساس فاننا سنبحث في هذه الالتزامات وفق التقسيم التالي :

اولا : الالتزامات المتعلقة بانتخاب الخليفة .

ثانيا : الالتزامات المتعلقة بمسؤولية الخليفة وعمله .

ثالثا : الالتزامات المتعلقة باهل الحل والعقد .

رابعا : الالتزامات المتعلقة بالناخب (او المبايع) .

ولنبدا الان بدراسة القسم الاول منها وهو الالتزامات المتعلقة بانتخاب الخليفة .

اولا - الالتزامات المتعلقة بانتخابات الخليفة :

ان اى جواب علمي وموضوعي على هذه الالتزامات يجب ان لا يغفل عن الاشارة الى التفاصيل الكثيرة التي برزت على ايدى الفقهاء والمدارس الفقهية المختلفة .

والذي يحلل شروط انتخاب الخليفة عند الفقهاء ومدارسهم بوجه عام ، يجد ان بعض الفقهاء والفرق قد ذهبوا في التفاصيل البعيدة . بينما وقف البعض الاخر على المسائل الرئيسية وترك التفاصيل لروح العصر الذي يعيش فيه ابناء الامة . ومن الامثلة على هذه التفاصيل ان بعض الفقهاء اشترط ان يكون الخليفة قد انحدر من قبيلة معينة . حتى ان البعض منهم قد اكد بما لا يقبل الشك على انحدر الخليفة من قبيلة قريش بالذات . وما نستطيع قوله هنا ، هو ان هؤلاء الفقهاء ، وهم قلة بين جمهرة الفقهاء المجتهدين العرب والمسلمين ، قد غاب عنهم ان النزعة القبلية تمثل عصرها وانها لم تعد بعد منسجمة مع فكرة المواخاة التي جاء بها عصر الرسول . وهذا ما حصل بالفعل ، حيث انا نجد ان اغلبية الفقهاء الذين مثلوا عصورا مختلفة بعد عصر الرسول (ص) مباشرة وما بعده ، كانوا قد اتفقوا على عدم التشدد في موضوع الانحدر القبلي .

وعند محاولتنا الوقوف على اهم الالتزامات التي وقف عليها اغلبية الفقهاء والمفكرين في انتخاب الخليفة ، نجد انها تنحصر في ما يلي :

اولا : الايمان بالعقيدة الاسلامية . ان الايمان بالمبادئ التي جاءت بها الشريعة الاسلامية وضرورة توفره عند القائد امر على جانب كبير من الاهمية . ذلك ان اقامة مجتمع الخير الذي نادت به الشريعة الاسلامية ، لا بد له ان يجد من يسعى على اقامته . وتأتي هذه المسؤولية على اشدها بالنسبة للخليفة .

وما يجب الوقوف عليه هنا في هذا الصدد ، ان التأكيد ، وهو ما يتفق عليه الفقهاء ، لم ينصب على المظاهر ، وانما على الايمان النابع من داخل الانسان ، لان المؤمنين الحقيقيين هم الذين يعملون بجد وعزم ويضحون من اجل عقيدتهم . اما غيرهم فلا . اصف الى ذلك ان مبدأ اقامة العدل وبناء مجتمع الخير

لا يمكن ان يتم الا برجال وضعوا الخير العام قبل مصالحهم الشخصية .
فدون هؤلاء الرجال لا توجد قيادة حقيقية للامة . واخيرا فان الحكمة من هذا
الالتزام تتجلى ، بعد كل ما تقدم ، في ان الخليفة يمثل المثل الاعلى والقدوة
الصالحة في الامة .

ثانيا - الكفاءة :

ويفضل الفقهاء في هذا الباب اشياء كثيرة . الا ان الرأي الغالب والمنفق
عليه يتلخص في النقطتين التاليتين :

آ - الكفاءة العقلية . ب الكفاءة الجسمية .

الكفاءة العقلية : وهذه تتجلى في توفر العلم^(١) وبعد النظر ورجاحة
العقل والرأي السديد عند المرشح لمنصب الخلافة . وهذه الصفات هي التي
تساعد الانسان في ان يكون معتدلا لا متسرعاً في اتخاذ القرارات وحل المشاكل .
ويظهر ، ان كثيرا من الفقهاء اشتقوا هذه الصفات من القرآن الكريم حيث يؤكد
على التبصر في الامور والتأني في اتخاذ القرار الذي هو نتيجة للمشورة والمناقشة
وتبادل الرأي والاحذ والعطاء . ومثل ذلك يظهر بوضوح في الدستور الاعلى
كقوله تعالى « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقوله « ادع الى سبيل ربك
بالحكمة والموعظة الحسنة » وقول الرسول (ص) « الحكمة ضالة المؤمن » .

الكفاءة الجسمية : ان اغلبية الفقهاء يتفق في شرط سلامة الحواس
وفي سلامة الجسم بوجه عام . ويتمثل ذلك بعدم ابتلاء المرشح بالعاهاات والتشويه
الجسمي ، حيث ان هناك علاقة بين المظهر والجوهر ، فلقد اشترط بعض الفقهاء
ان لا يكون الخليفة المرشح قبيح المظهر او قصير القامة بصورة تستلفت النظر ،
وبعبارة اخرى ان نظرة الاسلام تقوم على الاعتدال في الاشياء .

(١) يؤكد بعض الفقهاء على توفر درجة عالية من العلم في المرشح لمنصب
الخلافة تمكنه من الاجتهاد . ومن هؤلاء الفقهاء الجويني والجرجاني وابن خلدون ،
انظر د . محمد يوسف موسى : نظام الحكم في الاسلام ، معهد الدراسات العربية
العليا ، ١٩٦٣ ، ص ٣٣ وما بعدها .

والذي يمكن ان نستنتجه مما تقدم ان الكفاءة الجسمية تخص المظهر • وهي تتعلق باحاسيس الناس • اذ لم يغفل الفكر العربي الاسلامي من ان يقدر ان الانسان هو مكون من عقل واحاسيس • فالجانب الفكري هو الذي يقوم به العقل وجانب الاحاسيس هو الذي تتأثر به الحواس • فالكفاءة الجسمية اذن ان يكون المرشح سالما من الامراض • والا يكون مشوها وان تعمل حواسه بصورة صحيحة • ثم ان يكون من بعد كل ذلك مقبولا في مظهره • اذ ان قبح الشخص الذي يشغل هذا المنصب قد يؤثر في التقليل من هيئته وهذه مسائل يقبل بها علم النفس الحديث • ولهذا نجد ان الفكر العربي الاسلامي تماشى قواعده مع العصر الذي نعيشه •

ثالثا - الايمان بالعدل والانصاف :

وليس المقصود بالعدل التوسط بين الاشياء كما هو وليس الوقوف في وسط الطريق وانما المقصود بالعدالة هي انصاف الناس وشعورهم انهم قد انصفوا ، والموازنة ما بين حقوق الناس افرادا وجماعات • هذا وان من اول مقومات العدل بنظر هذا الفكر هي ايمان الناس الحقيقي به ، بحيث يستقر الاحساس في دخائل النفس البشرية • وهذا يعنى ان التظاهر بالعدل امر لا يكفي • اذ ان الظاهر يجب ان يدعمه الباطن •

والتأكيد على العدل والانصاف يمثل جانب العلاقة الوثيقة بين الاخلاق والسياسة • لان الغرض من التأكيد على العدل والانصاف هو ان يأخذ قائد الامة بيدها نحو جادة الصواب والحق • ذلك ان القائد اذا ما لم يؤمن بالحق ولا يعمل به فان مصير الامة سيسير من سوء الى اسوأ الامر الذي يؤدي بالنهاية الى تقويض اركان الحكم بأسره •

رابعا - مركز المرشح للخلافة الاجتماعي :

ونجد في هذا الشرط ارتباطا وتلاحما بين القيم العربية والمبادئ الاسلامية • وهذه القيم والمبادئ التي تقوم على كرامة الانسان ومنزلته في مجتمعه ، وتمن خدمته وتضحيته ، وتعز بخلقه واستقامته ، نجدها تعكس بصورة واضحة على

القيادة وعلى الخلافة بالذات بالنظر لما للقيادة من أهمية في ترسيخ اركان هذه المبادئ والقيم .

فالقائد الذي له مركز اجتماعي لدى قومه ، معناه انه قد حظى بثقتهم . ومن ناحية نفسية وسياسية انه الرجل الملائم في احلال التوافق بين الراعي والرعية ، وفي احلال الانسجام وبالتالي الاستقرار الذي هو امر ضروري لادامة كيان المجتمع والدولة . وكل ذلك حتى يبقى البنيان بنيانا مرصوفا متماسكا . اضف الى ذلك ان هذا النوع من التأكيد يضع مسألة التخطيط للمستقبل موضع الاعتبار . ويتمثل هذا التخطيط في ان القائد الذي يعمل بوحى من الثقة التي يتمتع بها بين بني قومه ، سيتمكن من تحسين حال المجتمع السياسي من حسن الى احسن . ومثل هذا المجتمع المتطور المتحسن هو المجتمع الخير السعيد الذي تهدف المبادئ العربية الاسلامية اقامته .

وجدير بنا ان ننتبه الى ان ما يجري اليوم من مغالطات وضغط واكراه وترغيب للافراد والجماعات في مساندة المرشحين ليتنافى كل التنافى مع القيم العربية الاسلامية . انها تتنافى مع القيم العربية الاسلامية لانها اساليب مخادعة وتبتعد عن القيم الخلقية التي نادى وتنادى بها الحضارة العربية الاسلامية . ثم ان مثل هذه الاساليب لا تعمل في الواقع على خدمة المجتمع وتقدمه وسعادته ، لانها تضع المصالح الشخصية هدفا لها . فاذا ما خدع الناس واختاروا مثل هذه الانواع لتتولى القيادة فمعنى كل هذا انها ستعمل على تفرقة الصفوف بدلا من رصها ، وعلى خلق التناحر بين ابناء الامة بسبب هذه الشخصية الامينة في ظاهرها والخداعة في حقيقتها . ومثل هذا لا يخدم الامة . ولقد رأينا في التاريخ العربي الاسلامي كيف ان الفترات التي خرج منها الحكم العربي الاسلامي عن طريقه السوي قد عكست على الامة بالضرر البالغ . وليس بعيد جدا قصة المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس الذي قال ابان زحف العدو على بغداد : « اخبروهم بانني لا اطمع باكثر من قصري ، ولا اظنهم يستكثرونه علي » .

٢ - الالتزامات المتعلقة بمسؤولية الخليفة :

لابد من الاشارة اولا ان الالتزامات المتعلقة بمسؤوليات الخليفة تتصل وتجاوب وتتكامل مع شروط انتخابه . ذلك ان الخليفة او رئيس الدولة الذي يطلب ان تتوفر فيه صفات الخلق القويم والاستقامة والايمان بالخير وبالحق والعدل ، عند انتخابه ، لا يمكن ان يعفى منها حين يتولى مسؤوليته فعلا . وهذا ما يدعو الى الترابط بين الجانبين النظري والعملي .

اما اهم الالتزامات المتعلقة بمسؤولية الخليفة فانها تنحصر من حيث الاساس بما يأتي :

اولا : الالتزام بالمحافظة على التراث والشريعة الاسلامية . وهذه الناحية تتضمن الاخذ بأحكام الشريعة ووضعها موضع التطبيق .

ثانيا : الالتزام بمبدأ العدالة والانصاف . وهذه تعنى ان العبرة في العدالة هي بالتطبيق . وهنا يلتقى على الخليفة مسؤولية العمل من اجل احقاق الحق والعدل والانصاف . والغاية من ذلك احلال المساواة بين الناس فعلا وعدم التمييز بينهم . وهذا التأكيد معناه الاخذ بتطبيق نظرية العدالة الاجتماعية قولا وعملا .

ثالثا : الالتزام بالعمل على اسعاد جميع ابناء الامة . فكما هو معلوم ان الناس في الشريعة الاسلامية سواسية . فقد اكد على ذلك الدستور الاسلامي الاعلى على اخوة المؤمنين بقوله « انما المؤمنون اخوة » .

ومن هنا يصبح من واجب رئيس الدولة ليس فقط عدم التفريق بين مواطني الدولة ، وانما العمل من اجل سعادتهم والاخذ بيدهم الى طريق الخير .

رابعا : الخروج على الخليفة اثر خروجه على الشريعة . وهذا يعنى انه لما كانت روح الشريعة الاسلامية تقوم على العدالة الاجتماعية ، لذا فان خروج الخليفة عن العدالة يفرض على الامة الخروج عليه . لان القيم العربية الاسلامية لا تقر بالحكم القائم على الظلم والجور . ومن هنا يتبين لنا ان هذه القاعدة

المتشكلة في الثورة على الطغيان والظلم ، قد جاءت بها الحضارة العربية الاسلامية قبل ان تأتي بها الحضارة الغربية على يد روسو ولوك وغيره بقرون .

٣ - الالتزامات المتعلقة باهل الحل والعقد :

ان اهل الحل والعقد هم اهل الاختيار كما يسميهم البعض من الفقهاء . واهل الحل والعقد يشكلون الوسط الفكري للمجتمع الذي يمتاز بالعقل والروية وبعد النظر . ولقد كرّم القرآن الكريم الذين يعلمون ورفعهم منزلة على غيرهم حين قال « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . اما التزامات هذا الوسط فهذا ما يمكن ان نحصره في النقاط التالية :

(١) المكانة الاجتماعية : أي ان يكون الانسان حائزا على رضى الناس^(١) . ذلك ان رضا الناس وتقديرهم هو الذي يضيف على الانسان ان يكون متمتعاً بقدر ملحوظ من الاحترام والمكانة الاجتماعية .

(٢) المعرفة : ان المعرفة والمكانة شيان متلازمان ومكملان لبعضهما . والمعرفة يقصد بها التحلي بالعلم ومعرفة احوال المجتمع وشريعته ومثله وقيمه والعلاقات القائمة بين افراده وجماعاته . وبكلمة واحدة المعرفة بكل القيم التي جاءت بها الحضارة العربية الاسلامية .

ان طلب المعرفة هذا هو ، كما نعلم هو فريضة قد فرضتها الشريعة الاسلامية على كل مسلم . فالشريعة اذن تطلب من ابناء الفكر العربي الاسلامي ان يكونوا عارفين بمجتمعهم وبالقوميات التي يقوم عليها . ولما كان الناس يختلفون في درجاتهم ومداركهم ، لذا فان من يتمتع بدرجة عالية من رجاحة العقل هو افضل من يصلح لترشيح من هو كفوء لتولي منصب الرئاسة .

(٣) الخبرة : وهي تضم التجربة والممارسة في الحياة . والخبرة تعني بعد هذا وذاك الناس الذين خبرهم المجتمع وخبروه . وكل ذلك يؤهلهم ليكونوا اهلا بتقديم الرأي السديد لامتهم سيما في اختيار من يدبر شؤونها .

(١) الفرد والدولة ، مصدر سببق ذكره ، ص ١٩ .

٤ - الالتزامات المتعلقة بالناخبين :

لقد امتازت الدول الحديثة التي تقوم نظمها على الانتخاب في ان تخطط لعملها السياسي فتضع له قوانين وانظمة وشروط انتخابية . وعندما نعود الى القرن السابع الميلادي نرى ان الدولة العربية الاسلامية كان لها ايضا شروطا في ناخبها .

وإذا ما رجعنا الى نظام الدولة العربية الاسلامية الانتخابي^(١) رأينا انه يؤكد على ما يلي :

(١) سن الرشد : ومعنى ذلك ان الرأي لا يقبل بصورة شرعية الا لمن بلغ سن النضوج العقلي . وسن النضوج العقلي في النظام الاسلامي هو سن الثامنة عشر كما رآه اغلبية الفقهاء . والشئ الملاحظ ان شرط السن هذا لا تزال تأخذ به اغلبية الدول ، والذي يسمى « بالسن القانوني » .

(٢) المساواة : ان المساواة تعني هنا ان الحق مفتوح لجميع الناس الذين بلغوا سن الرشد ، من دون تمييز بينهم على اساس اللون او الجنس او غير ذلك من الامور التي تشكل عقدة التمييز العنصري لدى بعض دول عالم اليوم . واكثر من هذا ، هو ان نظام الدولة العربية هو نظام خلو من النظرة الطبقية . ومن المعلوم ان اوربا التي مرت نظمها الانتخابية بفترات طويلة كانت تميز فيها بين الغني والفقير ، مشترطة نصابا ماليا يفتح الباب الانتخابي امام الغني ويوصده امام الفقير ، نراه وقد انعدم في نظام الدول العربية الاسلامية . ان عدم تحديد الطبقة التي تنتخب يمثل الاعتراف الكامل بحقوق الانسان . وهذا ما جعل الحضارة العربية الاسلامية ان تكون سباقه لغيرها في ميدان مساواة الانسان بالانسان قرونا عديدة .

(٣) المواطنة : وهذا الشرط يعني ان الفرد يجب ان يكون مواطنا في الدولة العربية الاسلامية ، وشرط المواطنة هذا هو من الشروط التي لا تزال تأخذ به الدول في عصرنا الحاضر .

(١) وهذا هو نظام اليعبة الذي يحدد شروط من يحق له المبايعة .

الخلافة عبر العصور :

ان من اهم مميزات نظرية الخلافة هي انها نظرية واقعية ، جاء بها واقع الظروف التي مرت بها الدولة العربية الاسلامية ، والتي تجسدت من بعد تطبيقها في نظام عرف باسم نظام الخلافة .

ونظام الخلافة الذي نحن بصدده اخذ بعد تطبيقه يعطي معنيان : المعنوي القريب وهو ما يتعلق برئاسة الدولة ، والمعنى البعيد وهو ما يتعلق بحياة المجتمع السياسي ككل ، والعلاقات القائمة فيه في ظل نظام الخلافة .

وفي الحقيقة ان نظام الخلافة قد مر بتطورات ملحوظة . وما يمكن قوله بشأن هذه التطورات هو ان نظام الخلافة في عصره الاول ، وهو عصر الخلفاء الراشدين ، كان قد نال تطبيقا صحيحا والتزاما دقيقا بالمفاهيم التي قام من اجلها . الا ان هذا التطبيق الصحيح لم يبق كذلك في العصور التي تلت العصر الراشدي . ففي العصر التالي لعصر الخلافة ، وهو العصر الاموي ، ظهر على هذا النظام تطورات جديدة لم يكن يعدها من قبل . ومن اهم مظاهر تلك التطورات تدخل الخلفاء في شؤون اهل الحل والعقد وسلبهم حقهم في ترشيح من يأتي من بعدهم ، وفي كل هذا خروج عن القاعدة الفكرية الاسلامية . وقد بدأ هذا التدخل في ترشيح الخلفاء لابنائهم الامر الذي حول هذا النظام الى نظام شبيه بالنظم الوراثية .

اما في العصر العباسي فقد ظهرت تطورات اخرى تمثلت في ان الخليفة الجديد الذي يتولى الخلافة من بعد والده ، والذي يجد بجانبه اخيه المرشح من بعده غالبا ما كان يقدم ابنه على اخيه . وفي هذا ابتعاد ايضا عن جوهر الفكر العربي الاسلامي . ذلك ان ادخال المصالح الفردية تحت ستار المصالح العامة هو امر لا تقره الشريعة الاسلامية مطلقا . ومن هذه التطورات الجديدة في هذا العصر ايضا اضعاف الجاه والسلطان على منصب الخلافة ، مما جعله يتعد اكثر فاكثر عن مفهومه الحقيقي ، المتمثل في خدمة مصالح المسلمين والسهر من اجل طمأنينتهم وسعادتهم ، ويقترب اكثر فاكثر من نظامي الدولة الفارسية والبيزنطية .

هذا وان الدرس المهم الذي تقدمه لنا مثل هذه التطورات هو ان ابتعاد
الانسان عن مبادئه يؤدي دوما الى ضعفه وتدهوره . وان ذلك لا يصدق على امة
معينة وعصر معين ، وانما يصدق على جميع الامم وجميع العصور . اما اهمية
هذا الدرس بالنسبة للعرب ، فانه يقدم صورة تاريخية حقيقية لمرحلتين مختلفتين
من حياتهم : الاولى وهي التي تتمثل بتمسكهم بمبادئهم وكيف ادى ذلك التماسك
بالمبادئ الى قوتهم وتقدمهم ، والثانية وهي التي تتمثل بالابتعاد عن مبادئهم
وكيف ادى ذلك الابتعاد الى ضعفهم وتأخرهم . وما اشبه اليوم بالامس .

نظريّة الدولة في الفكر العربي الاسلامي

يكاد يسود في الفكر السياسي العربي الاسلامي مبدآن اساسيان : الاول وهو الذي يرى ان المجتمع ضروري لدوام حياة الافراد • والثاني الذي يقول ان المجتمع لا يمكن ان يستقيم من دون وجود سلطة يلقي عليها مسؤولية تحقيق التقدم والاستقرار وخير المجتمع العام •

وهذه السلطة كما يراها ابن خلدون تتمثل بضرورة قيام الدولة في المجتمع السياسي • فهو يقول ان وجود الدولة ضروري لانها تعمل كقوة منظمة للحياة السياسية ، ولتقدم المجتمع الحضاري •

اما بالنسبة لمفكر ابن رشد فان التنظيم في الحياة السياسية امر ضروري • فيرى ابن رشد انه ليس باستطاعة اي انسان ان يعيش في المجتمع من دون وجود هذا التنظيم السياسي • ومن هنا نفهم ان الفكر السياسي العربي الاسلامي يعتبر الدولة قوة منظمة لحياة الانسان في المجتمع •

كيف يمكن توضيح هذه النظرية ؟ وللاجابة على ذلك فانه لا بد من توضيح معنى الامة والدستور في الفكر السياسي العربي الاسلامي • والواقع ان الامة وحدة مترابطة الاجزاء : اي انه ينظر اليها كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضها بعضا • وما يكون هذا البنيان المترابط هي التعاليم الاسلامية القائمة على اساس المساواة في كل نواحي الحياة •

والذي يجدر الانتباه اليه هو ان حياة ورفاهية ووحدة الامة ذات صلة بالسلطة - وتلك هي الدولة^(١) • والاهم من كل ما تقدم هو ان الدولة كقوة منظمة يشترط في قيامها ان تستند على اسس شرعية قانونية • وعلى هذا الاساس فان الدولة في الفكر العربي الاسلامي هي دولة تقوم على القانون وان هذا القانون هو القانون الاسلامي او الشريعة الاسلامية •

(١) انظر د. مجيد خدوري في كتابه

• "War & Peace in the Law of Islam" ص ٦ •

وعند تحليل مفهوم « دولة القانون » نجد ان ذلك لا يقتصر على الناحية النظرية وانما يمتد الى الناحية التطبيقية ايضا . ذلك ان القوانين التي هي بمثابة احكام منظمة لحياة المجتمع لا يمكن ان تكون فعالة الا اذا اكتسبت صفة التطبيق .

وكما ان من واجبات الدولة مراقبة سلوك الافراد فان عليها مسؤولية تحقيق استقرار وسعادة ووحدة الامة باجمعها ايضا . ولا شك ان مثل هذه المسؤولية الملقاة على عاتق الدولة هي مسؤولية عظيمة كونها لا تعمل على سعادة مجموع افراد الامة فحسب وانما تتحمل مسؤولية الحفاظ على التعاليم والاهداف الاسلامية السامية . ومثل هذه المسؤولية لا يمكن ان تتحملها الدولة بصدق الا اذا قامت على العدالة في كل خطوة تخطوها . فيقول الرئيس في هذا الصدد ان العدالة هدف ما فوقه من هدف في نظرية الدولة الاسلامية^(١) . وما يشير اليه الرئيس لا يتعدى الحقيقة . فالدستور المتمثل في القرآن الكريم وهو المصدر الرئيس في الشريعة الاسلامية ، يعتبر العدالة شرطا اساسيا في الحكم^(٢) . ثم انه يروى ان الرسول محمد (ص) مؤسس الدولة الاسلامية ، قال ما معناه ان السعادة تظل ملازمة الامة ما بقيت تحكم بالحق والعدل . ولقد رأى ابن خلدون الحقيقة عندما قال : ان الدولة التي تقوم على العدل لها ان تأمل تحقيق الرقي والحضارة . وان الدولة التي تقوم على الظلم لها ان تأمل الانحطاط السريع فلموت^(٣) .

والمهم ان نعلم ان هناك ارتباطا وثيقا بين العدالة والمسؤولية . وبالإضافة فان المسؤولية وتحملها يحتاج الى سلطة تعي ابعاد المسؤولية المختلفة . ويوضح لنا الفارابي هذه الناحية حين يقول ان السلطة التي تفنقر الى الحكمة والتعل هي سلطة تؤول الى الخراب والدمار . ويسمى الفارابي مثل هذا النوع من السلطة بالسلطة بالجاهلة^(٤) . اما السلطة التي تقوم على الحكمة

(١) انظر الرئيس ، «النظريات السياسية الاسلامية» ، ص ٢٨٠ .

(٢) سورة النساء : ٥٨

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، مختارات لشارل عيساوى ، ص ٣١٩ .

(٤) انظر روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٩

والتعقل فانها سلطة تؤول الى الرقي والسعادة ، ومثل هذه السلطة يطلق عليها الفارابي بالسلطة المستتيرة الواعية^(١) .

وبينما يصف لنا الفارابي كلا من السلطة المستتيرة والسلطة الجاهلة وصلتهما بالمسؤولية ، نجد ان ابن باجه يقيس بواسطتهما نوعية الحكومة والحاكم بالذات . فهو يرى ان مسؤولية الحاكم او عدمها يجب ان ينظر اليها كأهم اساس للحكومة الصالحة او الطائفة^(٢) .

وتعتبر دراسات الماوردي وتحليلاته في دور المسؤولية في العلاقة بين الراعي والرعية من الدراسات الدقيقة في توضيح معنى مسؤولية السلطة في الدولة الاسلامية . ومما يضفي على دراسات الماوردي هذه الدقة ، ما تناوله من شمول وتفصيل لموضوع مسؤولية صاحب السلطة : الآ وهو الخليفة ، فهو لا يضع اهمية كبرى على رئيس الدولة فحسب وانما يرى ان هذه الاهمية تتجلى في كونه الموجه الاعلى لدفة سفينة الدولة . فصالح الموجه الاعلى يؤدي الى صلاح الامة . وافضل طريق لصلاح الرئيس ، كما يراه الماوردي هو ان يقوم بمسؤولياته خير قيام : التي تتضمن من بين ما تتضمن تحليه بالصدق والاستقامة والمشورة وروح المساواة . وهذا ما يجعل من السلطة سلطة عادلة ومن الحاكم حاكما عدلا . ثم يأتي الماوردي ليؤكد ان الحاكم العدل الذي يسوس رعيته بوحى من المساواة وبروح من الخير والخدمة لصالح الامة وافرادها جميعا هو حاكم يجب ان يكون مطاعا من قبل الرعية^(٣) .

ومما تقدم يتبين لنا ان نظرية الدولة العرية الاسلامية ، هي نظرية تقوم على خدمة ورقي واسعاد الفرد وعلى خدمة ورقي واسعاد المجموع . وفي كل هذه الابعاد فان الدولة تكون قد عملت على خلق مجتمع سياسى متماسك مع

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٦ .

بعضه ، ذلك المجتمع الذي وصفه الرسول (ص) بأنه « كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا » . ثم ان الدولة التي تعمل في ظل خدمة الافراد وفي ظل خدمة المجموع هي دولة تكون قد عملت على خلق مجتمع متكافل ، وتكون قد طبقت « مبدأ التكافل الاجتماعي » العربي الاسلامي الذي هو نواة تقسيم كل عدل اجتماعي وكل رقي اجتماعي وسياسي واقتصادي . ودولة هذه مبادئها وهذا دينها هي دولة خيرة وبالتالي فهي دولة انسانية .

شكل ونظام الدولة العربية الاسلامية

حينما نحلل شكل الدولة التي رسمها الفكر العربي الاسلامي ، نجد انه يعكس بكل وضوح المحيط والتقاليد العربية الاسلامية . وان هذه التقاليد قد ترسخت بمرور الزمن وهي التي عملت بالتالى على رسم اطار الدولة الذي ظهرت من خلاله متميزة في شكلها عن غيرها من الدول التي ظهرت فى التاريخ .

وفى الحقيقة فان الذى يعمل تخطيط حدود هذا الرسم هو نظرية الخلافة (او نظرية الرياسة) فى الدولة العربية الاسلامية . ومع ان نظرية الخلافة هي نظرية تخص رياسة الدولة ، الا انها فى ابعادها قد عكست على رسم وتخطيط شكل الدولة العربية الاسلامية ايضا .

والمهم ان نعلم ان المبادئ التي قامت عليها نظرية الخلافة والمستوحاة من الشريعة الاسلامية ومن دستورها الاعلى بالذات قد تجسدت عند التطبيق فظهر على ارها نظام الخلافة .

وكما مر معنا ، فان نظام الخلافة يتحقق على اثر ابرام عقد سياسى (١) . وهذا العقد يستند الى اساس قانونية تحدد العلاقة بين طرفين هما : الخليفة والامة (٢) . وفى ظل هذا العقد بالذات الذي يقوم على قانون الشريعة الاسلامي يأتي الخليفة الى منصبه عن طريق موافقة الشعب (او الامة) ومصادقتها (٣) . ثم ان الامة تمارس حقها فى الانتخاب فى بيعتين : البيعة الخاصة وهي التي يمارسها « اهل الحل والعقد » او « اهل الاختيار » والبيعة العامة وهي التي تمارسها الامة

(١) للوقوف على طبيعة هذا العقد وتفاصيله ، يراجع كتاب د . عبدالرزاق السنهوري ، القيم الموسوم Le Califat (الخلافة) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٣) انظر عباس ابي الحسناء : فى تنمة الروض النظرية : شرح مجمع الفقه الكبير ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ ، صص ١٧-١٩ .

بنفسها^(١) . وبالإضافة فان كلا من رئيس الدولة (الخليفة) والامة يخضعان الى دستور اعلى : ذلك هو الشريعة الاسلامية .

ولكن المهم هنا ان نؤكد على ان الخليفة بممارسته لسلطانه يظل مسؤولا تجاه الامة بالسهر على مصالحها وفق ما تمليه عدالة الشريعة الاسلامية الانسانية . وان اى تخل عن مسؤوليته يوجب على الامة خلعه .

اما بالنسبة لتوزيع السلطات فى ظل هذا النظام فهو ان هناك اولا سلطات ثلاث فى الدولة وهي التنفيذية والتشريعية والقضائية . وان هذه السلطات منفصلة عن بعضها . فالسلطة التشريعية موضوعة بيد الامة ونوابها ، والسلطة التنفيذية مودعة بيد الخليفة ، واما السلطة القضائية ، فهى مودعة بيد هيئة مستقلة من اقضاة تحكم وفق تعاليم القانون الاسلامي .

والسؤال الذي ينتظر الاجابة هو اين تستقر السيادة فى النظام العربي الاسلامي ؟ وهل تستقر فى الامة وحدها كما هو الحال فى النظام الديمقراطى ؟ والجواب الصحيح على هذه الاسئلة يجب ان يتضمن الركنين التاليين : وهما الامة والقانون او الشريعة الاسلامية^(٢) . وبعبارة اخرى ان الامة لها السيادة والاشراف على مصالحها ودولتها وفق اطار القانون او الشريعة الاسلامية .

وهذه الحقائق تبعد النظام العربي عن الحكم الفردي (الاوتوقراطى) ، وتبعده ايضا عن الحكم الدينى (التيوقراطى) . لان النظام الاسلامي خال من الكهنة ولا يحتكر السلطة فيه طبقة رجال الدين . كما ان النظام العربي الاسلامي لا يمكن ان يتطابق والنظام الديمقراطى طالما ان الامة لا تقرر امورها كيفما اتفق وانما وفق تعاليم الدستور او الشريعة الاسلامية .

وعند ترجمة شكل وحدود واطار النظام العربي الاسلامي الى المفاهيم المعاصرة نجد ان نظام الخلافة العربي الاسلامي يقترب كثيرا من النظام الجمهورى الديمقراطى . وتمثل اوجه التشابه فيما يلى :

(١) الرئيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٠ .

(اولا) ان كلا من النظامين يقوم من حيث الاساس على الحرية . ذلك ان النظام العربي الاسلامى بجانب تأكيده على الحرية السياسية والمدنية فانه يذهب فى الحرية الاجتماعية والمساواة الاجتماعية^(١) الى ابعد مدى : ابعد مما استطاعت تحقيقه النظم الديمقراطية الغربية .

(ثانيا) وبجانب الحرية فان كلا النظامين يختار الرئيس وفقا لارادة الشعب . وبعبارة اوضح ان كلا من النظامين يؤكد في الاثنان برئيس الدولة على طريقة الانتخاب الشعبى ويضعه موضع المسؤول تجاه الشعب او الامة . والفارق الوحيد بين النظام العربى الاسلامى وبين النظام الجمهورى الديمقراطى هو ان النظام الاسلامى يسمح ببقاء الرئيس لزمان غير محدود طالما انه يلتزم بتطبيق نعاليم القانون الاسلامى ، بينما يحدد النظام الجمهورى الديمقراطى المعاصر بقاء الرئيس لمدة معينة عادة .

(ثالثا) ان النظام العربى الاسلامى يتشابه مع النظام الجمهورى الذى يقوم على الفصل بين السلطات الثلاث : التنفيذية والتشريعية والقضائية . وما يجب ان نذكره هنا هو ان الفكر السياسى العربى الاسلامى ادرك مبدأ الفصل بين السلطات قبل ان يدركه الغرب على يد مونتسكيو بزمن طويل^(٢) .

(رابعا) ان كلا من النظامين يقوم (وخاصة النظام الجمهورى الديمقراطى شبه المباشر) على فكرة او قاعدة التمثيل . وما نظرية « الكفاية » العربية

(١) ان تأكيد النظام العربى الاسلامى على المساواة الاجتماعية يجعل منه في جانبه المادى اقرب الى نظام الدولة الديمقراطى الاشتراكى منه الى نظام الدولة الديمقراطى الرأسمالى . على انه ، وكما هو معروف ، ان المساواة الاجتماعية فى الفكر والنظام الاسلامى امر طبيعى ولم يتم نتيجة لاستغلال المستغل المادى كما هو الحال فى اوربا . وبعبارة ادق فان المساواة الاجتماعية لا بل المساواة الانسانية فى كل جوانها قد نمت نموا طبيعيا فى هذا النظام .

(٢) ان ما حلم به مونتسكيو فى عقده الاجتماعى كان واقعا فى ظل النظام الاسلامى .

الاسلامية الا نفس نظرية التمثيل في الزمن المعاصر والتي تعنى ان للامة ممثلون
(نواب) تعهد انهم واجبات المراقبة والتشريع .

ومع ان النظام العربى الاسلامى يلتقي فى بعض اوجه فلسفته واطاره مع
الفلسفة الديمقراطية والنظام الديمقراطى فى الحكم فى عدة نقاط ، الا ان
الحقيقة تظل هى هى : ذلك ان الفلسفتين غير متطابقتين تماما . ففلسفة الدولة
العربية الاسلامية تختلف عن فلسفة الدولة الجمهورية الديمقراطية كون الفلسفة
العربية الاسلامية تؤكد على وحدة الفكر والعقيدة اكثر منه وحدة الاقليم (١) .

ومعنى ذلك ان وحدة الاقليم فى الفكر السياسى العربى الاسلامى هى نتيجة
طبيعية لوحدة العقيدة . . وان العكس ليس بالصحيح . والاختلاف الاخر بين
فلسفة الدولة الديمقراطية وفلسفة الدولة العربية الاسلامية هو ان
الفلسفة العربية الاسلامية تؤكد على الجمع والوحدة بين النواحي المادية
والروحية ، بينما تركز الدولة الديمقراطية فى الاغلب على النواحي المادية (٢) :
كرفع الاجور وانماء الثروة ورفع مستوى المعيشة وما شابه ذلك .

وبالاضافة فان فلسفة الدولة العربية الاسلامية تقيس العمل السياسى بقانون
الاخلاق بينما هى ليست كذلك فى فلسفة الدولة الديمقراطية الحديثة .

واخيرا الاختلاف فى مركز السيادة . فبينما تستقر السيادة فى الدولة
الديمقراطية بيد الشعب او الامة بصورة كلية ، فان الامة فى نظام الدولة
العربية الاسلامية تقترن سيادتها بتعاليم الشريعة او القانون الاسلامى .

ومما تقدم يتبين ان شكل الدولة العربية الاسلامية يستمد مقوماته من تراث
الحضارة العربية الاسلامية . وان ما يظهر بينه وبين الدول الاخرى ونظمها ، فانه
على سبيل التشابه بين طبيعة بعض اجزاء النظم ، وليس على صعيد الشكل والاطار
العام الذى له حدوده وشكله الخاص به .

(١) انظر الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٧ .

(٢) وهذا هو الحال ايضا مع نظرية الدولة الديمقراطية الاشتراكية
الحديثة .

نظرية العلاقات الدولية

طبيعة العلاقات الدولية العربية الاسلامية :

تستقي نظرية العلاقات الدولية العربية الاسلامية مقوماتها من المبادئ والقيم التي قامت عليها الحضارة العربية الاسلامية . ولعل اهم ما يجب ان يشار اليه في صدد هذه المقومات ، هو ان الحضارة العربية الاسلامية التي امتازت بتعاونها وخدمتها لجميع بني الانسان ، لا يمكن ان تقوم فلسفة ونظرية علاقاتها الدولية الا على التعاون واقامة العلاقات الطيبة مع الغير . فمن وجهة نظر الفكر العربي ولامسلي ، ان كرامة الانسان واحدة وان اختلف في لونه ولسانه ومكانه . ومن وجهة نظره ايضا الدفاع عن كرامة الانسان مهما كان ومن أي قوم اتى ، اذ لا فرق بين عربي واعجمي الا بالتقوى . كما ان اختلاف الناس شعوبا وقبائل لم يكن ليتقاتلوا ويختلفوا ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا^(١) . ومصداق ذلك ما جاء به القانون الاسلامي الاعلى من توكيد حين صرح قائلا : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم »^(٢) . فالتعاون لا يقوم بين الشعوب من دون اهداف ، وانما يكون هذا التعاون لينتفع منه من قبل هذه الشعوب وذلك في سبيل خيرها جميعا . واذن فان التعاون في المفهوم العربي الاسلامي سواء اكان داخليا ام خارجيا ، انه يجب ان يتم لتحقيق النفع والخير العام ، وليس لغرض الاثم والعدوان . وقد اوضح الدستور الاسلامي هذه القاعدة الثانية ، التي تحدد طريق التعاون بقوله : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

(١) محمد ابو زهرة ، العلاقات الدولية في الاسلام ، الدار القومية للطباعة

والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٢١ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

ثم ان التعاون من اجل اقامة الخير الذي يمتد الى كل جانب ، فى المفهوم العربي الاسلامي ، بما فى ذلك جانب التعاون الدولى ، معناه ان العلاقات الدولية فى وجهتها السياسية ، لا بد وان تقوم على الفضيلة . وبعبارة اخرى ، ترابط مفهوم العلاقات السياسية بين الدول برباط الاخلاق والاخلاق الفاضلة بالذات . وهذا التوكيد على ارتباط السياسة بالفضيلة ، والذي اشرنا له فى مكان آخر من هذا الكتاب ، لا يقتصر مدها على الاحوال السلمية وانما يمتد كذلك الى احوال الحرب (١) .

واذا كن الفكر العربي الاسلامي يؤكد على التعاون الدولى ، ويحدد طريقه بطريق الخير والفضيلة ، التي هي من خصائص الفكر العربي الاسلامى الاسامية ، فانه يؤكد على كل ذلك لان الحضارة العربية الاسلامية تقوم فى اساسها على فلسفة « العدالة » والعدالة الاجتماعية بالذات . فاعدل هو الطريق الموجه للدولة العربية الاسلامية فى كل اعمالها الداخلية والخارجية . فالعدالة مطلوبة التحقيق على المواطنين جميعا ، باختلاف اديانهم واللوانهم ، والعدالة مطلوبة مع الشعوب ، التي يستوى فيها العدو والصديق فى هذه الحالة . وكما يعبر عنها الشيخ ابو زهرة ، ان « العدالة حق للاعداء ، كما هي حق للاولياء ... » (٢) ولقد جاء تأكيد التزام العدل حتى مع الاعداء فى قوله تعالى « ولا يجرمكم شئآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى . » (٣) ومما تقدم يمكن القول ان مقياس نجاح العلاقات بين الدول ، فى الاحوال السلمية ، هو مقدار ما تحققه من عدل

(١) ان ما يؤكد على ما جاء اعلاه ، ما ورد فى الدستور الاسلامي المتمثل بالقرآن الكريم من توجيه فى الحفاظ على الحدود الخلقية المسوغ بها . فتقول الآية ١٩٠ من سورة البقرة « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . كما تقول الآية ١٩٤ من نفس السورة « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » .

(٢) ابو زهرة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٤ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٨ .

وانصاف وتعميم للخير بالنسبة للجميع . اما فى احوال الحرب ، فان العدل ، يتبدى فيها من نقطة قيامها ، حيث لا يجوز ان يقوم حرب الدولة العربية الاسلامية على الظلم والعدوان ، ويستمر اثنائها ، حيث لا يجوز شن الحروب الوحشية ، ويظل حتى بعد انتهائها حيث يجب عقد شروط الهدنة على اساس من العدل ، ثم يجب معاملة الاسرى ، معاملة انسانية عادلة .

والان وبعد عرضنا لطبيعة المقومات العامة لنظرية العلاقات الدولية العربية الانسانية ، يحسن بنا ان نتحدث عن القوى التى تحكم العلاقات من وجهة نظر الفكر السياسى العربى الاسلامى .

انواع العلاقات الدولية العربية الاسلامية :

والبحث الموضوعى فى انواع العلاقات الدولية العربية الاسلامية ، يتطلب من باحثه عدم الوقوع فى التعميمات ، كأن تخضع جميع العلاقات الى صنف دون غيره من الاصناف من جهة ، او الخلط بين صنف وصنف من جهة اخرى .
والذى يلقى نظرة استعراضية لما كتب بصدد تحديد انواع العلاقات الدولية العربية الاسلامية ، يجد ان بعض المفكرين قد صنف العلاقات الدولية العربية الاسلامية بصنف واحد الا وهو علاقات حرب وعمد الى التقليل من شأن العلاقات السلمية ، وبعضهم الاخر قد صنفها بعلاقات سلم وعمد الى التقليل من شأن العلاقات الحربية . وطبيعى ان كلا التصنيفين ، يتضمنان بعض الحقائق عن اصناف العلاقات الدولية العربية الاسلامية ، الا انها جاء ناقصين وغير شاملين لجميع جوانب او انواع هذه العلاقات .

وانواع ان الكثير من الذين بحثوا فى العلاقات الدولية العربية الاسلامية ، قد وقعوا فى مثل هذه الاخطاء سيما الذين اخضعوها الى العلاقات الحربية ، وخاصة بعض المستشرقين منهم - الذين جاءت اخطاؤهم اما نتيجة تعصبهم ضد المفاهيم العربية الاسلامية ، او نتيجة لعدم تفهمهم كنه هذه العلاقات تفهما دقيقا .
واذا كان المتعصب لا يمكن ان يقنع بالوقائع والحقائق والمنطق العلمى فان غير

المتعصين منهم ، قد جاء خطأهم من عدم تفهمهم المعاني الحقيقية لكل من « دار الحرب » و « دار السلام » وهو الأمر الذي سنتولى توضيحه في الصفحات المقبلة .

وفي محاولتنا لازالة الابهام الذي علق في ذهن بعض الباحثين بصدد هذا الموضوع ، نقول انهم جميعا ، ما خلا المتعصين منهم ، قد ادركوا جزءا من الحقيقة ، ومن دون ان يدركوا الحقيقة بأكملها .

والحقيقة ، ان اصناف العلاقات الدولية العربية الاسلامية تشمل من حيث الاساس ثلاثة اصناف رئيسية :

(واول) انواع هذه العلاقات ، هي العلاقات السلمية . وهذا النوع من العلاقات هو القاعدة الرئيسية التي تستمد منه نظرية العلاقات الدولية العربية الاسلامية مفاهيمها . وهو ما تطرقنا اليه عند بحثنا طبيعة العلاقات . وحينما نقول ان الاصل بالنسبة للفكر العربي الاسلامي ، هو اقامة علاقات سلمية ، فاننا نقصد بذلك ان سبيل « التعامل المفضل » هو هذا السبيل السلمي في العلاقات . ولكن هذا لا يمنع من اقامة علاقات من غير هذا النوع وفقا لما تقتضيه الظروف والاحوال والضرورات مما سنقف عليه فيما بعد . المهم اننا حينما نقول ان اساس مفهوم العلاقات العربية الاسلامية هو علاقات سلمية ، فاننا نبني ذلك على المصادر الرئيسية التي يستقى منها الفكر العربي الاسلامي مقوماته . ومن اولى هذه المصادر الرئيسية ، الدستور الاسلامي ، الذي ينص في احكامه الحث على العلاقات السلمية بقوله « يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة . . . » (١) ثم يأتي مصدر السنة فينحوا نفس هذا المنحى ، خاصة حينما نعلم ان الرسول وهو حامل تلك الرسالة الانسانية ، كان يعمل على نشر الفضائل وينهي عن الرذائل معتبرا السلام (٢) اساس علاقاته مع الغير افرادا وجماعات وشعوبا ودولا . كل هذا وفي زمن كان العالم « يسير على قانون الغابة في علاقات الدول والقبائل بعضها مع البعض .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٨ .

(٢) ابو زهرة ، ص ٤٩ .

فكل دولة تبغي على الاخرى ولا مانع يمنعها الا ان تكون ضعيفة ولا تقوى على الاعتداء او يكون ثمة ميثاق يحترم ، ما يغيث القوتان متعادلتين ، فان احست احدهما بضعف الاخرى انتهزتها فرصة سانحة وانقضت عليها ، لا ترقب فيها الاً ولا ذمة ، (١) .

(وثاني) انواع العلاقات ، هي العلاقات غير السلمية او العلاقات الحربية . وهذا النوع أو الصنف من العلاقات ، يقر حدوثه الفكر العربي الاسلامي ايضا ، بعد ان تستنفذ الوسائل السلمية وتصبح لا فائدة منها . وهو النوع من العلاقات تدخلها الدولة العربية الاسلامية اضطرارا لا اختيارا . ولذلك فهي حالة استثنائية وليست دائمية . وهذا مخالف لما وقع فيه بعض المستشرقين من اخطاء حين استندوا على « دار الحرب » واعتبروها ذلك الجزء من العالم الذي تبقى فيه الدولة العربية الاسلامية في حالة او علاقات حرب دائمية معها . فمن ذلك قالوا ان العلاقات الدائمة ، مع الدول غير الاسلامية تقوم على الحرب ، وان العلاقات الاستثنائية تمثل في حالة الهدنة . ثم قالوا ان الدافع المحرك لاستمرار الحرب هو الجهاد في سبيل الاسلام . وقالوا اخيرا ان العلاقات السلمية تنحصر دائرتها في « دار الاسلام » .

وهذه الاقوال وغيرها لا شك ان بعضها قد قيل بحسن نية ولكن ذلك لا يخرجها عن كونها اقوال وبالتالي آراء خاطئة ، لا بد من مناقشتها ولا بد من تصحيحها . ولنبدأ « بدار الحرب » اولا . ان « دار الحرب » تعود بتاريخها الى زمن الرسول حين دعا المشركين الى الهداية الاسلامية . الا ان المشركين بدلا من ذلك ، آذوه واصحابه واخرجوهم من ديارهم ، « فلم يبق الا ان يمكن لدعوته ، ويمنع الاضطهاد عن اتباعه ، وان يحمي حرية العقيدة ، لان الاسلام يدعو الى السلام ولا يد من القتال لحماية السلام . . . » (٢) ومن هنا فان القتال لم يكن اختيارا وانما كان مفروضا . وقد يأتي هذا الفرض من جراء اعتداء

(١) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٢) ابو زهرة ، ص ٤٩ .

المشركين على الرسول واصحابه من جهة ومن اعتداء ملوك الدول الاجنبية على عقيدة رعاياهم ممن اعتنقوا الاسلام^(١) ، ومن جراء اصرارهم ورفضهم حتى من عقد عهد بين المسلمين وبينهم بعدم العدوان • ومن هنا فلم يبق امام المسلمين الا القتال وكان ذلك^(٢) •

واذن فان « دار الحرب » قد فسرها الفقهاء بانها الدار او البقعة من الارض التي يقطنها الناس الذين تصدر عنهم الاعتداءات وهي كذلك من ناحية واقعية • ويذكر الشيخ ابو زهرة انه في هذه الفترة من التاريخ الاسلامي اجمع الفقهاء على تسمية دار المخالفين بدار الحرب ، وما كان للفقهاء ان يسموا الاشياء بغير اسمائها ، فان الحرب كانت مستعرة فعلا وواقعا^(٣) •

وصفوة القول ان اساس العلاقات الدولية الاسلامية هو السلم وان من يعيش في ظل اقليم الدولة التي تحكم بتعاليم الدستور الاسلامي هي « دار السلام » • اما الدول التي تقوم سياستها على العدوان ازاء الدولة الاسلامية ، ولا تسمح بتطبيق قواعد الشرع الاسلامي على رعاياها ممن يعتنق الاسلام فانها « دار حرب » •

ومن هنا يفهم ان العلاقات غير السلمية مع الدول غير الاسلامية تحددها سياسات تلك الدول العدوانية ازاء الدولة الاسلامية • وبخلاف ذلك فان فلسفة العلاقات الدولية العربية الاسلامية « تحترم حق كل دولة في الوجود ، وحقها

(١) يؤيد لنا الشيخ ابو زهرة في كتابه العلاقات الدولية في الاسلام ، ان الرسول عندما ارسل رسوله الى كسرى يدعو الى الاسلام ، كان رد كسرى عليه ان امر بارسال من يقتل الرسول ويأتيه برأسه الكريم • وان هرقل ملك الرومان ، عندما علم باسلام بعض الناس من اهل الشام ، انه امر بقتلهم وايقاف دعوة الاسلام عند حدها • المصدر السابق ، ص ٥٠ •

(٢) لم يدخل المسلمون القتال مع المشركين الا بعد ان اذن لهم انهم ظلموا وقد جاءت الآية الكريمة لتقول « اذن للذين يقاتلوا انهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير • • سورة الحجر الآية ٣٩ •

(٣) العلاقات الدولية في الاسلام ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٢ •

في ان تكون سيده نفسها وحققها في الدفاع عن اراضيها وسيادتها ، ولا فرق في ذلك بين دولة راقية متحضرة ، واخرى متبدية او غير راقية ، (١) . كما ان فلسفة العلاقات الاسلامية لا تسمح في التدخل في شؤون الدول الا في حالة حماية الحريات العامة ، والا حينما يستتبع بتعاليم الاسلام المظلومون ، او يعتدى على المعتقدين بتعاليمه (٢) . ومن هنا يمكن القول ان كل اقليم او دولة لا تضمر العداء ، ولم تثر حربا ، هي دار سلم ، وبكلمة اخيرة فان الشروط التي تحكم العلاقات التي تشكل حالة الحرب هي : حالة دفع الظلم ، وحالة القضاء على الفتنة وحالة الدفاع عن النفس واخيرا حالة حماية القيم الانسانية والحضارية الاسلامية من اى معتد عليها .

(اما ثالث) انواع هذه العلاقات ، فانها العلاقات التي يمكن ان توصف بالعلاقات الحيادية . وهذه تشمل الاقليم والدول التي هي تقع بين دار السلام ودار الحرب ، وتشكل دارا وسطا تسمى « دار العهد » (٣) . والمقصود بدار العهد ، الاقليم التي اقيم بينها وبين الدولة الاسلامية عهد . وهذا العهد اما ان يتم من دون وقوع قتال ، كأن تعاهد الدولة الاسلامية مع قبيلة او اقليم او دولة على عدم التدخل بشؤونها الداخلية ، وذلك بان تختار العهد دون الدخول في الاسلام او القتال ، او ان يتم اتعاهد بعد القتال فيكون صلحا ، يتم وفق شروط تختلف في قوتها او ضعفها بحسب ما يتراضى عليه الطرفان ، وبمقدار حاجتها الى مناصرة الدولة الاسلامية (٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ،

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٥ . وهنا يذكر ابو زهرة ايضا ، ان من بين الامثلة التي تم فيها الصلح بينها وبين المسلمين لقاء بعض المال يدفعه اهلها نظير حماية المسلمين ، هو صلح نصارى نجران ، الذين آمنهم النبي (ص) على انفسهم واموالهم (من اى اعتداء يكون عليهم ، سواء كان من المسلمين أم من غيرهم . وفي عهد عثمان (رض) عند عقد عبدالله بن سعد بن ابي السرح

ان ما تجب معرفته بصدد اهل العهد ، بمد كل ما تقدم هو ضرورة وجود عهد (معاهدة) بين الدولة الاسلامية واقليم من الاقاليم او دولة من الدول لها السلطان والسيادة والمنعة على اقليمها .

ومن خير الامثلة على ما تقدم في وقتنا الحاضر المنظمة العالمية التي تجمع اغلبية دول العالم والتي لها قانون واحد يلتزم به جميع الاعضاء . وموقف الدول الاسلامية من هذه المنظمة التي انظمت اليها وتعهدت بالالتزام بقوانينها ، هو موقف وعلاقة عهد^(١) . ويصح تسميتها بدار عهد وان اختلفت نظم اعضائها او حتى ان خالفت النظام والقانون الاسلامي . فالمسألة مسألة عهد التزمت به الدولة الاسلامية وان العهد يتطلب الوفاء في المفاهيم السياسية والقانونية .

ومما تقدم يتبين ان علاقات الدولة العربية الاسلامية تكون على ثلاثة اصناف : صنف العلاقات السلمية ، صنف العلاقات الحربية وصنف العلاقات الحيادية^(٢) .

صلحا مع اهل الدولة كان اساسه تأمينهم على انفسهم ورعاية استقلالهم ، ومبادلة التجارة معهم ، ولم يأخذ منهم فريضة مالية يؤدونها . وكذلك فعل معاوية مع اهل ارمينية ، فقد عقد معهم صلحا يقرر سيادتهم الداخلية المطلقة . ابو زهرة ، ص ٥٦ .

(١) ابو زهرة ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .
(٢) لا يشترط ان تتحدد العلاقات الحيادية بدار العهد ، فقد يجوز ان تنشأ حرب بين دولة اسلامية واخرى غير اسلامية ، وان دولة ثالثة لا ترغب في الاشتراك في هذه الحرب ولا تريد الانتماء الى اى جانب وانما تريد ان تبقى بعيدة . ان مثل هذه الدولة تكون علاقاتها مع الدولة الاسلامية علاقات حياد ايضا .

نظرية القانون الدولي

توطئة :

لكل حضارة ، كما هو معلوم ، قواعد يستند إليها بناؤها في حياتهم وعلاقاتهم . والعلاقات العربية الاسلامية هي العلاقات الخارجية التي تربطها مع غيرها من الدول . وهذه العلاقات الخارجية ، اصبحت بمرور الزمن ، وخاصة بعدما نمت الدولة وازدهرت ، تقوم على قواعد واحكام التزمت بها الدولة العربية الاسلامية في تنظيم شؤونها مع الغير . وقد جاءت هذه القواعد والاحكام لتعكس قوانين الحياة العربية الاسلامية وتقاليدها ، وآراء فقهاء بشأنها^(١) . فهي اذن احكام تعبر عن وجهة نظر الفكر العربي الاسلامي في تنظيم علاقات الدولة العربية الاسلامية مع غيرها من الدول .

والشيء الذي تجدر ملاحظته عند الحديث عن القانون الدولي الاسلامي هو ان هذا القانون يعتمد كلياً على ارادة الدولة العربية الاسلامية وانه جزء لا يتجزأ من قانونها الكلي الشامل وهو القانون الاسلامي او الشريعة الاسلامية^(٢) . وبهذا المعنى فان قوة القانون الدولي الاسلامي هي من قوة القانون الاسلامي الذي يطبق على اقليمها . ومن هنا فان اى التزام (Obligation) تلتزم به الدولة الاسلامية ضمن اية معاهدة ثنائية او جماعية دولية ينبع من نفس الالتزامات المنصوص عليها في القانون الاسلامي ، وانه لسريان مفعول هذا الالتزام فانه لا بد اولاً وقبل كل شيء اقراره من قبل الدولة الاسلامية ، والا فان افتقاد هذا

(١) يمكن القول ان اهم مصادر القانون الدولي الاسلامي هي القرآن ، والسنة وتجارب الخلفاء والرؤساء وارااء الفقهاء المشهورين . بالاضافة الى المعاهدات التي عقدها الدولة الاسلامية والعادات والتقاليد التي تكونت لديها عبر الزمن الطويل .

(٢) انظر Mohammad Hamidullah

في كتابه Muslim Conduct of State - اشرف ، لاهور ، ١٩٦١ ، ص ٥ .

الاقرار لا يجعل من الدولة الاسلامية ملزمة به^(١) . وبديهي ان الالتزام يشمل ما تقره الدولة بصورة مباشرة او بصورة ضمنية^(٢) . وربما كان من المفيد هنا ان نضيف ان افضل تطبيق للقانون الدولي هو ذلك التطبيق الذي يحظى بتأييد جميع دول العالم ، الا ان مثل هذا لم يتمكن بعد من تحقيقه الانسان ، طيلة تاريخه الطويل ، حتى ولو لفترة قصيرة^(٣) .

هذا وان ما يستحق الاشارة ايضا هو ان بعض تقاليد القانون الدولي الاسلامي تعود الى التقاليد العربية قبل الاسلام^(٤) . الا ان هذه التقاليد قد تبلورت وانتظمت في شكل متكامل بظهور الاسلام وقيام ازدهار الدولة الاسلامية . ولقد ظهرت معظم الكتابات المتعلقة بالقانون الدولي ، ضمن قوانين الحرب والسلام والحياد بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول . وقد كتب بعض المفكرين الاسلاميين عن هذا الجانب من القانون ضمن كتب السير التي تناولت سلوك قادة الدولة واعمالهم^(٥) .

مصادر القانون الدولي العربي الاسلامي :

فلنا ان القانون الدولي الاسلامي يستمد مصادره وجذوره من القوانين

(١) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) على الرغم من ان العرب قبل الاسلام كانوا ينطقون بلغة واحدة ويلتقون في ثقافة واحدة ويعبدون الهة مشتركة بينهم ، ويمارسون نفس الطقوس والعادات ، الا ان نظمهم السياسية المستقلة ، والقائمة على عدد من الدول القبلية والاقليمية كانت قد اوجدت بينهم علاقات وقوانين في الحرب والسلام والحياد والتعاهد والتي يمكن ان ينطبق عليها نفس احكام القانون الدولي الاوربي الذي نشأ بين دول اوربا في اول عهدها والذي تطور بمرور الزمن . انظر حميد الله ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٨ .

(٥) يؤيد لنا ذلك ابن هشام في « السيرة » ، ص ٩٩٢ . ما جاء اعلاه بقوله « ثم امر بلالا ان يدفع اليه اللواء فدفعه اليه ، فحمد الله وصلّى ، ثم قال خذنه يا ابن عوف اغزوا جميعا في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة - فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » .

والتقاليد والسلوك الذي سار عليه خلفاء وامراء الدولة العربية الاسلامية .
وعند القاء نظرة تحليلية على هذه المصادر نجد انها تنحصر فيما يلي (١) :

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - السنة .
- ٣ - تجارب الخلفاء الاوائل .
- ٤ - تجارب الملوك والرؤساء الاخرين .
- ٥ - آراء واجتهادات الفقهاء المشهورين .
 آ - الاجماع ب - القياس .
- ٦ - قرارات التحكيم
- ٧ - المعاهدات والاتفاقات والمؤتمرات .
- ٨ - التعليمات الصادرة الى القادة والسفراء والولاة .
- ٩ - التشريعات الخاصة بالاجانب والعلاقات الخارجية .
- ١٠ - العادات والتقاليد .

قواعد السلم والحرب في العلاقات الدولية العربية الاسلامية

يجمع فقهاء الشرع الدولي ان الاصل في قواعد العلاقات مع الغير مشتقة من الجنوح الى السلم . ولا غرابة في ذلك حين نعلم ان الشرع الاسلامي وكما اسلفنا ، قد قام بالاساس على التسامح والتعاون والسلم بالذات . الا ان هذا التسامح والتعاون واقامة علاقات سلمية مع الغير ، مرهونة في جميع الاوقات بمصلحة الامة وامنها ودرء الاخطار (٢) عنها وحماية قيمها ومثلها .

ومما يستلفت النظر ان الكثير من الائمة وكبار المجتهدين قد « انكروا قبل الف عام فريضة القتال ونادوا بتحريم الاعتداء كما ينادى به في عصرنا

(١) حميد الله ، ص ١٨ .

(٢) يقول ابن تيمية في تفسير الآية « لا اكراه في الدين » (سورة البقرة : ٢٠٦) ان الاسلام يطلب من المسلمين على عدم اكراه احد من الناس لقبول الاسلام ، كما يطلب عدم الدخول في القتال الا بعد مباداة الاخرين بالحرب . راجع رسالة القتال لابن تيمية من مجموع الرسائل النجدية ص ١٢٦ وما بعدها .

الحاضر أقطاب السياسة الدولية ، وكذلك حرم علماء التوحيد الحرب لأنها تؤدي الى هلاك البشر وخراب اسباب معاشهم... (١) .

وفي الحقيقة فان الدستور الاسلامي ، قد ابان في احكامه بوضوح ان الحرب لا يجوز ان تقوم الاحماية للرسالة الاسلامية او للدفاع عن النفس (٢) . ومما يؤيد ذلك ما جاء في الدستور من احكام دقيقة في هذا الشأن . من ذلك مثلا الآية الكريمة التي تقول « فان قاتلوكم فقاتلوهم » ، والاية التي تقول « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » .

ومن هنا نجد ان صلات الدولة العربية والاسلامية مع غيرها من الدول قد تحددت بانطلاقها مما سبق من احكام عامة . فاساس الصلة من وجهة نظر الفكر السياسي العربي الاسلامي يقوم على توطيد علاقات سلمية طيبة مع الغير من جهة ، وعلى نوايا الاخرين من شعوب وافراد ودول ، من جهة اخرى . فاذا كانت النوايا سلمية فانها تكون متجاوبة مع النوايا الطيبة التي حددها الدستور الاسلامي . اما اذا كانت النوايا عدوانية ، فانه لا مفر بان يقابل العدوان بالردع والحرب بالحرب . ومن هنا ايضا وجدنا « ان القائمين بامور الاسلام يعرضون لهذه الصلات منذ اول ظهور الدعوة بالتنظيم بما يكفل لهم مواجهة الاعضاء بالحرب وغيرهم بالمسألة ، فوضعوا القواعد لحرب الابتداء وحرب الدفاع والقتال واساليه ووسائله وانتهاه ، للاقتال والغنائم والاسرى وقتال المرتدين والبغاة وقطاع الطريق ، وطاعة الامراء ومعصيتهم ، كما وضعوا القواعد لتنظيم العلاقات في حالة السلم بالنسبة لعقد الصلح ومعنى الامان وشروطه وانواعه والفرق بينه وبين السلام ، وبالنسبة للمعاهدات شروطها وانواعها والوفاء بها... (٣) .

ويذكر لنا الفقهاء في شؤون الشرع الدولي ، ان هذه القواعد والاحكام

(١) د . سموحي فوق العادة ، القانون الدولي العام ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) د . حسن الجلبلي ، القانون الدولي العام ، ص ١١٤ .

الدولية قد تجملت بمرور الزمن ودونت في كتب عرفت « بالسير » (١) والمقصود بها « طريقة معاملة المسلمين لغيرهم سواء كانوا مسلمين او محاربين افرادا او دولا . وفي دار الاسلام كانوا أم في خارجها وهذا ما يعقد اليه على وجه اتقريب القانون الدولي بمغناه الحديث (٢) » .

والسؤال الآن هو ما هي القواعد التي تحكم في العلاقات العربية والاسلامية مع غيرهم ؟ وللإجابة على هذا السؤال ، بصورة دقيقة ينبغي علينا ان نقول ان القواعد التي تحكم في العلاقات ، هي اولا تشكل بما يسمى بالقانون الدولي العربي لاسلامى . وثانيا ان هذه العلاقات هي من حيث الاساس على صنفين :

اولا : العلاقات في حالة السلم .

ثانيا : العلاقات في حالة الحرب .

والواقع ان الذى يجعل العلاقات سلمية او لا سلمية هو ذلك الحد الفاصل الذي يقوم بين الحالة السلمية والحالة اللاسلمية . وهذا الحد الفاصل هو العدوان . فمتى ما حصل عدوان فعلي على الدولة الاسلامية عندها تنتهي حالة العلاقات السلمية ، وتكون العلاقات اللاسلمية او الحربية (٣) قد بدأت . اذ كما قلنا فيما سبق ان قانون الاسلام الدولي لا يجيز للدولة الاسلامية ان تعتدي على غيرها ، لان ذلك يتنافى مع مبادئ العدالة والانصاف والانسانية التي يقوم عليها التفكير الاسلامى .

(١) للرجوع الى التفاصيل ، انظر كتاب ، السير الكبير للامام محمد علي بن الحسن الشيباني .

(٢) الجلبى ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٤ ؛ وللحصول على تفاصيل اكثر راجع بهذا الصدد ، نجيب الارمنازي ، الشرع الدولي في الاسلام ، ص ٤٤ وما يليها .

(٣) ان الحرب في الاسلام تبدأ بعد الاعلان عنها . ويعترف كل من فيتوريا وسوارس بان مبدأ وجوب اعلان الحرب وعدم المباغطة مبدأ اسلامي نقله فيما بعد فقهاء القانون الدولي الاوربي . انظر الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العام ، لعلي علي منصور ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٢٣٥ .

ومن هنا فرضت احكام ائقانون الاسلامي الدولي على المسلمين والدولة الاسلامية بالذات « بالصفح والصبر والاعراض عن المشركين واخذ الامور بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) . ومما يؤيد ذلك ، اننا حينما نرجع الى مصادر احكام القانون الدولي الاسلامي ، والتي يأتى في مقدمتها الدستور الاسلامي المتمثل بالقرآن الكريم ، نجد انه يشير فى اكثر من مناسبة واحدة الى ذلك . من ذلك مثلا الآيات الكريمات فى سورة الممتحنة التي تقول : « لا ينهاكم الله أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » . انما ينهاكم عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » . ومن ذلك ايضا الآية الكريمة فى سورة البقرة التي تقول : « فان قاتلوكم فاقتلوهم » . ثم ان « الحرب فى ذاتها سيئة عند المسلمين لان فيها هلاك خلق الله وتخريب ما يحتاج اليه الناس من معاشهم من نعمة . ولكن هذا الشر الكبير يتحمل للغاية الحميدة التي تبغى من ورائه فى اعلاء كلمة الله والقضاء على فساد المشركين وبغيهم » (٢) .

والذي يفهم مما تقدم انه فى حالة عدم ثبوت النوازع العدوانية من قبل اية دولة على الدولة الاسلامية فان احكام الشرع الدولي الاسلامي تقضى بالتروي ، وعدم بدء المسلمين بالعدوان ، وتحذيرهم من مغبة النيات العدوانية (٣) . الا انه حين وقوع هذا العدوان على دولة الاسلام وعقيدتها وامنها ، فحين ذاك يكون الرد بالمثل . وفى هذه الحالة تصبح الدولة الاسلامية فى حالة حرب فعلية (٤) .

(١) الجلبى ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٣) هناك حالات ثلاث لا يشترط فيها التحذير ، الاولى : حالة دخول الحرب مع عدو لا توجد معه اتفاقية سلم سابقة ، والثانية حالة الدخول فى حرب وقائية ؛ والثالثة حالة الدخول فى حرب دفاعية وحرب رادعة . حميد الله ، ص ٣٨١ .

(٤) من الطبيعي ان نذكر ان الدولة الاسلامية لا تحتاج الى اعلان الحرب ، حين تشترك فى حرب دفاعية .

هذا وان الحرب التي يدخلها المسلمون مع اعدائهم اما ان تكون حربا شاملة أو ان تكون حربا محدودة . وتكون الحرب شاملة حين ينتهك العدو فعلا اراضي الدولة الاسلامية او ينتهك معتقداتها ورعايها . وفي مثل هذه الحالة تصبح الحرب ، بحسب احكام اشرع الدولى الاسلامي جهادا^(١) يتحتم فيه تولى مهمة الدفاع على كل من يقوى عليه . وفي هذه الحالة تصبح الحرب فرض عين (أي واجبة على كل المسلمين) في المفهوم الاسلامي . ويصطلح على هذه الحالة في العصر الحديث بحالة اعلان النفير العام . اما اذا كان اخطر جزئيا ، اى ان العدو قد هدد بالفعل أمن وسلامة ومعتقدات الدولة ، واستخدم القوة ، وكان امر رده وصدده لا يستدعي اشراك كل الرعايا القادرين ، وانما بعضهم ، ففي هذه الحالة تصبح الحرب ، محدودة . وامر الاشتراك في مثل هذه الحرب ، بحسب احكام الشرع الاسلامي يظل فرضا ، ولكنه فرض كفاية : اى ان قيام البعض به يسقط الحق عن الاخرين . وفي هذه الحالة لا يستدعي الامر اعلان النفير العام كما هو مفهوم في لغة العصر الذي نعيش فيه .

ومن احكام الشرع الدولي اثناء الحرب مع المشركين والاعداء ، عدم الترويج الى الانتقام والغدر والتمثيل . ولقد وضع الرسول القائد (ص) المثل النموذجي في تطبيق هذه الاحكام ، حين اوصى قواد جيشه قائلا : « اغزوا باسم الله وفي سبيل الله وقتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » وقد اقتفى اثر الرسول هذا الخليفة ابو بكر الصديق بايصاله قواد جيشه دوما بالقول « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تقمروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة

(١) يؤيد لنا كل من البخارى ومسلم ان الهدف الاعلى في الجهاد هو لتكون كلمة الله وشريعته هي العليا ، (اقتبس من قبل حميد الله) ص ١٨٩ . وهذه الشريعة هي في عين الوقت دستور الدولة الذي تدافع عنه ومن هنا نجد التلاحم بين الدين والدولة . ذلك ان الاسلام دين ودولة وحضارة . ويذكر السرخسي لنا في كتابه شرح السير الكبير : ان حقيقة الجهاد تتناول تشرب المسلمين بالايمان الذي يعمل على قوتهم ووحدتهم وبالتالي على قهر المشركين وكسر شوكتهم ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لماكله » ثم سار على نفس النهج الخليفة عمر بن الخطاب . فقد كان يوصي امراء الجيش : « قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات ولا تغلوا عند الغنائم ونزوها الجهاد عن عرض الدنيا » .

هذا وان المستعرض لآراء الفقهاء والمجتهدين ، يجد ان الاكثرية الكاثرة منهم قد سارت في اجتهاداتها مؤكدة على الابتعاد عن العدوان في الحرب ، متخذة من الشريعة مصدرا رئيسيا لارائها . اما بالنسبة لقتل النساء والصبيان فقد اجمع الفقهاء على تجنبه .

وثمة ناحية اخرى في احكام القانون الدولي الاسلامي الا وهي ان اخطاء الخاصة لا يجوز ان يتحملها العامة . ومعناها ان السكان الآمنين لا يجوز ان يدخلوا في العقوبات والغرامات^(١) التي تفرض على المقاتلين . وهذه القاعدة ، كما هو واضح مشتقة من احكام الدستور الاسلامي الذي جاءت به احدي آياته لتؤكد على ان « لا تزر وازرة وزر اخرى » .

وبالاضافة الى كل ما تقدم ، فان هناك احكاما واضحة بشأن الاسرى ومعاملتهم . ومع ان الفقهاء قد اختلفوا من حيث التفصيل بشأن معاملتهم^(٢) ،

(١) يشير د . سموحي فوق العادة ، في كتابه القانون الدولي العام « ان الحكومات في الحروب الحديثة تفرض الغرامات على القرى وتأخذ السكان الآمنين بحريرة المقاتلين ، ص ٢٦ . وهذا ما يجعل الرحمة في القتال كان ديدن العرب المسلمين ، وهو ما تفتقر اليه الكثير من الدول في العصر الحديث وبضمنها اعلى الدول عراقية في الديمقراطية .

(٢) « ذهب الشافعي انه اذا ما اقاموا على كفرهم ، فالامام مخير فيهم بالاصلح من اربعة اشياء اما القتل ، واما الاسترقاق ، واما الفداء بمال او اسرى ، واما المن عليهم بغير فداء » . « وقال مالك ان ليس له ان يمن على

الا ان القاعدة القانونية السائدة في اشرع الدولى هي المن أو الفداء • وهذا بالذات ما نصت عليه الآية الكريمة بقولها « حتى اذا اتختموهم فشدوا الوثاق فاما منا واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها » (١) •

وصفوة القول ان قواعد العلاقات في الحرب يمكن ان تجمل في المبادئ التالية (٢) :

اولا - ان الاصل في العلاقات الانسانية هو السلم والتعاون •
ثانيا - ان الحرب ليست الا علاجاً لشذوذ لم تنفع فيه الحكمة والموعظة الحسنة •

ثالثا - ان الحرب اذا وقعت كان لها حكم الضرورات تقدر بقدرها دون بغى ولا عدوان •

رابعا - ان غير المحاربين والمدبرين للحروب لا ينالون منها بسوء •
خامسا - يسارع الى وقف الحرب تلبية لرغبة السلم متى جنح اليها احد الجانبين •

سادسا - يعامل اسرى الحرب بالبر والاحسان ، الى ان يطلق سراحهم بالمن والفداء • •

انتهاء الحرب :

ان الحرب ، فى نظر الشرع الاسلامى كما اسلفنا ما هى الا علاج لشذوذ لم يكن بالامكان حله بالوسائل السلمية • من هذا المنطق يمكن القول بوجه



الاسرى ، وقال ابو حنيفة ليس له المن ولا الفداء وهو مخير في شيئين القتل او الاسترقاق • انظر الجلبى ، ص ١٤٦ • وفي تحليل الارمنازي لهذه الآراء في كتابه الشرع الدولى ص ص ١٠٠-١٠٥ فانه استبعد القتل او الاسترقاق لعدم ذكرهما في الكتاب •

(١) سورة الاتقال •

(٢) انظر في هذا الصدد « الاسلام عقيدة وشرية للاستاذ محمود شلتوت القايرة ، (بلا تاريخ) ، ص ٤٤٦ وما بعدها •

عام ان اية بادرة حسنة نحو احقاق الحق والعدل والكف عن الحاق الضرر بالدولة الاسلامية وبشريعها ومعتقداتها ، قد تؤدي الى انتهاء الحرب القائمة .
وانتهاء الحرب ، او اعادة الامور الى حالة السلم في الاسلام ، تخضع لقواعد معينة نجملها بما يأتي (١) :

(اولا) تنتهي الحرب بين الفريقين المتحاربين في حالة توقف كليهما ، بناء على ملل كل منهما في الاستمرار في الحرب . ومثل هذه الحالة قد تكون دائمية وقد تكون وقتية ، وكل ذلك يتوقف على ظروف الفريقين المتحاربين . وغالبا ما يتطلب مثل هذا التوقف الى اتفاق تحدد فيه طول او مدة الحالة السلمية التي تعقبها . وقد يجوز ان يخضع لنفس هذه الحالة ، ان احد الفريقين يتصر في المعركة ثم يتوقف لكونه ليس له قدرة الاستمرار من القضاء كليا على الفريق الاخر (٢) .

ثانيا - والطريقة الثانية التي تنتهي فيها الحرب ، بين الدولة الاسلامية وبين الدولة غير الاسلامية ، تتم في حالة اعتناق هذه الدولة الاسلام (٣) . وقد يصاحب ان تنصهر تلك الدولة في الاسلام ، الا انه ليس من الضروري حدوث ذلك دوما .

ثالثا - اما الطريقة الثالثة التي تنتهي فيها الحرب بين الدولة الاسلامية والدولة غير الاسلامية تتم في حالة انهزام العدو وضم اقليمه الى الدولة الاسلامية (٤) .

(١) للوقوف على تفاصيل اكثر ، راجع بهذا الشأن Hamidullah حميدالله في كتابه Muslim Conduct of State ، ص ٢٦٥ وما بعدها .
(٢) من الامثلة على ذلك معركة أحد التي جرت بين المسلمين والمشركين .
(٣) مثال على ذلك ما ارسله الرسول (ص) من رسائل الى ملوك غسان والبحرين وعمان . انظر المواهب اللدنية للقلقشندى (١ : ٢٩٤) اقتبست من قبل حميدالله ص ٢٦٥ .

(٤) يقول حميدالله ، « لا ضرورة في هذه الحالة الى التفاوض او عقد معاهدة » . على ان هناك امثلة ، منها حملة خيبر ، التي اعقبها تفاوض في حماية ازواج الناس واملاكهم . انظر كتابه .
La Diplomatic Musulmane a l'epoque du prophet et de Khalifes Orthodoxes, vol. -I, pp. 50-51.

رابعا - وثمة طريقة رابعة تنتهي فيها الحرب في حالة قبول العدو الخضوع لحماية الدولة الاسلامية^(١) .

خامسا - اما الطريقة الخامسة فهي انتهاء الحرب بمعاهدة سلام مع احتفاظ كل من الدولتين باستقلاله^(٢) .

المعاهدات :

ان افقه الاسلامي ، صريح في التحدث عن المعاهدات بوجه عام وعن عناصرها . واذا كانت المعاهدات^(٣) احدى وسائل انتهاء الحرب فان اغراضها لا تنتهي في هذه الحدود، وانما تمتد الى اغراض اخرى متنوعة . ومن هذه الاغراض الابقاء على السلم والمحافظة عليه . ومن اغراضها الاخرى ، انشائها بقصد التحالف الحربي ، والتعاون على دفع مشترك^(٤) ، ووسع هذه الاغراض جميعا هو استخدامها في كل ما يحقق مصلحة الامة وامنها وسعادتها^(٥) .

اما اهم عناصر المعاهدة التي يجب ان تتوفر من وجهة نظر الشرع الدولي

(١) مثال على ذلك خضوع نجران لحماية الدولة العربية في زمن الرسول . انظر حميد الله Mus'im Conduct ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦٦ .

(٢) من طبيعة معاهدات السلام ان تضع شروط الكف عن القتال والعودة الى العلاقات الطبيعية . وقد تضع معاهدة السلام احيانا ، شروط الصداقة ، او التحالف او التعاون ايضا ، ثم ان من طبيعة معاهدة السلام ، في العرف الاسلامي . دفع العدو ما ترتب من تعويضات او جزية . انظر حميد الله ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٦٢ .

(٣) وقد يجوز ان يلجا الطرفان المتحاربان الى التحكيم وذلك بالاتفاق على محكم يرضاه الطرفان كوسيلة وخطوة سابقة للتوصل الى اتفاق ومعاهدة تثبت الطريق الى السلم والصلح ، وهذا يعني ان القانون الدولي الاسلامي قد مارس التحكيم كطريقة سلمية لحل الخلافات .

(٤) الشيخ شلتوت ، الاسلام عقيدة وشريعة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٦٨ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

الاسلامي فهي كما رأى الشيباني وفقهاء آخرون ، ان تكون مكتوبة ومتضمنة لتاريخ كتابتها وتاريخ تنفيذها والمصادقة عليها بصورة واضحة ودقيقة^(١) . ثم انها ، بجانب ، ما تتضمنه من شروط خاصة وشروط عامة ، فان من الضروري ان يوضح فيها تأكيد على تنفيذها^(٢) موقعة من قبل مندوب مخول . وقد يجوز ان يلحق بها ملحق يتناول شروطا اضافية او شروطا سرية .

ولقد رأى غالبية فقهاء اشرع الدولي الاسلامي انه يشترط في صحة المعاهدات شروط اساسية ثلاثة^(٣) . الاول وهو ذلك الشرط الذي يؤكد على ان لا تمس المعاهدات الدستور والشريعة الاسلامية بشيء . والثاني ، وهو الشرط الذي ينص على ان تكون المعاهدة مبنية على التراضي من قبل الفريقين المتعاهدين . وبين الشيخ شلتوت في هذا الصدد ان الاسلام لا يرى « قيمة لمعاهدة تنشأ على اساس من القهر والغلبة وازيز النفات . وهذا شرط تمليه طبيعة العقد . واذا كان عقد التبادل في سلعة ما يباع او شراء لا بد فيه من عنصر الرضا » الا ان تكون تجارة عن تراض منكم « فكيف للمعاهدة وهي للامة عقد حياة او موت »^(٤) . اما الشرط الثالث ، فهو لا بد من ان تكون المعاهدة « بيّنة الاهداف واضحة المعالم ، تحدد الالتزامات والحقوق تحديدا لا يدع مجالا للتأويل والتخريج واللعب بالالفاظ »^(٥) . وكل هذا لكي تبعد المعاهدات عن طريق الغموض والالتواء الذي سلكه عالم الدولة المتحضرة اليوم ، والذي تسبب من جراءه النكسات والحروب . وفي التحذير من مثل هذه المعاهدات يقول الله تعالى « ولا تتخذوا

(١) انظر السرخسي في شرح السير الكبير ، مصدر سبق ذكره ، المجلد ٤ ، صص ٦٠-٦١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٣) للاطلاع على تفاصيل اكثر راجع الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٦٨ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٦٨ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، انظر كذلك الشريعة الاسلامية والقانون الدولي

العام ، علي علي منصور ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٧ .

ايمانكم دَخَلَا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله» (١) .

احترام المعاهدات :

هناك في الفكر العربي الاسلامي ناحية قانونية مهمة الابد من العقود عليها بشأن انتهاء الحرب وعقد المعاهدات ، وتلك هي ان للمعاهدات عقود تتفق عليها الاطراف المعنية بوحى من رضاهم وموافقتهم . وهي ملزمة كل الالتزام ، الا اذا حدث ما يمنع تنفيذها ، كأن تخرج في تطبيقها عن خط الشريعة الاسلامية او ان تستجد ظروف جديدة تمنع الاخذ بها .

والغاية البعيدة من احترام المعاهدات والالتزام بها هي الاخذ بالمجتمع الى شاطئ الخلق القويم الذى يعمل بدوره على ثباته واستقراره في الداخل والخارج . وهذا الخلق القويم ، في الواقع قد نص عليه الدستور الاسلامي (٢) . واوصى به الرسول القائد (٣) . واكد عليه الفقهاء والمجتهدون .

وما يجب الانتباه اليه هنا هو ان الالتزام فى المعاهدات من بعد المعارك والحروب معناه العمل على استمرار الصلح (٤) ، وعلى استمرار السلم بين الدول المختلفة . وهذا ما تشده الشريعة الاسلامية . والذي يسبر غور تاريخ

(١) سورة النحل الآية : ٩٨ الدخل كما يفسره الشيخ شلتوت وفقهاء اخرين هو الشيء الخفي الذى يدخل في الشيء فيفسده .

(٢) لقد اكد القرآن الكريم في آيات متعددة على الالتزام بالعهود والوفاء فلقد جاء في سورة المائدة الآية « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » وما جاء في سورة النحل « ووفوا بعهد الله اذا عاهدتم » . وجاء في سورة الاسراء « ووفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » . كما جاء في سورة الانفال « وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاقا » .

(٣) من اقوال الرسول القائد « اد الامانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك » .

(٤) يعتبر الصلح في نظر الفقه الاسلامي بانه عقد من العقود السياسية التي سبق وتطرقنا الى بحثها . كما ان « الهدنة » هي الحالة التي يتوقف فيها القتال تعتبر نوعا من انواع الصلح . ويذكر القلقشندي في كتابه صبح

العلاقات السياسية للدولة العربية الاسلامية عبر الزمن الطويل يجد انها طيلة فترات السلم كانت ترسل الرسل والهدايا والبعثات القنصلية لتوثيق الروابط السياسية والتجارية بين البلاد الاسلامية والاجنبية^(١) .

قواعد الجهاد :

لقد عرف الفكر العربي الاسلامي الجهاد بين الدول ووضع له احكام وقواعد ، وهذه الاحكام والقواعد تناول حقوق وواجبات الدولة المحايدة - اسلامية كانت أم غير اسلامية - ازاء اعداء او الدول الداخلة في حرب مع بعضها . وقبل ان نقف على اهم هذه الاحكام والقواعد ، او قوانين الجهاد كما



الاعشى ثلاثة ابواب في عقود الصلح والهدنة كما يذكر ان نقض الصلح قد يأتي من جانب او جانبيين .
وللامام علي (رض) كلمة ماثورة في الصلح ذكرها في كتابه الذي ارسله للاشتر النخعي تقول :

« لا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك ولله فيه رضى ، فان في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وامنا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فان العدو ربما قارب ليتغفل ، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن . وان عقدت بينك وبين عدو لك عقدة او البسته منك ذمة ، فحظ عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالامانة واجعل نفسك جنة دون ما اعطيت ، فانه ليس من فرائض الله شيء الناس اشد عليه اجتماعا مع تفرق اهلهم وتشتت اراثهم من تعظيم الوفاء بالعهود .

ولا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك فانه لا يجترىء على الله الا جاهل شقي ، وقد جعل الله عهده وذمته امنا افضل بين العباد برحمته ، وحرهما يسكنون الى منعه ويستفيضون الى جواره ، فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه .

ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التاكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق امر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق ، فان صبرك على ضيق امر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من عذر تخاف تبعته وان تحيط بك من الله فيه طلبته فلا تستقبل فيها دنياك ولا اخرتك » اقتبسه فوق العادة ، القانون الدولي العام ص ٢٧ .

(١) سموحي فوق العادة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣١ .

تسمى بلغة اقلانون ، من الضروري الاشارة الى صعوبة الوقوف على جميع هذه الاحكام بسبب فقد او ضياع الكثير من كتب السير التي بحث فيها الفقهاء . عن وضع الدولة المحايدة ازاء الدول المتحاربة . على انه بالرغم من كل ما تقدم ، فان الباحث ليقف متأملا امام بعض هذه الاحكام التي ساقها لنا بعض فقهاء اشرع الدولي من امثال السرخسي والسياني واملقشندي وابن تيمية وغيرهم (١) .

والذي يجدر الانتباه اليه حين الوقوف على نظرية احياد في الفكر العربي الاسلامي هو ان بعض قواعدنا تنطبق الى وضع الدولة الحيادية ، وان بعضها الاخر يتعلق برعاياها من حيث حقوقهم .

وتأتي في مقدمة احكام الحياد ، التي يشير اليها السرخسي في كتابه « شرح السير الكبير » ، حقوق الدولة التي لها معاهدة سلم مع المسلمين والتي وقعت تحت هجوم دولة ثالثة وخضعت لها واصبح مواطنوها اسرى لدى الدولة الغازية ثم تدخل الدولة الاسلامية في حرب مستقلة مع تلك الغازية . والسؤال هنا ، ما هو وضع الاسرى الذين يقعون تحت قبضة الدولة الاسلامية ، من رعايا الدولة التي ترتبط اصلا بمعاهدة سلم مع الدولة الاسلامية ؟ ان حالة هؤلاء ليعتبرون اسرى بايدي المسلمين (٢) طالما انهم قد خضعوا لسيطرة دولة هي في حالة حرب مع المسلمين . والعللة في ذلك ان حالة الحياد قد فقدتها تلك الدولة بخضوعها لنفوذ دولة ثانية . وبعبارة اخرى ، ان الفكر الاسلامي يعتبر ان السيادة شرط من شروط تنفيذ الحياد . بمعنى ، ان الدولة الاسلامية تخرق فوائين الحياد التي تربطها مع الدولة الصديقة التي ارتبطت معها بمعاهدة سلام ، فيما لو كانت قد حافظت على سيادتها . اما انها وقد فقدتها ، فمصيورها في هذه الحالة مع سيادة الدولة الغازية .

ومن قواعد الحياد بين الدول والتي تتصل بحياة المواطنين ، المقيمين في

(١) من الملاحظ ان الفقهاء المسلمين الذين تطرقوا في مؤلفاتهم الى قواعد الحياد انهم تطرقوا اليها ضمن بحوثهم ودراساتهم المتعلقة بالحرب والسلام .
(٢) السرخسي ، ج ٤ ، ص ١٣٤ . اقتبست من قبل حميد الله ، ص ٣٠٢ .

دولة صديقة هي ان حقوقهم لا تتغير حتى في حالة زوال سلطان الدولة ،
وذلك تبعا للقاعدة الفقهية التي تقول ان حرمة الملك من حرمة المالك^(١) .
وما تقدم ينطبق ايضا على ممتلكات رعايا دولة محايدة ، وهو في باخرة
عدوه ، لصيق باصحابها الحياديين .

ومن ادق احكام الحياد من وجهة النظر الاسلامية هي ان المواطن الاجنبي
الذي يدخل باذن شرعي وفي احوال سلمية ، الاراضي الاسلامية لا يجوز له
ان يخرج منها الى اراضي دولة اخرى هي في حالة حرب مع الدولة
الاسلامية^(٢) .

ومن هذه الامثلة يمكن لنا ان تبين كيف ان القانون الدولي الاسلامي
كا قد خطا خطوات سبقة بالنسبة لعصره في قواعده في الحرب والسلم والحياد .
اهمية القانون الدولي الاسلامي :

يحتل القانون الدولي الاسلامي اهمية بالغة في تاريخ القانون بين الدول
عموما . وتنبثق هذه الاهمية من الواقع الذي تطور فيه القانون الدولي عبر الزمن
الطويل ، والذي كان للقانون الدولي الاسلامي دور ملحوظ فيه .
الا ان هذا اندور المهم في تطور القانون الدولي ينكره عليه فقهاء القانون
الدولي الحديث . فهم يؤكدون ان اصول القانون الدولي ، اليوم هي اصول
اوربية مسيحية^(٣) وتعود بتاريخها الى اليونانيين ، الاقدمين الذين كانت قد قامت
بين دولهم المدنية المتعددة علاقات وقواعد تحكم تلك العلاقات ، والتي تعتبر
بداية للقانون الدولي . وقد يكون مثل هذا صحيحا لو ان اليونانيين كانوا حقا ،
قد افروا شرعية العلاقات مع الدول غير اليونانية . ولكن مثل هذه الصحة تزول
حينما نعلم ان اليونانيين لم يقرروا مثل هذه العلاقات اصلا ، بدليل انهم كانوا
يعتبرون كل الاقوام من غير اليونانيين برابرة متوحشين .
وحينما جاء الرومان بعدهم ، فانهم وان اقاموا امبراطورية عالمية ، تختلف

(١) شرح السير الكبير ، ج ٤ ، ص ص ١٢١-١٢٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) انظر افضل اقبال في كتابه Diplomacy in Islam (المقدمة) .

في طبيعتها عن دولة المدينة اليونانية ، الا انهم ظلوا يعتبرون الاقاليم التي خضعت لهم ، مناطق بربرية لم تصل بمستواها ما وصلت اليه روما . ولذلك فقد اُحجموا عن معاملتها معاملة الند لند ، واضطروا في ان يعاملوها وفق احكام وقوانين اخرى ، وضعت خصيصا تناسب ومستوى تلك الاقاليم .

والملاحظ في هذه القوانين الرومانية ، انها تختلف بطبيعتها عما كان جاريا في التعامل القانوني اليوناني ، وانها من جهة ثانية ، لا اكثر من قوانين دولية سطحية . والسبب في ذلك ، ان الرومان لم يعترفوا بمدنية غيرهم ، ولذلك ، وكما قلنا ، فانهم قد اعتبروا برابرة ، ولا يمكن التعامل معهم بقانون دولي واحد يحكمون اليه جميعا . اُضف الى ذلك ، انهم لم يعترفوا بأي حقوق والتزامات غيرهم ، خاصة الاقاليم او الدول التي دخلت في حرب مع روما . وبعبارة ادق ان الرومان لم يقرروا اية حقوق لاعدائهم ، الامر الذي يجعل من قوانينهم الدولية ناقصة وسطحية ، لا تقر الا حقوقهم ودون حق الدول الاخرى وخاصة الدول التي هي في حالة حرب معها^(١) . وهذا هو اسبب الذي يجعل فقهاء العصر الحديث^(٢) ، يقفزون فجأة من العصر اليوناني الى العصر الحديث ، متخطين بذلك العصر الوسيط معتقدين ان الرومان لم يكونوا بحاجة آنذاك الى قانون دولي^(٣) .

(١) حميد الله Muslim Conduct of State ، مصدر سبق ذكره ،

ص ٦٣ .

(٢) يقول الاستاذ افضل اقبال (Afzal Iqbal) في مقدمة كتابه التي

يبحث فيها عن تطور القانون :

"Int. Law, as we understand its origin today, sought to regulate the conduct of christian states in their intercourse with each other

"It is not surprising, therefore, that in dealing with its history, all the standard works on international law and diplomacy begin with the Greek-City-State, describe the Roman period immediately following, and then suddenly jump to the modern times, ignoring a period of no less than a thousand years...."

انظر كتابه Diplomacy in Islam ، مصدر سبق ذكره ، (المقدمة) .
Oppenheim: Int. Law. vol. I. p. 62. (٣) انظر :

والحق ان تجاهل فترة العصر الوسيط من قبل هؤلاء الفقهاء قد فسر بأنه تجاهل للفكر والحضارة العربية الاسلامية وللقانون الدولي الاسلامي بالذات • وكما يرى الاستاذ افضل اقبال ، فان ما وصف بالعصر المظلم بالنسبة للاوربيين كان عصر نور بالنسبة للعرب والمسلمين •

ذلك ان الدولة العربية الاسلامية التي انطلقت من ارض محدودة في الجزيرة العربية ، والتي قدر لها ان تنمو وتنشئ علاقات مع غيرها من الدول ، وان تصيح في اقل من قرن دولة كبرى من حيث رقعتها ونفوذها واهميتها ورفيها ، كان ذلك في وقت كانت فيه اوربا تعيش في سبات عميق •

وانشىء المهتم بالنسبة لنا هو ان الابداع الفكري والحضارى الذي حققته الدولة العربية الاسلامية قد امتد الى جميع جوانب الحياة • واحدى هذه الجوانب هو هذا الجانب القانوني • فلقد حظى القانون الدولى باهتمام الفقهاء والمفكرين بصورة خاصة ، بسبب انهم درسوه كجزء من دراستهم للشريعة الاسلامية ، التي هى بطبيعتها شريعة انسانية تنادي بالمساواة بين الانسان والانسان وباقامة العلاقات الحسنة بينهم • وعن هذا الطريق جاء الفقهاء والمجتهدون والعلماء الاعلام ليفسروا احكام الشريعة في علاقات المسلمين بغيرهم • وقد تطورت هذه الدراسات وتوسعت بحيث اخذت تضم دراسة تقاليد الدولة وتقاليد رؤسائها ، فكان على اثر ذلك ان تجمعت في كتب عرفت باسم « كتب السير » ، والتي تؤدي في اغراضها نفس اغراض الدراسات القانونية الدولية اليوم •

كل هذا من جهة • ومن الجهة الاخرى ، فان الاحتكاك الهائل الذي تم بين الاوربيين والعرب والمسلمين في وقت السلم والحرب ، كان قد ادى الى ان تترجم هذه الكتب الكثيرة من العربية الى اللاتينية ، متخذة اياها مصادر اساسية لها ، ناهيك عن احتواء قاعات الجامعات الاسلامية العديد من الاوربيين الذين قصدوها للبحث والنيل من العلم •

وهذا هو السر الذي يبين لنا لماذا كان علماء القانون الدولى الاوائل من الاوربيين من امثال بير (Pierre) وايبالا (Ayala) وفيتوريا (Vittoria)

وجنتيلس (Gentiles) وغيرهم قد برزوا في اسبانيا وايطاليا دون غيرها . فظهور هؤلاء العلماء في هذه المناطق دليل على تأثرهم بالنحو وبالدراسات القانونية العربية الاسلامية التي وجدوها بين ايديهم في ظل الدولة العربية الاسلامية^(١) . وحتى كروشيوس Grotius الذي يعتبر أب القانون الدولي الاوربي ، كان قد استقى ، باعتراف منه في كتاب قانون الحرب والسلام الكثير من معلوماته من مصادر قانونية عربية اسلامية^(٢) . ومما يؤيد هذا بالاضافة ، هو ان افكار هؤلاء الفقهاء تشكل حلقة منفصلة عن التراث الفكري القانوني اليوناني والروماني^(٣) .

ان اهمية القانون الدولي الاسلامي تتجلى في انه اول قانون يأتي بمبدأ جديد وفريد من نوعه ، وذلك هو اعلانه المساواة بين الانسان والانسان . وهذا ما يجعل منه ان يكون القاعدة الحقيقية لمفهوم القانون الدولي الحديث : وهو المبدأ الذي لم تمكن روما من التوصل اليه مطلقا ، ذلك ان حياة مواطني واملاك اية دولة لا توجد بينها وبين روما معاهدة سلام كانت قد ظلت مهددة بوجودها على الاراضي الرومانية . ومن هنا كان القانون الاسلامي اول قانون يقر بحقوق والتزام الدول والاقوام الاخرى انطلاقا من اقراره بمبدأ المساواة ، الذي جاء دستوره اول معلن عنها حين قال « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

وبهذا المبدأ اصبح بنو الانسان ، بمعزل عن لغاتهم والوانهم واديانهم يمتلكين لنفس الحقوق والالتزامات^(٤) ، لا في اوقات السلم فحسب وانما في اوقات الحرب ايضا^(٥) . والجدير بالذكر ان مثل هذه القواعد لم تقتصر في

(١) Diplomacy in Islam ، مصدر سبق ذكره ، المقدمة .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) يذكر لنا الاستاذ حميد الله ان المؤلفات الاوربية الاولى في قوانين الحرب Jure be'li كانت دونما اية مبالغة الصدى للمؤلفات العربية التي كتبت في الجهاد والتي لعبت دورا كبيرا في تطور القانون الدولي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٣ .

مساواتها على الدول الإسلامية وإنما امتدت إلى جميع الدول غير الإسلامية
أيضاً (١) .

إن ما يمكن قوله يعد كل ما تقدم هو أن هذا الدور البارز للقانون الدولي
الإسلامي الذي لم يحض باعتراف فقهاء الغرب ، لجدير بأن يأخذ مكانه البارز
في القانون الدولي المعاصر . وهذا بلا شك يلقي على أبناء الحضارة العربية
الإسلامية مسؤولية كبيرة لإبراز هذه المكانة الإنسانية الرفيعة التي تبنوها مبادئ
الفكر العربي الإسلامي (٢) .

(١) يصف الاستاذ افضل اقبال القانون الدولي الإسلامي بالقول :
"The Int. Law of Islam seeks to regulate the conduct of Muslim
state on the justiest possible bassis, not only with other Muslim
state but with he who'e non-Muslim world."

مصدر سبق ذكره ، المقدمة .

(٢) يختتم الاستاذ حميدالله حديثه بهذا الصدد بالسؤال :
"The Question remains whether the Muslims themselves had culti-
vated our international Law?"

نظرية السفارة^(١) او (النظرية الدبلوماسية)^(٢)

من المهم جدا عند دراسة نظرية السفارة او الدبلوماسية العربية الاسلامية ان نشير اولا وقبل كل شيء الى حقيقة هي : ان الدولة العربية الاسلامية قامت على فلسفة ورسالة حضارية . وهذه ناحية مهمة تختلف فيها الدولة العربية الاسلامية عن غيرها من الدول وخاصة تلك التي عاصرتها . ذلك ان فلسفة المجتمع الحضاري العربي الاسلامي ، كما مر معنا في مكان اخر من هذا الكتاب ، تقوم على خير وسعادة الانسان . وان الدولة ان هي الاداة لتحقيق هذا الخير وهذه السعادة . وهذه الفلسفة ذاتها هي التي حددت مسؤولية الدولة في الداخل واسلوب علاقاتها في الخارج . واذن فان فلسفة العلاقات الدبلوماسية التي سارت عليها الدولة العربية الاسلامية طيلة عهدها - ما عدا الفترة الزمنية المعينة في

(١) السفارة او الرسالة مصطلحان يقتصران بالسفير او الرسول .
« والسفير او الرسول شخص كلف المثل امام حكومة ارسل اليها ليبقى لديها ويتكلم باسم من اوفده او يقضى امورا مضي لانجازها وتذليل المصاعب دونها » .
وقد عرف المصريون واليونان والرومان عادة الرسل والسفارة . وكان يطلق اليونان والرومان على رسلهم اسم (اوراتور) (Orator) . وقد اطلق على هؤلاء الرسل في القرون الوسطى اسم المسؤول (Responsible) . اما العرب فقد اطلقوا على مبعوثيهم اسم السفراء والرسل . وتسمية العرب هذه هي اقرب التسميات الى لعصر الحديث الذي يطلق على مبعوثي الدول اسم السفراء . وان دل هذا على شيء فانما يدل على عناية الحضارة العربية الاسلامية بعلم وفن العلاقات الدبلوماسية التي اخذت العصور الحديثة عنها الشيء الكثير . للرجوع الى التفاصيل الاخرى عن الموضوع ، انظر رسل الملوك ومن يصلح للسفارة الجزء الثاني : فصول في الدبلوماسية : الرسل والسفارة تأليف صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

(٢) رجعنا في هذا الجزء الى البحث الذي قدمه المؤلف المعنون « حقيقة التراث السياسي العربي الاسلامي : الجانب الدبلوماسي » الى مؤتمر الادباء العرب الخامس المنعقد ببغداد للفترة بين ١٥-٢١ شباط ، ١٩٦٥ .

واخر عهد الدولة العباسية وما بعدها حين ابتعدت الدولة عن رسالتها نتيجة لضعفها واتقسامها - ما هي الاركن اساسي من اركان الفلسفة العربية الاسلامية العامة .

اسس الدبلوماسية العربية الاسلامية :

وعلى نحو ما تقدم يمكن لنا ان نفهم اسس الدبلوماسية العربية الاسلامية وخصائصها ، دونما الوقوع في الخطأ والارتباك الذي وقع فيه بعض الكتاب وعلى الاخص المستشرقين منهم في زمننا الحاضر .

فلرسالة الحضارية العربية الاسلامية الانسانية لما لها من الفاعلية والغنى الفكرى هي التي فتحت امام الدولة العربية الاسلامية طريق الايمان بفكرة الاخذ والعطاء مع الشعوب الاخرى وهي بعينها التي جعلت سياسة الدولة ، بناء على خلوها من التعصب والانزعال ، ان تكون سياسة مرنة في اقامة العلاقات مع غيرها . وهذه ناحية مهمة تمثل لنا خاصية اساسية لم يقف على كنهها بعض الكتاب في الشؤون الدبلوماسية وعلى الاخص المستشرقين الذين لم يروا من الدبلوماسية العربية الاسلامية غير الحرب ودار الحرب ، مما دعاهم ان يقيموا حاجزا منيعا بين دار الحرب ودار الاسلام وهو ما ينافى حقيقة اهداف الدبلوماسية العربية الاسلامية اصلا .

ذلك ان قيام فلسفة الدولة على نشر القيم الحضارية الانسانية كان قد فرض عليها سبيل التعاون مع الدول التي تعمل على نشر هذه القيم حتى ولو كانت تلك الدول غير اسلامية . ومثل هذا السبيل ، بعبارة اخرى ، يجعل من الدبلوماسية العربية الاسلامية ان تكون اساسا قائما على فلسفة العلاقات السلمية التي تطرقنا اليها في بحثنا لنظرية العلاقات الدولية . والدليل على ذلك ما يؤيده لنا التاريخ من عقد المعاهدات والاتفاقيات والوفاء بها مع العالم غير الاسلامي . اما الحرب فهي في المفهوم العربي الاسلامي تكون شرعية في احوال معينة : مثل جارة دفع الظلم و جارة القضاء على الفتنة و جارة الدفاع عن النفس واخيرا

وليس آخرها حالة حماية القيم الانسانية والحضارية التي تضمها التعاليم
الاسلامية من اي متصد لها .

تطور الدبلوماسية العربية الاسلامية :

في الوقت الذي كان الفكر السياسي يسير سيرا متعثرا في اوربا ابان القرون
الوسطى كان هذا الفكر في الشرق العربي يتحدد في معالنه ويتبلور في مفاهيمه .
والواقع فان الدبلوماسية ، التي تمثل جانبا مهما من جوانب الفكر السياسي
العربي الاسلامي ، والتي وصلت في اساليبها وفنونها واغراضها المتنوعة اوجها
في العصور العباسية والاندلسية ، كان العرب قد مارسوها قبل تلك العصور
ومنذ عصر الجاهلية بالذات .

ذلك ان طبيعة العرب في حب الاسفار ، وما احاط بهم من ظروف اجتماعية
اقتصادية وطبيعية كان قد دفعهم الى ممارسة التجارة والى الاجتماعات في
الاسواق والاندية لشهود المواسم الثقافية والدينية .

فكان على اثر ذلك ان قامت العلاقات والارتباطات بين بعضهم البعض اولاً ،
ثم امتدت هذه العلاقات والارتباطات تدريجيا الى الاقوام والشعوب الاخرى ،
مبتدئة بتلك المجاورة لهم . ولعل من بين اسباب تكوين العلاقات مع الغير ،
وقوع بلادهم في مركز استراتيجي وعلى الطرق الرئيسية بالذات الامر الذي
دفعهم الى الاتصال بالغير والى اقامة العلاقات الدبلوماسية .

ومع ان اغلب المصادر في مآثر العرب الدبلوماسية قد اصابها التلف او
انضباع او البثرة الا ان ما هو متوفر على الرغم من قلته وتبعثره هنا وهناك ،
يشير الى عناية العرب الاقدمين بتأليف السفارات الى الاقاليم المجاورة والى
اهتمامهم باختيار من هم اهل للرسالة والسفارة . وكانوا يلتمسون في رسالهم
وسفرائهم المعرفة والخلق وسرعة البديهة والذكاء والصبر . ومما يؤيد هذا
الاهتمام ما رواه لنا الواقدي في توصيته لاحد الرسل تقول : « احفظ شيئا ،

انتهز الفرصة ، فإنها خلسة ، وبث عند رأس الامر لا ذنبه • واياك وشقيعا مهينا
فانه اضعف وسيلة ، واياك والعجز فانه اوطأ مركب • وعليك بالصبر فانه
سبب الظفر • ولا تخفى الغمر حتى تعرف القدر ••• ، (١) ومن الامثلة على
السفارات في عصر الجاهلية سفارة عبدالمطلب بن هاشم الى ابرهة للمفاوضة على
رد ما اخذ من ابل كان قد استولى عليها جيش الحبشة (٢) •

واذا كانت الدبلوماسية العربية القديمة قد اقتصرت في الاغلب على مفاهيم
تجارية وودية في عصر الجاهلية ، فإنها مرت بتطورات جذرية بظهور التعاليم
الاسلامية • فكان اول ما عمله الاسلام ان وحد العرب في دولة عربية الاسلامية •
وقد سبب هذا التحول في حياة العرب السياسية الى ان تنتظم الدبلوماسية في
فواعد والى ان تدخل ميدان العلاقات الدولية السياسية ، وبذلك اصبحت وسيلة
فعالة من وسائل تنفيذ السياسة الخارجية للدولة العربية الاسلامية التي وطد
دعائمها واركانها الرسول المؤسس محمد (ص) •

فالذي يسبر غور مفهوم الدبلوماسية يجد ان الدبلوماسية آنذاك قد خرجت عن
الحدود التي رسمت لها في عصر الجاهلية • وفي الحقيقة فان المفهوم التجاري للدبلوماسية
الذي حدد نطاق الدبلوماسية في العصر الجاهلي قد تطور بعد ذلك الى مفهوم
سياسي واجتماعي • ذلك ان الدبلوماسية في عهد النبي والخلفاء الراشدين
اصبحت وسيلة فعالة لنشر تعاليم الاسلام ، وأداة لتنظيم الاجتماعات والمؤتمرات
وعقد المعاهدات (٣) • والمهم في الامر ان تعلم ان المعاهدات كانت لا تقتصر على

(١) انظر « رسل الملوك ومن يصلح للرسالة او السفارة » لابن الغراء ،
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ص ٢٨ •

(٢) انظر « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، جزء ١ ،
ص ١٤٢ •

(٣) للرجوع الى التفاصيل انظر مجموعة الوثائق السياسية في العهد
النبي والخلافة الرشيدة للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي - القاهرة
١٩٤١ •

نشر تعاليم الدين الاسلامي والتمكين له والدفاع عنه وحسب ، وانما كانت تعقد
لاغراض الهدنة وفداء الاسرى وتبادل المعرفة وتحقيق المصالح المشتركة ايضا .
ولقد اسندت الدبلوماسية للدولة الاموية خدمة كبيرة في تثبيت اركان الدولة
ونعاليها الاسلامية . ففي النطاق الاسلامي ، ظلت الدبلوماسية تستخدم من قبل
الامويين كوسيلة للدخول في دين الله او دفع الجزية . وفي ما خلا ذلك ،
فقد كانت الدبلوماسية وسيلة لتنفيذ سياسة الدولة الخارجية فكانت هي السبيل
الى دفع الحرب وعقد المحالفة . وكانت هي السبيل لتثبيت شروط الهدنة مع
الامم التي تدخل معها الحرب .

وبدخول العصر العباسي مرت الدبلوماسية الاسلامية بتطورات جديدة .
ولعل اهم ما يجب ان يذكر في صدد هذه التطورات هو ان الدبلوماسية في هذا
العصر بلغت درجة طيبة من التقدم بحيث اصبحت تخضع لقواعد دقيقة وتنظم
في اصول واضحة^(١) . ولا شك ان علو شأن الدولة وازدياد ارتباطها والتقدم
الذي حصل في عهدها كان له دخل كبير في هذا التطور وهذا ما جعلها ان
تسدى فوائدها جمعة وتحقق اغراض متعددة . وكان من بين اسبل التي استخدمت
فيها الدبلوماسية في العصر العباسي الدور الملحوظ الذي لعبته في توثيق العلاقات
الثقافية والتجارية . فكانت الوفود والسفارات المنظمة تخرج من بغداد^(٢) وهي
تضم اهل الفكر والصناعة والتجارة والفن حاملة العطايا المقدمة من لشدن
الخليفة . وكانت تنهي مهمتها بعقد معاهدة بين الدولة العباسية وبين الدولة
المؤقتة اليها تلك الوفود والسفارات .

(١) كان السفراء مثلا ، يزودون بكتب واوراق اعتماد تشبه كثيرا وثائق
الاعتماد التي يقدمها السفراء والممثلون الآخرون الى الملوك والرؤساء في عصرنا .
انظر في هذا الصدد رسل الملوك ومن يصلح للرسالة او السفارة ، مصدر سبق
ذكره ، ص ١٣١ .

(٢) اصبحت بغداد في اوج عصر العباسيين المركز الذي تخرج منه وتأتي
اليه الوفود والسفارات من البلدان المختلفة . ومن بين تلك البلدان بلاد الروم
والصين والبلغار وبلاد الصقالية وغيرها .

كما عملت الدبلوماسية في هذا العصر على جمع كلمة المسلمين ايام المحن وتوثيق الصلة بينهم للوقوف صفا واحدا امام العدو^(١) . وقد برز مثل هذا الدور ايام بدا الانحلال يدب بين ظهرائي الدولة .

وثمة دور بارز آخر في هذا العصر هو استخدامها كوسيلة لتحقيق التوازن الدولي . ولقد استدعى تحقيق مثل هذا اتوازن قيام سفارات مستمرة بين بغداد وبيزنطة وسفارات مماثلة بين قرطبة والقسطنطينية . ذلك ان دولة الفرنجة المتناوئة لبيزنطة كان قد اضطرها الامر الى تأمين وتوثيق الصلات مع الدولة العباسية . ولكن الدولة العباسية آنذاك كانت هي الاخرى تبحث في الوسائل التي تحد من قوة دولة الامويين في الاندلس التي اخفقت في القضاء عليها مما دعاها الى ان تفكر من ناحيتها في التحالف مع دولة الفرنجة المناخمة للاندلس لكي تضعف من شوكتها وتحد من توسعها . وتحقيقا لهذه الموازنة في السياسة الدولية وجدنا السفارات بين بغداد والفرنجة تعقد اواصر الصداقة في سبيل مصالحها المشتركة والتي توجت بالاخير الى تبادل السفارات بين هارون الرشيد وشارلمان^(٢) لعقد تحالف يؤمن جانب دولة الفرنجة وسيطرتها على الاماكن المقدسة دون البيزنطيين وجانب العباسيين ازاء الامويين في الاندلس .

(١) لعبت السفارات الدبلوماسية دورا كبيرا في جمع الشمل وخاصة في رص الصفوف امام هجمات الصليبيين . ومن هذه السفارات السفارة التي بعث بها الناصر صلاح الدين مبعوثا الى اخيه منك اليمن ، وكذلك السفارة التي بعثت الى يعقوب بن يوسف ملك تونس تأمينا للتعاون والمساعدة المتبادلة في المهام المختلفة . انظر في هذا الصدد صبح الاعشى للقلقشندي ، ج ٧ ، ص ٣٤١ .

(٢) أوصل الامبراطور شارلمان سفارة الى الخليفة هرون الرشيد سنة (٧٩٧ م) ورد عليه هارون الرشيد بسفارة مماثلة عام (٨٠١) ثم عاد شارلمان فارسل سفارة ثانية عام ٨٠٢م وقابله هارون الرشيد ايضا بسفارة اسلامية ثانية عام (٨٠٧م) . وقد كانت السفارة الاولى وما قابله هارون الرشيد ايضا بسفارة اسلامية ثانية ، اما الثانية فكانت لغرض عقد تحالف يؤمن مصلحة الطرفين ضد مناوئتهما دولة بيزنطية ودولة الامويين في الاندلس .

لقد برهنت الدبلوماسية في ان تلعب دورا كبيرا حتى اواخر ايام الدولة العباسية . ومما يلاحظ ايضا وبجانب ما تقدم ان الدبلوماسية في العصر العباسي كانت قد خضعت لطابع منظم لا يختلف كثيرا عما اصبح سائدا في العصر الحديث .

النظام الدبلوماسي العربي الاسلامي :

ومما تقدم نفهم ان الدبلوماسية العربية الاسلامية بعد ان مرت بفترة من النمو والتطور اصبح لها نظام تهتدى به في اقامة العلاقات مع الغير . وهذه ناحية مهمة لا يمكن اغفالها . والذي يقرأ تاريخ هذه العلاقات بامعان يجد ان الاجتهاد والممارسة الطويلة قد خلقت نظاما مقديما في اصول الدبلوماسية وقواعدها . من ذلك ، الاصول في اختيار السفراء ، والاصول في ارسال البعثات الدبلوماسية ، والاصول في التشريعات والاستقبالات ، والاصول في الامان واحصانات الاعفاء للدبلوماسيين من الرسوم والكمارك . ولا يبالغ المرء اذا قال ان الكثير من هذه الاصول قد اقتبست منها اوربا ، ولما نزل هذه من الاصول المتبعة في وقتنا الحاضر .

ففي اختيار السفراء مثلا كان هناك شروط لمن يصلح للسفارة . ومن بين هذه الشروط او الصفات المطلوب توفرها في السفير ما كان يتصل بالثقافة وسعة الاطلاع ورجاحة العقل وحسن التصرف^(١) والفتنة ، ومنها ما كان يتعلق بحسن الهندام والقيافة . فقد كان لا بد للسفير الذي يروم النجاح في عمله كممثل

(١) يذكر لنا ابن الفراء على لسان رسول المعتصم (ابان المثلث امام احد ملوك الروم) قوله : « ان للخلفاء خدما يتصرفون في انحاء الخدم لكل طائفة مذهب يجتنبون ويحتملون عليه ، ولا يكلفون سواه ، ولا يراد منهم غيره . فمنهم من يعد للفتوح فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش ، ومنهم من يعد للقضاء فهو يلبس المبردات والدينيات . ومنهم مثلي من يصلح ان توفده الخلفاء للملوك ويتحمل رسائلهم الى مثلك من اهل الجلالة والقدر والسناء والذكر . فلولا ثقتهم بي ، وعلمهم بمناصحتي وصدقي فيما اورد واؤدي ، صادرا وواردا ، لما زاؤني اهلا للتوجه فيما توجهت فيه اليك ، وقليل لمثلي هذا الرزق مع هذا التحمل ، ومع هذا المحل من الخلافة وهي من الجلالة على ما هي ، انظر ابن الفراء ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٣٢-٣٣ .

لبلاده ان يكون عالما بتراته وشريعته عارفا بتاريخ بلاده وفلسفة امته • وكان يفضل في السفير ان يكون ممن يتوفر فيه « تمام القد وقبابة الجسم ، حتى لا يكون قميئا ولا ضئيلا ••• » (١) ، « يملأ العيون المتشوقة اليه فلا تقحمه ، ويشرف على تلك الخلق المتصدية له فلا تستصغره (٢) » • ومن هنا نفهم ان مقياس اختيار السفراء كان يقوم على اهليتهم وكفايتهم لتولي المهام الدبلوماسية • ومن هنا نفهم ايضا انه لم يكن هناك فرق أو تمييز في الاختيار بسبب الاعتقاد أو الدين • وبهذه الصورة شغل منصب السفارة شخصيات لامعة من موظفيها ومفكرها وادبائها وعقلائها ممن اشتهروا بسعة الاطلاع والمركز الاجتماعي المرموق •

ومما يجدر ذكره ايضا ان البعثات الدبلوماسية العربية الاسلامية كان يتحدد عددها تبعا لاهميتها ومنزلة رئيسها (٣) • وكان استقبال الممثل الدبلوماسي وحاشيته يخضع لاعراف وقواعد تليق بمكانة دولته • ومن ذلك مثلا ارسال وفد استقبال الى الحدود لاصطحاب السفير ومرافقته الى العاصمة • ثم يعقب ذلك ايواء السفير وحاشيته في قصر للاستراحة لفترة معينة ايضا ، وقبل ان يحظى بمقابلة الخليفة • اما سفراء الدولة العربية الاسلامية فكانوا يزودون عادة بخطابات اعتماد ينشئها موظفون متخصصون في ديوان خاص كان يطلق عليه ديوان الرسائل • اما الخطابات فكانت تخضع لاصول ايضا • من ذلك مثلا ابتداء الرسالة بتقليد « من ••• والى ••• » مع ذكر الالقاب • اما الخطابات المتبادلة بين رؤساء المسلمين فكانت تتوجها « بسم الله الرحمن الرحيم » ويعقب ذلك عادة عبارة « اما بعد ••• »

(١) انظر ابن الفراء ص ٢٠ •

(٢) من اقوال الخليفة عمر بن الخطاب ، اقتبست من قبل ابن الفراء ،

المصدر السابق ، ص ٢٠ •

(٣) نذكر على سبيل المثال ان بعثة (سفارة) قتيبة بن مسلم الى بلاط

امبراطور الصين سنة ٩٦ هـ كانت قد بلغت (١٣) شخصا • وان عدد اعضاء

السفارة قد ارتفع فيما بعد حتى زاد في العهد العباسي على ال (١٥٠) عضوا •

انظر في هذا الصدد ابن الجوزي ، المنتظم ، الجزء (٨) ، ص (٦٤) •

وتختتم الرسالة عادة بعبارة للشكر والتناء اللائق بالمقام • ومن الطريف ان
المنحاطبات الدبلوماسية كانت تكتب على ورق من نوع معين وبجبر خاص •

وما يجب ان لا يخفى ، بجانب كل ما تقدم ان اوراق الاعتماد كانت
تقدم في حفل للاستقبال ، ويقراً السفير اعتماده من قبل الخليفة ، والمهمة التي
أرسل من أجلها والرغبة في التعاون أمام رئيس الدولة المرسل اليها باللغة العربية ،
ويعمل المترجمون على ترجمتها الى لغة البلد المرسل اليه^(١) • ثم يعقب ذلك
الرد على خطاب الاعتماد • وبانتهاء حفل الاستقبال يأتي دور المفاوضات التي
كان يعقبها عادة عقد الاتفاقات والمعاهدات •

وتحتل مسألة حرمة السفراء وحصاناتهم مكانة عالية عند ضيافتهم للديار
العربية الاسلامية • من ذلك مثلا التأكيد على سلامة السفير وأمنه وحرية
وامواله • فيذكر لنا ابو يوسف في كتابه « الخراج » ان السفراء حفاظا على
مقامهم وامنهم ، كانوا يصدقون فيما يصرحون ، فهو يقول « ان الولاة اذا ما
لقوا رسولا يسألونه عن اسمه ، فان قال انا رسول الملك بعثني الى ملك العرب ،
وهذا كتاب معي ، وما معي من الدواب والمتاع والريق وهدية له ، فانه يصدق
ولا سبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والمال »^(٢) • ومن
يطلع على كتب سير الخلفاء والولاة يجد كيف ان منح الحصانة الدبلوماسية
للسفراء بسبب طبيعة اعمالهم واداء واجباتهم على الوجه المطوب كانت قد اقرت
من قبل الجميع • فيؤكد لنا الشيباني في كتابه « السير الكبير » ان السفير لا
يمكن ان يعمل من دون احترام وضمن وحصانة له • وذلك لان عمله لا يمكن
له ان يقوم به من دون مثل هذه الحصانة^(٣) • فهو يقول ويشاركة في ذلك

(١) يذكر البعض من الكتاب العرب والمسلمين من امثال القلقشندي في
كتابه « صبح الاعشى » ان السفراء كانوا يحملون احيانا ترجمة لاوراق الاعتماد
بلغة البلد المستقبل •

(٢) انظر كتاب « الخراج » لابي يوسف ، ص ١٨٨-١٨٩ •

(٣) انظر الامام محمد بن الحسن الشيباني في كتابه « شرح السرخي على
السير الكبير جزء (٤) ص ص ٦٦-٦٧ ، وكذلك ابو يوسف في كتابه
« الخراج » مصلد سبق ذكره ، ص ٢٢٣ •

جمهور آخر من الفقهاء المسلمين بان الحصانة لا تنتهك حتى ولو ارتكب السفير جريمة . . . (١) .

وإذا كانت الحرمة الشخصية والاعفاء في القضاء الجنائي قد أقرتا من قبل الدولة العربية الإسلامية فإنها كذلك اعفت الدبلوماسيين من الرسوم الكمركية . والواقع ان الحرية المعطاة الى الدبلوماسيين في ادخال وأخراج الأمتعة من دون رسم كانت واسعة بحيث شجعت البعض من سفراء الدول الأجنبية ، كـبـيـزـنـطـة مثلا ، ممارسة التجارة (٢) . ويذكر لنا بعض الثقات ان السفراء كان يسمح لهم باخراج كل ما يشاؤون ما عدا ما يتعارض مع أمن الدولة كأخراج الأسلحة مثلا .

آثار الدبلوماسية العربية الإسلامية :

ذكرنا فيما تقدم أسس وتطور ونظم الدبلوماسية العربية الإسلامية . والسؤال الذي يمكن ان يثار هنا هو ما هي آثار الدبلوماسية العربية الإسلامية ؟ واي جواب على مثل هذا السؤال يجب أن لا يغفل عن ذكر ما عرفه ومارسه العرب والمسلمون من أصول ونظم وقواعد والتي يتفق أغلبها مع ما هو معمول به من قبل أغلب دول العالم اليوم وخاصة الدول الغربية (٣) .

ويأتي في مقدمة الاصول التي اتبعها العرب والمسلمون صفة التمثيل التي كانت تمنح الى الرسل والسفراء . والواقع أن السفراء خاصة كانوا يمثلون رئيس الدولة في الاحتفالات والتعازي وكانوا ينطقون ويفاوضون عنه ويرمون العقود والاتفاقيات والمعاهدات . ومن هنا نجد ان صفة التمثيل كان قد ادركها ومارسها العرب في العصور المتوسطة من قبل ان تمارسها الدول في العصور الحديثة . الا ان الفارق بينهم وبين ما هو مطبق اليوم ، ان

(١) انظر ابو يوسف ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤-٢٢٥ : حيث يحدد لنا نوع الجريمة كجريمة الزنا والسرقة وما يشبهها .

(٢) كانت بيزنطة تسمح لسفرائها بالقيام بالتجارة .

(٣) انظر صلاح الدين المنجد ، فصول في الدبلوماسية ، ص ١١٠ .

التمثيل ظل عندهم تمثيلا موقتا • ومن هذا النوع من التمثيل ظهر في العصور الحديثة التمثيل الدائم الذي فرضته الحاجة الراجعة من تطور ظروف واحوال الدول •

ان سفراء الدولة العربية الاسلامية يشبهون اليوم السفراء فوق العادة الذين يوفدون بمهمة رسمية ينتهي عملهم التمثيلي بانتهائها (١) •

وليس ما تقدم فحسب ، فان الدبلوماسية العربية الاسلامية لم تقتصر آثارها على نشر فكرة التمثيل وتطبيقها وانما تعدتها الى ممارسات اخرى ومن بينها تأليف جهاز دبلوماسي يرتبط في مخابراته واتصاله بديوان الرسائل الذي كان يصدر عنه التوجيهات والكتب الى الدول الاجنبية وكان يدير شؤونه اشخاص عرفوا بكفائتهم وقوة اسلوبهم وسحر بيانهم • وهذا بلذات ما يدعوننا الى ان نعلم ان اللغة الدبلوماسية الخاصة كان يؤكد عليها في التعامل مع الدول • اصف الى ذلك ان هذا ان الجهاز الدبلوماسي كان يتكون من السفراء الذين يمتازون بعلمهم وفضلهم ومكانتهم المرموقة في المجتمع •

اما الموظفون الدبلوماسيون المرافقون في السفارات فكانوا هم الاخرون يختارون من أبرز موظفي الدولة وكانت تدفع لهم الرواتب والنفقات وكان يرتدون الملابس الخاصة التي تليق بالظهور امام رؤساء الدول وكبار المسؤولين (٢) •

ونمة ناحية مهمة اخرى تستحق الاشارة هنا وهي الاصول الخاصة بالبروتوكولات وصيغ المهادت والاتفاقات والتي تركت اساليبها ومضامينها قواعد لا يزال يطبق اغلبها في يومنا الحاضر • ويأتي في مقدمة هذه الآثار بما له علاقة في هذا الصدد ، وثائق الاعتماد التي كن يزود بها رئيس البعثة التي كانت تحرر باسم رئيس الدولة • والجدير بالذكر ان الدولة العربية الاسلامية قد

(١) المصدر السابق ، ص ١١٠ •

(٢) انظر ابن الفراء : رسل الملوك - الباب الثامن عشر •

عملت على اعطاء الدبلوماسيين مكانة عالية وكانوا يستقبلون وفق احتفال رسمي مهيب . كذلك فان ما يستحق الاشارة ما كان يمنح للدبلوماسيين من جوائز (اوراق الطريق)^(١) معينة يذكر فيها اسم الدبلوماسي ولقبه ومهمته ويرجى فيها تسهيل مهمته وانتقاله واستقباله .

أما بشأن المعاهدات فقد جرت العادة ان يخول المبعوث التوقيع على الاتفاقية او المعاهدة بالاحرف الاولى ، ريثما تحصل المذاكرة والمصادقة النهائية عليها من قبل الحكومة ورئيس الدولة . ولا يخفى ان مثل هذه الطريقة لا تزال متبعة في وقتنا الحاضر .

وما يجب ان يذكر عن آثار الدبلوماسية العربية الاسلامية ايضا دورها في تثبيت قواعد الحصانات الدبلوماسية . والواقع ان ما يسمى حديثا بالحصانة كان يطلق عليه العرب « بالامان » . والمقصود بذلك ان الدولة تعمل كل ما بوسعها للمحافظة على شخص السفير وزوجه واولاده ، واعوانه واتباعه^(٢) . والمهم ان نعلم ان الاهتمام بالامان يعود تأريخه الى عهد مؤسس الدولة العربية الاسلامية محمد (ص) وانه بعد الممارسة الطويلة اصبح عرفا وقاعدة يجب الاخذ بها من قبل المسؤولين في الدولة^(٣) .

والاهم من كل ما تقدم احترام الدولة العربية الاسلامية لحرية عبادة الرسل والسفراء الاجانب . وهذه ميزة عالية من ميزات الدبلوماسية العربية

(١) طبق أمر منح الجوائز الدبلوماسية الخاصة منذ القرن السادس

الهجري .

(٢) بالرغم من اخذ العرب بهذا المبدأ واضطرار دول الفرنجة بالاخذ بمبدأ المثل ، الا انه مع هذا فان رسل العرب وسفرائهم كانوا يتعرضون للاذى من حين

لاخر ، انظر في هذا الصدد « شذرات الذهب » ص ٣-١٣ .

(٣) انظر كتاب الخراج ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٣ .

الاسلامية التي يحق لها للعرب والمسلمين ان يفخروا بمبادئهم التي تقوم على التسامح واحترام الاديان^(١) .

تلك هي مآثر الحضارة العربية الاسلامية في الدبلوماسية . ومنها نفهم كيف أن لهذه الحضارة دور كبير في تثبيت قواعد واصول الدبلوماسية العروفة لدينا اليوم .

(١) انظر المنجد ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

الفصل السابع

« الاتجاهات الفكرية »

توطئة :

هناك في دراسة حضارات الامم المختلفة سمات تميز بعضها عن البعض الاخر ، وهذه السمات تشكل الخطوط العريضة والمقومات الاساسية لكل حضارة معينة . والذي يتبين من هذا ان الحضارات التي تشيدها الامم في التأريخ الانساني ذات صلة بظروف وواقع تلك الامم ، وان هذا الواقع هو الذي يعطيها من حيث الاساس سماتها ومقوماتها الرئيسية . ذلك ان السمات التي نحن بصدد الحديث عنها ، حينما نقابلها مع الواقع ، نجد ان الواقع الذي نشأت فيه قد أوحى اليها بصورة من الصور بحيث جعلها تسلك او تسير وفق الاتجاهات التي سارت عليها . ومع اننا لا يهمننا الان نوع ودرجة هذا الايحاء ، الذي يكون سلبيا تارة وايجابيا تارة اخرى ، وذلك بحسب فساد وصلاح ذلك الواقع ، الا ان ما يهمننا هو ان الواقع يوحي بحياة معينة ، يتكون من خلالها الفكر والفلسفة التي تقوم عليها الحضارة المعينة .

وعلى ضوء ما تقدم ، فان الفكر العربي الاسلامي هو رائد الحضارة العربية الاسلامية . وكان له سمات وملحات خاصة به ، صنعها واقعه ونظام بيئته التي نشأ فيها ، بما في ذلك نظامه الاجتماعي ونظامه الروحي ونظامه الطبيعي .

والشيء الجدير بالذكر هو أن طراز البيئة العربية الاسلامية الخاص قد انعكس على الفن والتاريخ والعلم والدين والمأثورات والاساطير . وان هذا الانعكاس قد طبع بمجموعة طابع الثقافة العربية وطابع قيمها بالذات . ومما هو جدير بالذكر ايضا ان المقومات الروحية والتي تمثلت بالرسالة الاسلامية ، كان

لها دورا خاصا في بناء حياة وفكر وحضارة العرب • ويمثل هذا الدور الخاص في بناء الحضارة العربية بناء قويا حولها من حضارة محلية الى حضارة عالمية • ذلك أن الرسالة الاسلامية عملت على توسيع أفق العرب وعلى رفع مستوى دولتهم ، كما عملت على اختلاطهم باقوام اخرى • وكان من نتائج ذلك توسع دولة العرب وتعرفهم على افكار الاقوام التي فتحوها بلادهم ، وقد عمل كل هذا على التفاعل الفكري بين ثقافة العرب وثقافة تلك الاقوام : ذلك التفاعل الذي كانت حصيلته الاخذ والعطاء بين الثقافات المختلفة • ولقد كان للمبادئ العربية الاسلامية التي حملها معهم العرب من المرونة ما ساعدتهم على التفتح على كل ما يتلائم وينسجم مع تلك المبادئ ، من جهة ، وعلى تحديد موقفهم من القيم والافكار التي تتعارض معها من جهة اخرى •

التبلور الفكري :

وازاء هذه الاحداث والتفاعلات التي مر بها الواقع العربي ، فقد سار هذا الفكر في اتجاهات تأثرت بصورة او اخرى بالفترات والعهود المختلفة التي مر بها • على انه في كل اتجاهاته تلك ، لم يفقد الصلة ببيئته وبالسمات والمقومات الاساسية التي تميز بها •

وقد كان للفكر العربي الاسلامي من قبل ان يتجه هذا الاتجاه او ذاك ، ان يمر بفترة تبلور فكري مبدئي كانت بمثابة العمود الفقري والنواة لكيان الفكر العربي الاسلامي • ففي ظل الفترة التي سبقت الرسالة الاسلامية ، تكون لدى العرب في ظل نظامهم الاجتماعي والسياسي القبلي والاقليمي ، قيمهم الاجتماعية والسياسية • وفي ظل العقلية القبلية ، نشأت النظرية القبلية ونشأت معها المجالس القبلية والقيادة القبلية ، وما صاحبها من نظرة سياسية تميزت سلطتها بالاستناد على الاستشارة والاتفاق على من يتحلى بأفضل السجاياء والاخلاص والتفاني من اجل الجماعة • واذن فان الخط الفكري ، والخط الفكري السياسي بالذات ، في فترة التبلور الفكري المبدئي قبل الاسلام كانت نواة البناء فيه تقوم على القاعدة

النبي تقول ان رأي الجماعة خير من رأي الفرد ، وان السلطة تنبثق من تبادل الرأي بين الجماعة ، وان مقاييس التفضيل تقوم على رجاحة العقل ، والشجاعة ، والتروي والحلم والتفاني في خدمة الجماعة كما لاحظنا .

واذن فان الفكر العربي في فترة بلورته الاولى كان يمثل القاعدة الاولى أو الاساس الذي بنى عليه البناء الفكري العربي الاسلامي . واذا كان لابد من وصف خصائص الفكر العربي في فترة تبلوره الاولى ، اى الفترة التي سبقت الرسالة الاسلامية ، فبالامكان القول انه فكر عملت عليه البيئة العربية من بشرية وطبيعية . وقد كان لتفاعل جانبي البيئة الطبيعي والانسانى ان ادى الى حصول التبلور في جملة تقاليد اجتماعية وسياسية . وهذه التقاليد هي التي كونت النظام الاجتماعى والسياسى العربى قبل الاسلام . وبكلمة اخيرة ، فان الفكر العربى عامة والفكر السياسى خاصة هو فكر سياسى تقليدى : اى انه ابن تقاليد بيئته السياسية العربية ومدرسته هي مدرسة التقاليد السياسية العربية .

الاتجاه السياسى الدينى

ولكن الفكر السياسى العربى^(١) الذى اخذ شكلا تقليديا فى عهد بلورته الاولى لم يظل كذلك ، وانما مر بتحولات واخذ اتجاهات جديدة كان مبعثها تطور ظروف العرب التى عملت عليها اسباب كثيرة ، كان اولها واهمها الرسالة الاسلامية . ويمكن القول منذ البداية ، وقبل البحث فى الاتجاهات المختلفة التى مر بها الفكر السياسى العربى الاسلامى فى مراحلها المختلفة ، بأن الرسالة الاسلامية ، وهى الرسالة التى جاءت اول ما جاءت بعقيدة روحية دينية جديدة ، قد شقت اول طريق واول اتجاه للتفكير السياسى العربى ، وذلك هو الاتجاه السياسى الدينى الذى ارتكز بصورة واضحة وتبلور فى القرآن والحديث . ولعل من اهم الاسباب الى عملت على رسم هذا الاتجاه ، الذى سارت فيه السياسة

(١) يمكن التعرف على نمط التفكير السياسى للعرب من مصطلحاتهم واشعارهم وحكمهم وامثالهم واعمالهم خاصة ، ونظامهم الاجتماعى والسياسى عامة .

جنباً الى جانب مع الدين ، هو ان الرسالة الاسلامية لم تكن رسالة دينية روحية وحسب ، وانما هي رسالة اجتماعية سياسية واقتصادية متكاملة . انها بكلمة واحدة رسالة حياة جديدة وبعث جديد بالنسبة للعرب . ومن اولى تأثيرات الرسالة الاسلامية على العرب انها هزتهم روحياً فانجذبوا لها ايما انجذاب . ومن ناحية ثانية فان الرسالة الاسلامية قد وحدت العرب في أمة واحدة ودولة واحدة . وكان لهذه الدولة دستور تمثل في القرآن الكريم . الا ان من ميزات هذا الدستور الجديد ، هو انه وكما ذكرنا فيما تقدم ، دستور سياسي - ديني في وقت واحد . ومن ناحية ثالثة فان مؤسس الدولة العربية الموحدة الجديدة ، كان يتمتع بقيادة سياسية وقيادة دينية روحية في نفس الوقت .

ومن هنا التحمت السياسة بالدين التحاماً وثيقاً . ومن هنا دخلت السياسة ، بعبارة اوضح ، ضمن علم الكلام . فالتكلمون هم الذين حملوا لواء الدفاع عن العقيدة الاسلامية تجاه الاديان الاخرى (١) .

وكان من الطبيعي بالنسبة للمتكلمين ان يقفوا على الدستور الاسلامي وعلى الحجج التي اتى بها ليفندوا آراء المهاجمين للعقيدة الاسلامية . وكان من الطبيعي ايضاً ، ان المتكلمين الذين وقفوا على الرسالة ككل ، ان يقفوا على الجزء ايضاً ، والذي تمثل بالفكرة والعقيدة السياسية التي جاءت بها الرسالة .

ان ما يجب الانتباه اليه هنا ، هو ان المتكلمين ، بشعور منهم وبعدم شعور ، كانوا يدافعون عن افكارهم السياسية الجديدة التي كانت تنطلق من فكرة الايمان بالرسالة السماوية ومن فكرة الدفاع عن هذه الرسالة بكل ما احتوته من قيم روحية وسياسية واجتماعية . ثم ان دفاعهم هذا ، كان بمثابة الامتثال لاوامرها الالهية . ومن هنا جاءت الدعوة الى لم شعث العرب جميعاً في أمة واحدة ودولة واحدة وعقيدة واحدة ممتزجة مع بعضها كل الامتزاج . ومما يؤكد ذلك ما

(١) انظر د . حسن صعب : المفهوم العربي لعلم السياسة : في مجلة «العلوم» . كانون الثاني ١٩٥٨ ، ص ١٨ .

ورد في الدستور المتمثل بالقرآن الكريم من آيات من مثل الآية الكريمة التي تقول « ان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » و « كتاب فصلت آياته لقوم يعلمون » واندى يبرز في الآية الاولى هو الارتباط بين وحدة الامة سياسيا واجتماعيا ومصيريا وبين وحدة عقيدة هذه الامة . ثم ما جاء في الآية الكريمة الثانية التي توضح ان هذه التعاليم القرآنية المفصلة انما جاءت لقوم يدركون اهميتها ، وانها جاءت اليهم جميعا . اذ ان المراد بالقوم هنا العرب ، الذين يدركون أهمية جمع كلمتهم لان في جمع الكلمة قوة لترسيخ ونشر العقيدة . والشئ المهم ، هو ان الذى يسبر غور الآيات القرآنية المجيدة يجد الشواهد الكثيرة على التحام جوانب الرسالة المختلفة ، وفي مقدمتها الجانب الروحي بالجانب السياسى . والذى يمكن قوله بعد ما تقدم ، هو ان التفكير السياسى العربى الاسلامى ، في اتجاهه الاول ، كان يتميز بأنه تفكير سياسى متلاحم تلاحما قويا مع التفكير الروحي . انه اتجه سياسى - دينى ، بالنظر لما للدين وللعقيدة الدينية الروحية من شمول وتأثير .

ومع ان الاتجاه السياسى - الدينى كان يستوحى قوته من الدين ، في حياة الرسول ، وانه قد بدأ ببدء الدعوة الاسلامية والدفاع عن العقيدة الاسلامية ، الا انه بعد وفاة الرسول ، اخذ يعبر عن الآراء السياسية الدينية التي تحملها الفرق والتي كان اغلبها ذا منشأ دينى . ولعل منشأ كل ذلك هو النزاع من اجل الرئاسة بعد وفاة الرسول ، الذى بدأ على شكل نزاع محدود وعلى مستوى شخصى ، ولكنه تبلور في الاخير على مستوى الجماعات والتي اخذت تمثل كل منها فرقة دينية وسياسية في عين الوقت . ذلك ان كل جماعة او بالاحرى كل فرقة اخذت اقتناعا منها فى احقيتها بالقبض على زمام السلطة ، نقول ، اخذت تقيم نفسها الحجة والبرهان على احقيتها بهذه السلطة . وهذا البذل العقلى القائم على الحجج هو منشأ الدراسات السياسية ومنشأ المدارس الفكرية والمذاهب السياسية فى تاريخ الفكر الاسلامى . فلقد ظهرت نظريات فى الرياسة تعكس وجهات نظر مختلفة وتمثل بصورة او اخرى الفرق التي وان كانت تسمى نفسها بالدينية

الا انها من ناحية سياسية ، احزاب سياسية تحمل كل منها وجهة نظرها الخاصة بها ، من امثال الانتصار والخوارج والشيعة والمرجئة •

١ - وفي الحقيقة فان فرقة الشيعة التي غلبت على امرها في الصراع الدستوري ، كانت سباقة الى اخذ الصراع جديا الى الميدان العقلي ، والى تكوين نظرية كاملة عن الامامة • وكانت اول محاولة لها قد ظهرت في كتاب علي بن اسماعيل بن هيثم التمار المعروف باسم كتاب الامامة (١) •

وقد قامت نظريات فرقة الشيعة ومذهبها السياسي بوجه عام ، على اساس انها رأت ان الامامة يجب ان يراعى فيها درجة القرابة من اسرة النبي (٢) • وبسبب هذا الاعتبار فانها رأت ان « يختار للخلافة علي بن ابي طالب ابن عم النبي وادنى قريب له ، والذي كان فضلا عن ذلك زوجا لابنته فاطمة » (٣) •

ولقد بدأ هذا الاتجاه السياسي - الديني بصورة واضحة بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، الذي رأت الشيعة في خلافته مجالا نال فيه الامويون اقرباؤه امتيازات ونفوذ في الحكومة الاسلامية ، مما سبب ان يقوم بعض الساخطين بالفتنة ، التي ادت بالنتيجة الى مقتله • ومنذ ذلك التاريخ بدأ النزاع بين اتباع علي « واتباع الخليفة المقتول الذين هبوا منذ ذلك الوقت للمطالبة بدمه ، ثم اقرؤا بحق معاوية الاموي حاكم الشام في مطالبته بالخلافة » (٤) •

ومع ان النزاع في احقية الخلافة قد ادى الى قيام معركة صفين ، والى قيام التحكيم الذي قصد به انه يكون حيلة حرية بارعة ، فانه قد ادى بالنتيجة الى رجحان كفة خصوم علي •

والمهم بالنسبة لدارس الاتجاه الشيعي السياسي - الديني في الامامة ، ان يقف على الرأي الذي يؤكد على درجة القرابة من الرسول في ولاية الحكم •

(١) انظر : الرئيس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٨ •

(٢) العقيدة والشريعة في الاسلام ، كولد تسهير ، ص ١٨٩ •

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٩ •

(٤) المصدر السابق نفسه •

فلقد قال الشيعة « ان الرئيس الشرعي الاوحد للاسلام من الوجهة الدينية والدينية هو الامام الذي خوله الله الامامة وخصه بها ، وليس ذلك الذي يتبوأ الخلافة ويقلد السلطة عن طريق اختيار المسلمين له . . . » (١) ورأوا ان افضل تسمية لتقلد السلطة هي تسميته بالامام . « لان هذا اللقب يدل في معناه على مقام ديني ومكانة دينية ملحوظة لا توجد في غيره من الالقاب » (٢) . وهذا المقام الديني ، كما يراه المذهب الشيعي ، يستمدد الامام من صلته القريبة بالرسول ، باعتباره السليل المباشر له . ومن هنا كانت طاعة الامام المتمتع بمركز ديني عال ، بجانب مركزه الديني السياسي ، تقول كانت طاعة الامام واجبة في نظر الشيعة . وأول الخلفاء ، بناء على ما تقدم ، هو علي (رض) ، وقد خصه المذهب الشيعي بفضائل ومعارف متميزة ، بجانب درجة قرابته المباشرة بالرسول . وهذه الفضائل والمعارف ، في الواقع لم ينكرها علي (رض) احد من الفرق الاخرى ، الا « ان الشيعة رفعوه الى مرتبة أعلى من هذه فقالوا بان النبي بثه علوما كان يخفيها عن جمهور صحابته لانهم لم يكونوا اهلا لها ، وقد توارث العلويون هذه العلوم » (٣) . اما الخلفاء من بعده فهم السلالة المباشرة لعلي من زوجته فاطمة ، « أي نسل حفيد النبي : الحسن اولاً ثم الحسين وتبعهما سائر الائمة العلويين ، وكل امام منهم وصى لسلفه الذي عينه باقراره الصريح موافقا للترتيب الالهي ، وجاعلا اياه المرشح الشرعي للوظيفة الربانية » (٤) . والاشارة الى الوظيفة الربانية، تعني « ان الامامة منصب الهي كالنبوة . فكما ان الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة . . . فكذلك يختار للامامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه وان ينصبه اماما للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان على النبي ، ان يقوم بها » (٥) . . . ومن هنا كان الامام معصوما ، كالنبي ، عن الخطأ والخطيئة .

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٥) حنا الفاخوري ، تاريخ الفلسفة العربية ، ص ١٣٨ .

وبهذه المعاني تصبح الامامة ركن الدين وقاعدة الاسلام^(١) . ويصبح الامام في مفهوم المذهب الشيعي ضرورة لكل عصر . وبكلمات اوضح وبمقدار ما له صلة باركان الدين ، فان المذهب الشيعي يضيف ركنا سادسا الى اركان الاسلام يتمثل بالائمة ، وهو الولاية ، اى الانضواء الذى يعد من الفرائض الدينية الاساسية .

ويحتل الرأي الذى يقدمه الائمة مركزا خاصا بالنسبة للمسائل الدينية والسياسية عند المذهب الشيعي . وفي المسائل السياسية فان اتفاق الائمة يعتبر عنصرا جوهريا . وبالنسبة للمسائل السياسية الهامة ، كالخلافة مثلا ، فان الشيعة يرون ان الاتفاق يجب ان يتم بين الائمة ، وانه يجب ان يكون بالاجماع . ذلك انهم يرون « ان محض الاجماع وحده لا يتفق دائما مع ناموس الحقيقة والعدل ، . . . ولذلك غضوا من شأن هذه السلطة الاجماعية وارجعوها الى موافقة الائمة^(٢) » . ويدخل ضمن مفاهيم المذهب الشيعي السياسى - الدينى ايضا اختفاء الامام وظهوره من بعد ذلك . وفكرة الامام الخفي ، تعود الى ان الامام يخفي في مكان لا يراه الناس ، كما حدث للامام الحادى عشر بعد الامام علي ، ثم يظهر ثانية ليظهر العالم من الشرور والمفاسد وليقيم العدل . وفكرة الظهور ثانية أو الرجعة ثانية تعتبر من صلب مفاهيم المذهب الشيعي^(٣) .

وصفة القول ، ان المذهب الشيعي السياسى - الدينى وحركة التشيع التى نادى بها اصحاب هذا المذهب تمثل احتجاجا واستنكارا لمن اغتصب الخلافة من الاسرة العلوية . وقد تمثل هذا الاحتجاج فى استبطان الاحكام الشرعية التى تبنت هذه الاحقية . الا ان الغلاة من اصحاب هذا المذهب قد ذهبوا فى هذه الاحقية الى ابعد مدى بحيث وضعوا الامام بمصاف الالهة . ومن هؤلاء الروافض

(١) ابو زيد شلبى ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى ، ص ٣٢٣ .

(٢) كولد تسهير ، ص ٢١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

والسبائية • وبينما تعتبر الامامية ، ان الامامة ركن من اركان الاسلام ، فان الزيدية نرفض بوجود النور الالهي في الامام^(١) •

٢ - ويمثل الخوارج مذهبا ثانيا في الاتجاه السياسي - الديني • ويرجع تاريخ هذا المذهب السياسي - الديني في اعتراض جماعة من المسلمين على علي (رض) بموافقه ايقاف القتال في معركة صفين • وكان الرأي الذي وقفوا عليه ، وادى الى انشقاقهم وخروجهم على علي ، والذين بخروجهم سمووا بالخوارج^(٢) ، هو ان الفصل في موضوع الخلافة لا يصح ان يوكل الى البشر ، بل ينبغي الاحتكام فيه الى الحرب والكفاح وسفك الدماء^(٣) • وقد تبلور رأيهم في ان السلطة التي تصدر عن الله ، لا يجوز اخضاعها الى الاعتبارات البشرية^(٤) • ومن هنا تكون لديهم المبدأ « لا حكم الا الله » • وبموجب هذا المبدأ فسروا الحرب بين معاوية وبين علي من انها لم تكن في سبيل اعلاء كلمة الله ، وانما في سبيل مصالح دنيوية الغرض منها تحقيق النفوذ والسلطان والمصالح الشخصية • وتبعا لكل هذا فانهم « انكروا حق كل من علي ومعاوية في الخلافة لانهما اخلا باحكامه »^(٥) •

ومما تقدم من مقدمات واوليات ، بنى الخوارج الاسس التي يقوم عليها مذهبهم السياسي - الديني ، وتوصلوا الى ما سموه بالتأنيث المنطقي المترتبة على اوليات آرائهم •

-
- (١) حنا الفاخوري : تاريخ الفلسفة العربية ، ص ١٣٩ •
(٢) وقد سموا ايضا بالحرورية نسبة الى القرية القريبة من الكوفة التي رحل الخوارج اليها • وسموا كذلك بالمحكمة : أي الذين يقولون لا حكم الا الله •
(٣) كولد تسهير ، ص ١٩٠ •
(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٠ •
(٥) المصدر السابق ، ص ١٩١ • الواقع ان الامام علي (رض) حين وافق على رأى اغلبية المسلمين في ايقاف القتال لم يكن في هذا الموقف قد خرج على الدين واخل باحكامه سيما وان احكام الشرع تؤكد على التشاور • وقد فعل هذا على الرغم من ان رأيه الشخصي كان يقوم على الاستمرار في القتال الى النهاية •

ومن اولى هذه الاسس التي بنوا عليها مذهبهم ، هو ان الخلافة لا يجوز ان تقتصر على يوم دون قوم . وينظرهم ان اقتصار الخلافة على قبيلة قريش التي ينسب اليها الرسول هو مخالفة لاحكام الشرع . ذلك ان مسألة الخلافة يجب ان تكون مفتوحة لكل المسلمين^(١) ، وان الاختيار يجب ان يقوم على الاهلية حتى وان توفر ذلك في عهد حبشي مسلم . وقد عمد مذهب الخوارج السياسي - الديني الى التوفيق بين الاحكام الشرعية والمثل الخلقية . فقالوا ان الاعمال التي تصدر عن الناس رؤساء ومرؤسين ، او الخليفة ، يجب ان تتم عن المثل الاعلى في الورع وخشية الله . لان الرئيس هو القدوة في المجتمع . فهو قدوة يحتذى بها في حياة الدولة السياسية والاجتماعية من جهة ، وهو قدوة دينية يحتذى بها الناس من ابناء الامة من جهة اخرى . وعلى هذا الاساس فان توفر الجانب الخلقى والديني العالمي في الرئيس يعد من قبل الخوارج من الاركان الرئيسية في الخلافة ، ويتبين مدى هذه الاهمية للدارس لمذهب الخوارج السياسي ، من تأكدهم على ان تقصير القائد^(٢) السياسي في مثل هذا الجانب يعتبر مدعاة لخلعه واستبداله بمن تتوفر فيه هذه الاهلية .

ان ما يجب معرفته بصدد مذهب الخوارج هو انهم ظلوا يدافعون عن مذهبهم بقوة في مناهضة الحكومات القائمة بالسلاح ، حتى اذا ما كفوا عن ذلك ذهبوا الى كتابة العديد من المؤلفات^(٣) ، التي تشرح مذهبهم ليس في جانبه السياسي وحسب وانما في جوانبه الاخرى من خلقية وعقائدية ايضا .

(١) يؤكد الخوارج على ان الخليفة لا يكون الا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين ، لا لفريق منهم . انظر ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ، ج (١) دار الفكر العربي ، ص ٧٥ .

(٢) ان الخروج على السلطان الجائر وخلعه يخالف كل المخالفة للتقية التي هي من اصول الشيعة . انظر ، احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .

(٣) يقول الدكتور الرئيس معتمدا على صاحب الفهرست ، ان من مشاهير الخوارج في الماضي : اليماني بن رباب الذي ألف كتاب اثبات امامة ابي بكر وكان له اخ يدعى علي بن رباب ، وهو من كتاب المناظرين ايضا ، انظر كذلك

٣ - ويمثل الخط الثالث من الاتجاه السياسي - الديني ، في المرجئة • والمرجئة جماعة من المسلمين اتخذت من ارجاء اتخاذ أي حكم على كل المسائل الدينية والسياسية ، والتي هي في الواقع كانت في الفترة التي ظهر فيها مذهب المرجئة ، متشابهة مع بعضها كل التشابك • ومذهب المرجئة يتميز ما بين الايمان وما بين الاعمال • ويرى ان الايمان لا يتغير بالاعمال • كما انه يرى ان العمل قد يبدو خطأ ، إلا ان هذا الخطأ لا يجعل المرء كافرا ، لان مسألة الايمان شيء والعمل شيء آخر (١) •

اما اتجاه المرجئة السياسي فيتلخص في حياديته ازاء الحكم ، بحيث لا يكون مع الدولة أو ضدها (٢) • فلقد فضل اصحاب مذهب المرجئة عدم الخوض في الخلافات السياسية • « وبيان ذلك انهم لما استعرضوا اعمال السياسة على مبادئهم رأوا ان المقاتلين الاولين كالذين ناصرُوا عثمان ، والذين خرجوا عليه ، والذين قاتلوا مع علي ، والذين قاتلوا مع معاوية ، كلهم مصدق بالله ورسله ، وكلهم متناول ، فكلهم مؤمن ، واذا اخطأ بعضهم فعفو الله قد يشملهم ، واذا فهم لا يكفرون احد من هؤلاء المقاتلين ، لا يكفرون عمرو بن العاص ولا معاوية ولا غيرها ، كما يفعل الخوارج وبعض المعتزلة ، ولا يكفرون قتلة عثمان ، ولا

→ مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ، ص ١٢٢ • ويقول الاستاذ كولد تسهير « ان من اوسع الناس خبرة باحوال الخوارج في الحاضر هو مولينسكي ناظر مدرسة قسطنطينية بالجزائر الذي تكلته العلوم الاسلامية بوفاته اخيرا (سنة ١٩٠٧) انظر ص (١٩٣) • ويقول ايضا ، « لا يزال في ايماننا جماعات تدين بالمذهب الخارجي » • ومن بين فرق الخوارج العديدة فرقة الاباضية نسبة لمؤسسها عبدالله بن اباض • ولا يزال الاباضيون يؤلفون جماعات عديدة في افريقيا الشمالية على الاخص ، ص ١٩٤ •

(١) للرجوع الى التفاصيل الأخرى ، انظر محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٤١ ، وما بعدها ؛ كذلك انظر احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ٣٢٣ وما بعدها ؛ وانظر ايضا احمد امين ، فجر الاسلام ، ط ٦ ، ص ٢٧٩ وما بعدها • (٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٤ •

يكفرون طائفة من طوائف المتحاربين ، لان غاية خطئهم ان اخطأوا انهم ارتكبوا كبيرة والكبيرة لا تخرج من الايمان . . . والامر يتعلق بالنيات اكثر مما يتعلق بالاعمال ، والله هو الذي يطلع على نيات الناس وضمائرهم فلنكلك امرهم جميعا الى الله ، ولا نسب احدا ، ولا نقطع بانه سيدخل النار حتما ، (١) .

٤ - اما الخط الرابع فانه يتمثل في خط اهل السنة السياسي - الديني . واهل السنة الذين يمثلون الجبهة الكبيرة من المسلمين ، ينظرون الى الخليفة « انسانا ككل الناس ، ولد كما يولد الناس وتعلم أو جهل كما يتعلم الناس أو كما يجهل الناس ، ليس له من مزية ، الا ان كفايته واخلاقه جعلت الناس يختارونه ، أو انه تلقى الخلافة ممن قبله ، ليس يتلقى وصيا وليس له سلطة روحية ، انما هو منفذ للقانون الاسلامي ، (٢) .

ويتلخص مذهب اهل السنة في انهم اعتبروا الرسالة المنار الذي يهتدى به ، وان الدولة يرونها اداة لتحقيق الرسالة وهذا السبب الذي جعلهم يطعمون الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين . وان الخلاف في الرأي أمر متوقع ، فاذا ما حصل هذا الخلاف فانه يرجع الى القرآن الكريم وسنة الله ورسوله . ثم ان الخلافة يجب ان ينظر اليها كنظام ، ولا يجوز أن تدخل فيها الخلافات السياسية .

الاتجاه السياسي الفقهي

وهو الاتجاه الذي تكون في الفترة التي ابتدأت بوفاة الرسول وما بعدها ، واتي فيها بدأ الفكر السياسي العربي الاسلامي يخضب ويزداد نضوجا . ففي عهد الرسالة الاسلامية كان الفكر السياسي جزءا من علم الكلام . اما بعد وفاة الرسول (ص) ، فقد سببت وفاته خلق ظروف سياسية جديدة ، كان من نتيجتها ان اتجه التفكير السياسي اتجاها جديدا ، وذلك هو الاتجاه السياسي الفقهي .

(١) المصدر السابق ، ص ص ٣٢٤-٣٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

ان من اهم خصائص او بالاحرى سمات هذا الاتجاه ، هو ان علماء الشريعة او الفقهاء ارادوا وضع احكام وقواعد للسلوك السياسى على كلا المستويين الفردي والجمعى .

والمهم ان نعلم ان الفكر من خلال هذا الاتجاه قد سار سيرا جديدا وذلك باستناده الى التاريخ والاجتماع - وان لم يكن هذا بالامر المحسوس - بجانب الدين ، بعد ان كان الدين هو المسيطر على التفكير لوحده .

فلقد نظر اصحاب هذا الاتجاه الفقهي السياسى الى السوابق التاريخية والاجتماعية المتعلقة بالسلطة وبالخلافة بالذات ، واستنبطوا منها قواعد سياسية فقهية ، تكون منها على مر الزمن كتب ومدارس فقهية . وقد اشتهرت اربعة مدارس عامة ، وهي : الحنفية ، والمالكية ، والحنبلية ، والشافعية .

ولقد كان من واجب الفقهاء التوفيق بين الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبين احكام الشريعة . فلقد ابان الفقهاء ان هناك وحدة في الاسلام ، بين السلطة الدينية والدينية . وان السلطة الدينية تستمد قوتها من احكام الشريعة الدينية . ثم ان السلطة الدينية ، التى تنحصر في رئيس اعلى - وهو الخليفة ، يمكن ان يتوب عنه ولاة يمارسون بعض الصلاحيات ، بتخويل منه . وهذا التخويل لا يمكن احدا من الناحية النظرية من منازعة الخليفة ، طالما انه يجمع بين السلطتين الدينية والدينية . وهذا يختلف كل الاختلاف عن الضرب المسيحي الذى ظهر فيه النزاع على السلطة بين البابا وبين الملوك ، وظهر على اثره تفسيرات ونظريات سياسية متعددة .

ومن المهم ان نعلم ان في الاسلام سلطة متحدة ونظرية سياسية واحدة حول السلطة وتلك هي الخلافة .

واذن فان الشغل الشاغل بالنسبة للفقهاء ، لم يكن حول اين تستقر السلطة ، كما هو الحال في الغرب المسيحي ، وانما كان شغلهم الشاغل هو تطبيق احكام الشريعة على المجتمع السياسى والدولة . وقد ابان الفقهاء ان الدولة تبسط

نفوذها على جميع المسلمين والذميين وقد برز نظام الخلافة عند الفقهاء كطابع مميز لشكل الدولة الاسلامية .

وقد اسهم في بناء الاتجاه الفقهي السياسي على مر الزمن العديد الفقهاء . ومن الفقهاء المبرزين يأتي كل من الماوردي (القرن الخامس للهجرة) في « الاحكام السلطانية » وابن تيمية (القرن الثامن للهجرة) في « السياسة الشرعية » وابن جماعة (القرن الثامن الهجري) في كتابه « تحرير الاحكام في تدبير الاسلام » .

الماوردي :

لقد توصل الماوردي بدراساته السياسية الفقهية ، بشأن الدولة ونظام الخلافة فيها ، الى ان السمة المميزة للدولة الاسلامية هي انها دولة تقوم على وحدة الدين والسياسة . وان قانون الدولة الاعلى هو القانون الاسلامي الذي يخضع له الحاكم والمحكوم (١) . وفي دراسته الفقهية السياسية هذه ، يبين الماوردي بوضوح ان اهم ما يدعم الحكام في الاستمرار والنجاح هو رضا الامة واجماع الآراء (٢) . وذلك ان السلطة الحقيقية هي تلك السلطة التي تكون بيد الامة ، انها برضى منها توكل سلطتها الى حاكم شرعى يحظى بثقتها (٣) . وبهذه الوسيلة يكون الحاكم في مأمن من اغتصاب سلطته او العصيان عليه . ومثل هذه الآراء التي وقف عليها الماوردي تجعل منه مفكرا وفقهيا سياسيا واقعا يحاول ان يجمع بين احكام الشريعة وواقع الحياة السياسية (٤) .

وعلى ضوء ما تقدم ، يبنى الماوردي آراءه الفقهية في الغاية من الخلافة ، التي يقول فيها انها قامت لتدافع عن العقيدة الاسلامية وترعى شؤون المسلمين الدينية (٥) . ثم يقول ان الخلافة ، واجبة لانها من متطلبات الشرع (٦) . ومن

(١) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) الاحكام ، ص ٣ .

(٦) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨ .

هنا ينتقل الى الحكومة التي تقوم على نظرية الخلافة فيميز بينها وبين الحكومة التي تقوم على العقل الانساني ، والتي يقول بصددها ان الحكومة التي تقوم على نظرية الخلافة هي حكومة تقوم على قانون الهي . وبذلك فانها حكومة أعلى في شكلها من الحكومات القائمة على العقل الانساني (١) . فاذ ان الحكومة الاولى تهدف الى مجرد الحفاظ على العدل والحد من الخلاف والفوضى ، فان الحكومة الثانية تعمل بكل ايجابية على اقامة العدل بوحى من الثقة المتبادلة . والا هم من كل ذلك ، ان قانونها الموحى يفرض عليها ان تطبق احكام الدين التي تعد الانسان الى الحياة الآخرة (٢) . وبما ان الخلافة أو الامامة هي عقد بين الامام وبين الجماعة ، فان الخليفة بهذا النوع من المسؤوليات يتطلب منه ان يفي بمتطلبات اساسية من اهمها : اتصافه بالعدالة طالما ان واجبه الاول هو تطبيق العدالة . وبجانب ذلك يأتي شرط العلم الذي يمكنه من الاجتهاد واتخاذ قرارات مستقلة . ثم يأتي شرط سلامة العقل وسلامة الجسم اللذان يمكنانه من القيام بواجباته خير قيام . وبالإضافة فهناك شرط الشجاعة الذي يمكنه من الحفاظ على حقوق الأمة ودعوتها الى الجهاد لصد المعتدين .

ويصر الماوردي على انتخاب الخليفة . وبعد انتخابه يصبح ملتزما امام الجماعة بعهد يتعهد فيه الخليفة تولى مسؤولياته بامانة واخلاص ، وتلتزم له الجماعة مقابل ذلك بالطاعة . اما بشأن الترشيح ، فانه يستنبط من السوابق طريقتين : الاولى وهي ان يرشح الخليفة شخصا كما هو الحال مع ابي بكر . والثانية ان يرشح الخليفة جماعة يختار واحد منهم اهل الحل والعقد . حتى اذا ما تم الترشيح وانتخب الخليفة بمصادقة الأمة ومبايعتها له ، فانه يرى ان واجباته المتشعبة التي تتضمن من بين ما تتضمن الواجبات الادارية والمالية والدينية والعسكرية ، هي واجبات مكملة لبعضها . وبهذا التفقه السديد المبني على دراسة التاريخ السياسي والاجتماعي للأمة ، اصبحت دراسات الماوردي المتعلقة بالدولة وسلطتها وخلافتها ، حجة يهتدى اليها الباحثون .

(١) المصدر السابق ص ٢٩ .
 (٢) الاحكام ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧ .

ابن تيمية :

وعند الوقوف على آراء ابن تيمية الفقهية - السياسية ، نجد انه يتميز بنظرته الخاصة نحو السلطة والامة . فلقد اوضح في رسالته السياسة الشرعية آراءه عن السلطة وعلاقتها بالشريعة . فهو يعتبر ان الشريعة هي اعلى مصدر للسلطة . ومع اعترافه بالحاجة الى السلطة السياسية ، وضرورة اطاعتها من الناحية العملية ، الا انه يرى مع ذلك ان تلك الطاعة لا يجب ان تسم الا اذا انسجمت مع متطلبات اوامر الشريعة^(١) . وبالنسبة للخلافة ، فان له رأي خاص فيها . فهو ينقد نظريتها من الاساس . فهو اذ لا يصر من جهة على توفر الشروط المثالية للامام ، انه من جهة اخرى لا يتقيد ايضا بالانتخاب . انه يقول ان الخالق هو الذى يعين الحاكم عن طريق اجماع اصوات الامة التى لا تخطأ^(٢) . ومن هنا نجد ان مركز الجاذبية عند ابن تيمية قد انتقل من الخليفة والخلافة الى الامة التى تنتظم حياتها عن طريق تعاليم الشريعة . على انه يرى ان التعاون الوثيق بين الامام والامة امر تمليه الحاجة .

اما من حيث نظرته الى الدولة بوجه عام ، فان اهم ما يعنيه منها هو ان تكون لها حكومة تقوم على العدل . ولا يهمه ان كان الامام يملك صلاحيات واسعة ام كان شخصية رمزية^(٣) . والشئ الذى يعنيه كثيرا هو اهتمام الناس حكاما ومحكومين بالواجبات الدينية^(٤) . ولهذه النظرة اكثر من معنى واحد . فهناك المعنى القريب الذى يعنى الاهتمام بالدين من قبل الدولة . وهناك المعنى البعيد الذى يرى فيه ابن تيمية من ناحية عملية ان الدين يكون عاملا من عوامل احلال السعادة والطمأنينة في المجتمع^(٥) . ويرى ان من واجب الحكومة تحسين الاحوال المادية والمعنوية للناس تمهيدا لغد افضل . فلقد عرف داعية قوية من دعاة فرض اصلاح الفرد والمجموع في ضوء ما تمليه الشريعة الغراء^(٦) .

(١) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

فلقد حارب البدع ، ايمانا منه بالاقتراب من السلوك الاسلامي النقي ، الا انه في عين الوقت تفتح على الفكر السياسي الاغريقي الهيلاني ، شأنه في ذلك شأن ناصر الدين الطوسي^(١) . وفي الحقيقة فان كليهما قد تأثر بأراء الفارابي السياسية^(٢) . والواقع ان ناصر الدين الطوسي الذي هو أحد كبار فقهاء المنحى الشيعي في الاسلام ، كان قد عاش في الفترة ما بين (١٢٠١-١٢٧٤م) واشتهر بدراساته الفقهية - السياسية في الامامة . واهم ما كتبه في هذا الباب « اخلاقى ناصرى » وقد تقلد منصب وزير في عهد هولوكو .

وعند العودة الى ابن تيمية ، والوقوف على ما قصده بحكومة تستمد مبادئها من الشريعة الغراء ، هو انه اراد التأكيد على الوحدة بين الدين والدنيا . ومن هذه الوحدة ينتقل الى ضرورة طاعة الحكومة القائمة على العدل . ثم نجده يشترط الطاعة للحكومة حتى وان لم تكن على ما يجب ان تكون عليه كليا^(٣) . الا انه يعود فيؤكد ان السياسة العادلة من اول واجبات الحكومة ومؤسساتها^(٤) . اما بشأن الرئاسة (رئاسة الدولة) فانها ضرورية لتحقيق الخير ومنع الشر . وان كل ذلك لا يمكن ان يتم الا بتوفر القوة والسلطة^(٥) . وانه يرى ان ممارسة السلطة العادلة لهو واجب ديني وانه طريق صحيح الى التقرب الى الله^(٦) . ولما كان هذا هو الطريق المطلوب في الحكومة الاسلامية ، فمن الضروري اختيار الرجل الصحيح لاشغال الوظيفة العامة . وهذا يعني ، بعبارة اوضح ، اختيار الرجال ذوي الكفاءة والاخلاص لملء هذه الوظائف^(٧) . ويتقدمه الكفاءة يكون قد نظر نظرة عملية الى السياسة . لان الورع لوحده لا يكفي . وبهذا النحو

(١) المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣ .

(٣) انظر ابن تيمية : السياسة الشرعية ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٢ .

(٤) السياسة الشرعية ، ص ص ٢٢ ، ٢٤ .

(٥) السياسة الشرعية ، ص ١٧٢ .

(٦) السياسة الشرعية ، ص ص ٧٠-٧٨ .

(٧) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ص ٥٤ .

نصبح الحكومة الإسلامية ، المستمدة قوتها من الله ، حكومة من نوع يفوق أي حكومة من نوع آخر (١) .

والذي يستلقت النظر ، تأكيد ابن تيمية على استشارة الفقهاء والعلماء والعارفين بأمور الشريعة . . . حين يعجز الحكام عن إيجاد الطريق الصحيح (٢) : لانهم الحكماء في القانون الاسلامي وشريعته . ومثل هذه السياسة التي تسيير عليها الحكومة الاسلامية هي ما يقصد بها بالسياسة الشرعية . اما الامة التي تحكمها هذه الحكومة فهي امة وسط . . . امة لا تريد لنفسها ولا لحكومتها التطرف في الاشياء . . .

ابن جماعة :

يتحدث ابن جماعة في كتابه « تحرير الاحكام » عن السلطة وضرورتها وشرعيتها ، مستندا في حديثه على غيره من الفقهاء السياسيين من جهة ومضيفا عليها تجاربه الشخصية كقاض ومفكر يرى الاشياء من خلال الظروف السياسية القائمة في زمانه .

فهو يرى في ضرورة الامامة للمجتمع الاسلامي . وهو يبرهن على هذه الضرورة بحجج مشتقة من آيات القرآن الكريم (الدستور الاسلامي الاعلى) والتفسيرات الخاصة بها من الوجهتين الدينية والخلقية .

وهو يضع الطريق الذي يجب ان يسلكه الامام فيقول فيما معناه ان الله يؤيد الامام الذي يرعى امورا رئيسية اربعة : الاول ، وهو اقامة الصلاة ، والثاني ايتاء الزكاة ، والثالث الامر بما امر الله ، والرابع النهي بما نهى عنه (٣) . ويحدد على هذا الاساس واجبات الامام فيرى فيها انها تتضمن : الدفاع عن الدين ، ومعاقبة المخالفين لاحكامه ، وتعويض من اسيء اليه ، وفوق ذلك اقامة الحق

(١) السياسة الشرعية ، ص ص ٧٠-٧٨ .

(٢) السياسة الشرعية ، ص ١٧٠ .

(٣) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٣ .

والعدل • ذلك ان لكل هذه الامور علاقة في نشر الطمأنينة والاستقرار بين الناس
 وصد تيار الفساد في المجتمع • اذ ان شؤون الانسان تبقى في خير ما دام الامام
 أو السلطان يسوسهم بطريق يحفظ حقوقهم ويحفظ الصالح العام (١) • ثم يضيف
 فيقول ان الامام العادل يصبح قدوة لاقامة مجتمع فاضل • وان اقامة العدل
 تتطلب وجود سلطة قوية ، لان السلطة القوية ضرورية طالما انها افضل دائما من
 انتشار الفوضى (٢) •

ويتحدث ابن جماعة في رسالته ان الطريقة الشرعية لاعتلاء الخليفة منصبه
 هي بالانتخاب • الا انه يعود ويقول ان ظروف الانتخاب اذا ما لم تتوافر ، فان
 الطريق الشرعي الثاني هو القوة (٣) • ونراه يشترط من جهة أخرى توفر شروط
 معينة في الامام ، فهو اذ يقر شروط الماوردي ، يعود فيضيف شروطا اخرى
 وهي : ان يكون المرشح من الذكور ، وان تكون عقيدته الاسلام ، وأن
 يكون حرا (٤) •

ويختلف ابن جماعة عن الماوردي وغيره من الفقهاء في نقطتين هامتين :
 الاولى انه يضيف ترشيح الامام الحاكم لخلفه كجزء من عملية الانتخاب •
 ويذهب في ذلك بعيدا ، حيث يقول ان هذا الترشيح قد يتم عن طريق القوة (٥) •
 اما النقطة الثانية فهي ان الانتخاب لكي يكون شرعيا فانه لا يجوز له ان يقف عند
 بيعة اهل الحل والعقد • لانه يرى ان في البيعة العامة الطاعة للامام التي هي جزء
 من طاعة الله • ثم ان طاعة الخليفة واجبة حتى وان كانت بالقوة ، طالما انها
 تحفظ وحدة المسلمين وتأمين عليهم من الفوضى •

ويعتبر ابن جماعة الخليفة صاحب السلطة العليا • وان الوزراء والولاة
 يمارسون سلطاتهم بتفويض منه • وهذه بنظره هي الطريق التي تفي بمتطلبات

(١) المصدر السابق ، ص ٤٣ •

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤ •

(٣) المصدر السابق ص ٤٤ •

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤ •

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٤ •

الشريعة^(١) . اما مصدر هذه السلطة العليا بالنسبة للخليفة ووزرائه وولاته فانها تتمثل في الشريعة . ومن هنا يرى ان الخير والتقدم يعم الدولة والمجتمع اذا ما أخذ باحكام الشريعة وان كل الشرور تأتي من مخالفتها .

وان كانت الشريعة هي الاساس في حكم الدولة والمجتمع ، فان الاسلوب المؤدي الى نجاح تطبيقها ، هو ان يشترك كل من يعمل في خدمتها على ذلك النجاح ، وان يكون شعار الجميع المساواة في تطبيق الاحكام ، وان يكون العلماء موضع استشارة المسؤولين وذلك بغية الوصول الى اتخاذ القرارات الصائبة والعادلة^(٢) .

ومما تقدم يتضح ان الشغل الشاغل للفقهاء السياسيين في الاسلام ، قد دار حول البحث بالوسائل الشرعية على ان السلطة الدينية والديونية لا يبد وان يظل ممسكا بها الخليفة والامام الذي هو رمز لوحدة الامة الاسلامية . وفي هذا وجدوا مخرجا للتوفيق بين الخلفاء الضعفاء وبين منازعتهم على السلطة من ولاتهم . وهذه النظرة تتمثل بانها نظرة بعيدة لفقهاء السياسة في الاسلام في الحفاظ على وحدة الامة . ولم يخرج عن هذه النظرية الا ابن تيمية الذي ركز على الحكومة القائمة على الشرع وحاول اصلاح الفساد الحكومي عن طريق الشرع ذاته^(٣) .

الاتجاه السياسي - الخلفي

ويتمثل هذا الاتجاه في السعي من اجل ايجاد الصورة الفضلى للمجتمع السياسي . ويركز هذا الاتجاه بوجه خاص على ما يجب ان تكون عليه اخلاق الحكام . وفي الحقيقة فان هذا الاتجاه السياسي الموسوم بالخلفي ، قد استقر مفكروه مصادره من الرسالة الاسلامية ومن الخلق العربي . ذلك ان الرسالة الاسلامية ، وكما ذكرنا من قبل ، هي رسالة بناء المجتمع الفاضل . ولعل من غير المبالغ فيه القول ان الرسالة التي انطلقت لبناء نموذج فاضل للمجتمع العربي،

(١) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

انما كانت تهدف ايضا لبناء مجتمع اسلامي ، يبنى على غرار المجتمع العربي ،
يصم جميع المسلمين في كل بقاع الارض •• واذن فهي بالتالي رسالة لبناء مجتمع
انساني يجمع جميع بني الانسان ••

ولقد كانت ابعاد هذا البناء متعددة وشاملة لم تقتصر على الجانب الديني أو
الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي ، وانما يضم جميع هذه الجوانب باسرها •
ومن هنا يمكننا تفهم الاتجاه السياسي - الخلفي ، بانه احد الجوانب الرئيسية التي
أرادت الرسالة الاسلامية بناؤها بناء محكما ، على اساس من المساواة وعدم التمييز
والحق والعدل •• وكل ذلك لبناء دولة يسوسها حكام ديدنهم الاخلاق الاسلامية
السامية القائمة على العدل •

وقد حظيت مفاهيم العدالة الاجتماعية والسياسية الاسلامية باهتمام شديد
عند جمهرة كبيرة من المفكرين العرب والمسلمين ، ابتدأت بحكم سياسية -
اخلاقية منشورة في ثانيا كتب اخلاقية ثم تطورت الى اقسام كاملة من موسوعات
تاريخية أو ادبية كبرى تدور بالاساس حول موضوع السلطان والاداب السلطانية
في الدولة الاسلامية (١) •

وحين توطد مركز الخلافة في دمشق وانتقل من بعد الى بغداد والقاهرة
وفرطبة وغيرها من العواصم العربية والاسلامية ، اتسع نطاق البحث السياسي وزاد
رواده وتكون على اثر ذلك ، اتجاها جديدا في البحث ، يختلف عن الاتجاه الفقهي
أو الديني • وهذا الاتجاه الجديد الذي قام على اساس المقياس الخلفي للحكم ،
اصبح في عرف المطلعين والمصنفين اتجاها ينطبق عليه اسم المنهج السياسي -
الخلفي (٢) •

ان مدار هذا النوع من البحث السياسي ، وكما اسلفنا من قبل ، هو ما يجب
ان تكون عليه اخلاق الحكام من خلفاء وسلطين وملوك وامراء (٣) • والشئ

- (١) د• حسن صعب ، المفهوم العربي لعلم السياسة ، في مجلة العلوم ،
العدد ١ ، كانون الثاني ١٩٥٨ ص ١٨ •
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨ •
(٣) المصدر السابق نفسه •

الدى يجدا الانتباه اليه من وجهة نظر هذا النوع من البحث السياسى ، هو انه يمكن ان يعد نموذجا حيا لتفاعل الثقافة العربية بالثقافات الاجنبية التى انضوى أهلها تحت لواء الدولة الاسلامية . وقد نتج عن ذلك ان وقف البحاثة على انماط جديدة تمثل ثقافات مختلفة كالفارسية والهندية واليونانية والبنزنية . وكان لهذه الانماط الجديدة ان تفاعلت في اذهان البحاثة المشبعين بالجو والروح الاسلامية ، فانتصموا في ظل ذلك من كل ما يلائم ثقافتهم وبيئتهم ومبادئهم ، فأخرجوا على اثرها نمطهم الاسلامى الخاص .

ولقد برز في هذا الميدان رواد اشتهروا في هذا النوع من البحث السياسى . ومن هؤلاء الرواد يأتى في المقدمة ابن المقفع في كتابه « كيلة ودمنة » ، والنويرى في كتابه « السلطان في نهاية الارب » والطرطوسى في كتاب « سراج الملوك » وابن طباطبا (المعروف بابن طقطقة) في كتابه « الفخرى في الآداب السلطانية » وآخرين غيرهم .

ابن المقفع :

ويعتبر ابن المقفع من مؤسسى ميدان البحث السياسى - الخلقى . ومن بين ما كتبه ابن المقفع الادب الصغير والادب الكبير الذى حاول فيهما ان يستخلص بضع قواعد عالمية لسلوك الامراء . وهذه القواعد تأخذ بنظر الاعتبار العلاقة بين السلوك السياسى والاسس الخلقية . فهو يقول ما معناه « ان هدف الانسان هو تنظيم حياته في هذه الدنيا وما بعدها وفق نظام جيد ومعقول » (١) . وان الطريق للوصول الى هذا النوع من النظام هو الطريق الذى يقوم على العقل المفكر الذى يصبح كذلك بالمعرفة التى يمنحها الله لعباده (٢) . ويرى « ان اهمية المعرفة تتجلى في تعليم الانسان لنفسه قبل تعليمه لغيره . خاصة بالنسبة للذين يطمحون في قيادة غيرهم وممارسة سلطتهم عليهم » (٣) . ذلك ان قيادة الناس امر يكتنفه

(١) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٩ .

(٢) الادب الصغير ، باشراف احمد زكى ، الاسكندرية ، ١٩١١ ، ص ٥٥ .

(٣) الادب الصغير ، ص ٢٣ .

الكثير من سوء الحظ^(١) . وان القائد (قائد الدولة) لابد وان يراعى نواحي معينة فيه لكي يتمكن من تحمل مسؤوليته بنجاح . فعليه ان يعرف كيف يختار وزرائه وجهاز حكومته . وعليه ايضا ان يكون مسيطرا وعارفا بما يحيط به من امور وتصرفات مرؤسيه ، فيكافؤ المنجز ويعاقب المقصر منهم . وعلى هذا النحو ، فان ابن المقفع يرى ان ذوى النظر البعيد وذوى المعرفة هم الذين يصلحون للقيادة^(٢) . كما يرى ان المعرفة باحكام الشريعة امر ضرورى للقائد ، منذ ان كانت الشريعة تربي انقاد على روح العدالة . ذلك ان القائد العادل هو الذى يستطيع كيف يكسب رضا رعيته وطاعتهم^(٣) . ثم ان النظر الى الامور بروح من المعرفة والعدل ، تستدعى في القائد او الرئيس ان يستشير بأراء العلماء والخبراء من الناس الذين يمتازون بنظرتهم الثاقبة الى الامور^(٤) . وليس معنى ذلك ، انه يترك الامور لغيره ، وانما تكون الكلمة الاخيرة له وذلك حفاظا على سلطته وسطوته ، التى هى من ضرورات الحكم^(٥) . الا ان ابن المقفع يعود فيحذر من سوء استخدام السلطة . ومن هنا فانه يميز بين السلطة القائمة على العدل والفضائل الخلقية وبين السلطة القائمة على الاكراه والهوان .

ان ما يلحظ في اراء ابن المقفع السياسية ، هو انه يتميز عن غيره بالواقعية في السياسة : الواقعية التى تميز بين ما هو واقع فاسد يجب اصلاحه ، وبين ما هو واقع صالح ، يجب العمل على استمراره .

والطريف في الامر انه يسعى على توضيح هذه الفروق تارة بصورة غير مباشرة وذلك حين يتكلم عنها بلسان الحيوان في كتابه « كليله ودمنة » ، وتارة بصورة مباشرة وذلك حين يتكلم في كتابيه الادب الصغير والادب الكبير . وكل هذا جعل منه ان يكون رائدا من رواد الاتجاه السياسي - الخلقى .

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) الادب الكبير ابن المقفع ، ص ٣٥ .

(٣) الادب الصغير ، ابن المقفع ، ص ص ٤١ ، ٢١ .

(٤) انظر ، الرسالة في الصحابة ، ص ص ١٩٢-١٣١ .

(٥) الادب الكبير ، ص ص ١٨-٤٣ .

ومن اهم افكار ابن المقفع العملية في فن الحكم تكيده على ان النفوذ في السياسة لكي يؤدي بصاحبه الى النجاح ، فانه يجب ان يقترن بالشعبية^(١) . وان الطريق الى الوصول الى هذا الهدف في فن الحكم ، هو قيامه على العدل والفضيلة .

ومن هنا يتبين لنا ان ابن المقفع في آرائه السياسية يجمع بين الدين والعقل والسياسة والاخلاق .

الجاحظ :

ويعتبر الجاحظ من المفكرين البارزين للاتجاه السياسي الخلفي في الفكر العربي الاسلامي .

وللجاحظ افكار سياسية متميزة تلنقي كلها في التأكيد على ان اهمية كل فكرة سياسية تنطلق من حيث امكانية تلك الفكرة الدخول في حيز التطبيق . يضاف الى ذلك ، تكيده على ان الافكار الاسلامية عامة ، والسياسية خاصة ، هي في طبيعتها افكار عملية وليست افكار مجردة .

كذلك فان الجاحظ يمثل المفكرين المحيطين بالثقافات الاجنبية وخاصة الثقافة الفارسية . لكن الذي يلحظ في الجاحظ ، كما هو واضح في كتابه « التاج » ، هو انه على الرغم من احاطته بالكثير من تجارب ملوك آل ساسان واستنتاجاته الفكرية منها ، فانه بقي يؤكد على اهمية قيم وتقاليد كل بيثة في حياة الدولة التي تنشأ فيها^(٢) . وعلى هذا الاساس ، فانه يربط بين المبادئ الاسلامية وبين امثلة كثيرة مشتقة من التاريخ العربي معتمدا فيها بذلك على المؤرخين ومؤلفي السير من امثال ابو عبيدة وغيره ، وعلى الحديث بوجه خاص الذي يؤلف ركنا بارزا من اركان الشريعة الاسلامية .

(١) الادب الكبير ، ص ٢٩ ، ٤٧ .

(٢) كتاب التاج ، ص ٢٧ .

وعند الوقوف بشئ من التفصيل على آراء الجاحظ السياسية ، فإنا نجد ، يؤكد وكما اسلفنا على ضرورة استناد حكومة الدولة على القيم الخلقية التي يتوقف نجاح امرها وتطبيقها على الرؤساء والحاكمين . فهو يرى ان من اولى شروط نجاح أي رئيس في حكمه هو ان يكون على جانب من الحياد والتواضع والرحمة . ويؤكد الجاحظ على هذه الناحية خاصة فيما يتعلق بالرعية^(١) . ويستتج الجاحظ قاعدته السياسية هذه في فن الحكم من النظام الاسلامي الذي يقوم على نظرية العدالة الاجتماعية .

هذا من جهة . ومن الجهة الاخرى ، فان الحاكم في أية دولة لا بد له وان يكون مطلعاً وعارفاً بما يدور في داخل دولته - وعليه ان يجد الوسائل لمعرفة خفايا الامور^(٢) . والذي يستحق الاشارة ايضا ، بالاضافة الى كل ما تقدم ، الآراء السياسية القيمة التي جاء بها الجاحظ في رسالته المعنونة « استحقاق الامامة^(٣) » ، ففي حديثه عن الرئاسة ، فانه يصنفها الى ثلاثة وهي : الرسول والنبي والامام . وهو يرى ان الرسول هو أعلى هذه الاصناف لانه يجمع بين النبوة والامامة في حين ان النبي له صفة الامامة وليس له صفة الرسول . أما الامام فليس له هذه الصفة أو تلك^(٤) .

وهو يرى ان الرئيس ضروري للمجتمع السياسي . وتمثل هذه الضرورة في ان الرئيس او الامام هو الموجه الاول للمجتمع . وهو يرى ان المرسل يخلفهم خلفاء وهؤلاء يحملون رسالاتهم . وان هؤلاء الخلفاء قد جاء بهم العقل والمشورة . اذ ليس هناك نص صريح في الشريعة على ذلك^(٥) .

(١) كتاب التاج ، ص ١٩٣ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٧ . انظر كذلك تعليقات روزنثال على الموضوع ، ص ٧٧ .

(٣) انظر : رسائل الجاحظ ، القاهرة ، ١٩٣٣ ، ص ص ٢٤١-٢٥٩ .

(٤) كتاب التاج ، ص ٢٤٧ وما بعدها .

(٥) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٨ .

ابن طباطبا المعروف بابن طقطقة (او ابن الطقطقي) :

ويأتي ابن طقطقة علما من اعلام الفكر العربي الاسلامي وممثلا بارزا للاتجاه السياسي الخلفي في البحث . ولقد اشتهر ابن طقطقة في كتابه « الفخرى في الآداب السلطانية » الذي اراد ان يؤكد فيه على ان خير انواع الحكم هو ذلك النوع الذي يجمع بين القوة والاخلاق .

ومع ان كتابه قد كتب خصيصا لحاكم الموصل في عصره الا انه يعتبر مصدرا عاما لكل حاكم آخر . ففي استعراضه للخلافة والخلفاء والامراء بالذات ، انه يعكس تجاربه العملية ومطالعانه . ومع ان كتاب الفخرى يعتبر كتابا تاريخيا ، الا ان ما ورد فيه من آراء سياسية يجعل منه كتابا سياسيا ايضا . وتتجلى هذه الآراء في انه وضع نظرية موضوعية وعملية للخلافة والسلطنة مستفيدا عند وضعها من كل التجارب التي مرت بها الدول كدولة الخلفاء الراشدين والاموية ثم الدول الاخرى كالبويهية والسلجوقية التي نشأت في ظل العهد المتأخر من الدولة العباسية .

وهو يرى ان وضع أسس تقوم عليها الحكومات ووضع قواعد لسلوكها يعمل من قريب وبعيد على حماية وضع مواطني الدولة ، وحماية الدولة ذاتها ، وبالتالي على رفع مستواها الخلفي ايضا^(١) .

وتتركز آراء ابن طقطقة السياسية بشأن نظرية الخلافة ، ليس كونها نظرية لدولة مثالية حسب ، وانما فيمن يشغل هذا المنصب اكثر من اى شئ آخر^(٢) . ومن هذه الزاوية فانه لا يهتم دراسة اصل دولة الخلافة أو اهدافها ، او حتى شروطها ، بقدر اهتمامه بعلاقة الخلافة بالتقاليد الاسلامية . وهنا بالذات ، نجد ان ابن طقطقة يبرز لنا الجانب الخلفي في التقاليد الاسلامية من حيث انه اهم جانب^(٣) . ثم تجده هو الاخر يحكم على نجاح الدولة بمقدار ما

(١) الفخرى ، ص ٢٠ .

(٢) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص (٦٣) .

تقوم عليه من مبادئ وسلوك خلقي ، متأثرا بنفس هذه التقاليد^(١) . والاكثر من هذا وذلك ، تأكيده على ان مراعاة القواعد الخلقية مطلوبة من الراعي والرعية في وقت واحد . على ان واجب الراعي في هذا الميدان هو كبير وكبير جدا منذ ان كانت أول مسؤوليات الراعي خلق مواطنين صالحين^(٢) . ومع ان الالتزام بقواعد الاخلاق واجب اسلامي ، الا انها في عين الوقت تعمل على سيادة القانون والنظام والاستقرار السياسي . وفوق كل ذلك انها تعطي للراعي (الخليفة أو السلطان) قوة للاستمرار في حكمه .

ومن هنا كان ارتباط الخليفة والامراء والحكام ، ارتباطا بالعتيدة قبل أي شيء آخر^(٣) ، وان على الامراء والحكام ان يقرروا مسؤولية الخليفة في الحفاظ على العتيدة .

اما الحفاظ على النظام والقانون والاستقرار السياسي ، فانه يتوقف على معرفة الحاكم لفن الحكم ، اى معرفته كيف يوجه زمام الامور في الشؤون العقائدية والعسكرية والسياسية والمالية وغيرها^(٤) .

ان اهم ما يعنى به ابن طقطقة بالنسبة لفن الحكم ، والنجاح فيه . . هو اطلاع الحاكم على التاريخ الاسلامي واستنتاجاته بأخذه العبر منه . فشروط ابن طقطقة في فن الحكم الناجح ، لم تكن مشتقة من الشريعة ، بالصورة المباشرة ، بقدر ما هي مشتقة من تطبيقاتها عبر التاريخ^(٥) . وعلى هذا الاساس فانه يضع في مقدمة هذه الامور العقل ، والايمان بالعدل والمقدرة وفي معرفة ما يجرى من امور ، وما يحدث من تغير . وكذلك القدرة في استشارة الغير والاستفادة منها . . اذ

-
- (١) المصدر السابق ، ص ٦٣ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ٦٣ .
 - (٤) المصدر السابق ، ص ٦٤ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ٦٤ .
 - (٥) المصدر السابق ، ص ٦٥ .

هي تشكل بنظره اعمدة السياسة^(١) . فالعقل والعدل والمقدرة هي التي تساعد الحاكم على استتباب الامن والعدل باعطاء كل ذي حق حقه .

وهكذا تكون الدولة بنظر ابن طقطقة وحدة قائمة بذاتها ، وان السذي يعمل على تثبيت ذاتيتها ونجاحها وتحقيق اهدافها من بيده توجيه دفة سفينتها .

الاتجاه السياسي - الفلسفي

ويمثل الاتجاه السياسي الفلسفي اتجاها متميزا عما سبق ذكره من اتجاهات

سياسية .

فيما ركز الاتجاه السياسي - الديني الذي تبناه علماء الكلام والمتكلمون على التفكير السياسي المتلاحم تلاحما قويا مع التفكير الروحي من حيث انه تفكير يدافع عن عقيدة سياسية تقوم على دعائم روحية جاءت من قبل رسول موحى في رسالة ، وليقيم مجتمعا ودولة عربية اسلامية .

وبينما ركز الاتجاه الفقهي السياسي الذي تبناه علماء الشريعة (أو الفقه) على وضع قواعد للسلوك السياسي على كلا المستويين الفردي والجمعي وعلى دراسة موضوع السلطة من نواحي فقهية تستمد مصادرها من الرسالة والدستور الاسلامي .

واذ ركز الاتجاه السياسي الخلقى على ما يجب ان تكون عليه اخلاق الحكام ولاقامة دولة انسانية فاضلة تستمد مقوماتها من الخلق العربي الفاضل ومن الرسالة الاسلامية الانسانية العادلة ، فان الاتجاه الفلسفي السياسي يتميز عن كل ما تقدم ، في انه جاء حصيلة تفاعل بين الثقافة العربية الاسلامية وبين الثقافات الاخرى . ومع ان هذا التفاعل قد بدأ منذ اواخر العصر الاموي ، الا انه ظل على نطاقه الضيق الى ان دخل العصر العباسي حيث انبرى العلماء العرب والمسلمون ، بدافع من تعاليم رسالتهم ومن حبه للتطلع والمعرفة ، وبتشجيع من

(١) الفخري ، ص ٢٠ وما بعدها .

القادة والرؤساء ، للوقوف على ما جاءت به الحضارات والثقافات الاجنبية من افكار وآراء تجاه الانسان ومركزه بالنسبة للكون المحيط به بوجه عام ، والمجتمع والدولة التي يعيش في ظلها ، والنظرة الى بناء مجتمع ودولة أفضل . ولقد كان طلب المعرفة والتبع عاملا مهما في اتاحة الفرصة للعلماء العرب والمسلمين لاجراء المقارنات والمناقشات وللوصول الى آراء وان كانت جديدة في بعض جوانبها ، الا انها لم تفقد قط طابعها ومنطلقها الحضاري العربي الاسلامي . ذلك ان العلماء العرب والمسلمين كانوا شديدي الحذر والتمسك بالمبادئ والافكار الرئيسية التي جاءت بها الحضارة والثقافة العربية الاسلامية . فلنادر من العلماء والفلاسفة العرب والمسلمون من خرج عن اصول او قل جذور العقيدة الاسلامية التي احتوتها الرسالة الاسلامية . وكما لا يخفى ان الرسالة الاسلامية قد جاءت بنظام كامل وشامل للحياة بما في ذلك الجانب الديني والفقهى والسياسى والاجماعى والاقتصادى . ومن هنا يمكن القول ان الفلسفة السياسية العربية الاسلامية هي جزء من كل جزء متكامل مع الاجزاء الاخرى التي يضمها الكيان الفلسفي العربي - الاسلامي العام .

وما تقدم لا يجوز ان يفسر بان وقوف الفلاسفة العرب والمسلمين على افكار الثقافات الاجنبية كان مقيدا ومحدودا وبالتالي فانه كان سطحيا . على العكس من ذلك ، فان الاحتكاك كان يتم بكل حرية . الا ان الزاوية التي يجب عدم اغفالها هي ان الفكرة الجديدة التي يقف عليها عالم البحث العربي الاسلامي لا يأخذها في الغالب على علاتها ، وانما يطابقها مع ما لديه من افكار ، وقد يخرج متفقا او مختلفا معها ، وقد يجد ، بعد تقديم الحججة والبرهان انها تحتاج الى اضافة أو حذف . وقد كان يتم كل ذلك بامانة وروح علمية عالية لا تغفل عن ذكر المصادر وفروعها ، كما شهد بذلك ويشهد علماء وفلاسفة العصر الحديث حين يقفون على دراسات المفكرين العرب والمسلمين . فاذا ما كانت الفكرة جديدة ، فانه لا يتوانى عن الاعتزاز بصاحبها ، الا انه يحاول جهده في تفسيرها وتقريبها من الاصول التي تقوم عليها فلسفة ثقافته وحضارته ، سيما تلك التي تتصل بالتكوين والخلق .

وهنا يفرض السؤال نفسه وهو هل ان للحضارة العربية الاسلامية فلسفة أصيلة خاصة بها ، أم انها مقتبسة من فلسفات الثقافات الاجنبية ؟ وقبل الاجابة ، فانه لا بد من الوقوف على الآراء المختلفة في هذا الموضوع^(١) . فهناك فريق من العلماء والفلاسفة في عصرنا ، من يقول ان العرب والمسلمين لم يكن لهم فلسفة خاصة بهم ، وان ما كتبه لا يزيد عن شرح للفلسفة اليونانية . ويستشهدون على ذلك ، بالفارابي . مثلا ، في ان مدينته الفاضلة لا تزيد عن دولة المدينة المثالية التي جاء بها افلاطون .

وهناك فريق آخر يرى غير ما يراه الفريق الاول بالنسبة للفلسفة العربية الاسلامية . والشئ البارز في الرأي الذى يحمله هذا الفريق هو ان فلاسفة الحضارة العربية الاسلامية ، لا شك ان بعضهم قد انشغف بفلاسفة اليونان وفي مقدمتهم افلاطون وارسطو ، الا انهم على العموم لم يفقدوا اصالتهم واصالة الحضارة التي يمثلونها ولا غرابة في ذلك ، فان الحضارة العربية الاسلامية شأنها شأن الحضارات الاخرى التي لا بد وان تأخذ شيئا من افكار من تحتك به من حضارات اخرى . ثم تفاعل ما بين ما تقف عليه وبين ما لديها من افكار . الا ان هذا التفاعل يتم وفقا لسلوبها ونمط وقيم حياتها . وفي هذه الحالة تظل محافظة على اصالتها . اما ان تأخذ كل افكارها من غيرها ، فهو ما لا يتفق ومنطق التاريخ الحضاري للبشرية ، لانه اذا اخذت كل افكارها من غيرها ، عندها لا يمكن ان يكون لها شخصية حضارية فكرية متميزة . وعندها تذوب وتصبح حلقة مكملة لحلقات الحضارة الاخرى .

وما تقدم ينطبق تمام الانطباق على الحضارة والتراث اليوناني بالذات الذى اخذ لا بل اقتبس من تراث الحضارات السالفة بما في ذلك حضارة كل من مصر القديمة ووادي الرافدين الذى احتوى حضارة الاشوريين والبابليين

(١) للرجوع الى التفاصيل الاخرى ، انظر فصل اليقظة الفكرية من هذا الكتاب .

والكلدانيين^(١) . ومن هنا ، وعندما يأتي الباحث المتسبع الموضوعي ، الى الحضارة والتراث العربي الاسلامي فانه ليجد نفسه امام حصيلة قيم عربية اسلامية انسانية : اخذت كل ما يضيف الى انسانيته ، واعطت كل ما يعمل على انسانية الانسان . الا ان الشيء الواضح في هذا العطاء ، هي انها حينما اعطت ، فانها اعطته بطعم ومذاق واسلوب عربي اسلامي .

ولنأخذ مثلا توضيحيا يجسد لنا كيف تم الاحتكاك بين الحضارة العربية الاسلامية وبين الحضارة اليونانية . وأول ما يجب الاشارة اليه هنا هو ان ابناء الحضارة العربية الاسلامية من العلماء والفقهاء والمفكرين والفلاسفة احتكوا بالحضارة اليونانية حين كانت لديهم صورة معينة وواضحة عن الكون والانسان والحياة . وبعبارة ادق فانهم احتكوا بالغير وهم ناضجون . فعندما وقفوا على ما ترجم من تراث اليونان ، فانهم وقفوا أو بالاحرى نظروا اليه نظرة المتفحص الواعي . فقد صقل فيهم منطق القرآن تفكيرهم ووجههم الى الاهتمام به . ولا يبالغ المرء اذ يتطرق الى علماء الكلام والفقه والحديث فيقول ان هؤلاء العلماء كانوا اصحاب معرفة وحجة زودهم بها القرآن الكريم بوجه خاص ، والشريعة الاسلامية بوجه عام .

فالقرآن الكريم كتاب قام على مخاطبة العقل بالحجة والبرهان . ومن أصبح فيلسوفا منهم واعجب ببعض آراء فلاسفة اليونان ، فانه لم يعجب بالاهداف التي ترمي اليها الفلسفة اكثر منها الاساليب^(٢) وما احتوته من تدرج منطقي في ابحاث الحجة . ففلاسفة المعتزلة ، مثلا ارادوا الاستفادة مما جاء به كبار فلاسفة اليونان من اساليب في سبر غور الشريعة الاسلامية . فقد قالوا ان الشريعة لا

(١) راجع في هذا الصدد الاستاذ ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية ، ط ٢ ، مطبعة التضامن بغداد ، ١٩٦٩ ، خاصة الفصل المعنون « مقارنة بين الحضارة العربية والحضارات القديمة » .

(٢) وبعبارة ادق تقدير بعض فلاسفة العرب والمسلمين لناحية معينة من طريقة البحث ، بحيث لا تؤثر على الاسلوب العام .

يجوز لها ان تدنس بالتضليل . وانه من الضروري فهمها عن طريق العقل والمنطق .

ثم ان كبار فلاسفة العرب والمسلمين من بعدهم ، لم يخرجوا من حيث العموم عن هذا الاساس . فالفيلسوف الشهير الفارابي باستفادته من مصادر فلسفية يونانية ، وهذا هو شأن كل مفكر في عصرنا ، لم يكن ليصل بدراساته الى نفس ما توصل اليه فلاسفة اليونان من امثال افلاطون وارسطو .

ذلك ان نظرة الفارابي الى الدولة الفاضلة هي غير نظرة افلاطون . فقبل كل شيء ، ان قانون دولة الفارابي هو قانون يقوم على الدستور والشريعة الاسلامية . وهو لم يتفق مع رأى افلاطون القائل بان الملك الفيلسوف لا يحتاج الى قانون ليرشده . ثم ان رئيس دولة الفارابي الفاضلة هو رئيس تجتمع فيه مؤهلات الرئاسة التي بناها التراث العربي الاسلامي عبر الزمن الطويل . ولكن الفارابي يتفق مع افلاطون في ان من اولى متطلبات الرئاسة وقيادة الدولة هي المعرفة والدراية بالامور . وهو يتفق ايضا ، في ان كل من يعمل في الدولة الفاضلة ، انه يعمل وفقا للكفاءة . وهذه الآراء وامثالها ، ليس من الغرابة ان تشابه عند كل من افلاطون والفارابي . فميزان الكفاءة في الدولة اليونانية الافلاطونية ، الذي يقوم على المعرفة ، نقول انه ان اتفق معه الفارابي ، فليس معنى ذلك انه مقتبس من افلاطون . لان ، الفارابي ، الفيلسوف قد اهتدى بميزان الشريعة الاسلامية التي اساسها العلم والمعرفة ، من قبل ان يقف على آراء افلاطون الخاصة بالفضيلة والمعرفة : فهل معنى ذلك انه سيصل الى غيرها ؟ الجواب كلا . ذلك ان الفارابي وهو ابن الرسالة الاسلامية والذي اهتدى بهديها خيارا واتخذ منها اساسا لمنطلقاته الفكرية لا يمكن له ان يهدف في الحياة عامة والحياة السياسية خاصة الى غير ميزان المعرفة والفضيلة . وما يقال عن الفارابي يمكن ان ينطبق على الغزالي وابن سينا وابن خلدون وغيرهم الى حد كبير جدا .

والآن وبعد ما تقدم ، يأتي السؤال الذي يتطلب الاجابة وهو ما هي المقومات التي قام عليها الاتجاه الفلسفي في الفكر السياسي العربي الاسلامي ؟ وقبل

الاجابة على السؤال فانه لابد من الاشارة الى ان التفكير الفلسفي السياسي العربي الاسلامي ، هو جزء متكامل مع التفكير الفلسفي العربي الاسلامي العام . ذلك ان الوجه السياسي يتكامل مع الوجه الديني . وهذا ما يؤدي بنا الى القول ان الحضارة العربية الاسلامية كل متكامل الاجزاء .

وعندما نأتي الى المقومات التي ينطلق منها الاتجاه الفلسفي السياسي ، فان بالامكان القول ، ان الفلاسفة بوجه عام ومن عنى منهم بالفلسفة السياسية بوجه خاص ، قد هدفوا الى التوفيق بين رسالة الدولة وبين الشريعة الاسلامية . وحاولوا تفهم الدعوة الاسلامية عن طريق التحليل والادراك العقلي . ورأوا ان ليس هناك تناقضا بين الشريعة وبين العقل . وان الشريعة والكتاب المقدس بالذات لا يمكن فهمهما الا عن طريق التعليل العقلي . فالتعليل العقلي اذن هو السبيل القويم الذي يمكن الفرد من الوقوف على المعنى الحقيقي للرسالة والشريعة وتعاليمها والذي يختلف كل الاختلاف عن المعنى الظاهري .

وتأسيسا على ما تقدم ، فان الفلاسفة رأوا ان تفهم مسؤولية الدولة وحكومتها يتم عن طريق الادراك والتعليل العقلي طالما ان الدولة الاسلامية تستمد اصولها ومفاهيمها من الشريعة الاسلامية ذاتها .

ومن هنا تبرز اهمية القائمين على امور الدولة الذين يتجلى دورهم في التوفيق بين النظرية والتطبيق : اى احلال الانسجام بين رسالة الدولة والشريعة ووضع ذلك موضع التطبيق . ذلك لان على من بيدهم تسيير دفة الدولة ان يحققوا الانسجام بين اهداف الشريعة ، التي تقوم من بين ما تقوم عليه على العدالة الاجتماعية ، وبين اهداف الدولة . وكما مر معنا في مكان سابق من هذا الكتاب يصبح من مسؤولية القائمين على امور الدولة تحقيق مضمون نظرية العدالة الاجتماعية (السياسية) وهي الحرية والمساواة والمسؤولية والقيادة الجماعية . هذا وان السبيل الفلسفي الذي سلكه فلاسفة الحضارة العربية الاسلامية في التوفيق بين الدعوة والفلسفة ينطلق من النقطة المهمة التي تقول انه طالما ان

الحقيقة واحدة وغير قابلة للتجزئة ، وانه طالما ان كلا من الدعوة والفلسفة تسعى الى الوصول الى الحقيقة ، لذا فان مرامي الدعوة الاسلامية والشريعة التي جاءت بها تتفق كل الاتفاق مع مرامي الفلسفة .

وصفوة القول ان الفلاسفة في الاسلام نظروا الى الحياة بوجه عام والى الدولة وحكومتها ومجتمعها بوجه خاص نظرة تتفق ولا تعارض مع تعاليم شريعتهم الاسلامية ، فكما ان الشريعة تهدف الى اسعاد الانسان ، فان الدولة التي تقام في ضوء تعاليمها لا بد وان تهدف الى اسعاده في مجتمعه السياسي وتربيته التربية التي تجعل منه مواطنا صالحا : تربيته التربية الدينية والاخلاقية والاجتماعية والسياسية وفق قانون الشريعة الاسلامية التي جاء بها رسول موحى ، يهتدى الانسان وفق تعاليم الخالق والموجد للانسان . وهذه النظرة تختلف عما جاء به فلاسفة اليونان . فالفلسفة الاسلامية تذهب الى ابعاد بكثير من الفلسفة اليونانية . فبينما لا ترى الفلسفة اليونانية غير معنى واحد للسعادة^(١) ، فان الفلسفة الاسلامية تهدف الى نوعين من السعادة : سعادة الدنيا وسعادة الاخرى . وهذا يؤدى بالباحث في الفلسفة الاسلامية ، الى الاشارة ايضا الى ناحية اخرى ، وتلك هي ان الخالق يختلف في مفهوم الفلاسفة العرب المسلمين عنه في مفهوم فلاسفة الاغريق^(٢) . والسبب في ذلك ، كما رآه فلاسفة المسلمين وكما اشار اليه بعض المفكرين هو الطابع المميز لكل منهما . فبينما نجد ان طابع الفلسفة الاسلامية يدور حول الدعوة ويتمركز في الخالق ، نجد ان طابع الفلسفة الاسلامية يدور حول الخيال ، ويتمركز في الانسان العاقل^(٣) . وبعبارة ادق ، فانه اذا كانت الفلسفة الاسلامية تهدف الى معرفة الخالق وطاعته ، فان الفلسفة اليونانية تهدف الى معرفة النفس .

(١) روزنتال ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٧ .

اما الطابع المميز الثاني الغالب في الفلسفة السياسية العربية الاسلامية فهو يتجلى في نظرتها الى القانون ومكانه في الدولة . فالقانون بالنسبة الى الدولة في مفهوم الفلسفة الاسلامية أمر جوهري ، اذ لا يمكن للدولة أن تقوم أو تستقيم بدونه . فقيام الدولة بدون قانون لا يغير من مفهوم الدولة حسب ، وانما يخرجها من شرعيتها ويجعل من كل عمل يقترفه القائمون على امرها غير شرعي . وبالإضافة فان معايير الاخلاق ومستوى السلوك يتغير تغيرا كلياً . وهذا التغير معناه الابتعاد عن الاعمال السياسية المقترنة بالفضيلة والاقتراب من الاعمال السياسية المقترنة بالرديلة . وهذا بدوره يؤدي الى الانقسام والتطاحن وبالتالي الى فناء الدولة .

ومما هو جدير بالذكر هنا هو ان بعض المستشرقين قد رأوا ان فلاسفة الحضارة العربية الاسلامية الذين اعطوا اهمية بالغة للقانون في الدولة كانوا قد تأثروا بفلاسفة اليونان . والواقع ان رأي البعض من المستشرقين هذا ، ليس دقيقاً . فقبل كل شيء ان مضمون قانون فلاسفة الاسلام هو غير مضمون قانون فلاسفة اليونان . ذلك ان قانون الدولة الاسلامية ، أو بعبارة ادق دستورها الاعلى ، هو قانون الشريعة الذي لا تستطيع أية قوانين وضعية ان تناقضه . ثم ان هذا الدستور الاعلى الذي تنطلق منه القوانين الاخرى ، هو قانون موحى به ، لا يستطيع أي قانون يأتي به الفلاسفة من مجاراته . اما بالنسبة للفلاسفة اليونان ، وعلى الاخص ما جاء به افلاطون في جمهوريته ، فهو ما ينطق به الملك الفيلسوف الذي لا تقيدته فيود ما سوى عقله الراجح . ومن هنا نجد ان قانون الدولة الاسلامية الاعلى ، هو قانون الشريعة بينما نجد ان قانون جمهورية افلاطون الاعلى هو قانون الفلاسفة^(١) . كما نجد ايضا ان قانون الدولة الاسلامية هو قانون مرتبط بالعقيدة ، بينما هو ليس كذلك لدى كبير فلاسفة اليونان : افلاطون . وعلى هذا الاساس فان التعبير الادق ، هو ان كلا من الفلاسفة المسلمين والفلاسفة

(١) المصدر السابق ، ص ١١٨ .

اليونان قد اعطوا اهمية الى القانون بالنسبة للدولة ، من ناحية ظاهرية ، الا انهم اختلفوا من ناحية جوهرية . فحتى قانون ارسطو الاعلى هو غير قانون الفوايبي الاعلى من ناحية جوهرية .

ومن اهم ما يميز الاتجاه الفلسفي السياسى بالاضافة ، النظرة الى السياسة وما يحيط بها من معرفة وخبرة ، وما لها من علاقة بالسلطة . فلقد رأى اغلبية فلاسفة الحضارة العربية الاسلامية ، ان الاحاطة بالسياسة تتطلب تكريس جهود الانسان في البحث عن افضل ما يوصله الى الحياة السعيدة في مجتمعه السياسى وهو الدولة . ولكي يصل الانسان الى هذه المرتبة العالية في حياته السياسية ، عليه ان يتعرف على فضائل الاخلاق التي يحتويها علم الاخلاق . وكسب الرسالة الاسلامية رسالة فضائل واخلاق ، من هنا كانت السياسة في الدولة تتطابق مع اهداف الشريعة الاسلامية وتعاليمها الانسانية . ومن هنا ايضا تظهر الصلة الوثيقة بين السياسة والاخلاق في الفلسفة السياسية العربية الاسلامية . وقد وجد فلاسفة الحضارة العربية الاسلامية انهم يتفقون مع ما جاء به فلاسفة اليونان المشهورون من ان مثال افلاطون وارسطو في التأكيد على ان صلاح السياسة لا يمكن ان تتم الا باقترانها بالفضيلة وبالخلق . ومع ان بعض الكتاب المحندين العرب والمسلمين يتفقون مع ما جاء به المستشرقون من ان الفلاسفة العرب والمسلمين قد اخذوا الكثير من آراءهم السياسية من فلاسفة اليونان ، الا اننا اذ لا ننكر وقوف الفلاسفة المسلمين على آراء فلاسفة اليونان وانهم اخذوا بعضها المنسجم والنافع لبيئتهم ، الا اننا نرى ايضا انهم الرسالة الاسلامية التي جاءت معبرة عن الصورة المثلى للقيم العربية قد قامت اساسا على توجيه الانسان العربي والاسلامي الى البحث عن افضل ما يؤدي به الى سعادته ، والى سعادته السياسية في مجتمعه السياسى بالذات .

ان المعرفة بالسياسة بنظر اصحاب المنحى الفلسفي السياسى يتطلب ، اذن ، المعرفة باهداف وسلوك الانسان الارادية في الجماعة السياسية ، الذى يتوقف على عاداته وتقاليده وقدرته على التمييز بين ما هو خير وشر له . وهذا ما يشكل المعرفة

النظرية بالسياسة أو علم السياسة • هذا وان البحث في ما يقوم به الانسان من عمل وسلوك سياسى فعلى ، فهو ما يشكل المعرفة العملية في السياسة •

ان الوقوف على هذا السلوك السياسى للجماعة السياسية يتأثر بمن يشرف على أمور الجماعة السياسية • وهؤلاء هم القادة الذين يشكلون حكومة الدولة • ولقد رأى فلاسفة الحضارة العربية الاسلامية ، ان ما يميز الدول والامم وحكوماتها بالذات ، هو الاتجاه الذى يأخذه سلوكها • وهذا بالضبط هو الذى يميز بين هذا وذاك النوع من السلطة ، أو ما يمكن ان يسمى بفن الحكم • فاذا كان سلوك الدولة يهتدى ، وكما أشار اليه الفيلسوف الفارابى ، وايده الفلاسفة الاخرون ، فنقول اذا كان السلوك ينطلق من الحكمة والفضيلة ويتوجه الى تطبيقها وتحقيقها رؤساؤها وقادتها ، فانها تكون دولة فاضلة • وان تلك الدولة يكتب لها الدوام والاستمرار والنجاح ، هذا اذا ما استمر ملوكها وقادتها دون ما تذبذب ، بالاخذ بالقوانين والاصول الصالحة التابعة من المعرفة والتجربة التى تؤدى بها الى قيام حكومة صالحة • ومثل هذه الدولة التى تسير وتستمر على هذا المنوال ، هي دولة لها فلسفة وسياسة مرسومة • اما اذا تذبذب السلوك في الدولة نتيجة لانعدام القواعد العامة ، فان مصير هذا النوع من السلطة أو الحكم الانقسام والانحلال ثم الزوال • ومن هنا نجد ان الدولة التى تسير وفق فلسفة وعقيدة خيرة ، هي الدولة التى يكتب لها البقاء وهي النوع المؤكد عليه في الفلسفة السياسية العربية الاسلامية •

ان ما يجب الانتباه اليه هنا ، هو ان سلوك الدولة يتأثر بسلوك القائمين على امرها • فاذا كان الموجهون من ذوى المعرفة والحكمة والذكاء والخلق الفاضل ، فان سلوك الدولة يسير نحو الكمال والسعادة • والعكس صحيح ايضا ، وهو ما يميز بين الدولة الفاضلة والدولة الفاسقة على حد تعبير الفارابى ، وهو ما يميز بين القائد الحكيم والقائد الجاهل بالذات •

ان ما تقدم ، لا يشكل اكثر من الخطوط العريضة التى انطلق منها الاتجاه الفلسفى السياسى العربى الاسلامى • والذى يقف على آراء الفلاسفة المسلمين

بصورة تفصيلية يجد انهم يتفوقون فيما بينهم في بعض الجوانب التفصيلية ،
ويختلفون في جوانب اخرى . ومن هنا نشأت الدراسات الفلسفية المختلفة والتي
يمكن الوقوف على جوانبها السياسية الخاصة من خلال دراسات الفلاسفة العامة .
وبما ان الوقوف على جميع آراء الفلاسفة هو امر خارج حدود هذا الكتاب ، الا
انه لا مفر من الوقوف على آراء اهم ما اشتهر به فلاسفة السياسة الاسلامية من
امثال الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد ، وابن خلدون الذي يكون
مدرسة خاصة به .

الفارابي :

يعتبر ابو نصر الفارابي^(١) من أشهر الفلاسفة الذين انجبتهم الحضارة
العربية الاسلامية . ومع ان الفارابي قد كتب في موضوعات فلسفية مختلفة والتي
انصب اغلبها على المنطق والطبيعات والاخلاق والسياسة والموسيقى ، الا ان ما
يهمنا هنا هو الوقوف على الفارابي كفيلسوف سياسي .

ان المتبع لمؤلفات الفارابي السياسية ، التي شملت من بين ما شملت كتاب
« آراء اهل المدينة الفاضلة » وكتاب « السياسات المدنية » . « وتحصيل السعادة »
« ورسالة في التنبية على سبيل السعادة » ، يجد انها ذات طابع متميز وانها تميزه عن
غيره من مفكري الاسلام . فمع ان الكندي هو اول من طرقت الفلسفة من
ابناء الحضارة العربية الاسلامية ، الا ان الفارابي يعتبر اول فيلسوف ارسى
قواعدها ، وتأثر به من بعده الفلاسفة الآخرون من امثال ابن سينا والغزالي وابن
خلدون ، الذين قدر لهم توطيد بناءها الشامخ .

(١) عرف باسم الفارابي نسبة الى مدينة فاراب التي تعرف حاليا بمدينة
اترار باقليم خراسان التركي . وقد قضى اغلب سنين حياته الثمانين
(٢٥٧-٣٣٩ هـ) ، (٨٧٠-٩٥٠ م) في بغداد ثم حلب التي اصبح فيها من
اقرب مستشاري سيف الدولة الحمداني ، انظر حنا الفاخوري : تاريخ الفلسفة
العربية ، الجزء الثاني ، ١٩٥٨ ، ص ٩٠ .

ان أي تحليل لأفكار الفارابي بوجه عام وأفكاره السياسية بوجه خاص لا بد وان يقف اولاً وقبل كل شيء على الاهداف العليا التي سعى من اجلها هذا الميلسوف . وحينما ينظر الباحث الى اهداف الفارابي العليا ، يجد اول ما يجد انه وضع هدفاً اعلى يشتاق الى تحقيقه كل انسان وذلك هو الحصول على السعادة . فهو يرى كما يلخصها صاحب كتاب « تاريخ الفلسفة العربية » ان السعادة هي الغاية القصوى التي يشتاقها الانسان ويسعى الى الحصول عليها ، وكل ما يسعى اليه الانسان هو في نظره خير وغايته الكمال . والسعادة هي اسمى الخيرات ، ويقدر ما يسعى الانسان الى بلوغ هذا الخير لذاته تكون سعادته كاملة ، (١) . فأعمال الخير والاعمال الحسنة ، هي السبيل الى السعادة . وان ما يساعد الانسان على التمييز بين ما هو حسن وبين ما هو غير حسن هو باكتسابه المعرفة . ويرى الفارابي في كتابه « التنبيه على سبيل السعادة » ، ان المعرفة نوعان : نوع من طبيعته ان يعلم ولا يعمل ، ونوع يعلم ويعمل (٢) . ومن هنا يرى الفارابي ان المعرفة ، تتكون من العلم النظري والعلم العملي : وهذان « يؤلفان الفلسفة التي بها تنال السعادة والتي نصل اليها بوجود التمييز . وهذا بدوره نحصل عليه بواسطة المنطق الذي نميز الخطأ الذي يظن به انه صواب والصواب الذي يظن به انه خطأ » (٣) .

ومن الجدير بالانتباه ان الفارابي يصنف فلسفة السياسة (او علم السياسة) بانها علم عملي . انه العلم الذي يتصل بالشؤون والاعمال والاشياء ، التي تتصل بحياة اهل المدن أو الدول .

ان السعادة التي يتحدث عنها الفارابي هي ما يسعى للوصول اليها كل فرد من الافراد ، الا انه يوضح في كتابه « تحصيل السعادة » فيقول انها لا

(١) حنا الفاخوري و خليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ، ص ١٣٦ .

(٢) التنبيه على سبيل السعادة ، ص ١٩ .

(٣) تاريخ الفلسفة العربية ، ص ١٣٧ .

تحصل للأفراد الا اذا عاشوا ضمن جماعة^(١) . وهذا العيش مع الجماعة تفرضه احوال الفرد الطبيعية . فهو من جهة ، لا يستطيع ان يعيش بمفرده ، وهو من جهة اخرى لا يستطيع ان يوفر لنفسه سعادته المنشودة . ومن هنا ، فان الأفراد ، بدافع من احوالهم الطبيعية وبدافع من رغبتهم في طلب السعادة ، يتعاقدون لاقامة مجتمع سياسى وهو الدولة . وهذا التعاقد ان هو الا تعاقد سياسى يتنازل فيه الافراد عن بعض حقوقهم للتعاقد مع غيرهم وذلك في سبيل الوصول الى سعادتهم .

على ان هذا النوع من التعاون الخير الذى يهدف الى تحقيق سعادة الافراد والجماعات ، لا يتم الا في نوع واحد من الدول ، وذلك هو الدولة الفاضلة . ذلك ان اهل المدينة الفاضلة (أو الدولة الفاضلة) يختلفون عن غيرهم ، وعن اهل الدولة (المدينة) الجاهلة بالذات . فقبل كل شيء ، فان حياتهم تعمل كالكيان الحى ، لكل عضو وظيفته التى لا يتعداها ، ولكل اهميته ومسؤوليته المتدرجة التى تصل في حدها الاعلى مسؤولية الرئيس الذى تكون وظيفته التوجيه والتربية نحو الفضيلة ونحو السعادة^(٢) . ومركز الرئيس هذا كمركز

(١) تحصيل السعادة ، ص ١٤ . ويرى الفارابى ، ان الاجتماعات الانسانية تكون كاملة وغير كاملة . **فالكاملة** منها هي اما ان تكون صغيرة وهي تتمثل في اجتماع المدينة لجزء من امة ، واما ان تكون وسطى وهي التى تتمثل في اجتماع امة في جزء من اجزاء المعمورة ، واما ان تكون عظيمة وهي التى تتمثل في اجتماع الامم كثيرة تضمها المعمورة . اما **غير الكاملة** منها فهي التى تتم في المسكن والسكة والحي والقرية التى هي ضرورية جميعا لقيام المدينة . للرجوع الى التفصيلات انظر كتابه « السياسة المدنية » .

(٢) ويرى الفيلسوف الفارابى ان الرئاسة في الدولة الفاضلة منصب خطير لا يستطيع اشغاله أي انسان كيفما اتفق ، وانما تقتصر على الذين توفرت فيهم خصال فذة يمكن ان تجمل في شيتين رئيسيين رئيسيين : الاول ان يكون بالفطرة والطبع معدا لها ، والثاني بالملكة والهيئة الادالية . انظر اراء اهل المدينة الفاضلة ص ٨٢ . وبعبارة ادق ان الرئاسة تتطلب لياقة طبيعية لصاحبها الى جانب توفره على ملكة (قدرة) وامكانية ادارية لتحقيق هذه القدرة . وفي مقدمة هذه



القلب بالنسبة للكيان الحي ، الذي تعاون معه اعضاء الجسم الاخرى ، وتحمل مسؤوليتها بحسب قربها وبعدها منه (اى القلب) (١) ، وتعمل جميعا في سبيل سعادتها وسعادة الجسم في آن واحد .

ومما يستلفت النظر ان الفارابي قد اوجد نظاما خاصا لحياة اهل المدينة الفاضلة . ومن مقومات هذا النظام هو تحلي اهل المدينة بصفات خاصة لا بد منها . وهذه الصفات تقوم على العلم والعمل والفضيلة (٢) .

اما الاساس الذى يسير عليه النظام ، فيقوم على مبدئين متكاملين : الاول



القدرة ، الفعلية الفائقة التي يفصلها بقوله « وانما يكون ذلك من اهل الطبائع العظيمة الفائقة . اذا اتصلت نفسه في العقل الفعال ، وانما يبلغ ذلك بأن يحصل له اولا العقل المنفعل ثم انه يحصل له بعد ذلك العقل الذى يسمى بالمستفاد . فيحصل العقل المستفاد يكون الاتصال بالعقل الفعال . . » ويشرح الفارابي بان المعرفة تتم مباشرة من العقل الفعال عن طريق ما يوحيه اليه الله بواسطة ملائكته من فيض معرفته . انظر السياسة المدنية ص ص ٤٩-٥٠ .

ان الفارابي بهذا التصوير للقيادة يقترب من مفهوم الشريعة الاسلامية للرياسة والتي تنطبق تماما على قيادة الرسول الاعظم السياسية . وانه يتخذ منه قدوة للرؤساء من بعده ، الذين عليهم ان يتخذوا بما جاء به من قول موحى ، دستورا اعلى لدولتهم ، ومثلا اعلى لسلوكهم . ولا شك ان هذا النوع لا يتوفر الا فيمن تتوفر لديهم القدرات الممتازة من حكمة ومعرفة ولياقة لكي يتحملوا اعباء مسؤولياتهم . وفي ضوء كل هذا يضع الفارابي شروط من تتوفر فيها الرئاسة (او الاقامة كما يسميها في بعض مؤلفاته) التي تشمل من بين ما تشمل : المعرفة القائمة على الفطنة والذكاء التي تؤهل صاحبها ادراك واستيعاب وتطبيق القوانين والسنن التي جاءت بها الشريعة الاسلامية على يد نبيها ، الخلق الفاضل القائم على حسن المعاملة ، والصدق والكرامة ، والكرم وعلو النفس وقوة العزيمة والشجاعة وحب العدالة والسهر على مصلحة الامة . ثم اللياقة التي تتمثل في تمام الاعضاء وحسن المظهر .

(١) اراء اهل المدينة الفاضلة ، ص ٨٠ .

(٢) تاريخ الفلسفة العربية ، ص ١٥٠ .

وهو استعداد كل عضو من اعضاء المجتمع السياسى وصلاحيته من حيث علمه وخبرته واستعداده الطبيعى . واما المبدأ الثانى ، فهو مقدار ما يؤديه الافراد من مسؤوليات تفى بحاجات ومتطلبات الدولة التى من شأنها ان تؤدى الى اسعادهم
عموما .

واذا كان ما تقدم يمثل الصورة التى يقدمها الفارابى بشأن الحياة والتعاون لدى اهل المدينة ، او الدولة الفاضلة ، فان الصورة التى تقوم عليها حياة اهل المدينة او الدولة الجاهلة والضالة هى صورة معاكسة تماما . فهو يرى ان هذه الدولة لا تعرف السعادة الحقيقية ولا تخطر ببال اهلها . والدولة الضالة كما يصفها الفارابى قد تكون جاهلة وهى التى لا تفهم من امر السعادة شىء ، او ان تكون فاسقة وهى التى تشبه الجاهلة مضافا الى ذلك ان اهلها يقولون ويعتقدون ولكنهم لا يفعلون ، او ان تكون متبدلة وهى التى كانت آراء اهلها واعمالهم مطابقة لآراء واعمال الدولة الفاضلة الا انها تبدلت وفسدت ، او ان تكون ضالة وهى التى تعتقد اعتقادا فاسدا ومخادعا فى الله والكون والعقل الفعال^(١) .

والمهم فى الامر هو ان اهل المدن (والدول) الجاهلة والضالة وامثالها يغلب على حياتها السياسية والاجتماعية طابع الجهل والضلالة . ومن آراء اهلها مثلا ان الارض ميدان لتنازع البقاء ، وان كلا من الموجودات يلتمس ابطال الآخر ليستأثر وحده بالوجود ، فيكون الوجود لمن غلب ، والسعادة لمن انتصر ، ويكون حظ الضعيف الفناء أو الاستعباد ، ويكون سبيل المدن « ان تكون مغالبة متهاجرة لا مراتب فيها ولا نظام ولا استئمال يختص به احد دون احد الكرامة أو لشىء آخر ، وان يكون كل انسان متوحدا بكل خير هو له ان يلتمس ان يغالب غيره فى كل خير يفيد ، وان الانسان الاقهر لكل ما يناوؤته هو الاسعد .»^(٢)

(١) انظر العرض الموجز لانواع المدن فى كتاب تاريخ الفلسفة العربية ، ص ١٤٨ ، وما بعدها ، وارجع الى السياسة المدنية للفارابى ص ٥٩ وما بعدها للحصول على تفاصيل اكثر .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٥١ .

وعلى ضوء ما تقدم لا تستطيع الدولة الجاهلة وامثالها وانواعها ، ان تقوم وتحيا بنفس المبادئ التي تقوم وتحيا عليها المدينة (الدولة) الفاضلة . فبينما نجد ان نشأة وازدهار المدينة الفاضلة تقوم على التعاقد والتعاون القائم على الكفاية والخدمة لصالح الدولة ، نجد المدينة أو الدولة الجاهلة تنشأ عن طريق القهر والغلبة ويقوم التعاقد والتعاهد فيما بين افرادها على القاهر والمقهور : الغلبة للقاهر والخضوع للمقهور . وعلى هذا الاساس ، يكون مفهوم العدل غير مفهومه لدى اهل المدينة الفاضلة . فالعدل في مفهوم الدولة الجاهلة والضالة هو استعباد القاهر للمقهور ، والفضيلة ان يفعل المقهور ما هو الانفع للقاهر (١) . واذن فان وظيفة العضو القوي هي غير وظيفة العضو الضعيف . فبينما تكون وظيفة القوي الاستعباد القهري للآخرين ، نجد ان وظيفة الضعيف اتقاء شر القوي والقبول القهري بالقناعة عند حدوده . ومن هنا تصبح مسؤولية الافراد تختلف بحسب قوة الفرد وضعفه .

على ضوء ما تقدم من مفاهيم ، يصبح نظام الحياة عامة والحياة السياسية بالذات في الدولة الجاهلة نظاما يختلف كل الاختلاف عن الدولة الفاضلة . فبينما يشمل مفهوم السعادة في المدينة الفاضلة سعادة الراعي والرعية وسعادة الجميع ، فان السعادة في المدينة الجاهلة ، هي سعادة لها معناها الخاص ، سعادة القلة على حساب الكثرة . واذا ما قدرلنا ان نقف على الاساس الذي يسير عليه نظام المدينة الجاهلة ، لرآيناها يتمثل في مبدأين : الأول وهو القهر ، وهنا تنتفى كل كفاءة وخبرة واستعداد ، والثاني وهو الجهل وهو الذي يتمثل بالجهل بالحياة الحقيقية والسعادة الحقيقية التي يحصل عليها الناس عن طريق عمل الخير والفضيلة .

وصفوة القول ، ان الفارابي يعتبر من كبار المفكرين والفلاسفة الذين انجبتهم الحضارة العربية الاسلامية . فهو الذي ارسى قواعد الفلسفة السياسية

(١) تاريخ الفلسفة العربية ، ص ١٥٢ .

العربية الاسلامية • وهو يعتبر من اوائل مفكرى فلاسفة السياسة العرب والمسلمين ، الذى اخذ عنه الكثير من الفلاسفة من بعده في الشرق والغرب على حد سواء • وتتجلى عظمة هذا الفيلسوف في بناء فلسفته على قواعد فكرية سياسية اتخذت من الشريعة الاسلامية وتعاليمها منطلقا رئيسيا ، ومستفيدة من كل فكرة جاءت بها الفلسفات القديمة (سيما اليونانية) التى لا تتعارض معها • وبذلك ظهرت فلسفة الفارابى عربية اسلامية في صبغتها وصيغتها •

ان عظمة هذا المفكر تتجلى بوجه خاص ، في ابتكاره نظريات سياسية جديدة ، لا تزال تضاهى احدث النظريات السياسية في عصرنا الحاضر • من ذلك مثلا ، ما يمكن وصفه « بنظرية التنازل عن الحقوق »^(١) ، التى يتعاهد الافراد فيها على التنازل عن بعض حقوقهم في عقد متفق عليه بفعل حاجتهم الى الاجتماع والتعاون مع بعضهم البعض وبفعل رغبتهم في تحقيق سعادتهم • وفي نظرية الرئاسة المتصلة اتصالا وثيقا بالشريعة وبالمثل الاخلاقية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالسياسة • • ولا اقل من ذلك فلسفته الواسعة الآفاق التى امتدت الى اقامة مجتمع عالمي يضم امم المعمورة كافة • وهذه النظرة لم يسبقه فيها احد من الفلاسفة من قبله وبضمنهم فلاسفة اليونان الاقدمين الذين لم يخطر ببالهم اكثر من اقامة مجتمع سياسى يتحدد بدولة المدينة • وهذا ما يؤكد اصالة الفكر العربي الاسلامي واصالة مفكره^(٢) •

ان هذا الفيلسوف الذى سبق المفكرين في العصور الحديثة من امثال هوبز ولوك وغيرهما ، كان من اوائل مفكرى الحضارة العربية الاسلامية الذين حاولوا رسم صورة تحليلية للدولة في عصره • الا ان تلك الصورة جاءت في بعض جوانبها نظرية اكثر منها عملية • ولعل السبب في ذلك هو ان الفارابى كان قد

(١) انظر H. Sherwani: Studies in Muslim's Political Thought & Administration, p. 87.

(٢) رجوع الى تفاصيل اخرى ، انظر علي عبدالواحد في « فصول من آراء اهل المدينة الفاضلة » •

قدم آراء مستوحاة من تفكيره المجرد وليس من تجربته لانه لم يمارس السياسة العملية .

ابن سينا :

ابن سينا^(١) احد الاعلام المشهورين الذين انجبتهم الحضارة العربية الاسلامية . ومع ان شهرة ابن سينا قد جاءت عن طريق الطب ، الا ان اهتمامه بالفلسفة والفلسفة السياسية والكتابة فيهما قد جعل منه فيلسوفاً سياسياً مشهوراً ايضاً .

نظر ابن سينا الى المجتمع السياسي من زاويتين رئيسيتين : الزاوية الاولى وهي سعادة الفرد والثانية سعادة المجتمع . وقد غنى بالبحث في الوسائل التي نوصل الفرد والمجتمع الى الغايات المنشودة .

فمن حيث نظرتة الى الفرد وسعادته بالذات ، فانه يرى ان سعادة الفرد لا تكمل الا مع المجموع . فالفرد بدافع من طبيعته الاجتماعية ، وبدافع من حاجاته ، يجتمع بغيره وبذلك تنشأ الاجتماعات والمدن والدول . ومثل هذه النظرة لا تختلف كثيراً عن نظرة الفارابي في نظريته الخاصة بتكوين الاجتماعات والمدن والدول التي تنشأ نتيجة عقد يتم على اثر التعاون بين الافراد انذني تفرضه الطبيعة والحاجة والرغبة البشرية . وهذه النظرة بحد ذاتها تبين للباحث مدى تأثير ابن سينا باستاذة الفارابي .

(١) ولد ابو علي الحسين بن عبدالله بن علي بن سينا ، الملقب بالشيخ الرئيس في مقاطعة بخارى عام ٣٧٠هـ - ٩٨٠م وتوفى عام ٤٢٨هـ - ١٠٣٧م وكان عمره (٥٨) سنة . وقد مضى الشطر الاول من حياته في بخارى وجرجان ، واما الشطر الثاني فقد قضاه في اصفهان حيث توفى فيها . وكانت حياته حياة صاحبة حيث جمع بين العلم والسياسة والوزارة . وقد اكب على دراسة الرياضيات والطبيعية وعلوم ما بعد الطبيعة واكتسب شهرة واسعة في الطب وهو في سن مبكر . كما استهوتته الفلسفة عامة والفلسفة السياسية خاصة . فانكب على دراستها والف فيها مقتنياً اثر الفارابي . اشهر مؤلفاته في فلسفة السياسة : السياسة ، والشفاء ، والاشارات ، والتنبهات .

اما من حيث نظرته الى المجتمع السياسى أو الدولة ، فانه رأى ان نجاحها يتوقف على صلاحها . وبما ان الدولة تتكون من راعي ورعية فان صلاحها يتم بصلاح الراعي والرعية . وقد رأى ان كلا من الراعى والرعية في المجتمع السياسى يشترك في صلاح الدولة ، وان صلاح الراعى له اهمية في صلاح الرعية . ومن جهة أخرى ، فان الصلاح الحقيقى يبدأ بصلاح النفس .

هذا وان صلاح النفس يبدأ بمعرفة النفس لان اصلاح الغير يقوم في ظل اصلاح الذات ، « وان اصلاح الذات أقرب الى الانسان من اصلاح الغير » (١) وتجلى معرفة النفس بالوقوف على عيوبها ، لان هذه العيوب من شأنها ان تقف عقبة في طريق السعادة (٢) . ان معرفة العيوب ليست بالعملية السهلة . ذلك ان معرفة العيوب لا يمكن كشفها الا بالعقل والعقل المستير بالذات . ومن هنا تظهر اهمية العقول المستيرة في كشف العيوب واصلاحها ، مبتدئة باصلاح الفرد لذاته ومن ثم لغيره ولمجتمعه .

وحيثما يتحدث الفيلسوف ابن سينا عن الدول وانواعها (٣) ، فانه يتحدث عنها من خلال انواع القوانين الذى تحكمها ونوع القادة ومدى ارتباطهم بقانون الدولة وشريعتها ، ثم انعكاس هذا وذاك وعلاقتها بحياة الشعب أو الامة التى تضمها تلك الدولة .

ويرى ابن سينا ان الرسالة الاسلامية جاءت لتقيم دولة فاضلة . وان العبرة فيها ، هي تطبيق احكامها وتعاليمها على افضل وجه ، والا فان الخروج عليها ينقلها الى صعيد الدولة الفاسدة .

(١) تاريخ الفلسفة العربية ، ص ٢٢٩ .

(٢) المصدر ذاته ، ص ٢٢٩ .

(٣) لقد وجد ان دراسة انواع الدول يقع ضمن علم سياسة المدينة الذى يضم من بين ما يضم اصناف السياسات والرياسات والاجتماعات المدنية الفاضلة والفاسدة . وعلم سياسة المدينة بنظره هو احد العلوم العملية التى تضم الى جانب علم سياسة المدينة كلا من علم سياسة المنزل وعلم الاخلاق .

وحين يتحدث ابن سينا عن دولته الاسلامية الفاضلة المنشودة ، فانه يرى ان اول مقوماتها هي نوعية قيادتها التي هي قيادة نبوية . وهذه القيادة النبوية ، لا يرقى الى مستواها اى نوع من القيادات . فالنبي أو الرسول ، هو اعلى مرتبة وقدرة ومعرفة من أي فيلسوف تحدثت عنه كتب الفلاسفة القدماء ، فهو قائد سياسى ، بالاضافة الى انه قائد دينى واجتماعى . وتتجلى واجباته السياسية في اقامة مجتمع سياسى يعطى دولته وقانونها وقيادتها قدرها ومكانتها . فهو مجتمع يدرك ان الشريعة (وهى الشريعة الاسلامية) هى دستور الدولة الاعلى ، وقد جاء بها نبي موحى من قبل الخالق العظيم عن طريق ملائكته ، لاقامة الخير والحق والعدل وتوجيه الانسان نحو السعادة الحقيقية في الدارين الاولى والآخرة .

ومن هنا نجد ، ان القيادة السياسية النبوية وقانونها الموحى شيان ضروريان بالنسبة لابن سينا لاقامة الدولة الاسلامية الفاضلة . وان دور القيادة السياسية الموحاة ، يتجلى بوجه خاص ، وبالإضافة الى ما تقدم ، الى افهام المواطن في هذه الدولة لمعرفته لحقيقته وعلاقته بربه وبرسوله الموحى وصلة ذلك بسعادته . ثم ان ابن سينا يرى ايضا دور الرسول الكبير في غرس حب الشريعة واطاعتها واطاعة خلفاءه من بعده في نفوس مواطنى الدولة . وهنا ينتقل ابن سينا الى دور رئيس الدولة الذى يخلف الرسول (وهو الخليفة أو الامام المختار شرعا) في الحفاظ على كيان الدولة ونموها وازدهارها . وهنا ايضا يحدد ابن سينا ما يجب ان يتحلى به الخليفة من خصائص . فهو يبين لنا في كتاب « الشفاء » ان الخليفة يجب ان يتحلى بالفضائل : كالشجاعة والاعتدال وحسن التدبير . ثم ان الخليفة يجب ان يملك ذكاء عاليا يساعده في ان يكون حكيما في تدبير شؤون الدولة ، ومميزا بين ما هو عملي وبين ما هو خيالى^(١) . وفوق هذا وذاك ، فانه يجب أن يكون عارفا باحكام الشريعة الاسلامية وتعاليمها معرفة دقيقة وواسعة . واخيرا وليس آخرا ، ان يكون متشبعا بروح العدالة والانصاف .

(١) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٣ .

وحينما يتحدث الفيلسوف ابن سينا عن المواطن في الدولة الاسلامية الفاضلة ، فانه يتحدث عنه من زاوية معينة ، وتلك هي ان صلاح الدولة لا يتم الا بالراعى والرعية معا . وهنا يؤكد ابن سينا على قيمة واهمية المواطن واوضاعه الشخصية والاجتماعية^(١) في المجتمع السياسى الاسلامى . ويمكن الوصول الى أفضل الاوضاع الشخصية والاجتماعية لمواطن الدولة حين يقوم بواجباته ، والتي يصنفها حسب تصنيف الشريعة التقليدى الى العبادات والمعاملات . فمن حيث واجباته فيما يتعلق بالعبادات فانه يرى ان المواطن الصالح ، هو المواطن المشرب بالروح الاسلامية الحقة : المواطن الذى يؤدى واجباته تجاه ربه بقيامه بالصلاة واتباء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت . اما واجبات المواطن الخاصة بالمعاملات ، فانه يلخصها بشعور الفرد بمصلحة الجماعة بالاضافة الى مصلحته . وهذا الشعور بمصلحة الجماعة هو الذى يؤلف المجتمع الاسلامى المتماسك . وان هذا الشعور يعمل على غرسه في الفرد تشربه بعقيدته الاسلامية وباحكامها التى تربيته على الصدق والاستقامة والفضيلة . مثال ذلك ، ان قيام ، المواطن باداء شعائر صلاة الجماعة سيما في يوم الجمعة ، تجعل منه على تماس مع قاداته . ثم ان الايمان بالعقيدة ، يجعل من الفرد اول من يمثل الى الايقاع بالتزاماتها ككليته لداعى « الجهاد » من اجل ان تكون كلمة الله هى العليا ، ومن اجل دوام وحدة المؤمنين .

كما تمثل واجبات المواطن ، فيما يختص بالمعاملات ، بالاضافة ، الى التقيد بالقوانين التى تحدد علاقاته بغيره من المواطنين اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا . وهنا يعود ، ابن سينا ليؤكد على دور الخليفة^(٢) أو الامام في الاشراف على تطبيق

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٢) يرى ابن سينا ان دور الرئيس له اهمية بالغة في حياة الدولة . ذلك ان اخلال الرئيس بواجباته يعمل على افساد الدولة وافساد رعييتها ، كونه يصبح نموذجا سيئا للمواطنين . وبذلك تتحول الدولة الى دولة فاسدة تحتاج الى اصلاح ، وعليه فانه يرى ان اصلاح القادة امر ضرورى . هذا مع العلم انه يدرك صعوبة ذلك على الدوام . ولذا فهو يقول : ان احوج الناس الى الاصلاح



الفوانين ، وفي توجيه المواطنين توجيهها صالحا يخدم ارساء قواعد الدعامتين
الرئيسيتين التي تقوم عليها الدولة والمتمثلين بالفرد وعلاقاته (المشاركات)
والعائلة وبنائها (المناكحات) (١) .

وصفوة القول ، ان ابن سينا الفيلسوف يحدد فلسفته السياسية بشأن الدولة
الاسلامية ، ويضع لها الاطار العام والاجزاء الرئيسية المكونة لهذا الاطار بحيث
تعمل جميعا بصورة متكاملة وهو ما يؤدي بها الى ان تصبح دولة فاضلة .

واى تسمين للفيلسوف ابن سينا يجب ان لا يغفل عن ذكر الحقائق
التالية : الحقيقة الاولى ، وهى ان الفيلسوف ابن سينا ينطلق من التراث والتقاليد
العربية الاسلامية في بناء فلسفته السياسية ، ولكنه لا يتغلق على نفسه ، وانما
ياخذ من الفلاسفة الاقدمين ومن سبقه من فلاسفة العرب والمسلمين ، في كل ما
هو ينسجم والقيم التي تقوم عليها الحضارة العربية الاسلامية . وفضل مثال على
ذلك ، اتفاه مع افلاطون في ان يكون القائد عالما وواسع الخبرة والمعرفة ، الا
انه اختلف معه ، وكما يوضح ذلك في كتابه « الاشارات » الى ان القيادة النبوية
في ارساء قواعد الدولة الفاضلة ، هى اوسع معرفة واعلى مستوى في ارساء قواعد
الدولة الفاضلة من قيادة الملك الفيلسوف الذى يتحدث عنه افلاطون . فالرئيس
النبى هو قائد موحى وحامل رسالة وشريعة ودعوة . اما الرئيس الفيلسوف فانه
لا يتصف بكل هذه الخصائص . وهكذا يبنى ابن سينا دولته على اساس العقيدة ،
الامر الذى يوصله الى نظرية سياسية هى نظرية النبوة التى تجعل منشأ الدولة
على اساس عقائدى - دينى . اما الحقيقة الثانية فهى التى تتمثل في واقعيته .
وربما تأثر في منحاه الواقعي هذا بابن المقفع بوقوفه على مؤلفاته سيما « الادب
الصغير والادب الكبير » . وسواء اكانت واقعيته من تأثير ابن المقفع أم من غيره ،

هم الرؤساء وانهم ابعدهم عن ذلك لغفلتهم عن أنفسهم وتزلف الناس لهم . .
وضعف ميلهم الى قبول النصيحة ، وامتناع الناس عن اظهار مساوئهم وتنبههم
على عيوبهم . انظر الفاخورى ، تاريخ الفلسفة العربية ، صص ٢٣٠-٢٣١ .
(١) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

فان هذه الواقعية قد جعلته يختلف عن استاذه الفارابي الذي ظل فيلسوفا سياسيا نظريا اكثر منه عمليا .

ومن الامثلة على واقعيته هي ان دولته الفاضلة لم تكن تصورات فيلسوف ينسج آراءه من وحي الخيال ، وانما هي دولة اسلامية تقوم على شريعة جاء بها رسول الى جماعة من البشر . ومن واقعيته ايضا ، تصويره للإصلاح الذي يبدأ بالذات ومنه ينتقل الى التأثير على الغير حتى يعم المجتمع السياسي بأسره . وكذلك تصويره للفساد الذي يبدأ بفقد الفرد لعقيدته وايمانه بربه وبشريعته ، الامر الذي يؤدي الى فساد ضميره وخلقه ، فيسرى بذلك الى الغير ، وعندها ينتشر في المجتمع السياسي فيصبح بنتيجتها مجتمعا سياسيا فاسدا . وفضل تصوير لواقعية الفيلسوف ابن سينا ، هو حديثه عن فساد القادة في المجتمعات السياسية الفاسدة التي يتزلف فيها افرادها لقادتهم فيعملوا بذلك على زيادة فسادهم فسادا .

والحقيقة الثالثة ، تتجلى في ان ابن سينا على الرغم من اشتهاره بالفلسفة الطبيعية والموراثية والاخلاقية ، الا ان ابحاثه في السياسة سيما رسالته الخاصة في السياسة لم تكن غير ذات شأن كما رآها بعض المفكرين السياسيين المحدثين . فالقول بان ابن سينا لم يأت في ابحاثه السياسية بشيء جديد يضيف الى ما جاء به استاذه الفارابي هو قول تعوزه الدقة العلمية في مفهوم عصرنا الحاضر . فمع انه اتفق مع استاذه في الكثير من المسائل والآراء السياسية الفلسفية ، الا انه لم يفقد شخصيته الفكرية المتميزة . فقد اختلف مع استاذه في طريقة بحثه وعرضه للآراء والمشكلات السياسية . فبينما كانت طريقة معالجة الفارابي استنتاجية تسير من العموميات الى الخصوصيات ، فان طريقة معالجة ابن سينا ، كانت استقرائية تسير من الخصوصيات الى العموميات . من ذلك مثلا ، طريقة معالجته للإصلاح التي ابتدأها بإصلاح النفس أولا ثم سار من بعدها الى اصلاح المجتمعات ومن ذلك ايضا نظرتة الخاصة الى الافراد الذين بدافع من المصالح الخاصة يسيئون الى مجتمعهم فيتعمدون انتخاب قادة غير صالحين . ان مثل هؤلاء القادة السياسيين في نظر ابن سينا هم مقتصبون للسلطة وان ازالتهم من الوجود ، لهو

واجب على المؤمن الحقيقي بعدالة شريعته • وبهذه الصورة يبرهن ابن سينا في أسلوب رصين وسلس كيف ان الاختيار الخاطيء المتعمد ، لا يجعل ممن يقوم به مواطنا فاسدا في الدولة فحسب ، وانما يجعل منه فاقدا لعقيدته وايمانه بخالقه الذي يوجب عليه في شريعته امتثال الصدق والخلق في العمل السياسى • ومهما يكن من امر الفيلسوف ابن سينا ، فان مؤلفاته في الفلسفة السياسية قد أثارت اهتمام المفكرين من بعده من امثال ابن خلدون وابن باجه وغيرهما باعتبارها مصادر ثمينة تعطى صاحبها منزلة مهمة بين فلاسفة الحضارة العربية الاسلامية •

الغزالي :

يعتبر الغزالي^(١) من اشهر المفكرين الذين انجبتهم الحضارة العربية الاسلامية • وترجع شهرته هذه الى سعة اطلاعه وصراحته واخلاصه لعقيدته ومؤلفاته العديدة • فلقد عنى بعلوم الفقه والكلام والاخلاق والفلسفة ، وابلى فيها بلاء اصيلا فاصبح بذلك متكلما وفقهيا وفيلسوبا متميزا عن غيره من المفكرين •

(١) ولد ابو حامد محمد ابن احمد الغزالي المعروف « بحجة الاسلام » •• في غزالة احدى قرى طوس عام ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م وتوفى في عام ٥٥٠هـ - ١١١١م • ويتبين مما تقدم ان الغزالي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى الموافق للقرن الحادى عشر الميلادى : وهو القرن ائذى يمثل العصر العباسى الثالث ، الذى تميز بانحلال الدولة العباسية وضعفها سياسيا وعسكريا ، وبفوضى في الاخلاق وخمول عام في الفكر •

ولقد قضى الغزالي جزءا يسيرا من حياته في طوس ثم انتقل الى نيسابور حيث اتصل بالجويني المعروف بامام الحرمين ودرس على يده الفلسفة واسداليب الجدل والمنطق • وبوفاة استاذة انتقل الى بغداد عاصمة الدولة العباسية وهو في سن مبكر (٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م) وهناك نال التقدير والاکرام من نظام الملك الذى عينه استاذا في المدرسة النظامية • ولقد ذاع صيته اثر اشتغاله في المدرسة الجامعية النظامية ، ومما زاد في شهرته انه عنى بالتأليف الغزير المتسم بالاصالة الى جانب قيامه بالتدريس • ومن أشهر مؤلفاته « في الفلسفة والاخلاق » ، « مقاصد الفلاسفة » ، « وتهافت الفلاسفة » ، و « الاقتصاد في الاعتقاد » و « التبر المسبوك » و « المنقذ من الضلال » وغيرها •

ان اهم ما يعيننا من امر العلامة الغزالي هو الوقوف على آرائه في السياسة والفلسفة السياسية بالذات . وأول ما يجب الوقوف عليه في هذا الشأن هو الاشارة الى ان الغزالي وان كان قد انتقد بعض الفلاسفة ودحض آراءهم في بعض مؤلفاته سيما في كتابه « تهافت الفلاسفة » ، الا ان ذلك كله لم يخرجهم عن حضيرة الفلسفة والفلاسفة . ذلك لان الغزالي الذي تغلغل في اعماق الفلسفة وكتب في مقاصدها ، لم يكن هدفه ، رفضها جملة وتفصيلا ، وانما كان هدفه منصب وراء نقد للاوضاع وللمصطلحات الفلسفية التي ادت بها الى التهافت والانحلال ، وهو ما فرض عليه تحليلها ودراستها دراسة تأخذ بما يؤالف بين الشرع والمنطق والعلم وترفض ما يخرج عن ذلك . وبذلك يكون الغزالي قد اختلف عن سبقه من المتكلمين والفقهاء والفلاسفة مكونا لنفسه طريقه الخاص به الذي اضفى عليه صفة المفكر الفيلسوف المتميز عن غيره .

وعند الوقوف على آراء وافكاد ونظريات فيلسوفنا الغزالي ، نجد انها يمكن ان تصنف الى تلك الافكار العامة التي تتعلق بالمجتمع السياسي من حيث نشأته ونموه وازدهاره وسعادته ، وتلك الافكار الخاصة التي تتعلق في بنية المجتمع السياسي من حيث راعيه ورعيته والعلاقة بينهما .

لقد وضع ابو حامد الغزالي نظرية محددة المعالم لقيام المجتمعات والمجتمعات السياسية بالذات . فلقد رأى الغزالي ، ان الانسان قد خلق بطريقة لا يتمكن فيها من العيش دون تعاونه مع الآخرين . وان تعاونه هذا قد ادى الى احتراف الحرف والى تعاون اصحاب الحرف المعينة مع بعضهم بحيث ادى الى قيام الفنون والصناعات^(١) ، وانه لامر طبيعي ايضا ان يعمل اصحاب الحرفة الواحدة في الدفاع عن حرفتهم ضد تعديات الآخرين ، وان يضعوا القواعد التي تربطهم نتيجة لحاجتهم لها . وهذا مما ادى بعينه الى قيام القواعد والى قيام الحكومات التي من

(١) انظر احصاء العلوم ، قسم (٣) ، ص ٦٠ . كذلك شيرواني ، ص ص

شأنها ان تعمل على تطبيق القوانين^(١) . وبهذه الصورة من التطور الناجم من طبيعة الاشياء والحاجات ، تظهر الدول . ومثل هذا التصوير يجعل من الغزالي أن يكون من اوائل المفكرين الذين بنوا نظرية قيام الدول على أساس التطور . ولا يكتفي الغزالي في ابحاثه في تحديد فلسفته السياسية بشأن قيام الدولة ، وانما يتحدث عن مقومات المجتمعات السياسية (الدول) ونموها وازدهارها . فهو يرى ان السعادة هي الغاية التي يسعى من اجلها الافراد والجماعات . وان طريق الوصول الى السعادة الحقيقية هو ذلك الطريق الذي يربط بين سعادة الدنيا والاخرة .

ولقد رأى ان السياسة هي الاساس الذي يوصل الانسان الى السعادة الحقيقية المنشودة . وعن طريق السياسة وكما يقول في كتابه « فاتحة العلوم » يتم اقامة نظام الدنيا ، كما يتم عنها كذلك اقامة نظام الآخرة . ولكن السياسة لا تستطيع ان تلعب هذا الدور المشرف والرفيع ، الا اذا وجهت المواطنين أو الخلق ، نحو الاستصلاح وطريق الاستقامة . ومن هنا نجد ان الغزالي يعطى السياسة وظيفة حساسة وخطيرة . وتمثل هذه الوظيفة الحساسة كونها وظيفه تعليمية اخلاقية . فهي تعليمية لانها تقوم على قواعد واصول تؤلف بمجموعها علم السياسة ويشترط فيها كل من يعنى في السياسة بما في ذلك عالم السياسة ورجل السياسة . وهي خلقية لانها عملية التربية فيها تربي على الاستقامة والصلاح في الدنيا والآخرة . وعلى هذا الاساس تصبح السياسة ذات صلة قوية بالدين^(٢) ، كونه المنبع الذي تصدر عنه فضائل السلوك والاخلاق : التي من شأنها ان تؤدي

(١) انظر H. Sherwani: Studies in Muslim's Political Thought & Administration, p. 159.

(٢) يؤكد الغزالي على هذه الصلة القوية بين الدين وبين السلطة السياسية بقوله : « الدين والسلطان تؤمان ، ولهذا قيل الدين أس ، والسلطان حارس ، وما لا أس له فمهذوم ، وما لا حارس له فضائع » ، انظر الاقتصاد في الاعتقاد ، ص ١٠٥ .

بصاحبها الى سعادة الدنيا والآخرة . ولهذا نجده يقول في كتابه « فاتحة العلوم » ما مؤداه ان وظيفة التربية السياسية هي وظيفة تالية لعمل النبوة^(١) . وعلى هذا الاساس فانه يعطى لفقهاء السياسة ووظيفة المعلم والمستشار الذى لا ينفك عن تقديم المعرفة والمشورة التي من شأنها ان تبني المجتمع والدولة بناء قويا . وبهذه النظرة يكون الفيلسوف الغزالي قد ربط ما بين الوجه النظرى والوجه الواقعى للسياسة .

وحين يتحدث الغزالي عن الاطار العام الذى يتحدد به المجتمع السياسى والمقومات التى يقوم عليها ، فانه يذهب الى الضوابط التى تحمى هذا المجتمع السياسى أو الدولة من الاضمحلال والوهن . وهنا يدخل الغزالي الى تبيان دور القانون واثره في حماية المجتمع السياسى والدولة بالذات . فهو يرى ان وجود القانون في الدولة ينبع من طبيعة الفرد ومن طبيعة العلاقات التى تنشأ بين الافراد نتيجة سلوكهم . ويفسر طبيعة النفس البشرية تفسيراً نفسياً (سيكولوجياً) ، حيث يرى ان الانسان « ليس الكائن العاقل الذى عرفه فلاسفة اليونان من امثال سقراط وافلاطون وارسطو ، وانما هو الكائن . . . » ، الذى تسود حياته الشهوات^(٢) . وان هذه الشهوات اذا ما انطلقت للبحث عن حاجاتها ومطالبها فانها تترك أثراً تدميراً في المجتمع^(٣) . ومن هنا تنشأ الحاجة الى السياسة والى الضوابط التى تكبح هذه الشهوات . وهنا يؤكد الغزالي على حقيقة لا تزال مهمة في العصر الحديث وتلك هي ان مجال الدولة في تحقيقها لاهدافها له صلة وثيقة بنظامها السياسى والقانونى . وتمثل هذه الصلة الوثيقة في ان القانون الذى يحدد طبيعة النظام السياسى ، ينشأ كموجه وضابط لسلوك الانسان^(٤) . فهو الشارح للاختصاصات التى يتحداها الانسان بدافع من شهواته . وهذا هو الطريق بعينه

(١) فاتحة العلوم ، ص ٦٥ .

(٢) انظر محمد عبد المعز نصر ، في الدولة والمجتمع ، ص ١٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٤) شيرواني ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٢ .

الدى تنشأ فيه الحاجة الى السلطان ، الذى يسوس الناس ويحملهم على التمسك بحدود اختصاصاتهم الواردة فى القمنون^(١) ، والى الفقهاء الذين يعملون بمثابة المستشارين للسلطان كونهم العلماء بقانون السياسة^(٢) .

والجدير بالذكر ان الغزالى ، وهو المؤمن بقانون شريعته الاسلامية ، يؤكد بوجه خاص على اهمية قانون الشريعة الاسلامى بالنسبة للدولة كونه القانون الامثل فى وضع الاختصاصات وحدودها فى مكانها على اساس من العدالة والانصاف مما يجعله « كفيل بحل مشاكل المجتمع والدولة »^(٣) .

وينتقل الغزالى من اطار فلسفته السياسية العام الى الاطار الخاص ، فيتحدث عن طبيعة السلطة فى المجتمع السياسى ، والمجتمع العربى الاسلامى بالذات . وفى ذلك يرى الغزالى ان حياة الافراد كانت تسودها الفوضى ولم تكن تخضع لنظام مبل قيام الدولة . وان بقيام الدولة بدأ تنظيم حياة الافراد والجماعات وظهر على أثر ذلك النظم الثقافية ، والاقتصادية والسياسية المختلفة . ومن هنا نجد ان الغزالى يجعل للدولة اهمية بالغة فى تنظيم حياة الفرد والمجتمع . على ان الشئ الذى يجدر توضيحه فى فلسفة الغزالى السياسية ، هو ان التنظيم الذى قضت به الدولة على الفوضى فى حياة الافراد والجماعات ، كان قد تم لها بفعل سلطاتها

(١) شيروانى ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ١٦٢-١٦٣ .

(٢) فاتحة العلوم ، ص ٤٤ ، يقول الغزالى فى نفس الصفحة « ان الله تعالى خلق الدنيا زادا للمعاد ليتناولوا منها ما يصلح للتزود . فلو تناولوا منها قدر الزاد بالعدل لانقطعتم الخصومات ، وتعطل الفقهاء ، ولكنهم تناولوها ، وضاعت اعيان الاموال والانفس عن الوفاء بجميع الشهوات ، فتولد منها الخصومات فمست الحاجة الى تمهيد قانون فى بيان حدود الاختصاصات بالمتكوحات والمطعومات وسائر المطلوبات الدنيوية ، وهو العلم الذى يتولى الفقيه بيانه فى ريع المعاملات والنكاح والخراج . ومست الحاجة الى سلطان يسوسهم ويحملهم على الحدود الفاصلة للاختصاصات . فالفقيه هو العالم بقانون السياسة ، وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات » .

(٣) محمد عبدالمعز نصر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠ .

القاهر المطاع^(١) . « فالقهر الذى يكفل الطاعة هو خاصية الدولة عند الغزالي ، وهو في ذلك يؤكد مثل المحدثين ضرورة السيادة كركن جوهرى من اركان الدولة^(٢) . » وما يلاحظ ان هذا التفسير لحالة الفوضى وللسلطان القاهر او السيادة يأتلف كل الائتلاف مع ما جاء به توماس هوبز الفيلسوف الانكليزي الذى جاء بعد الغزالي بستة قرون . وما يلاحظ ايضا ان الغزالي كان فيلسوفا واقعا اعتمد في حججه على تبريرات فعلية ، بعكس الفيلسوف الانكليزي هوبز الذى اعتمد في حججه على تبريرات افتراضية^(٣) . وتمثل واقعيته في انه كان يحاول في فلسفته هذه ايجاد مخرج للقضاء على الفتن التى كانت تسود عصره ، بحيث وجد ان السبيل الامثل لحفظ الامن والنظام ، هو في توحيد السلطة ووضعها بيد سلطان قاهر ، تكون السيادة بيده مركزة وموحدة حتى يتحقق الامن والنظام : « تحول دون تضارب الآراء وتعدد الاهواء وشيوع الفوضى . »^(٤)

وحينما يبحث الغزالي المفكر في طبيعة السلطة وصاحب السلطة بالتحديد ، فانه يفسر هذه السلطة بانها سلطة تؤهل صاحبها في ان تكون كلمته هي العليا ، وان صفة القهر نابعة من الردع لمن يسيء الى نظام الدولة وأمنها ، ويذهب الى ابعاد من ذلك فيؤكد ان طبيعة السلطة تنطلق من المسؤولية التى تتمثل في رعاية الشعب وخدمته بتأمين كل ما يعمل على « توفير الظروف التى تضمن سعادة الدنيا والآخرة »^(٥) . ويذكر ان ابعاد المسؤولية هذه تتحدد بحدود العدل والانصاف

(١) محمد عبدالمعز نصر ، ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) محمد عبدالمعز نصر ، ص ٢٢ . ويقول الغزالي في هذا الصدد « ان الخلق على اختلاف طبقاتهم وما هم عليه من تشتت الاهواء وتباين الآراء (لو تركوا وشأنهم) ولم يكن لهم رأي مطاع يجمع شتاتهم ، لهلكوا من عند اخرهم . وهذا داء لا علاج له الا قاهر مطاع يجمع شتات الآراء » . انظر كتابه « الاقتصاد في الاعتقاد » ، ص ص ١٠٥-١٠٦ .

(٥) محمد عبدالمعز نصر ، ص ٢٣ .

في معاملة الرعية ومن هنا تصبح مهمة السلطان الاولى المراقبة والمشاورة في تحقيق كل ما يعمل على تحقيق العدل وفي ابعاد كل ما يعمل على وقوع الظلم .

ويتبين مما تقدم ، ان وجود السلطان امر ضرورى طالما ان هذا الوجود له مهمة توفير الامن وحفظ النظام . وبناء على هذه الضرورة ، فان الغزالي يضع شروطا عامة لرئيس الدولة او الامام والتي تضم من بين ما تضم وكما وصفها في كتابه المستظهري^(١) : الكفاية والعلم والورع . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ، ان تفسيره للشروط قد جاء متكيفا والظروف التي كانت تمر بها الدولة العباسية عامة وما كان يحيط بالمستظهر بالله خاصة . من ذلك مثلا انه « لم يشترط ... صفة الكفاية على رأي الامام وحده بل ادخل في الحساب رأي الوزير كذلك . فكفاية الامام تتضمن كذلك كفاية الوزير ... »^(٢) . وهذا بحد ذاته يجعل منه مفكرا وفيلسوبا واقعيا . ومن هذه الواقعية في التفكير ايضا ، تفسيره لبيعة الخليفة او الامام . فبالنسبة الى البيعة ، فان الغزالي يفسر البيعة في ضوء « مبدأ شوكة أهل الشوكة » . ويقصد الغزالي بشوكة اهل الشوكة ، بان القدرة على الحكم تقوم على شوكة اهل الشوكة وعلى ارادة الشعب . وبعبارة اخرى ان شوكة اهل الشوكة تتمثل في الكثرة الكاثرة من ابناء الشعب او الامة ، وهذا ما يوضحه في كتابه (المستظهري) حيث يقول في « تبيان صلة انعقاد الامة بشوكة اهل الشوكة . انما تقوى الشوكة بالمظاهرة والمناصرة والكثرة في الاشياء والاتباع ، وتناصر اهل الاتفاق والاجتماع اقوى مسلك من مسالك الترجيح »^(٣) .

(١) يصنف الغزالي هذه الشروط او الصفات ، بصفات خلقية (هي البلوغ ، العقل ، الحرية ، الذكورية ، نسب قريش ، سلامة حاسة السمع والبصر) وبصفات مكتسبة هي (النجدة ، الكفاية ، العلم ، الورع) . انظر التفاصيل في كتابه (المستظهري) ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٣) المستظهري ، ص ٦٢ . انظر كذلك تعليقات محمد عبدالمعز نصر على الموضوع نفسه ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣١ .

والذى يستدل من هذه الاقوال والآراء ، هو ان الغزالي يهدف في اقامة حججه على اسس واقعية ملموسة ، وليس على تعليقات وافتراضات خيالية . وهذا ما يجعله بعيدا عن مثالية الفارابى الفيلسوف الاسلامى ومثالية افلاطون الفيلسوف اليونانى .

وثمة ناحية مهمة أخرى يمكن ان تضاف الى الطابع الذى تميزت به فلسفة الغزالي وتلك هى قدرته على الاستنباط . فشوكة اهل الشوكة ، وهو المبدأ الذى استنبطه الغزالي للتعبير عن قوة الكثرة الغالبة من ابناء الامة يكون مثلا حيا لقدرته على الاستنباط . وهذا المبدأ فى الحقيقة قد سبق كل من تحدث عن طبيعة الحكم الشعبى او الديمقراطى من المفكرين فى العصور الحديثة . ومن امثلة ذلك ايضا استنباطه مبدأ « السلطان القاهر » وعلاقته بمسألة استمرار النظام الحاكم ، وهو الامر الذى اشار اليه فى كتابه « الاقتصاد فى الاعتقاد » . وتجلي قدرته فى الاستنباط أو بالاحرى الابتكار فى الوصول الى النظام بالقضاء على الفوضى عن طريق سلطان قاهر ، يتمكن بسلطته العليا (القاهرة) من جمع الشتات وتثبيت الامن وقرار النظام . وهذا الرأى فى الواقع قد اوصله الى استنباط نظرية السيادة فى الدولة التى سبق فيها بنظرته رأى المفكر الفرنسى بودان فى السيادة التى جاء بها فى القرن السادس عشر .

وقبل الانتهاء من تقييم آراء الغزالي فى فلسفته السياسية ، لابد من الاشارة الى عمق تفكيره ، سيما فى كتاباته عن الشريعة الاسلامية التى اصبح يلقب على اثرها « بحجة الاسلام » . واذا كان كل ما تقدم يعبر عن عبقرية وقدره خارقة ، فانه يعبر كذلك عن صدقه وايمانه بعقيدته وشريعته الاسلامية التى اتخذ منها منطلقا ومصدرا رئيسا لآرائه فى فلسفة السياسة .

واذا كان هناك ثمة نقد يوجد الى الغزالي ، فهو نزوله بواقعيته احيانا الى الحد الذى يضعف من حججه فى تثبيت افكاره وآرائه . ومن خير الشواهد على ذلك قبوله بالسلطان الجاهل وقبوله بطاعته وعدم الثورة عليه منعا للفتنة

وللاخلال بالنظام متغاضيا بذلك عن مسؤولية السلطة في تحقيق العدل الذي هو
اسس الاسس التي يرتكز عليها نظام الحكم العربي الاسلامي .

ابن رشد :

ابن رشد^(١) ، علم من اعلام الفكر العربي الاسلامي ولا يقل شهرة عمان
اسلفنا ذكره من اعلام الفكر والحضارة العربية الاسلامية .

ان الذى يقف على آثار الفيلسوف والمفكر ابن رشد يجد انها قد تضمنت
حقولا عديدة من اهمها الفقه والرياضيات والطب والسياسة .

فلسفته السياسية :

وبالنسبة لفلسفة ابن رشد السياسية ، فان اول ما يجب قوله ، وقبل
الوقوف على تفاصيلها ، هو انه فيلسوف عربي اسلامي قبل كل شيء . ذلك ان
ابن رشد عندما كتب فلسفته السياسية فانه كتبها بوحى من قيمه العربية ومبادئه
الاسلامية . فهو وان وقف على فلسفة كل من افلاطون وارسطو ، فانه وقف
عليها ووقف الفكر الفاحص وبطريقته الخاصة^(٢) واسلوبه الذى يناقش فيه

(١) هو ابو الوليد بن احمد بن رشد . وقد ولد عام ١١٢٦ م - ٥٢٠ هـ
في قرطبة مدينة العلم والمعرفة في المغرب العربي (الاندلس) . ولقد كان لنشأته
في اسرة علم ومعرفة ، ان شحذ فيه الهممة الى الانصراف والانكباب بشغف على
دراسة الفقه والرياضيات والطب والحكمة ، وعلى الوقوف على آراء من سبقه
من اعلام الفكر والفلسفة من عرب ومسلمين ويونانيين وغيرهم . فكان ذلك
ذلك ان عمل على شهرته ومهد له الاتصال بمن اشتهر في زمانه من رجال الفكر
والدولة (من امثال ابن طفيل وابي يعقوب وابي يوسف) سيما امير المؤمنين
ابي يوسف الملقب بالمنصور الامر الذى رفعه الى اترقاء اعلى المناصب . ومن
اشهر مؤلفاته « تهافت التهافت » و « فصل المقال » و « الكشف عن مناهج
الدولة في عقائد الملّة » و « بداية المجتهد » و « نهاية المنعقد » وغيرها التي
تربو جميعا على الخمسين والتي جاءت من خلالها اراءه في فلسفة السياسة . ولقد
توفى ابن رشد عام ١١٩٨ م - ٥٩٥ هـ .

(٢) تتميز طريقة ابن رشد عن غيره من الشراح في انه يتبسع طريقة
التلخيص (Paraphrase) التي هي على نحو يختلف عن الطريقة التي كان

كل رأي يقف عليه بحيث يحذف ويضيف حتى يصل هدفه : مما يجعله ان
يكون مفكرا اصيلا .

وعد استعراضنا لفلسفة ابن رشد السياسية نجد انها تنطلق من تعريفه
للانسان ولسعادة الانسان . فهو يرى ان الانسان حيوان اجتماعي وانسه لا
يستطيع ان يجد طريق سعادته الا بتعاونه مع الاخرين^(١) . والسر في ذلك كما
يرى ، ان الانسان يندفع بصورة طبيعية الى العيش مع الاخرين كونه حيوان
اجتماعي ، وان العيش مع الغير يؤدي الى التعاون فيما بين الجميع ، اذ انه
السبيل العملي الى سعادة الانسان .

وهو يرى انه لا بد للفرد لكي يكون تعاونه مشمرا في العمل على تطوير
نفسه . وتطوير الانسان لنفسه يتم عن طريق كمال عقله قبل أي شيء آخر^(٢) .
ثم ان هذا التطوير والوصول الى الكمال لا يتم بمعزل عن المجتمع^(٣) .

يستخدمها الفلاسفة السابقون من امثال الفارابي وابن سينا . وتقوم طريقة ابن
رشد في الشرح والتلخيص على ثلاثة اركان : الشرح الاكبر ، الشرح الاوسط ،
والجوامع ، او التلخيص . ففي الشرح الاكبر ، يفسر ابن رشد النص جزءا
فجزءا ، وفي الشرح الاوسط لا يذكر عن النص الا كلماته الاولى ، ثم يأخذ في
التفسير بغير تمييز بين ما له وبين ما لغيره . اما في التلخيص او الجوامع
فابن رشد يتكلم باسمه ، وفق منهج من عنده ، بحيث يبني فكرته ، متقيدا
باصل النص ، وبحيث يضيف او يحذف ما يراه متلائما مع تلك الفكرة .
اقتبس من قبل حنا الفاخوري تاريخ الفلسفة العربية عن كتاب احمد فؤاد
الاهواني : مقدمة تلخيص كتاب النفس لابن الوليد بن رشد ، ص ٣٩١ .

(١) تاريخ الفلسفة العربية ، حنا الفاخوري ، ص ٤٦٣ .

(٢) يرى ابن رشد ان السبيل الى كمال عقل الانسان امر له صلة وثيقة
بالشرائع الدينية وبالحكمة . ذلك « ان الشرائع الدينية من شأنها ان تعلم
الفضائل العملية ، وان الحكمة من شأنها ان تعلم الفضائل النظرية . انظر
المصدر السابق ، ص ٤٦٣ .

(٣) في الوقت الذي يتفق ابن رشد في هذا المضمار مع ارسطو ، فانه

نم يناقش الفيلسوف ابن رشد موضوع اجتماعية الانسان ، وموضوع التعاون بالذات ، فيتوصل الى حقيقة ذات صلة وثيقة بالسياسة والدولة ، وتلك هي ان التعاون يؤدي الى التجمع الانساني ، وان اى تجمع انساني لا بد وان يأخذ صورة من صور انظمة الحكم . وقد رأى ابن رشد ان افضل انواع انظمة الحكم هو نظام الحكم الجمهورى^(١) . ولقد وجد ان الحكم العربي في صدر الاسلام ينطبق تمام الانطباق على النظام الجمهورى . ذلك ان اساس قاعدة نظام الحكم العربي الاسلامي ، يستند الى اساس الاختيار وهو الحكم الجمهوري بعينه . ولكن هذا الاساس كان له ، لو سارت الامور سيراً طبيعياً ، ان يستمر ، لولا ما قام به معاوية بن ابي سفيان من محاولات فردية ادت بالحكم الى ان يصير حكماً وراثياً .

وتمثل صورة الدولة المثالية عند ابن رشد بانها تلك الدولة التي تأخذ بيد مواطنيها الى طريق امنهم وسعادتهم . ومثل هذا الطريق لا يمكن ان يتحدد الا بقيامها على قانون يأتي به قائد او رسول موحى ، وهذا القانون الموحى يمثل بالشريعة الاسلامية ، الذي يشكل دستور الدولة الاعلى ، الموجه لحياتها : حياة قيادتها المتمثلة بشخص الخليفة او الامام من بعد الرسول ، وحياة مواطنيها على السواء . وبهذا تكون صورة الدولة المثالية عند ابن رشد غير الدولة المثالية عند اليونان . ذلك ان أهم فارق بينها وبين دولة اليونان المثالية ، هي ان قاعدتها تستقر على قانون موحى به ، وهذا مالا يوجد في الدولة اليونانية^(٢) . ويرى ابن رشد ان اهداف الدولة لا تتحقق الا اذا اقترنت



بختلف كل الاختلاف مع ابن باجه الذي رأى انه اذا تعارض التعاون مع موضوع الكمال فانه لا مفر للفرد من الانزلال عن الاخرين بغية تحقيق ذلك الكمال . وحجة ابن رشد في مخالفته لابن باجه تقوم على القاعدة التي تقول ان الفرد لا يستطيع ان يعيش من دون مجتمع سياسي (او دولة) . انظر روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٥ .

(١) حنا الفاخوري ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٦٣ .

(٢) روزنثال ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٥ .

قوانينها بالتطبيق • وهنا يؤكد على روح دستور الدولة الاعلى المتمثل بالشريعة الاسلامية التي تقوم على قاعدة ممارسة السلطة فيها على مبدأ العدالة في الحكم • ومن الجدير بالذكر ، ان ابن رشد يحاول ان يعطي مفهوما دقيقا «لمبدأ العدالة» في الحكم ، وهذا المفهوم يقوم على الربط ما بين العدل والمعرفة • ذلك انه يرى ان العدل ثمرة من ثمار المعرفة وان الظلم هو ثمرة من ثمار الجهل^(١) • ومن هنا تظهر اهمية القيادة صاحبة المعرفة والخبرة في توجيه ابناء الامة نحو طلب المعرفة والاستزادة منها، وفي انعكاس سعة اطلاع القائد وعمق بصيرته على حكمه وممارسة سلطته بالعدل • وأهم من كل ما تقدم ، هو ان شدة التمسك بالاسلام وقيمه يعكس بصورة مباشرة على روح العدل وانتشار المعرفة • ان اي تسمين لهذا المفكر ، لابد وان يشهد له بسعة الاطلاع واستيعابه لقيم حضارته العربية الاسلامية واعتزازه بها • ثم ان دقة دراساته وشروحه لما جاء به كبار فلاسفة ، قد جعلت منه مصدرا دقيقا ورفيعا يرجع اليه في دراسة الفكر الغربي • ولقد كان للكثير من آرائه التأثير في الآراء التي طرحها من جاء من بعده من المفكرين الغربيين • وبالإضافة فان استقلال ابن رشد في تفكيره قد جعل منه صاحب مذهب « الفكر الحر »^(٢) الذي شهد له به الغربيون انفسهم • ومصدقا على ذلك ما قاله ليون كوتيه بحقه وبالحرف الواحد «هو ان ابن رشد ، عقلي ما في الكلمة من معنى ، ولكن مع ذلك تخيري واسع الافاق ، ودين على طريقته الخاصة»^(٣) •

(١) للوقوف على تفصيلات الموضوع ، راجع كتاب تهافت التهافت لابن رشد •

(٢) للوقوف على التفاصيل راجع محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام •

Leon Gauthier: Ibn Rochd, Paris, 1948, p. 280.

(٣)

ابن خلدون :

يؤلف ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن ابن خلدون^(١) ، المفكر العربي الاسلامي ، مدرسة فكرية خاصة به . ولقد كون ابن خلدون آراءه عن المجتمعات وتطوراتها والظواهر التي تؤثر فيها عن طريق اطلاعه وتجربته الواسعة في الحياة والتي اكتسبها من تنقله في اقطار عربية وغير عربية كثيرة ، ومن توليه مسؤوليات كبيرة في العديد منها .

ولقد جاءت آراءه كثورة في عصره . ومع ان بعض آرائه لا تختلف عن آراء من سبقه من مفكرين ، الا ان تركيبه لتلك الآراء من جديد ومفاعلتها لها بأرائه وبطريقته الخاصة الجديدة ، التي عرفت بطريقة ابن خلدون ، هي التي ، اضافة الى كل ذلك ، احدثت هذه الثورة .

منشأ الاجتماع السياسي :

تقوم نظرية ابن خلدون في منشأ الاجتماع السياسي (الدولة) على مبادئ متعددة ومتراصة مع بعضها . المبدأ الاول وهو الذي يقوم على الحقيقة التي

(١) ولد ابن خلدون في تونس عام ٧٣٢هـ - ١٣٣٢م وتوفي في القاهرة عام ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م . ولم ينحصر مسرح حياة ابن خلدون بمسقط رأسه تونس ، بل شمل معظم اقطار الوطن العربي المتراحي الاطراف . فلقد غادر تونس وهو في سن العشرين متنقلا بين مختلف مدن المغرب الادنى والاوسط والاقصى والاندلس تارة ، ومصر والحجاز ولشام والقدس تارة اخرى . ولقد كانت حياته حافلة بالنشاط المتعدد الجوانب وبالحيوية . فلقد شمل هذا النشاط ميادين الادارة والسياسة والقضاء والدرس والبحث والتدريس والتأليف . وكانت حيويته قد تميزت بالعنف والصمت ، فلم تعرف الهدوء ولم تنج من التقلبات والاضطرابات التي شهدتها عصره . ولذلك صارت حياته سلسلة من حوادث النجاح والفشل : فبينما هو وصل اعلى مناصب الحكم في عهود ودول عديدة ، انه في الوقت نفسه تعرض الى محن ونكبات متنوعة ، مرات عديدة . ومما عمل على شهرته العالمية المقدمة المعروفة بمقدمة ابن خلدون ، وهي مقدمة كتابه في التاريخ الذي اسماه « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر » . وبذلك اصبح الابن الحقيقي لعلم الاجتماع السياسي وهو ما اسماه بعلم العمران .

تقول ان اجتماع الانسان بالانسان امر ضرورى ولا بد منه • وهذه الضرورة تظهر لسد حاجتين : الحاجة الاولى وهي الغذاء الذي لا يستطيع ان يوفره الضرورى منه الا بتعاون الآخرين • ومن الحاجة الثانية وهي الدفاع الذي لا يستطيع ان يوفره على المستوى المطلوب الا بتعاون الآخرين ايضا •

اما المبدأ الثاني في نظرية ابن خلدون فإنه يرتبط بالمبدأ الاول ، ويتمثل في ان ما يبدأ اجتماع الانسان مع الغير الا ويبدأ تنازعه • وهذا التنازع مبعثه روح الطمع والظلم والعدوان المتأصل في الانسان والتي يطلق عليها ابن خلدون بالطباع الحيوانية • ومن هنا ينتقل هذا المفكر الكبير الى مبدئه الثالث وهو انه اذا ما تركت حالة التنازع هذه وشأنها فان الامر يؤدي الى ازدياد المنازعات ، والى سفك الدماء والهرج والمرج : وهذا ما يجعل الحياة ان تكون مليئة بالاضطراب والفوضى • وهنا يدخل ابن خلدون الى مبدئه الرابع ، وهو استحالة دوام النوع البشرى (المتسمة حياته بالاضطراب والفوضى) من دون منظم أو وازع^(١) • ويتمثل هذا الوازع بالحاكم الذى يفرض ملكه أو سلطته بالغبلة وبالقوة^(٢) •

(١) يقول ابن خلدون في هذا الصدد : « ان البشر لا يمكن حياتهم وجودهم الا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم • واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة واقتناء الحاجات ، ومنح كل واحد منهم يده الى حاجته يأخذها من صاحبه لما في الطباع الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعضهم ، وممانعة الاخر عنها بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك ، فيقع التنازع المفضى الى المقاتلة ، وهي تؤدى الى الهرج والمرج وسفك الدماء ، وازهاب النفوس المفضى ذلك الى انقطاع النوع ••• ولذلك استحالة بقاءهم دون وازع يزع بعضهم عن بعض ، واحتاجوا من اجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم عليهم ، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ••• » المقدمة (طبعة بولاق) ، ص ١٨٧ •

(٢) للحصول على تفاصيل اخرى ، راجع ساطع الحصرى : دراسات عن مقدمة ابن خلدون دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٢٧٩ وما بعدها ؛ كذلك حنا الفاخورى وخلييل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ، دار المعارف ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ٤٦٩ وما بعدها •

الدولة منظمه اجتماعية :

ان نظرية ابن خلدون في منشأ المجتمع والدولة ، كان قد اطلق عليها ،
وكما اسلفنا ، بنظرية العمران . وفي الحقيقة فان نظرية العمران يمكن تسميتها
بنظرية العمران السياسي او نظرية الاجتماع السياسي . كما يمكن تسمية المجال
العلمي الذي يبحث بمجال علم الاجتماع السياسي . فحديث ابن خلدون السياسي
يعزو قيام الدولة على أسس تتصل بطبيعة التكوين الاجتماعي للمجموعة البشرية
المعينة . ذلك ان اى تكوين اجتماعي مهما كان نوعه لا يمكن له ان يقوم من
دون سلطة . وان هذه السلطة تقوم على القوة والغلبة التي يمارسها حاكم تخضع
لقوته وسلطته جميع افراد الجماعة .

وعند محاولتنا الوقوف على هذا التفسير الاجتماعي الحضاري الخلدوني
يكشف لنا على ان الدولة كمنظمة اجتماعية لها خصائص متميزة لا تتوفر في
غيرها . وابرز تلك الخصائص هي ان لها من القدرة والسلطة والسيطرة ما لا
يملكها غيرها . وانها عن طريق ذلك تحقق السيادة المتمثلة في وجهيها الداخلي
والخارجي ، بفرض ارادتها على كل من يعيش في كنفها من الافراد والهيئات^(١) .
ولا مفر هنا من القول من ان ابن خلدون قد خرج على الفكر التقليدي الذي
جاء به من سبقه من الفلاسفة السياسيين العرب والمسلمين والذي يربط الدولة
بالنبوة وينسب السلطة وقيمها عليها^(٢) . كما انه لا مفر من القول ايضا ان ابن
خلدون قد سبق كل مفكرى السياسة في العصر الحديث ممن بحثوا في سيادة
الدولة من امثال بودان وهوبز وهيغل وغيرهم^(٣) .

عناصر قوة الدولة :

ولا يكفي ابن خلدون في الحديث عن نشأة الدولة على اساس القوة وانما

(١) محمد عبدالمعز نصر ، في المجتمع ونظم الحكم ، دار نشر الثقافة ،
الاسكندرية ، ١٩٦٦ ، ص ١١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٥ .

يبحث في عناصر مقوماتها • فهو يرى ان الدولة تتأثر بالظروف الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والدينية ، المحيطة بالمجتمعات التي تضمها • واكثر من ذلك الطور العام الذي يمر به كل مجتمع • فهناك ما يسميه ابن خلدون بطور البداوة الذي يقوم على الحياة والقيم البدوية في المجتمع • وهذا الطور يسبق طور تال له وهو ما يطلق عليه بطور الحضارة • وبالنسبة لطور البداوة ، فانه طور فوامه العصبية ، وهي قوة مادية واخلاقية ، تعمل على ربط الافراد ، بتبديء بالقربى والنسب الخاص ، وتنتهى بالشعور المشترك ، الذي ينجم عنه روح الجماعة المتلاحمة والتماسكة • وروح الجماعة هذه هي اساس قوة العصبية^(١) ، وهي القوة ذاتها التي تركز عليها وتستخدمها قوة الزعامة • ويتميز مواطنو واعضاء دولة البداوة بالقوة والشجاعة والبأس وبالروح والمعنوية العالية التي يتميز بها الفرد والجماعة في آن واحد • وسبب ذلك تقنهم واعتمادهم على انفسهم في الدفاع عن الدولة • فهو يقول فيهم « واهل البدو ... قائمون بالمدافعة عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائما يحملون السلاح • • واتقن بانفسهم ، قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع : أو استتفرهم صارخ »^(٢) •

ومما يجب توضيحه هو ان العصبية كقوة للدولة عند ابن خلدون لا يجوز ان « يقرن بالتعصب ابدا » • ذلك لان ما هدف اليه ابن خلدون هو توضيح الفرق بين التكوين الاجتماعى المتحلل ، وبين التكوين الاجتماعى المتماسك • ان العصبية ان هي الا عنصر قوى لبناء التكوين الاجتماعى المتماسك ، فهي تعبر عن الشعور المشترك وعن روح الجماعة ، تلك الروح التي تعمل كقوة

(١) يوضح ابن خلدون العصبية في احد فصول مقدمته « ان الغاية التي تجرى اليها العصبية هي الملك فيقول « ان القبيل الواحد وان كانت بيوتات متفرقة وعصبية متعددة ، فلا بد من عصبية تكون اقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبية فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى » • ص ٩٨ •

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٢٢ •

للدولة وكسند قوى لزعامتها • والاكثر من ذلك فان ابن خلدون يذهب في تفسيره الاجتماعي والسياسي للعصية • فيقول ان للعصية قوة معنوية بجانب قوتها المادية • وتتجلى قوتها المعنوية هذه حينما تتحد أو « تتحالف اما مع الدين أو مع دعوة من دعوات الحق وتكسب بذلك طابعا مذهبيا • وعلى هذا النحو لابد للعصية الصائرة الى الملك من ان تكون حائزة الى جانب التفوق في القوة المادية الن فوق كذلك على من سواها من العصيات في الفضائل السياسية^(١) • • وهذه ولا شك تضى على العصية صفة خلقية ومعنوية ايضا •

اما الطور الثاني الذي تمر به الدولة في نظر ابن خلدون ، فهو ذلك الطور الذي تتغير فيه حياتها من حياة البداوة الى حياة الحضارة ، وهو ما يطلق عليه بطور الحضارة • ومن اهم اسباب هذا التغير هو تطور حياة الدولة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصناعية بحيث تظهر على حياتها مظاهر حياة الترف والنعيم • وهذا ما لم يكن يوجد للدولة في طور البداوة التي كانت تتسم فيها الحياة بمظاهر الخشونة والقسوة والشحة •

هذا وان تطور الدولة في طور البداوة الى طور الحضارة يحتاج الى زمان واجيال • ومن خلال هذا التطور وبوحي من العصر الذي عاش فيه وخبرته

(١) يقول د • محمد عبدالمعز نصر (ايضا) « بان هدف الملك هو الخير وانه يعتمد على خلال الخير في الانسان دون خلال الشر ••• [ولا شك] ان ابن خلدون وهو الفقيه المسلم قد وجد ثروة لا تنضب في تراث الاسلام عن الحكم وتأكيده للخير كفاية منه ودفع اليه » •

انظر كتابه « في المجتمع ونظم الحكم » مصدر سبق ذكره ، ص ٣١ • واذا ما رجعنا الى ابن خلدون نفسه في مقدمته لوجدناه يوضح ذلك من الزاويتين الاجتماعية والدينية • فهو يشرح الجانب الاجتماعي بقوله ان : « الانسان اقرب الى خلال الخير من خلال الشر باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما جاء من قبل القوى الحيوانية فيه » ويشرح الجانب الديني بقوله ان « السياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ احكامه فيهم » • المقدمة ، ص ١٠١ •

الطويلة يذهب ابن خلدون الى ايجاد العلاقة ما بين تطور الدولة وما بين معدل عمرها . فنحن نراه يضع من جهة قوة الحركة والنشاط في ميادين حياتها مقياسا لتحولها الى دولة الحضارة ، من جهة ، كما نراه ، من جهة اخرى ، يضع نقصان قوة روح الجماعة (أو العصبية) مقياسا لاضمحلالها . ومن كل هذه النسب ، يخرج ابن خلدون ، بالفكرة التي تقول ان معدل عمر الدولة لا يتجاوز الثلاثة اجيال او مائة وعشرين سنة . ومع ان ما وصل اليه ابن خلدون لا يزيد عن كونه ، مقياس اعتيادي لنوع الدول التي عاصرها ، الا ان ما يستحق التقدير هو تحليله الاجتماعي للاجيال التي تمر بها الدولة من جهة ، ثم تحليله السياسي لاطوارها من جهة اخرى . ومن حيث التحليل الاجتماعي للاجيال التي تمر بها الدولة فانه يسمي الجيل الاول بجيل البداوة والخشونة والتوحش والبسالة ثم تجده يسمي الجيل الثاني بانه « جيل التحول بالملك والترفة من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به وكل الباقيين عن السعي فيه ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتكسر صورة العصبية بعض الشيء تؤمن فيهم المهانة والخضوع » (١) .

ويعتبر مفكرنا الكبير الجيل الثالث ، الجيل الاخير من حياة الدولة : وهو الجيل الذي تهدم فيه الدولة ، وتنسى فيه الكثير من الصفات التي نشأت عليها في فترة فورتها ولا سيما العصبية : وهي الرابطة التي تشد الجماعة وتربطهم مع بعضهم كما مر معنا . . . التي لا يبقى لها اثر يذكر . فهو يقول « واما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن . ويفقدون العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غاية بما تنكبوه من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة . . . وينسون الحماية والمدافعة . . . فتذهب الدولة بما حملت . . . » (٢) .

(١) المقدمة ، ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

وما يهم المعنى في فلسفة ابن خلدون السياسة حقا ، هو التحليل السياسي الذى يقدمه ابن خلدون للاطوار التى تمر بها الدولة . ويمكن ترجمة هذه الاطوار التى يتحدث عنها ابن خلدون بالمراحل السياسية والسلوكية التى تشكل مجموعها الدورة السياسية التى تمر بها الدولة عامة . فاما المرحلة السياسية الاولى أو (الطور الاول) فإنها تتمثل بمرحلة التأسيس والظفر : أى طور الاستيلاء على الملك والظفر به ، والوضع السياسى فى هذا الطور يتم عن طريق اعتماد صاحب السلطة على قومه واعوانه . ويتم هذا الاعتماد بقوة العصبية^(١) . اما المرحلة السياسية الثانية (او الطور الثانى) من حياة الدولة فهو طور الاستبداد بالحكم . ويتميز الوضع السياسى فى هذا الطور بمحاولة صاحب الدولة بالاستئثار بالحكم والافراد . وهو وضع يؤدى الى مضاعفات ومشكلات جديدة من اهمها انقطاع قومه عن مساعدته والخروج عليه^(٢) . وتمثل المرحلة السياسية الثالثة بطور تحصيل ثمرات الملك وهو ما يطلق عليه بطور الفراغ والدعة . ويتميز هذا الطور بالسيطرة السياسية التامة ، التى تمكنه من الالتفات الى القيام بالاعمال التى تعمل على تخليد ذكره وبعد صيته كاقامة المصانع العظيمة والمباني الحافلة ونشر الرفاهية ، واقامة كل ما يجلب الراحة والسكون والدعة^(٣) .

اما المرحلة السياسية الرابعة أو (الطور الرابع) فإنها تتمثل فى طور السكون أو الهدوء أو على حد تعبير ابن خلدون : طور القنوع والمسئلة (السياسية) . ويصف ابن خلدون وضع صاحب الدولة بقوله « يكون صاحب الدولة فى هذا الطور قانعا بما بنى اولوه ، لانظاره من الملوك واقفا له ، مقلدا للماضين من سلفه . فيتبع آثارهم ... ويقضى طرفهم بأحسن مناهج الاقضاء ويرى ان فى الخروج عن تقليدهم فساد أمره »^(٤) ولا يلبث هذا القنوع الذى يظهر فى

(١) المقدمة ، ص ١٨٣ .

(٢) ساطع الحصرى ، دراسات ، ص ٣٦٧ .

(٣) المقدمة ، ص ١٧٦ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

حياة الدولة طويلا حتى يتحول الى التراخي ، وهو الذى ينقل الدولة الى طورها الخامس وهو طور انحلالها حيث يظهر فى تضالها سيطرتها واسرافها وتبذيرها وهو ما يؤدى بالنتيجة الى زوال الدولة^(١) .

اركان فلسفته :

وحيثما تنتقل من الاطار العام لفلسفة ابن خلدون السياسية ، الى الاطار الخاص : أى الى اركان فلسفته اسبسية ودور كل منها فى بناء المجتمع السياسى أو الدولة ، ونحاول ان ننظر اليها نظرة تحليلية ، فاننا نجد ان ابن خلدون فى نظريته السياسية الخاصة بالاجتماع السياسى والتي يطلق عليها نظرية العمران ، يركز على حاجة المجتمعات الى سلطة تقوم على القهر . وهذا ما يؤدى بالباحث الى القول ان الخاصية المميزة للدولة بنظر ابن خلدون هى خاصية الاكراه . وتظهر تفاصيل اركان فلسفة ابن خلدون من دراسة ما يلي من الابعاد .

وظيفة الدولة :

ولكن ما هى المعانى البعيدة التى يقصدها من خاصية الاكراه : هل انه يقصد بالاكراه لوجه الاكراه ، أم انه اكراه لوجه المصلحة العامة ؟ الواقع ، ان الاكراه الذى يتحدث عنه ابن خلدون فى معناه البعيد ، هو اكراه لوجه المصلحة العامة^(٢) . ويتجلى أمر ذلك فى تأكيده على ان مهمة الدولة الاولى هى تحقيق الحق وخير الامة العام . كما يتجلى ذلك ، فى تأكيده على ان مهمة الدولة الاخذ بيد الانسان الى طريق الرقى والتقدم الحضارى . وبعبارة اخرى ، ان اكراه الدولة هو اكراه لحمل الناس على الاخذ بمبادئ الحق والخير والرقى . ومثل هذه الاهداف ولا شك تجعل من مهمة الدولة خلقية نفعية . اما انها خلقية ، فذلك لانه لم يخرج فى كل آرائه عن اهداف الدولة الاسلامية التى هى اساسها الفضيلة والاخلاق .

(١) المقدمة ، ص ١٧٦ .

(٢) محمد عبدالمعز نصر ، فى المجتمع ونظم الحكم ، ص ١٢٢ .

يضاف الى ذلك ، ما جاء فى بعض آرائه من وضوح بان « مراعاة الاخلاق فى سياسة الدولة تكسبها قوة ، بل هى عنصر اساسى من عناصر قوة الدولة » (١) .

اما ان مهمة الدولة مهمة نفعية الى جانب كونها مهمة خلقية ، فلأنها تنبثق من الحث على جلب المصلحة الى الامة وتجنبها الضرر ، التى هى قوام لدستور الدولة الاسلامية ، والذى اكد عليه ابن خلدون . وبذلك يكون الفكر العربى الاسلامى قد سبق مذهب المنفعة الذى جاء به بنتام وغيره من الفلاسفة الراديكاليين الانكليز (٢) . ومما يجعل مذهب المنفعة العربى الاسلامى اكثر اهمية هو انه استهدف الحق الى جانب المصلحة (٣) .

طبيعة السلطة :

وحيثما يتحدث ابن خلدون عن طبيعة السلطة ، فانه يتحدث عنها فى ضوء تفسيره لاصناف الدول ، وفى ضوء علاقة الراعى بالرعية . فنحن نرى ابن خلدون يميز (فى نظرة واقعية بين الدول ، فى ضوء تجربته وعصره) ما بين دولة الخلافة وما بين دولة الملك . فهو يرى ان الدول « صنفان رئيسان ، الخلافة التى لا تخلو من العصبية ، ولكن السيادة للشرع ، والملك الذى لا يخلو من الشرع ولكن السيادة فيه للعصبية . ومنشأ الصنفين معا الحاجة الى الوازع الذى يحول دون تقاتل الناس ، ولكن هذا الوازع يكون فى دولة الشرع ذاتيا اى افناعيا ، بينما يظل فى دولة العصبية خارجيا اى فهريا » (٤) .

وعند محاولة تحليل طبيعة السلطة فى كل من دولة الخلافة ودولة الملك اللتين يتحدث عنهما ابن خلدون ، نجد ان اهم ما يجلب الانتباه هو ان مصدر السلطة فى دولة الخلافة ينبع من الافناع ، فى حين انه ينبع فى دولة الملك ،

(١) المصدر السابق ، ص (١٢٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) د . حسن صعب ، علمد السياسة ، دار العلم ، ١٩٦٦ ، ص ٣١٩ .

من الاكراه • كما يجلب الانتباه ايضا ربطه دولة الخلافة بالشرع وربطه دولة الملك بالعصية •

ولعل سبب ربط ابن خلدون دولة الخلافة بوازع الاقناع ، هو ان العقيدة ، سيما اذا كانت اسانية كالعقيدة الاسلامية ، تجعل العلاقة بين الراعي والرعية أو الحاکم والمحكوم ان تكون قائمة على الاقناع ، وان الطاعة تكون ذاتية داخلية نتيجة ذلك الاقناع • اما في دولة الملك ، فان البعد عن التمسك بالشرعية ، يقلل من طاعتهم الذاتية ، وبذلك تنقلب العلاقة الى علاقة قائمة على الاكراه • وذلك لان الوازع الداخلى في هذه الحالة مفقود ، ولم يبق الا ان يكرهوا خارجيا على مثل هذه الطاعة •

اما ابن خلدون ورأيه من هذا التصنيف للدول ، فانه يرى ان دولة الخلافة هي الدولة المفضلة ، واهم حجة يستند اليها في هذا التفضيل هي الوازع وقوة ذلك الوازع (١) • فكلما كان الوازع اقناعيا أو ذاتيا أو داخليا لدى المواطنين ، كلما كان ذلك اقوى (٢) • ذلك لان الوازع الاقناعي يتحرى الحق ويعتمد عليه ، ثم لا يكون عرضة للفساد ، وهذا ما يجعل الدولة ان تسير في طريق السعادة والخير ورفاهية وحرية مواطنيها • • وبذلك تتحقق دولة التقدم ودولة الرفاهية • وعلى العكس من ذلك ، فكلما كان الوازع قهريا وخارجيا ومفروضا ، كلما كان اقل قوة وعرضة للفساد ، وهذا ما يجعل الدولة ان تسير في طريق القهر وطريق السيف • ومثل هذا الاتجاه يظهر في دولة الملك التي تقوم على اكرآه رعيتهما ، وهذا ما يمنع المواطنين حريتهم ويمنع الدولة من تحقيق التقدم والازدهار ، ويكون ما تحققه من تقدم ورخاء طور قصير تمر به الدولة ثم لا تلبث ان تضمحل وتزول • ان ما يجدر الانتباه اليه هنا هو ان دولة الخلافة التي يفضلها ابن خلدون وهي الدولة المستندة على وازع ذاتي ، انما هي دولة تستمد

(١) المصدر السابق نفسه •

(٢) ان الوازع الذاتي ، قد يكون دينيا أو قوميا أو ايديولوجيا • انظر

المصدر نفسه ، ص ٣١٩ •

مواطنوها وازعهم الذاتي من مستقر على شريعة . وما هذه الشريعة الا الدستور الذي تهتدى الدولة بهديه . ومن هنا نجد ان دولة ابن خلدون المفضلة هي دولة العقيدة ودولة الحرية ودولة الرفاهية . ولا شك ان الكثير من آرائه هذه مستمدة من الخلافة التي ظهرت في صدر الدولة العربية الاسلامية ، والتي تحولت فيما بعد الى عصية وسيف ولم يبق منها الا اسمها .

وعند الوقوف على رأى ابن خلدون بشأن القيادة ، فاننا نجده واقفيا كل الواقعية ازماءها . وبعبارة ادق ، فانه لم ينظر الى القيادة كفسيره ممن سبقه من المفكرين العرب والمسلمين ، النظرة المثالية التي ترسم مقاييسها وفق ابعاد بعيدة عن التطبيق . ان ابن خلدون بنظرته الواقعية الى القيادة ، يرى ان اساس القيادة والقيادة السياسية بالذات يرتكز على جسر يربط ما بين الراعي والرعية . وان هذا الجسر يكون متينا وقويا ، اذا اصبح سبيلا الى التكافل بين الراعي والرعية . وان اقوم سبيل الى هذا التكافل هو ان تتحدد سياسة الراعي بالرفق وبالحق ، وان يكون ديدنها خدمة مصالح الرعية . وبخلاف ذلك فان هذا الجسر يتحول الى جسر مزعزع ، اذا انعدمت في القيادة روح الرفق ، وروح خدمة مصالح الامة . ذلك ان السياسة القيادية التي تقوم على القهر والبطش ، لا تعمل على زعزعة القيادة نفسها وحسب ، وانما تعمل على انشقاق ابناء الامة ، وعلى « تحول الرعية الى اعداء من الداخل يشاركون اعداء الخارج في تعجيل نهايتها » (١) ، وفي ترك نتائج وخيمة على كيان الدولة . وهذا ينطبق على اى صنف من اصناف الدولة حتى وان كانت القيادة قائمة على اقوى ما تكون من عصية . فهو يقول في ذلك : « اذا تأذن الله بانقراض الملك من امة حملهم على ارتكاب المذمومات واتحالي الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انتفاض الى ان يخرج الملك من ايديهم ، ويتبدل به سواهم ليكون نعيما عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في

(١) د . محمد عبدالمعز نصر ، في المجتمع ونظم الحكم ، ص ١٤٣ .

أيديهم من الخير . » واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا « (١) .

ومما تقدم يتبين مدى اهتمام ابن خلدون بحرية الرعية . ومنها يتبين ايضا ان ازتباطه بحرية الفكرة : ما يستحق المقارنة بما كتبه احرار الفكر على مر العصور . فهو وان كان كعصره يؤمن بان السلطان هو « المالك للرعية القائم في امورهم عليهم ، الا انه قدم من الحجج التي يدين بها الاستبداد ما لا تقل في قيمتها عما قدمه في العصر الحديث « جون ستيوارت مل » أو « لورد آكتون » (٢) . ولعل ما يستحق الاشارة في هذا الصدد هو قوله : « ان الاستبداد مفسد للسلطان ومفسد للرعية في الوقت نفسه » (٣) .

هذا وان ما هو جدير بالاشارة ايضا هو ما قدمه من آراء حول القوانين السياسية وعلاقتها بالحاكمين وبالمحكومين ، وبحياة الدولة نفسها . فلقد بين ابن خلدون ان شروط الحكم الصالح لا يتحدد بقيام الحاكم الصالح وحسب ، وانما يجب ان تذهب الى ما هو ابعد واعمق من ذلك . فلا بد لكل نظام حكم صالح ان يستند الى ضوابط وقواعد مهمتها توجيه السياسة الى طريق خدمة الصالح العام . ولقد سمي هذه القواعد بالقوانين السياسية . ان اهمية هذه القوانين السياسية تتجلى في اخضاع الحاكمين لها . وبعبارة ادق انه من انصار « مبدأ سيادة القانون في الدولة » الذي ظهر في العصور الحديثة . فهو يقول في معرض وصفه لها « بانها قوانين سياسية مفروضة يسلم بها الكافة وينقادون الى احكامها » (٤) . وعلى هذا الاساس يصبح ابن خلدون رائدا سباقا لكل من كتب عن

(١) المقدمة ، ص ١٠٢ .

(٢) د . محمد عبدالمعز نصر ، في المجتمع ونظم الحكم ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

الحركات الدستورية وعن سيادة القانون من بعده ، سواء اكان ذلك في الغرب أم في غير الغرب (١) .

وهكذا نجد ان ابن خلدون بما قدمه من آراء وافكار نيرة في التسايرخ والاجتماع والسياسة يحتل مركزا فريدا لا في تاريخ الفكر العربي الاسلامي وحسب وانما في تاريخ الفكر العالمي ايضا . ويتجلى هذا المركز الفريد في اصالة وواقعية وموضوعية الافكار التي قدمها ضمن منهجه الخاص به والذي عرف بمنهج ابن خلدون .

لقد تمكن ابن خلدون من خلال دراسته للظاهرة التاريخية والاجتماعية والسياسية دراسة تحليلية واقعية دقيقة من الوصول الى استخراج القوانين التي تحكم المجتمعات والدول ، والى استخراج القوانين الطبيعية لقياس الدول وزوالها (٢) . فلقد اطلق على « هذه القوانين طبائع العمران » ، واعتبر الدولة صورة للعمران ، واعلن انه من خلال منهجه المبتكر قد توصل الى علم جديد هو علم العمران ، الذي « يمكننا ان نعتبره بعلم العمران السياسي او الاجتماع السياسي » (٣) .

ان ابرز ما تميز به علم العمران الخلدوني « هو وصفه لاحوال المجتمع السياسي كما هي عليه ، وانشغاله التام بالمدن والدول القائمة وليس بالمدن الفاضلة أو الدول المثالية، التي انشغل بها الفارابي وافلاطون . واذن فهو من هذه الناحية رائد من رواد علم السياسة الحديث (٤) ، ومفكر وفيلسوف عالمي .

ولقد ظلت افكار وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية والسياسية والحضارية مجهولة لدى العالم ، حتى مطلع القرن التاسع عشر وذلك حين بدأ مفكرو اوربا

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٢) د . حسن صعب ، علم السياسة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

دراسة افكار ابن خلدون ، واعترافهم فيما بعد باصالتها وباضافاتهما حقولا جديدة الى المعرفة الانسانية . ولقد كان في مقدمة من نال ابن خلدون اهتمامه ودراسته المستشرق النمساوي الكبير البارون فون كريمير الذي اعتبره مؤرخا للحضارة ، واول « من خصص فصولا ضافية للتحدث عن النظم السياسية وانواع الحكم وتطورها في الدول الاسلامية » (١) . ثم يأتي المستشرق الهولندي دى بوير من بعد فون كريمير ليقول : «لقد حاول ابن خلدون ان يؤسس نظاما فلسفيا جديدا تم يجعل بذهن ارسطو ، وان يجعل من التاريخ نظاما فلسفيا ، وهو يقول لنا ان هذا النظام انما هو الحياة الاجتماعية ومادة المجتمع كلها وثقافته الفكرية . ومهمة التاريخ هي ان يبين كيف يعمل الناس وكيف يحصلون اقواتهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضا ، وكيف يجتمعون في جماعات كبيرة في ظل بعض الزعماء ، وكيف يهيمون اخيرا في ظل حياة الحضرة ، رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة وكيف تقدم الحضارة من البداية الخشنة الى الترف الناعم وتزدهر ثم تضمحل وتموت » (٢) . ويختتم دى بوير دراسته بقوله : « لقد سار امل ابن خلدون في ان يخلفه من يتم بحثه في سبيل التحقيق ، ولكن في غير الاسلام ، فكما انه كان دون سلف فكذلك بقي دون خلف » (٣) . والحق ان افكار ابن خلدون السياسية والاجتماعية والاقتصادية قد نالت اهتمام الكثير من المفكرين الاوربيين الذين جاءوا من بعد فون كريمير ودى بوير . ومما يستلفت

(١) محمد عبدالله عنان ، ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكري ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٦١ . لكن فون كريمير يرى في خلاصة دراسته ان فلسفة ابن خلدون لم تكن لتخلو من طابع التشاؤم ، الا انه يستدرك ذلك فيقول ان امر ذلك مرجعه الانحلال والتأخر الذي اصاب العالم العربي والاسلامي . انظر نفس المصدر ، ص ١٦٧ .

(٢) انظر محمد عبدالله عنان ، المصدر السابق ، ص ص ١٦٢-١٦٣ .

المقتبس من :

T. J. De Boer: Geschichte der Philosophie in Islam (1901), pp. 177-184.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

النظر من بين هؤلاء المفكرين الاوربيين المفكر والكاتب الالمانى فون فيسند ونك الذى رأى ان ما جاء به ابن خلدون من نظريات سياسية في نشوء الدولة وانحلالها يؤلف ذهنا وافر الابتكار ومثلا اعلى في التفكير العربى واماما لمدرسة مكيفالى الفيلسوف الايطالى الشهير^(١) .

ولأن بدأ بعض التساؤم في آراء ابن خلدون السياسية والاجتماعية ، وهو ما ينتقده عليه بعض المفكرين من عرب ومسلمين ومستشرقين ، فلأن ما جاء به من نظرات ناقبة كان يعكس عمق تفكيره وكبير تجربته في تفهم الطبيعة البشرية في عصر كانت تسير فيه الدولة والمجتمع الى الاضمحلال .

ان رأيا سياسيا كالذى قاله ابن خلدون من ان وظيفة الدولة تقوم على اتراء الناس على ان يكونوا متعاونين ، كان قد سبق به رأى روسو القائل بان الدولة من وظيفتها ان تكره الناس على ان يكونوا احرارا ، وسبق به رأى هيكل القائل في ان الدولة وحدها هي المدركة للمصالح الحقيقية للشعب^(٢) ، لا يمكن لاي باحث موضوعي الا وان يضع ابن خلدون في منزلة المفكرين العالميين .

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٧ مقتبسا من :

Von Wesendonk: Ibn Khaldun, Ein arabischer Kulturhistoriker des XIV Jan rhunderts (Dentsche Rundschau, Januar, 1923).

(٢) محمد عبدالمعز نصر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢١ .

الفصل الثامن

الانعسار الفكري

تمهيد :

لقد كان للمفاعلية والخصب الفكري الذي تميز به الفكر العربي الاسلامي عامة والفكر السياسي منه خاصة ان ادى الى الابداع في تفسيره للظواهر السياسية المختلفة في المجتمع السياسي . ولم يكن لهذا الابداع الفكري ان يتم ، وينتفع من نظرياته ومبادئه وسننه ، في الارض العربية والاراضي الاسلامية ، بالوجه الاثم ، لولا توفر المقومات التي عملت من بعيد وقريب على ذلك الازدهار والابداع . فكما هو معلوم ، ان الفكر الانساني ، ينمو ويزدهر في ظل حدود معينة ، وليس من شك ان من بين اهم الاسباب هي ما يمكن تسميته اولا بالمفاعلية الفكرية أو بالاحرى غزارة الافكار التي يمتلكها فكر معين ، وثانيا توفر المناخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، ومن قبلها المناخ العلمي الموضوعي ، الذي من شأنه ان يعمل على تنشيط تلك الافكار وبالتالي على تجسيدها والانتفاع منها بصورة فعلية في المجتمع السياسي المعين في الداخل ، وفي علاقات ذلك المجتمع السياسي مع غيره من المجتمعات في الخارج .

ومن حيث ناعلية الفكر العربي الاسلامي وغزارته ، فانه من المفيد ان نعيد الى الازهان القول ، ان اهم ما امتاز به الفكر السياسي العربي الاسلامي هو مغالجتة النفس البشرية بصورة قديمة تضمن لها تحقيق سعادتها وتوازنها على الصعيدين الفردي والجمعي ، بحيث يتعادل فيها ما يطمح اليه الافراد وما يطمح اليه الجماعات في وقت واحد . وهذه المعالجة الشاملة المتوازنة قد اضفت في الحقيقة على الفكر العربي الاسلامي خصائص الاعتدال والمرونة في الافق القريب ، وخصائص الانسانية على الافق البعيد . ذلك ان التطرف في الفكر ، والاقصاء على معالجة حاجات النفس البشرية لجانب ما على حساب الجوانب الاخرى ، يفقد

الفكر كل توازن واعتدال وبالتالي كل خصب ونماء وهذا بالذات هو ما تجنبه
الفكر العربي الاسلامي •

اما من حيث المناخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والنفسي ، فانه ليس
من المبالغ فيه القول ، باديء ذي بدء ، انه لو لم يخلق للفكر العربي الاسلامي
رجال ابناء عليه وآخرون سهروا على نمائه وابداعه ، لما كان قد ازدهر وابدع
هذا الفكر اصلا ، ولما عرف عنه وانتشر في بقاع واسعة من المعمورة • ثم ان
هؤلاء القادة من رجال الدولة والفكر قد مهدوا لخلق المناخ السياسي والاجتماعي
الملائم لنمو الفكر وازدهاره •

ومن الامثلة على هذه الجهود الحميدة والمثمرة سعي الرسول الحثيث في
خلق مجتمع متعلم مدرك لرسالته • فقوله « خذ الحكمة لا يضرك من اي وعاء
خرجت » وقوله « اطلب العلم ولو في الصين » ودعوته للاسرى بتعليم عشرة
رجال كفدية وتعويضه لهم عن اسرهم ، ان هي الامثلة حية لاقامة المجتمع
المتفتح • وقد سار الخلفاء الراشدون على نفس الطريق الذي سلكه الرسول من
بلبهم • ويتجلى دور الخلفاء الراشدين في بناء المجتمع الواعي في انهم وفررو الجو
الملائم للعرب المسلمين لحرية التفكير والثقة بالنفس في تتبعهم ودراستهم • ومما
يؤيد ذلك ، ظهور العلماء الممثلين لمدارس فكرية مختلفة ، كعلماء القرآن
والحديث وعلماء الكلام والخلاف (الفقه المقارن) وغيرهم • وما هذا وذاك من
الجهود الا ادلة على رعاية الدولة الراشدية للعلماء والبحث وحرية الفكر
بالذات •

ويتميز العصر الاموي في انه عمق عملية تبلور الفكر ووسع آفاقه بفتح
باب التطلع على الثقافات الاجنبية فكان بذلك بداية لتنشيط الحركة الفكرية وصورة
ممهدة لحركة تفاعل وتفتح فكري تلت ، في العصور التي اعقبها • والشئ المهم
بالنسبة لبداية التفاعل الفكري مع الثقافات الاخرى ، هو الوقوف من خيال
التأليف والترجمة والشرح على موقف الثقافة البيزنطية واليونانية والفارسية ومناقشة
مدى اقرباها او ابتعادها او بالاحرى تألفها أو عدم تألفها مع موقف الفكر

العربي الاسلامي تجاه الظواهر السياسية المختلفة . وقد ادت عملية التفاعل الفكري هذه الى ظهور مدارس فكرية جديدة كالمدرسة الخلقية السياسية والمدرسة الفلسفية السياسية مما مر ذكره معنا في الفصل السابق من هذا الكتاب والتي عبر كل منها عن موقفه من الظواهر السياسية التي وقفت عليها الثقافات الاخرى .

ولقد كان لعمليات النشاط الفكري المختلفة التي نمت بداياتها في العصر الاموي ، ان تكون قاعدة لعمليات ونشاط فكري اوسع في العصر العباسي ، والذي عرف بالعصر الذهبي . والشئ البارز ، هو ان حلقات الدرس والتتبع والتأليف والترجمة وتسييد المكتبات العلمية التي كانت على نطاق محدود نسبيا في العصر الاموي ، قد اتسعت وتعددت في هذا العصر ، وحظيت برعاية الدولة الفاتحة . والاهم من ذلك ، هو ان قد وجد نسبة اكبر من قادة الدولة ورؤسائها ممن كانوا يعنون بالعلم والمعرفة ، حيث كانوا ينشئون المكتبات العلمية الواسعة التي بلغ تعداد كتبها بالملايين بعد ان كانت في حدود الالاف من قبل . كما انهم كانوا يحضرون حلقات المناظرة والمناقشة بانفسهم ، اضافة الى تشجيعهم وتعضيدهم رسميا لكل ما يعمل على تنشيط الحركة العلمية والفكرية . واذا كانت هذه الظاهرة قد صدقت على ابي جعفر المنصور وهارون الرشيد بصورة ملموسة، فانها كانت اوسع مدى مع المأمون . فلقد كانت عناية المأمون بالعلم والعلماء ظاهرة بارزة في عهده . كما عرف بانشاءه المكاتب والمدارس العلمية ، وعرف بتخصيصه المكافآت الكبيرة لكل الباحثين في حقول المعرفة المختلفة . كما عرف ايضا بانه كان يجند العلماء للترجمة والتأليف وانه كان يصنفهم حسب حقوقهم ، ويحضر حلقات مناقشاتهم . والاكثر من هذا ان تبعه ودراساته الخاصة قد ادت به الى ان يجد نفسه وقد اتسمى الى هذه المدرسة الفكرية دون تلك .

وصفوة القول ان العواصم العربية الاسلامية التي اشتهرت في التاريخ العربي الاسلامي كدمشق وبغداد وقرطبة لم تكن عواصم سياسية حسب وانما كانت عواصم علمية وفكرية ايضا . لقد كانت عواصم علمية لانها وامثالها من المدن المتعددة الاخرى ، قد توفر فيها المناخ الصالح لازدهار العلم والفكر . فليس من

باب التفاخر او المبالغة القول ان طلاب العلم والمعرفة كانوا يتوافدون على هذه المدن - سيما بغداد وقرطبة - ابان عهد ازدهارهما (القرن العاشر بالنسبة للاولى والقرن الحادى عشر بالنسبة للثانية) للبحث والدراسة ونيل الشهادات العلمية . وليس من باب المبالغة ايضا القول ان هذه العواصم كانت مراكز اشعاع عملت على ايقاظ اوربا التي كانت تغط في سبات عميق . ولقد اكدت المصادر الموثوقة ان جامعات اوربا التي نشأت من امثال جامعة مونبيليه في فرنسا وغيرها ظلت تستخدم المصادر العربية التي ترجمت الى اللاتينية حتى اواخر القرن الخامس عشر للميلاد .

وخلاصة القول ان الفكر السياسى العربى الاسلامى قد نما وازدهر وسادت نظراته ومبادئه طيلة عدة قرون . والذى يبدو ان ازدهار الفكر كان يسير جنبا الى جنب مع ازدهار الاحوال السياسية والاجتماعية . ولكن هذا الابداع والازدهار اخذ يضمحل تدريجيا باضمحلال الدولة . فلقد تمثل هذا الضمحلل بما مرت به الدولة العباسية في اواخر عهدها من تدهور وضعف في احوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولقد ادى استمرار ضعف الدولة الى سقوطها وفنائها . وكان لا بد لهذه التحولات في حياة المجتمع العربى الاسلامى السياسية والاجتماعية والاقتصادية من ان تعكس بوضوح على الحياة الفكرية التي اصابتها هي الاخرى الضعف والخمول . حتى اذا ما سقطت الدولة فى عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، اذا بالخمول الفكرى^(١) يتحول الى ركود وانحسار .

والسؤال الذى يثير نفسه هنا ، والذى يتطلب الاجابة هو : ما المقصود بظاهرة الانحسار هذه التي اصابت الفكر العربى الاسلامى في خلال القرون التي اعقت سقوط الدولة العباسية ، ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وحتى القرن التاسع عشر حينما دبت فيه روح اليقظة والحيوية ثانية ؟ وللاجابة على ما المقصود بظاهرة الانحسار الفكرى ، فان من الممكن القول بكلمات بسيطة بأنه توقف الفكر عن عمليات ابداعه وحركته وتأثيره . وهذا التوقف عن الحركة

(١) من الضرورى نعلم ان فترة الخمول الفكرى بالنسبة للمغرب العربى لم تبدأ الا بعد مرور ما لا يقل عن قرن على بدئها في المشرق العربى .

هو الذى ادى بالفكر العربى الاسلامى وحضارته التى احتضنته الى الركود .
وبذلك فقد تأثيره وفقد دوره الانسانى الذى لعبه لقرون طويلة . وهنا يظهر لنا
بوضوح العلاقة بين الركود والانحسار . ذلك ان حالة التوقف الفكرى التى هى
حالة الركود هى سبب رئيس للانحسار . فحالة الركود تكون فى اى فكر حين
يفقد خصائصه الحية ، وحين تنطفىء شعلته ، وحين يفقد صحته فيصبح على اثرها
مريضا لا يشع كما كان فى حيويته وصحته ، وعندها يظهر على غير حقيقته فيفسر
تفسيرات خاطئة لا تتصل بجوهره واصلته . ونتيجة لكل ذلك ، يتوقع الفكر
على نفسه ويصاب بما يمكن ان يسمى بالانحسار .

ونرب سائل يسأل ما هى الاسباب الموضوعية التى ادت الى ركود الفكر
السياسى العربى والاسلامى وبالتالى انحساره ؟ وهنا يمكن القول وقبل الدخول
فى الاسباب وتفاصيلها ، بان التحولات التى مر بها المجتمع العربى الاسلامى من
سياسية واجتماعية واقتصادية هى التى عملت على انحساره . وبعبارة ادق ان
الظروف ، وكما المحنا فى البداية التى كانت ملائمة لحركة الفكر وابداعه لم
تعد بعد قائمة .

وحيثما نبحث فى تفاصيل هذه الاسباب ، فاننا نجد ان هذه الاسباب متكاملة
مع بعضها . ثم ان هذه الاسباب من جهة اخرى هى اسباب داخلية وخارجية
عملت معا على سلب الفكر العربى الاسلامى حيويته منه فاقعدته عن فاعليته وتأثيره ،
واوصلته الى حالة من الركود .

وتأتى فى مقدمة اسباب انحسار الفكر العربى الاسلامى مركز العرب
القيادى فى المجتمع والدولة العربية الاسلامية . فكما هو معلوم ان للعرب دور
فريد فى بناء المجتمع والدولة وازدهار الفكر العربى الاسلامى (١) ولقد تمثل

(١) ان خير من وصف العلاقة بين العرب والحضارة العربية والاسلام
بالذات هو الرسول (ص) حين قال اذا ذل العرب ذل الاسلام . هذا القول
وامثاله التى نطق بها الرسول (ص) قد وصفها الدستور الاسلامى الاعلى المتمثل
بالقرآن الكريم ووصف صاحبها بالذات ، بالقول : (وما ينطق عن الهوى ان
هو الا وحي يوحى) .

هذا الدور الفريد في انهم كانوا روادا اوائل لاقامة وارساء دعائم التقدم في الدولة العربية الاسلامية . فكان ان ظهر منهم رجال الدولة والفتاحين والموجهين والمفكرين الذين مهدوا الاجواء الصالحة لكل ذوى العقول والكفاية ليلعبوا دورهم في تحقيق التقدم والرقى في الميادين المختلفة . وقد ادى كل ذلك الى نماء الفكر وازدهاره والى ان تكون الدولة العربية الاسلامية قفلة طلاب المعرفة والعلم من سائر الامصار .

الا ان هذا النماء والازدهار الفكرى بدأ يخفت بخفوت قوة ومركز العرب القيادى ، الذى ظهر اول ما ظهر في اواخر العصر العباسى والعصور التى تلتها . ومع اننا ليس بصدد البحث في تفاصيل عوامل ضعف مركز العرب القيادى كونهم اصحاب الرسالة وحماة الفكر العربى الاسلامى ، الا ان من المفيد القاء نظرة عامة على العوامل التى اسهمت في اضعاف مركز العرب القيادى . وعند القائنا نظرة عامة على العوامل التى اسهمت في اضعاف مركز العرب القيادى نجد ان ذلك يتمثل اولا في ظهور نوعية جديدة من القيادة في عصر كل من الدولة العباسية المتأخرة والدولة الاموية فى الاندلس من بعدها ، تختلف اختلافا بينا عن نوعية القادة الذين سبقوهم . وقد تميزت هذه النوعية الجديدة بضعف امكانياتها وانشغالها بأمور الدنيا وابتعادها عن مسؤوليتها الحقيقية . وكان من الطبيعى ان يعكس كل ذلك على الدولة والمجتمع والفكر بوجه خاص . فظهر على اثرها ضعف عام في مركز الدولة ، مهد بدوره الى ان تجد المنافسات والانشقاقات والانقسامات طريقها داخل الدولة الواحدة . وقد تمثل هذا الضعف في ان مركز الدولة وعاصمتها لم تعد تقوى من السيطرة على اقاليمها المختلفة مما جعل ولايتها في الاقاليم عامة ، والاقاليم النائية خاصة ، يتصرفون فيها كما يشاؤون . ولم يبق بينهم وبين المركز الا الارتباط الاسمى بها^(١) .

(١) يمكن الوقوف على هذا الموضوع الذى نحن بصددده : كيف بدأ وتطور من الوصف العام الذى يقدمه محمد كرد علي فيقول « لم تخل الاندلس وشمال افريقيا او انغرب الاقصى والاوسط والادنى ، ومصر واليمن وما اليهما من تآثر على الخلافة العباسية او من امير سموه خليفة ، او من خلفاء لهم بالفعل ،

ومما زاد في اضعاف مركز العرب القيادي اعتمادهم على غير بنى جلدتهم في تصريف شؤون الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية^(١) . وقد بدأ هذا الاعتماد واضحا في عصر الدولة المتأخر الذي امتاز بظهور نوعية ضعيفة من القادة الذين ادى ضعفهم بهم الى ان يصبحوا لقمة سائفة بيد الطامعين والمتربصين : والذين عرفوا في التاريخ العربي الاسلامي بالشعوبيين . وكما سترى تفصيلا في الصفحات التالية ، الدور الهدام الذي لعبه الشعوبيون في تاريخ الاسلامي ، الا ان من الضروري الاشارة هنا الى ان غاية الشعوبيين كانت تتمثل في ازاحة العرب عن مركز الصدارة في الدولة والمجتمع العربي الاسلامي . وقد تمكنوا من ذلك بالفعل في الظروف المواتية لهم . الا ان هذا الدور الهدام الذي قام به الشعوبيون لم يقتصر على ازاحة العرب من مركز الصدارة وحسب ، واتما



كانوا على جانب من القوة واستجماع ادوات الملك امثال الامويين في الاندلس والفاطميين في افريقية ثم في مصر ، وامثال رجال دولة المرابطين والموحدين والا دراسة وبنى مرين والحفصيين . وجاء في بعض العصور عـدة خلفاء في الارض ، ومنها خلافة سنية واخرى شيعية ، وثالثة خارجية ، واربعة زيدية . . . ثم يختتم حديثه فيقول « ان العباسيين الاولين صرفوا الملك في وجوه الحق ومذهبة ما استطاعوا ، حتى جاء بنو الرشيد فكان منهم الصالح والظالم ، ثم افضى الامر الى بنبيهم فاعطوا الملك حقه ، وانغمسوا في الدنيا وباطلها . . . فتأذن الله بحربهم وانتزع الامر من ايدي العرب جملة ومكن سواهم منهم » . انظر كتابه الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، ط ٢ ، ١٩٣٩ ، القاهرة ، ص ص ٤٨١-٤٨٣ .

(١) يقول محمد كرد علي (في المصدر للسابق نفسه) ان الجيش العباسي في القرن الرابع كان مؤلفا « من المعاليك الناصرية والبغائية والمسرورية والبكجورية والباناسية والمفلحية والازكوتكنينية والكيفانية والكنداحية ، نسبة لقواد لهم ووزراء من الاعاجم ، كانت لهم القوة في الدولة العباسية . فاصبحت الخلافة بتدخل الفرس اولا وتدخل الترك وغيرهم اخرا ، العوبة في كل من تتم له القوة والغلبة على غيره من الامراء والخوارج ولم يكن الا قليل حتى اصبح سلطان الخلافة الفعلي لا يتعدى بغداد وما جاورها ، بل ايسوا وليس لهم حتى في بغداد ولا في قصورهم وشؤونهم الخاصة شيء من الاستقلال » . ص ٤٨٣ .

نعداه ، بحيث انعكس على حياة المجتمع والدولة بوجه عام • وقد تمثل هذا الانعكاس في انشغال الدولة والمجتمع بأمور لا تمت الى المصلحة بشيء ، وانما بأمور انانية خاصة ، اتعبتها كل التعب واكسبتها بالتالى الوهن والضعف الذى ظهر اول ما ظهر في خفوت عملية الفكر ، وفي ضياعه وتشتيته وضياع وتشتت العلماء والمفكرين •

وزيما كانت من اهم اسباب اعتماد العرب على غير بني جلدتهم ، هو ما يشير اليه المفكرون من امثال ابن خلدون ومن جاء من بعده بفساد العصبية العربية • فلقد « فسدت العصبية العربية في القرن الخامس فسادا ظاهرا ، وفي الجنس العربي في الاجناس الغربية الاخرى ، حتى لا يكاد العربي يرى في المقامات العالية، واضعف بنو بويه الديلم وبنو سلجوق الترك، عصبية الدولة العربية»^(١) .

وفي الحقيقة فان كل ما تقدم ، قد عمل بصورة متكاملة ومجتمعة على تدهور الاحوال الاجتماعية العامة في المجتمع العربي الاسلامي • وما يهنا هنا هو الاشارة الى كيف ان تدهور القيادة العربية وفساد عصبيتهم وتكالب الاقوام التى اعملت مراكز القيادة بفضل تسامحهم واهمالهم لشؤونهم في وقت واحد : كيف انها جميعا ادت الى تدهور الاحوال الاجتماعية ؛ وكيف ان هذا التدهور الاجتماعي العام قد انعكس على الفكر • فلم يعد الجو صالحا لانكباب العلماء والمفكرين على البحث والتتبع • ومما زاد في الامر سوءا ان المفكرين بقصد وبغير قصد منهم قد لفتهم رحي النزاع والخصام ، مما ادى بالبعض منهم الى التشرذم ، ناهيك عن هلاك كثيرين آخرين منهم نتيجة لسوء القصد والابتعاد عن المثل الاسلامية العالية التي عاش في ظلالها وابدع فيها كل مفكر بفعل عدالة مبادئها وعزيمة القوامين عليها في ابتغاء الخير العام لكافة العرب والمسلمين •

ثم ان ما تجدر الاشارة اليه ايضا ، هو ان الاوضاع الاجتماعية المتدهورة والقائمة على المنافسة والانقسام قد ادت الى انعدام الوحدة الفكرية التى سادت

(١) المصدر السابق ، ص ٤٨٣ •

حياة المجتمع العربي الاسلامي طيلة قرون عديدة من قبل • اضيف الى ذلك ان
انعدام الوحدة الفكرية العربية الاسلامية ، قد عملت بدورها هي الاخرى على
الانحطاط الفكري • وقد تمثل هذا الانحطاط بخلو المجتمع من المفكرين
المبدعين ، وبخلوه من حلقات الدرس والتتبع وبخلوه مما كان ينشر من جوانب
التراث العربي الاسلامي الضخم • وليس من المبالغة القول ان خلو المجتمع من
مقوماته ومحركاته التي عملت على حيويته وغناه لسنين طويلة ، قد أدى به الى
الانحطاط الفكري وساد المجتمع الجهل لسنين لا بل لاجيال عديدة امتد امدها
الى القرن التاسع عشر الميلادي او القرن الثالث عشر الهجري • لقد اضر
الجهل بالمجتمع ابلغ الضرر • ذلك ان الجهلاء اخذوا ينتحلون صفة
العلماء من ابناء المجتمع • وكم كان هذا الضرر بليغا في تحريف مبادئ الفكر
وقيمه حيث ظهرت البدع التي ما انزل الله بها من سلطان وحيث ظهرت المذاهب
البعيدة كل البعد عن حقيقة وجوهر الفكر العربي الاسلامي •

وهذا يعينه نقلنا الى سبب مهم اخر من اسباب الانحلال والاحسار الفكري
الا وهو الشعوبية المتمثلة بالشعوبيين^(١) ، الذين ظهروا على المسرح ليقاوموا
العرب واصالة ثقافتهم وليقاوموا سرا وليس علنا تعاليم وقيم الرسالة الاسلامية
المختلفة من دينية وسياسية واجتماعية^(٢) •

(١) يقول توفيق الفكيكي في مستهل كتاب « الشعوبية والقومية العربية »
لعبدالهادي الفكيكي : « تتألف المجموعة الشعوبية من جنسيات مختلفة ، ونحل
متنوعة وعقائد ومذاهب متباينة وعنصريات شتى في عدة اجناس واخلاط من
الناس ، لا تجمعهم الا جامعة الكره للعرب والتنكر لدين الاسلام وتعاليمه ،
فالجنسية الشعوبية جنسية اممية يتمتع بشعارها الفارسي والتركي والزنجي
والهندي والاسباني والرومي والبربري وغيرهم » • ص ٢٠ •

(٢) للرجوع الى تفصيلات مختلفة بشأن هذا الموضوع ، انظر د • محمد
بديع شريف : « الصراع بين الموالي والعرب » وهو بحث في حركة الموالي ونتائجها
في الخلافة الشرقية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤ •

وللوقوف على استعراض عام للشعوبية وحركاتها : انظر عبدالهادي
الفكيكي : الشعوبية والقومية العربية ، دار الاداب ، بيروت ، ١٩٦١ •

ولم تكن الشعوبية وما لها من دور هدام لوحدة الفكر العربي الاسلامي مقتصرة على عصر معين دون غيره من العصور ، وانما هي حركة ظلت تعمل ضد العرب وضد المبادئ الاسلامية التي نشرها العرب ، طيلة العصور العربية الاسلامية المتوالية مبتدئة من عصر صدر الاسلام . لابل ان بعض المعينين بدراسة هذه الحركات من الكتاب يرى ان جذورها تمتد الى العصر الجاهلي الذي سبق الاسلام^(١) . وحينما جاءت الرسالة الاسلامية بدت الشعوبية تظهر بصورة اكر وضوحا ولكن بصورة متخفية وغير منتظمة . فلقد « شككت الشعوبية بالاسلام لانه عربي ونالت منه وحاولت نسفه من الداخل لاحلال مانوية او مزدكية محله »^(٢) . حتى اذا ما قامت الدولة العربية في الشام (عهد بنى امية) ساءهم ان تحمل الامة العربية مشعل الحرية والحضارة وان تصدر امم العالم لخدمة الانسانية وان تؤول اليها مقاليد الحكم . ولقد بدأ الشعوبيون يكيّدون للقومية العربية ويجمعون شتاتهم على شكل جمعات سرية منذ اواخر العهد الاموي فيديرون لدولتهم المؤامرات بعد ان لمسوا ما يشجعهم من العباسيين الذين كانوا يتشبهون بكل قوة للاطاحة بالامويين^(٣) ، على الرغم من ان اكثر الامويين لم يبخلوا عليهم باعتلاء المناصب المهمة في الدولة .

ولم يتمهل الشعوبيون بعد قيام الدولة العباسية طويلا ، حيث بدأ دورهم يزداد خطرا ، خاصة بعد ان قويت شوكتهم اثر القضاء على الدولة الاموية . الا ان العين الساهرة لقواد العرب العباسيين من امثال ابي جعفر المنصور وهارون الرشيد كانت قد وقفت لهم بالمرصاد فاوقفت خطرهم عند حده (سيما ذلك الخطر المتمثل في حركة ابو مسلم الخراساني وحركة البرامكة) ولكنها لم

(١) انظر الشعوبية والقومية ، حيث جاء في ص (٣٧) منه « ان الشعوبية غرست بذورها منذ العصر الجاهلي الا انها بقيت زمنا طويلا وحتى ما بعد حركة الاسلام ، دون ان تنتظم صفوفها او ان تبلغ مستوى التنظيم الحركي » .
(٢) انظر د . عبدالعزيز الدوري ، الجذور التاريخية للقومية العربية ، ص ٣٦ .

(٣) الشعوبية والقومية العربية ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٠ .

تسكن من القضاء عليهم قضاء نهائيا . ذلك ان الشعوبية التي ضببت حركاتها وتنظيماتها الاولى المتمثلة في الرواندية^(١) والخرمية^(٢) ، اذا بهما تستمر في العمل سرا في تنظيمات وحركات اخرى من امثال حركة القرامطة^(٣) وغيرها من الحركات والتنظيمات التي ظهرت على شكل فرق كفرقة المزدكية^(٤) وامثالها ممن هدفت جميعا الى تحقيق اغراضها الهدامة ضد العروبة والاسلام وضد القيم الفكرية والحضارية التي جاءت بها الحضارة العربية الاسلامية .

ومما زاد في فداحة الشعوبية استمراريتها في كل العهود ولا سيما العهود المختلفة التي مرت بها الدولة العباسية . هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى ظهورها بلبوس متنوع تخفى وراءه عناصر مختلفة . واذا كانت عهود الدولة

(١) نسبة الى ابن هديدة الراوندى التي انطلقت من مدينة راوند الغربية في اصفهان . وهي من اولى الحركات التي نادت بمقاومة الافكار الاسلامية واحلال محلها المعتقدات المجوسية القديمة . وكانت قد ظهرت في نهاية العهد الاموي واستمرت بعد سقوط الدولة .

(٢) وهي حركة شعوبية عرفت بهذا الاسم نسبة الى بابك الخرمي ، وظهرت زمن الامين والمامون وكان من اهدافها ، التظاهر بالاسلام ، ولكنها كانت تعمل بصورة سرية في مقاومة العروبة والتقليل من شأنها بحجة الدفاع عن تعاليم الاسلام . ولا يخفى ان ذلك كان ضد الاسلام لانه دعى الى اخوة المسلمين كافة .

(٣) حركة شعوبية اسسها عبدالله بن ميمون القداح ، وهمدان بن الاشعث الملقب بقرمط وهو فلاح من اهل الكوفة . وتتميز هذه الحركة بانها حركة سرية دقيقة التنظيم . وكان من اهدافها مهاجمة الاماكن الاسلامية المقدسة وزعزعة العقيدة الاسلامية وضرب العروبة واشاعة الفوضى في العراق والشام والحجاز والبحرين وقد سحقت في مصر . ومن مظاهر خطر هذه الحركة انها كانت تعمل على السيطرة على شؤون الدولة العباسية والقضاء على العناصر العربية في الدولة بالذات .

(٤) حركة ظهرت في نيسابور . وعرفت بالمزدكية نسبة الى مزدك الذى استند في تعاليمه على المذهب المثنوى ، الذى يرى ان العالم يحكمه الهان اله الخير واله الشر . وقد دعا الى اشتراك الناس ، باموالهم ونسائهم وبذلك تكون قد خرجت عن الاسلام . ان المهم بالنسبة لكل ما تقدم هو ان كل هذه الحركات كانت محاولات لاجراج الفكر العربي الاسلامي عن طريقة المستقيم .

العباسية الاولى قد لعبت فيها عناصر شعبية على النحو الذي مر بنا ، فان عهود الدولة المتأخرة قد لعبت فيها عناصر شعبية سلجوقية وتركية .

والذي يقف على جميع العهود التي مرت بها الدولة العباسية بوجه خاص ، يجد ان العناصر الشعبية المختلفة كانت تتنافس للتسلط على مقدرات الدولة العربية والقضاء على المفاهيم الفكرية التي قامت عليها . واذا كان ابو جعفر المنصور قد دأبته الحركة الخراسانية ، وان هارون الرشيد قد دأبته حركة البرامكة ، فان المعتصم كان قد احاطته وولديه الواثق والمتوكل من بعده ، عناصر شعبية تركية بحيث تغفلت في مرافق الدولة المختلفة ، تغفلا خطيرا دام حتى نهاية عهد المستكفي (٣٣٤ هـ) . ولم يكن هذا التغفل ليتتهي الا ليعقبه تغفل عناصر شعبية اخرى تمثلت بالبويهيين والسلاجقة والشركس فالتتر الذين قضاوا بقيادة هولاء على الدولة العباسية قضاء نهائيا .

وصفة القول ، ان الشعبية تشكل عاملا مهما من عوامل اضعاف وانحسار الفكر العربي الاسلامي . فلقد استهدفت الشعبية اول ما استهدفت حملة الرسالة والقيم الفكرية والحضارية التي نادوا بها . وكانت الغاية من ذلك ابعاد الفكر عن حماه ورواده الاوائل ، وفي ذلك اضعاف وبالتالي هدر للفكر وقيمه . كما استهدفت الحركات الشعبية المتمثلة في فرقها وتنظيماتها ومذاهبها المختلفة ما جاء به الفكر والحضارة العربية الاسلامية من قيم وذلك بنحريته عن طريق تقديم التفسيرات الخاطئة له ، بغية عرقلة سيره وانتشاره وبالتالي اضعافه والقضاء عليه .

واذا ما حاولنا اجراء تصنيف للدروب التي سلكتها الشعبية لتقويض دعائم الفكر والحضارة العربية الاسلامية لوجدنا انها تمثلت في الشعبية الفكرية ، التي تخفت في محاولات التشكيك بالتراث العربي وفصل الناشئة عن حضارتهم وتصوير التراث العربي بصورة هزيلة لكي تزعزع الايمان في نفوس ابناء الشعب العربي بالنسبة لتاريخهم وامجادهم الماضية . ولم تسلم

القيم الدينية من محاولات مدسوسة تمثلت فيما كتبه وسلكه اهل الباطن والغلاة ومن جرى على شاكلتهم في محاولة لضرب المنهج الديني وذلك لاكتمال المخطط الشعبي الذي وضع لمهاجمة الفكر العربي الاسلامي «(١)» ؛ وفي الشعوبية الاجتماعية التي تمثلت في محاولات تسلم عناصر مدسوسة امر « زمام التوجيه الاجتماعي في الحياة والمجتمع وخلق طبقات تسعى لضرب القيم الاجتماعية والمثل العليا التي سار عليها المجتمع العربي الاسلامي... فقد وجدت طبقات من الشطارين والعيارين لاشاعة الفوضى وكسر قيود النظام في المجتمع الاسلامي ، كما جرت محاولات لبث الاباحية الجنسية وتزيين ارتكاب ما لا يتفق والنظم الاجتماعية ذات القيم المحترمة «(٢)» ؛ وفي الشعوبية العسكرية التي تمثلت في الهجمات المتكررة التي قامت بها قوى خارجية متمثلة بالصليبيين والتر والسلاجقة والمغول مستغلة التدهور والضعف والظروف القاسية التي كانت تحيط بالدولة والمجتمع العربي الاسلامي في الداخل ؛ وفي الشعوبية السياسية المتمثلة بالجمعيات والحركات السرية التي تقوم مبادؤها على الاباحية وضرب القيم الانسانية وبث الفوضى بارهاب واغتيال رجال السياسة والحكم لكي يتم من بعدها تفويض اركان الدولة «(٣)» .

العصر المظلم :

ويمكن تعريف العصر المظلم بانه حالة الوقوف عن الحركة ، والتأخر والجهل التي نجمت عن سيطرة القوى غير العربية من بويهية ومنغولية وتركمانية وصفوية فارسية وعثمانية على المجتمع العربي . ولقد ادى كل ذلك الى الانحلال والتفكك في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والعسكرية والفكرية . وكانت النتيجة المنطقية للضعف الذي احاط بالمجتمع والدولة العربية الاسلامية ، ان

(١) انظر في هذا الصدد د . متعب مناف ، الواقع الفكري والمجتمع العربي الجديد ، مطبعة العامل ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ١٣ .
 (٢) المصدر السابق نفسه .
 (٣) المصدر السابق ، ص ١٤ .

اصبحت مقاومتها لصد الهجمات المتكررة من جهات مختلفة ، نقول ان مقاومتها
اصبحت ضعيفة بحيث ادى الامر بالدولة العربية الاسلامية في الشرق الى السقوط
عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) والى خفوت النور العربي الاسلامي في كل مكان حتى
سطا على اخر معقل من معاقله المتوهجة في الاندلس عام (١٤٩٢م) ، والذي
بخفوته كان بدء مرحلة طويلة من الخفوت والركود الفكري ، لم يستطع
فيها من الحركة الا في منتصف القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع
عشر الميلادي .

ان قصة خفوت الفكر العربي الاسلامي ، اذن ، وعلى ضوء ما تقدم تبدأ
بداية تزغزع مركز العرب القيادي والتوجيهي ، الذي ظهرت علاماته
الواضحة في اواخر العصر العباسي . وحينما فقد العرب مركزهم القيادي
والتوجيهي في المجتمع بسقوط دولتهم ، بدأ الفكر العربي الاسلامي مرحلة
سوداء عرفت في تاريخه بالمرحلة او الفترة المظلمة .

ولقد اثبتت احداث التاريخ وتقلباته ان الفكر العربي الاسلامي ظل في
انحسار وركود طيلة الزمن الذي كان فيه نجم العرب قد اقل وتوارى عن
الانظار . ودليل ذلك ان بغداد عاصمة الدولة العربية الاسلامية ، التي سطع
منها نور المعرفة والرقي لمئات السنين اصبحت بعد افول نجم العرب عنها ،
تعيش في فترة مظلمة وقاتمة كان الحكم الاجنبي الغريب عن البيئة العربية
الاسلامية ينتقل من حكم لآخر . ولقد تميز هذا الحكم المتعاقب بركود عملية
الفكر وتخلفه . وتظهر هذه السمة بالمغول وبالتتر بالذات الذين قضوا على
عاصمة الحضارة العربية الاسلامية الكبرى ، بغداد ، والذين لم يكونوا ليملكوا
الا الوحشية والبطش ، والفقر الفكري والديني والحضاري . وازاء ذلك ،
لم يجدوا بدا غير الخضوع الى قيم الحضارة العربية الاسلامية . كما تظهر
نفس هذه السمة ، بالتركان من بعد المغول ، الذين تميز عهدهم بالفوضى
والفقر الفكري حيث ساد الجهل الحياة بأسرها . ولقد كانت هذه الفوضى
بعينها هي التي مكنت العثمانيين من ان يتزغوا السلطة من ايدي الصفويين
الفارسيين الذين لم تدم سطوتهم سوى فترة قصيرة من الزمن .

ومع ان العثمانيين الاتراك قد حكموا باسم التعاليم الاسلامية واعلنوا ان عصرهم عصر استمرار للخلافة الاسلامية ، الا انهم شأنهم شأن من سبقهم من الاقوام التي لاتمت الى الارومة العربية ، لم يستطيعوا ان يقدموا ما يجعلهم ان يكونوا رعاة حقيقيين للفكر العربي الاسلامي اكثر منه قوما محاربين عنوا بالتوسع واخضاع الاقاليم من حولهم من اوربية واسوية وعربية . «فالترك ، وان استطاعوا ان يؤسسوا دولة كبيرة ، فانهم اثبتوا عجزهم عن ابداع حضارة في كل زمن ، وكان اقصى جهودهم ان يستفيدوا مما اصبح تحت ايديهم من علوم العرب وفنونهم وصناعاتهم وتجارتهم ، ولم يقدر الترك ان يتقدموا خطوة واحدة في هذه المعارف التي ازدهرت ايام سلطان العرب » (١)

وفي الحقيقة فان الحفاظ على التراث العربي الاسلامي وما جاء من قيم سياسية واجتماعية واقتصادية ، وما احدثته تلك القيم من فاعلية وقدره من اذابة واصهار من احتكت وتفاعلت معه في بودقتها ، لم يكن ليتم الا برجال آمنوا به ايمانا حقيقيا وعملوا على نشره نشرا حقيقيا . ولقد كان دور هؤلاء الرجال ، وكما مر معنا ، دور الحماة الماهرين على قوته ونقاؤه . ولا غرابة في كل ذلك منذ ان يعلم المرء ان حاملي تلك القيم هم اصحابها ، وان نجاح وانتشار تلك القيم كان امرا يتعلق بمصيرهم وحياتهم . ثم ان ما مكنتهم من اقامة بنائهم الحضاري الشامخ هو ما احتوته هذه القيم الحضارية من ابعاد انسانية . فلم توضع الحدود امام كل انسان ، بعكس العثمانيين وامثالهم الذين جاءوا غزاة وفاتحين . انهم جاءوا الى هذه البيئة الجديدة ولم يملكوا تراثا ثقافيا وحضاريا يستطيع ان يتبارى او يتفاعل مع ما وجدوه . ونتيجة لذلك ، فان العثمانيين ، وجدوا انفسهم في حاجة وضرورة للاخذ به وتعاليمه . ولكن هذا الامر ليس بالسهل لانه كان يحتاج الى رجال مفكرين والى علماء ، والى جو ومناخ سياسى واجتماعى ونفسى ، لكي يسهل امر دوامه واستمراره وازدهاره . والذي حصل بالفعل ، هو ان معاول الفكر التي قام بها من

(١) گوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ط ٣ ، ص ٥٨٧ .

سبقهم من اقوام ، والتي شوهدت الكثير من معالمة ، لم يبق من ذخيرتها الفكرية والحضارية الا بقية منها . وحتى هذه البقية من الذخيرة الفكرية والحضارية ، فان العثمانيين لم يستطيعوا من تغذيتها ونمايتها مجددا ، لا بل حتى الحفاظ عليها .

ذلك ان السياسة العسكرية والاقتصادية والمالية والثقافية والسياسية والدينية التي سارت عليها الدولة ، لم تكن صالحة باى حاله من الاحوال لحفظ ونماء عملية الفكر . وما خلا قلة قليلة من القادة ظهرت على مسرح الدولة العثمانية كانت تؤمن بالتقدم والاصلاح ، فان الخط العام الذي سارت عليه الدولة كان خطأ سلبيا اكثر منه ايجابيا . ذلك ان سياسة الفتوحات والتوسع بالقوة ، التي استندت على جيش خليط من اقوام عديدة عرف بالجيش الانكشارى ، لم تكن لتؤمن اوضاعا مستقرة في داخل الدولة ؛ ثم ان السياسة المالية والاقتصادية لم تكن موجهة للاعمار الاقتصادى في الاقاليم التي تسيطر عليها الدولة ، وانما كانت موجهة نحو تشجيع الاقطاع ونحو هدف امتصاص مالى هذه الاقاليم عن طريق الضرائب الباهضة والمفكرة ، ونحو اتفاق ما يتجمع من مال في الامور العسكرية وامور البذخ والجاه والسلطان ، ما خلا فترات متقطعة من حياة الدولة التي سعى فيها بعض القادة في الصرف في مجالات التقدم والاصلاح ولكنهم كانوا قلة قليلة^(١) ، لم تستطع ان تغير من اتجاه البناء العام . اما السياسة الثقافية ، فلم تكن لتعنى اساسا بتعميم الثقافة على الجميع ، كما انها كانت سياسة ثقافية متعصبة . فلقد كانت تفرض التدريس في المدارس على قلتها ، باللغة التركية . وكان هدفها من ذلك تريك كل الاقوام التي اخضعتها تحت حكمها . وطبيعي ان تكون مثل هذه السياسة غير مشجعة على تحقيق اى تقدم فكري وحضاري عال .

(١) يذكر محمد كرد علي ان المؤرخين يروون « انه جاء من سلاطين آل عثمان منذ القرن الخامس عشر الى القرن السادس عشر ممن كانوا عظماء حقا . وان سليمان القانوني كان من طرازهم ، لكن خلفاءه استرسلوا في الرذائل والشهوات » . انظر كتابه الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٠٠ .

ولقد اصاب العرب الكثير من المأسى والتدهور أبان الحكم العثماني . فمع ان العثمانيين ، قد تميزوا عن سبقتهم ، في انهم ضموا الاقاليم العربية تحت سلطانتهم ، بعد ان كانت مجزئة ومتباعدة طيلة كل العهود التي اعقبت سقوط بغداد ، الا ان ذلك الضم وان كان تحت شعار استمرار الخلافة الاسلامية ، فانه لم يكن ليترك انارا ايجابية تذكر . فلقد كان قبل كل شيء ، ضما اداريا ليخدم تماسك الامبراطورية العثمانية ، اكثر منه لاحلال وحدة فكرية عربية اسلامية حقيقية . فلم يشعر العرب ، ازاء ذلك ، باى استقلال وحرية . كما اصبحوا بفعل الاساليب التي اتبعها العثمانيون طبقة من الدرجة الثانية ، بعيدة عن المشاركة الفعالة في حياة الدولة والمجتمع^(١) . اضيف الى ذلك ما اصاب اللغة العربية من اهمال وانحلال وعجز نتيجة لتشدد العثمانيين لمنع التعامل الرسمي بها من جهة ، والى اعاقه استخدامها اجتماعيا من ناحية اخرى^(٢) .

ان حرمان العثمانيين العرب من المشاركة الفعالة في حياة المجتمع والدولة يمكن ان يفسر ضمن حقيقتين رئيسيتين . الحقيقة الاولى وهي استهانة العثمانيين بالعرب والتقليل من شأنهم في بناء الدولة والمجتمع العربي والاسلامي . ومثل هذه الاستهانة تنكر الابعاد الحقيقية للتراث العربي وقيمه . لان الاستهانة بالعرب ، وهم مادة الاسلام وحملتها ، استهانة وجهل بالتراث الذي نحن بصددده . والحقيقة الثانية ، ان حرمان العرب ، وهم الذين كونوا غالبية الاقاليم التي حكمها العثمانيين ، قد شكل ظلما اجتماعيا خاليا من اي تقدير للقيم الانسانية التي جاء بها الفكر والحضارة العربية الاسلامية .

وصفوة القول ان سياسة الاكراه والتعصب واللامبالاة في ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تكن لتشجع العلم والعلماء ، ولم تكن

(١) للرجوع الى التفاصيل ، انظر انيس صايغ ، تطور المفهوم القومي عند العرب ؛ وانظر كذلك الفصل الخامس المعنون « الاتجاهات والحركات الشعبوية الجديدة » ، في كتاب الشعبوية والقومية العربية للفكيكي ، مصدر سبق ذكره .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٦ .

صالحة لخلق الجو المناسب للمفكرين ليعملوا على استمرار نمو وازدهار الفكر العربي الاسلامي . ومما اضفي على الاحوال سواء على سوء هو تدهور الاحوال الاجتماعية والاقتصادية وضعف القادة في عصور الدولة المتأخرة ، مما جعلها ان تكون عالة على نفسها وعلى غيرها مما دعا الدول الاوربية بتسميتها بـ « الرجل المريض » . ولقد ترتب على ذلك الضياع في حياة الدولة والمجتمع بوجه عام ، والضياع الفكرى بوجه خاص . ولقد ظهر هذا الضياع الفكرى باجلى مظاهره حين ظهرت متأخرا جماعات مختلفة الاهداف : منها من نادى بمبدأ التركية (التورانية) على غرار الدول القومية التي قامت في اوربا ، ومنها من نادى بقيام الدولة على اساس المبادئ الاسلامية ، واخرى من نادى باستمرار الدولة في ظل الاتجاه العثماني القائم (١) .

والشيء الملاحظ هنا هو ان الضياع العام في الحياة ، وعدم وجود خط فكري يسير عليه المجتمع والدولة ، قد ادى الى جمود عملية الفكر ، وادى الى تمزق وضياع الكثير من المصادر والمؤلفات العربية . ولقد كانت خسارة العرب كبيرة جدا . فلقد ادى التعصب ضدهم وسوء معاملتهم الى تبعثر البقية الباقية من مفكريهم ، لا بل الى تبعثر كل مفكر ينتمي الى الامة العربية واللسان العربي ، والى انتشار الفقر والجهل وتفشي الامية ، مما حدا بالمعنيين بشؤون الفكر العربي الاسلامي في ان يعدوا فترة الحكم العثماني التي تقرب من الاربعمائة عام ، امتدادا للعصور المظلمة التي سبقتها .

الاستعمار الغربي :

وفي هذا الجور المشحون بالضعف والتأخر والجمود الفكرى الذى ساد البقاع المختلفة التي كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية ، والتي ادى بها انحلالها الى السقوط ، نقول في مثل هذه الظروف والاحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية دخل الاستعمار الغربي ليفرض سيطرته على كل الاقاليم

(١) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، معهد الدراسات العربية العليا ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، صص ١٠٨-١١٠ .

في الشرق عامة والشرق العربي بوجه خاص :التي تخلت عنها الدولة العثمانية المنحدرة ، والتي قامت على انقاضها جمهورية تركية الحديثة منذ الحرب العالمية الاولى والى حد هذا اليوم .

وفي الحقيقة والواقع ، فان الاستعمار الغربي كان قد تغلغل في الوطن العربي (الذي كانت تحكمه الدولة العثمانية قرابة الاربعمائة عام) قبل تاريخ سقوطها واندحارها بزمن طويل . وتشكل الحروب الصليبية التي شنها الصليبيون ضد المجتمع العربي الاسلامي (والتي دامت قرابة القرنين « ١١-١٣ » بغية غزوه واخضاعه تحت سيطرته) ، نموذجا للنظرة الاولى التي حملها الامراء الصليبيون الاوربية تجاه الحضارة العربية الاسلامية وابناءها بالذات . الا ان اندحار الصليبيين في حربهم مع العرب والمسلمين وان كان اندحارا عسكريا الا انه افادهم من نواحي عديدة اخرى . فلقد تعرفوا على غنى الشرق ومباهجه ، وخيراتة المادية وكنوزه التي فتحت اعين الكثيرين منهم . كما تعرفوا على ان سر الانتصار الذي حققه العرب والمسلمين ، يكمن في المعنوية العالية التي الهبتها مجددا فيهم عقيدتهم الاسلامية^(١) ، بمبادئها التي تسترخص فيها النفوس للجهاد من اجل الحفاظ على التراث والمصير . وبذلك عرفوا ان التجزئة والانقسام الذي حل في الديار العربية الاسلامية وتدهور احوالهم ، لم يكن ليكفي لدحرهم ما دامت تسري في عروقهم الروح الاسلامية العالية التي تتخطى كل العقبات التي تقف امامها . ومن هنا كان الدرس الاول الذي استفاده الاستعمار الغربي فيما بعد من الصليبيين المتعصبين هو ان طريق غزو

(١) يقول د . محمد البهي « اتصل الغرب المسيحي بالشرق الاسلامي اتصال اعتداء مسلح طوال قرنين كاملين من الزمن ، من نهاية القرن الحادي عشر الى اخر القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو اعتداء الحروب الصليبية واخترت في هذا الاحتكاك عقيدة الاسلام في قوتها ، وضعف المسلمين في مجتمعاتهم وسعة ما يملكون من ثروة في بلادهم » . انظر كتابه الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٩٦١ ، طبعة ٣ ، ص ٥ .

الشرق الحقيقي لا يمكن ان يتم الا بنشر مفاهيم تستطيع ان تززع مفاهيمهم الفكرية القائدية^(١) ، وان الغزو العسكري والاقتصادي يجب ان يقترن بغزو فكري .

ولقد كان الاستعمار الغربي نشطا في تحقيق خططه مستفيدا من كل دروس الماضي . فلقد بدأ جولاته ابتداء من القرن السادس عشر لتحقيق تسلطه العسكري والاقتصادي والفكري . وكانت جولاته تتقل من منطقة الى اخرى . بينما هو بدأ محاولاته في القرن السادس عشر ، في الخليج ، اذا به يوسع نطاقه تدريجيا في منطقة بعد اخرى من مناطق الشرق العربي الاسلامي ، حتى اذا ما انتهى القرن التاسع عشر واذا به قد بسط نفوذه على سائر العواصم العربية الاسلامية .

لقد تخطى الاستعمار الغربي الحديث كل العوامل التي عملت على انحسار الفكر العربي الاسلامي والفكر السياسي منه بالذات ، بشكل خطير . فلقد اختلف عن الحركات الشعبية في انه كان اكثر تنسيقا وتخطيطا وشمولا منها . واذا كانت الحركات الشعبية قد ظهرت في اوقات مختلفة ومتباينة ، فان الاستعمار الغربي قد تميز بالاستمرارية . واذا كانت الحركات الشعبية ايضا قد كشفت امرها واوقفت عند حدها وقضي عليها ، فان الاستعمار الغربي كعامل مهم وخطير من عوامل هدم الفكر العربي الاسلامي ، على الرغم من افضاح امره ، لم يكن بالامكان قهره وايقاف شره بالامر السهل ، وان مقاومته قد كلفت الكثير من العناء والجهد . وكانت نتائجه واضراره بالغت بحيث وجد له انصارا ومؤيدين عملوا بكل جدية على تثبيت اركانه مما سهل له التغلغل والتأثير البالغ في حياة الاقاليم المسيطر عليها سياسيا واجتماعيا ونفسيا واقتصاديا وغيرها . وقد كان نصيب الوطن العربي من الضرر بالغا حينما نعلم ان حواضره كانت مراكز اشعاع رئيسية لازدهار الفكر العربي الاسلامي .

(١) المصدر السابق ، ص ٧ .

ويظهر ضرر الاستعمار الغربي البليغ في الفكر العربي الاسلامي في اهدافه ووسائله التي دأب على السير فيها . فأما اهدافه ، فهي انه وجد من بعد تجربة طويلة ان السيطرة الاقتصادية والسياسية القائمة على القوة العسكرية لا تشكل الانصرا وسيطرة مؤقتة . وانها على المدى البعيد غير امينة وغير مربحة ما لم تقف بقوة مساندة اخرى يكون مفعولها اقوى من القوة العسكرية . وهذه القوة الجديدة تتمثل في نشر مفاهيم الفكر الغربي وتغليبها على مفاهيم الفكر العربي الاسلامي . وقد وجد الاستعمار الغربي ان هذه القوة الجديدة المتمثلة بنشر مفاهيم الفكر الغربي والتي عرفت باسم : « تغريب مفاهيم الفكر العربي الاسلامي » ، لابد لها من وضع مخطط فكري تغريبي شامل يتناول جميع جوانب الفكر والحياة العربية الاسلامية من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وغيرها .

المخطط الفكري الاستعماري :

وبهنا هنا ان نوضح ان من اهم اهداف المخطط الفكري السياسي الغربي التصدي لمقومات الفكر العربي الاسلامي : بوصفها مقومات جامدة ولا تصلح للعصر الحديث ، سيما تلك المقومات السياسية التي تستند على قواعد دينية اسلامية ، بأنها كانت ولم تزل السبب في التأخر السياسي^(١) ، وان ليس هناك من بديل الا اقامة الدولة على اسس علمانية كتلك التي تقوم عليها مفاهيم الدول الغربية .

ولقد تبين من خلال الاساليب التي مارسها ويمارسها الاستعمار انها تنطلق من منطلقات اساسية معينة ومتعاقبة تتمثل في : (اولا) التشكيك في القيم

(١) يجزم الكاتب سبايزر « بان الاسلام ، لسبب من معتقداته التي لا تجارى يجب ان يعتبر المسؤول الاول عن جميع مشكلات الشرق الاوسط ومصاعبه » . انظر :

E. A. Speiser "Cultural Factors in Social Dynamics in the Near East", in Sydney N. Fisher, Social Forces in the Middle East. Cornell University Press, Ithaca, 1955 p. 20.

العربية الاسلامية و (ثانيا) تحويل المفاهيم و (ثالثا) الدعوة الى الاندماج الكامل في الحضارة الغربية و (رابعا) القضاء على التاريخ والدين والتراث واللغة^(١) . ذلك ان التشكيك بالقيم العربية الاسلامية ، يعمل كما خطط له الاستعمار ، على اضعاف الثقة بمقومات الفكر وعلى اضعاف الصلة به . وهذا مما يسهل اى الدخول في عملية تحويل المفاهيم العربية الاسلامية من اساسها الى مفاهيم تستمد مصادرها وقوتها من الفكر الغربي . وفي اثناء عملية تحويل المفاهيم ، يصبح امام الفرد اكثر من تقييم واحد للشيء الواحد . وهنا يجيء الحل ، وهو ترجيح مفاهيم الفكر والحضارة الغربية الحديثة التي تتفق وروح العصر والتقدم . حتى اذا ما تم هذا الترجيح عندها يصبح التاريخ والتراث العربي لاسلامي لاضرورة له في عملية تقدم الدولة والمجتمع ، طالما انه تراث لا يصلح ولا ينسجم وروح العصر الحديث .

والامثلة على هذه الحملات التي قام بها الاستعمار في محاولات هدم مقومات الفكر العربي الاسلامي كثيرة ومتنوعة ، منها دعوته بأن الفكر العربي الاسلامي هو فكر تجريدي^(٢) : بمعنى ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر غير واقعي . والغاية هنا ، هو الوصول بالنهاية الى حاجة الشرق العربي الاسلامي الى الاخذ بفكر واقعي وذلك هو الفكر الغربي . ومع ان الصاق مثل هذه السمة بالفكر العربي هي عملية تقوم على المغالطة ، الا ان الاستعمار برديده التأكيد على مثل هذه النعمة يعتقد انه سيجد له انصار يمكن ان يعتمد عليهم في عملية التغريب الفكرى للشرق العربي الاسلامي ، ومثل ذلك امر له فائده في تحقيق الاهداف . والحقيقة التي يعلم بها كل مطلع على مقومات الفكر العربي الاسلامي هي ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر نبع من البيئة وجاء لیسد حاجتها . فما الخلافة ، مثلا ، الا صورة صادقة اصيلة ولنظام عكس واقع الحياة بكل دقة .

(١) انور الجندي ، معالم الفكر العربي المعاصر ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٢٠ .
 (٢) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

ومن الامثلة على هذه الحملات الفكرية التي شنها الفكر الغربي ضد الفكر العربي الاسلامي ، ثانيا ، مهاجمته للفكر العربي الاسلامي بانه فكر يستسلم للماضي^(١) . وتمثل هذه الدعوة في ان ابناء الفكر والحضارة العربية الاسلامية الذين يعيشون على تراث الماضي ، الذين فاتهم ان يعرفوا عنه ، انه يشكل عائقا دون حركتهم وتطورهم . فالتراث العربي الاسلامي ، كما يروج له مفكرو الاستعمار ورسـل «الشعبوية الحديثة» ، تراث انتهى وانتهت حركته وركد من بعد ذلك . وان اية حركة لا بد وان تنطلق من مفاهيم الحاضر المحركة وليس من مفاهيم الماضي الراكدة والبعيدة الصلة عن الحاضر . ولا يخفى على كل مطلع وكل موضوعي ، ان مثل هذه الادعاءات لا اساس لها من الصحة . وتتجلى هذه المغالطة في مسألة التراث العربي الاسلامي ، التي يحاول فيها المخطط الاستعماري الفكري الخلط المتعمد بين التراث والفكر الاغريقي واللغة اللاتينية ، التي انتهى امرها وانقطعت صلتها ، وبين التراث والفكر العربي الاسلامي واللغة العربية ، التي لاتزال قائمة وحية الى الحاضر . وبعبارة اوضح فان المقارنة هنا باطلة :لان التراث الاغريقي الذي انقطعت صلته لا يشبه التراث العربي الاسلامي الحي المتفاعل الذي لم تنقطع صلته .

وعلى حد قول الاستاذ انور الجندي « اننا لا نستسلم للماضي ولم يكن تقديرنا لمجدنا الغابر حائلا دون التطور يوما او الاستسلام ، ولم تكن عقائدنا ولا تراثنا ولا قيمنا الاساسية عائقا لنا عن الحركة والتطور ، بل كانت عاملا ايجابيا يفتح لنا الطريق الاصيل الواضح ، ولا سبيل الى ان ندع اساسنا ونبني في ارض رخوة ، فان بناءنا اذ ذاك لن يرتفع بل سينهار ونحن نؤمن بأن شجرة المعرفة يجب ان تطعم على اساس من ماضيها فتصل اتصالا طبيعيا بمنابع ثقافتنا . ان كل اوليات المعرفة والحضارة نابعة من فكرنا العربي الاسلامي »^(٢) ويحاول التغريب ان يثير الشكوك والمغالطة فيها .

(١) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

ولم يكتف الاستعمار في حملاته الشعبوية الحديثة على الصاق تهمة التجريد بالتراث وبالفكر العربي الاسلامي ، وانما تناولت معاول هدمه العلاقة بين العروبة والاسلام . فلقد هاجمت معاول الهدم الفكرى جوانب وزوايا مختلفة منه ، حيث لم تقتصر على جانب او زاوية واحدة . من ذلك ان الاسلام دين ولا شأن له بالسياسة . والدعوى هنا ان تدخل الاسلام كعقيدة دينية ، قد اضر كثيرا بالسياسة واضفى عليها الجمود ، لان مسائل الدين لاتتعلق بأكثر من العبادات وعلاقة الانسان بربه ، واما السياسة فأنها مسألة دنيوية وتتطلب الاستقلال . وهذا هو المفهوم الحديث في السياسة الذى يجعل الدولة ان تقوم على اسس علمانية . وبالنسبة للعرب ، فإن من الضرورى لهم ان يقيموا مفاهيمهم السياسية على مفاهيم قومية حديثة كذلك التي قامت بموجها دول اوربا الحديثة التي فصلت فيها شئون سياستها عن شؤعون دينها .

وطبيعى ان تفسير علاقة الاسلام على هذا النحو ، من حيث انه عقيدة دينية ، ليس انه مغالطة وانما قياس خاطيء يقوم على مسائل ومشكلات حصلت في اوربا وادت تلك المشكلات الى حلول تتفق وطبيعة الظروف التي اتسمت بالتعصب والنزاع من اجل السلطة . فقبل كل شيء ، ان الاسلام ليس هو دين وحسب ، وانما هو دين ودولة وفكر وحضارة . وهذا ما اعترف بعض المستشرقين المنصفين من امثال لويون وكب وروزنثال وغيرهم . فالاسلام من حيث انه فكر ومن حيث انه دولة وحضارة ، كان له قصب السبق في نشر مفاهيم سياسية وانسانية : كدعوته الى الحرية والمساواة والوحدة وحثه على بناء مجتمع انسانى سعيد ينعدم فيه الظلم والعبودية التي تعودت عليها اوربا . واذا كان الاسلام خلوا من طبقات كنسية دينية تريد ان تحكم ، كما حصل في اوربا ، فانه بالنسبة للعرب المنبع الرئيس الذى استمدوا منهم افكارهم ووحدتهم وحضارتهم الانسانية العالمية ايضا . فلقد كان الاسلام ولايزال مصدر الهام وقوة بالنسبة للعرب . فهو الذى استطاع ان يوحدهم ويقدمهم الى العالم امة عربية ذات رسالة انسانية : تلك الرسالة

التي احتوت من بين ما احتوت على مفاهيم سياسية واجتماعية عليا في الحرية
والمساواة ومقاومة الظلم واسعاد الانسان بمجموعه . واذن فأن العلاقة بين
العروبة والاسلام هي علاقة وثيقة لانقسام فيها . وكما عبر عنها مورو بيرجو
(استاذ الشرق الادنى بجامعة برستون) في كتابه « العالم العربي اليوم » حين
قال « ان العروبة تعني الاسلام ، وان الابتعاد عن الاسلام معناه انفصال البناء
عن اساسه . . . وقد ثبت تاريخيا ان قوة العرب تعني قوة الاسلام . . . » (١)

ولم يقتصر امر المغالطة والخلط في المفاهيم ، بالنسبة للاسلام على ما تقدم
حسب ، وانما تناول جوانب خاطئة اخرى ايضا . ومن هذه الجوانب ، التي
وجد فيها مفكرو الاستعمار ما يخدم اغراضهم ، الجانب المتمثل فيما صاحب
المجتمع العربي الاسلامي من ظروف في عصوره المظلمة التي اعقبت سقوط
الدولة العباسية ، وفترة الحكم العثماني الاسلامي التي تشكل امتدادا لها . فلقد
ترجموا الاسلام ومبادئه ومفاهيمه في ضوء التدهور الذي مر به المجتمع
العربي الاسلامي ، وعزوا ذلك الى المبادئ والمفاهيم الاسلامية نفسها ، حيث
قالوا انها مبادئ التأخر السياسي والاجتماعي ، وانها مبادئ هزم على اثرها
العرب والمسلمون . ومثل هذا التفسير فيه الكثير من الخلط والمغالطة ايضا .
فقبل كل شيء ، هناك فكر وهناك انسان ينتمى الى هذا الفكر . ففي الحقيقة
ان التدهور والانحلال والركود والانحسار الفكري لم يكن سببه الفكر العربي
الاسلامي نفسه من حيث انه فكر مثبط للعزائم وعامل مساعد في التدهور ،
وانما سببه اهل هذا الفكر واصحابه والقوامون عليه وهم العرب ، الذين كان
تراخيهم عنه سببا في خلق جو سياسي واجتماعي لا يصلح لاستمرار نماءه
وازدهاره . فلقد اثبت التاريخ ان الفكر وصل اوجه حينما كان العرب
مشدودين الى تعاليم رسالتهم وقيم حضارتهم ، وانهم عندما تراخوا كان ذلك
التراخي عاملا في ان يتبوا مركز القيادة ، وكما مر معنا ، شعوبية قديمة
عملت كعامل هدم لتراث العرب وقيمهم العربية الاسلامية التي نشروها الى

(١) اقتبس في المصدر السابق نفسه ، ص ٩٨ .

العالم ، وما هذه التفسيرات المغالطة ، الا صورة لشعوية جديدة . اذ من العيب افعال اسباب ما حل بالفكر العربي الاسلامي من انحسار ، بالفكر نفسه . والا كيف يمكن تفسير انصهار الاقوام غير العربية وذوبانها في لواء الحضارة العربية الاسلامية ، ان لم تكن هناك فاعلية وقوة جذب وعدم تعصب ، تجعلهم يقبلون عليها . وهكذا فمن الخطأ كل الخطأ القول ان الاسلام هو العثمانيون او انه المغول او غيرهم . فالاسلام اذن من حيث انه فكر ومبادئ شيء ، وصورة المجتمع العربي الاسلامي وما يمر فيه من فترات ضعف وقوة هي شيء آخر .

اساليب الاستعمار :

واذا ما تركنا المنطلقات التي انطلق منها دعاة الشعوية الحديثة المتمثلة بالاستعمار جانباً ، ووقفنا على الاساليب التي استخدمها في سبيل تحقيق اهدافه في تغريب الفكر العربي الاسلامي ، تظهر لنا حقيقة المخطط الفكري الاستعماري بصورة اكثر وضوحاً . وتأتي في مقدمة هذه الاساليب التي اتبعها الاستعمار في الشرق عامة والشرق العربي خاصة ، اسلوبه المعروف في الابقاء على اي وضع اجتماعي او اقتصادي او سياسي متدهور طالما انه يخدم مصالحه ونفوذه . « فلقد اثبتت الاحداث ان اساليب الاستعمار الغربي قد تمثلت فيما تمثلت في احلال الشركات الاقتصادية الاستعمارية محل الالتزام في جباية الضرائب ، وراحت تنهب الثروة العربية التي كان يستنزفها الولاة الاتراك ، وعمدت الى منع اية نهضة صناعية او اقتصادية في الوطن ، لتظل الارض العربية مصدر خامات لصناعات الغرب واسواقاً لمنتجاته ، وظلت الامية هي الطابع العام للمجتمع العربي بالرغم من محاولة نشر الثقافة الغربية . » (١) وما هو اخطر مما تقدم ، هو محاولات الاستعمار في « ترسيخ العادات والتقاليد الجامدة وطمس القيم

(١) محمود الشراقوي ، الامة العربية ورسالتها ، الدار القومية ، القاهرة

(بلا تاريخ) ، ص ٣١ .

العربية الصميمة وبث روح الانهزامة والتخاذل وتثيت الوضع القبلي الذي
يجسد بنية المجتمع .^(١)

اما الاسلوب الثاني الذي اتبعه الاستعمار الغربي في سبيل تحقيق اهدافه
ومصالحه ، فهو خطته في التجزئة . ولقد تناولت هذه الخطة ابعادا مختلفة .
ومن هذه الابعاد ، التجزئة الجغرافية الاقليمية . فبعد ان كانت الاقاليم
موحدة اداريا في ظل الحكم العثماني ، اذا به يتدع نظرية التجزئة الاقليمية
التي عملت على خلق كيانات اقليمية ونظريات اقليمية سياسية تقوم منها . وكان
على اثر ذلك ان ظهرت التجزئة وحدودها السياسية التي تفصل بين اجزاء
الوطن الواحد . وقد وضع الاستعمار ، بالاضافة لهذه الكيانات حكاما واجهزة
تتفق معه في سياسته وافكاره . ولقد ظهرت هذه الكيانات الكاذبة وكأنها تمثل
دولا ذات شعوب مختلفة في الوقت الذي هي ترتبط جميعا بلغة واحدة ومصالح
مشتركة وآمال واحدة . فلقد عمدت فرنسا الى عزل المغرب العربي عن المشرق
العربي ، كما عمدت بريطانيا عزل مصر عن السودان ، ثم عمدت الى عزل
وادي النيل برمته عن اقطار الجزيرة العربية .

ولم يقف الاستعمار عند هذا الحد في نظرية التجزئة . فلقد عمد الى
نظرية تجزئة الفكر السياسي العربي الاسلامي وذلك بتشجيع كل الافكار
والمذاهب التي تتجاوب ونظريته في التجزئة الفكرية عن طريق برامج الثقافية
التي وضعتها الثقافة الغربية . ومما تجدر الاشارة اليه هو ان هذه البرامج
الثقافية والفكرية قد جند لها الاستعمار فرقا من المبشرين المتضلعين ليس في
انيدان التعليمي والثقافي فحسب ، وانما كذلك في ميادين اخرى من دينية
وفنية وسياسية ونفسية واقتصادية وغيرها . والشئ المهم بالنسبة لهذه الفرق
التبشيرية والمبشرين ، هي ان قاسما مشتركا اعظم يجمعها وذلك هو الاتفاق التام

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١ .

على هدم مقومات الفكر والحضارة الاسلامية واخضاع الشرق العربي الاسلامي للاستعمار الغربي (١) .

ان اخطر ما قام به الاستعمار هو تشجيعه النزاعات المذهبية والعنصرية والاقليمية وتحطيم كل ما من شأنه ان يجمع العرب بأخوانهم المسلمين الذين كانوا فيها كذلك طيلة زمن طويل في ظل المبادئ الانسانية الاسلامية . ولقد كان ذكيا كل الذكاء في الاستفادة من الضعف والوهن والجهل الذي دب بين ظهرائي العالم العربي الاسلامي ، والذي نخرته معاول هدم القوى الشعبوية المفرضة . كما حاول ان يتبع ذلك بالتجزئة القومية ، عن طريق النزاعات الاقليمية التي خلقها او التي مهد لوجودها بعمله على كبت الوعي القومي كالنزعة الاقليمية الفرعونية في مصر ، والنزعة الاقليمية البربرية في مراكش ، والآشورية في شمال سورية والنزعة القومية اللبنانية (٢) .

واذا ما اضيف الى كل ما تقدم من ابعاد في التجزئة الجغرافية والسياسية والفكرية ، البعد الاقتصادي ، حيث يتجسد امام المحلل للاستعمار الغربي بكل وضوح كيف ان المخطط الاستعماري هو مخطط متكامل بحيث ان ابعاده ووسائله المختلفة تعاون مع بعضها لتؤدي الى الاهداف المرسومة . والمهم هنا هو معرفة كيف ان ابقاء الازواج الاجتماعية والثقافية في حالسة التأخر والتدهور ، وكيف ان التجزئة الفكرية السياسية وما نجم عنها عن نظريات سياسية واقليمية ودول ذات كيانات لا تسم وطبيعة تكوين المنطقة تاريخيا وثقافيا وحضاريا : نقول كيف انها تسهد جميعا لخلق ظروف صالحة للاستغلال والتبعية الاقتصادية التي تخدم الاستعمار على افضل وجه .

(١) للرجوع الى التفاصيل والتشعبات المختلفة في موضوع التبشير وعلاقته بالاستعمار ، انظر : د . مصطفى خالدي و د . عمر فروخ ، التبشير في البلاد العربية ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا ، بيروت ، ط ٣ ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

(٢) محمود الشرفاوي ، الامة العربية ورسالتها ، ص ٣٢ .

واية خلاصة يمكن ان تقدم بشأن الاستعمار الغربي ومخططاته لا يمكن
لها ان تغفل عن ذكر الاضرار التي خلفها في استمرار تأخر اوضاع المجتمع
العربي والاسلامي ، وفي دوره البالغ والخطير في التدهور والركود والانحسار
الفكري . ذلك ان عملية انماء الفكر وازهاره وكما مر معنا ، لا يمكن لها
ان تتم في ظل اوضاع اجتماعية وثقافية واقتصادية وعسكرية وسياسية
متدهورة . لقد عملت هذه الاوضاع على طرد وفناء العلماء والمفكرين . كما
عملت على انشغال البقية الباقية منهم بالفقر والمرض . اضيف الى ذلك ان
الاحتلال العسكري والكتب السياسي الذي يخلو من كل حرية فكرية وسياسية
كانت عوامل شديدة في تأثيرها ، وشكلت فترات امتداد للعصر المظلم
الذي حبس فيه الفكر العربي الاسلامي طيلة مئات السنين . وما النكبات التي
حلت بأبناء الحضارة العربية الاسلامية ، وفي مقدمتها نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ،
الا انعكاسا للاوضاع المتدهورة التي مروا بها . الا ان الشيء المهم والخطير هو
ان ايغال القوى المختلفة من النيل من الفكر والحضارة العربية الاسلامية
ومبادئها اكثر فاكثرا ، كانت من اهم اسباب تيقظ الافكار .

وهكذا يتبين ان دور الاستعمار الغربي كان خطيرا لانه هز الكيان الفكري
والحضاري العربي الاسلامي هزة قوية لا يزال يعاني من آثارها . وبدلا من
ان تؤدي هزة الاستعمار الى فناء الفكر واذا به يعيد نشاطه وقوته في يقظة
جديدة .

ومن هنا يمكن تصوير الانحسار الفكري العربي الاسلامي ، بانه نتيجة
لضعف الهمم العربية التي ابتعدت عن تأدية دورها في القيادة الفكرية السياسية
 والاجتماعية ، والتي مهدت الى قيام قوى غريبة ، تمثلت في الشعوبية القديمة
والحدیثة (الاستعمار) ، والتي ادت بمجموعها بالفكر العربي الاسلامي الى
امراض فالضعف فالهزال ، ودخوله في خطوط فرعية مشوهة لخطوطه
الاساسية . وكان من نتائج هذا الضعف والهزال ان مر الفكر العربي الاسلامي ،
والفكر السياسي منه ، في فترة مظلمة طويلة تميزت بعدم تمكنه من الوقوف امام

الأفكار الوافدة التي غزته وغربته عن حقيقته • وإذا كانت فترة مرضه الأولى قد عمل عليها الشعوبيون القدماء ، فإن فترة مرضه الثانية قد عمل عليها الاستعمار الممثل لشعبوية جديدة أرادت استغلال ضعفه بالعمل على هدم مقوماته ، لكي تسود أفكاره • ولتصبح قاعدة لسانته واستمرار سيطرته •

إلا أن عجلة التاريخ قدر لها بعد أمد من الزمن أن تغير اتجاهها لتكون في غير صالح معاول الهدم •• وقد تمثل هذا التغيير في انتفاضة الفكر العربي الإسلامي : الذي انتفض ليدافع عن كيانه ، ويعرف بهويته وشخصيته الجديدة التي تتحدث عنه بوحى من قيمة الإنسانية وبروح تقدمية تمانى وروح العصر الحديث • وهذا ما ستحدث عنه في الفصل المقبل •

الفصل التاسع

اليقظة الفكرية

تمهيد :

ليس من المبالغ فيه القول ان يقظة الفكر العربي الاسلامي الحديث تشكل الدليل على قوة وعمق جذور هذا الفكر التي تمتد فروعها الى الاف السنين . فالفكر العربي الاسلامي الذي اصابه الضعف والوهن من جراء ما قامت به معاول هدميه من الداخل ومن الخارج ، وعاش فترة عهد مظلم على اثرها .. ، نقول ان هذا الفكر لم يندثر على الرغم من انتهاء وزوال دولته العربية الاسلامية التي نشأ وازدهر في ظلالها . وهذا التيقظ ما هو الا سريان الدم في عروقه وانبعث روح الفاعلية والحركة فيه من جديد .

والسؤال الذي يفرض نفسه هو كيف انبعث في الفكر العربي الاسلامي روح الفاعلية والحركة ، سيما وان المرض الذي الم به كان عضالا ؟ واذ تفرع الاجابة على هذا السؤال تفرعات عديدة الا ان مبعث الفاعلية والحركة الجديدة الرئيس ، يكمن في الانفجار الذي جاء نتيجة الضغوط الشديدة الذي عملت عليه عوامل متعددة وفي فترات مختلفة . فكما مر بنا في الفصل السابق ، ان الفكر العربي الاسلامي قاسى اكثر ماقاسى من الضربات الشديدة التي صوبت اليه من قبل قوى خارجية عديدة تلتقى كلها في هدف واحد وهو العمل على هدمه وازالته من الوجود .

ولقد تمثل هذا الانفجار بتنبه ويقظة قامت على يد مفكرين ومصلحين ، ثم تبلورت في حركات دينية وسياسية واجتماعية متتابعة وكان الهدف منها الدعوة لانقاذ الفكر والقيم العربية الاسلامية مما اصابها من تشويه وتضليل قامت به القوى المتعصبة ضده . فلقد اظهرت تلك الدعوات خوفها على الرسالة الاسلامية وتعاليمها من التشويه ، وعلى الشريعة الاسلامية وتعاليمها من التبثر والضياع .

مراحل اليقظة

المرحلة الاسلامية (الدينية) :

ومما تجدر الاشارة اليه ان دعوات الانقاذ هذه كانت قد ظهرت اول ما ظهرت بثوب ديني . وكان هدفها الاعلى حماية المعتقدات الاسلامية الدينية من العبث بها من قبل العابثين . ومن هنا يمكن القول ان المرحلة الاولى من اليقظة الفكرية كانت يقظة ذات طابع ديني في اساسها . ولقد كان من اول ابداعين الى انقاذ القيم الاسلامية الدينية من الضياع ، هو الفقيه المعروف بابن تيمية . (١) ولقد تمثلت دعوة ابن تيمية في الدعوة الى تنقية الاسلام من كل ما اصابه من بدع والرجوع به الى نقاوته وحقيقته وعقيدته الصافية . وقد رأى ان الطريق الى تخلص المجتمع من الفوضى الدينية والسياسية والاجتماعية التي اصابته هو بالرجوع الى الشريعة والى دستورها بالذات . وانطلاقا من هذا التفكير ، فانه وجد ان السبب الحقيقي في فساد السياسة في البلاد كان ناجما عن ابتعاد الناس عن شريعتهم . ومن هنا نجد ان ابن تيمية يربط الاصلاح السياسي بالاصلاح الديني . فهو يقول في كتابه « السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية » ، ان فساد الراعي الذي ادى الى فساد الرعية مبغثه ابتعاد السياسة عن الركون الى تعاليم الشريعة الخلقية (٢) .

(١) هو تقي الدين ابو العباس احمد بن عبدالحليم ابن عبدالسلام ابن عبدالله ابن محمد ابن تيمية ، الذي ولد في نجران في العاشر من ربيع الاول عام ٦٦١ هـ الموافق للثاني والعشرين من كانون الثاني عام ١٢٦٣ م ، اى في بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر . وقد عاش متنقلا بين حران ودمشق ومكة والقاهرة ومن اشهر ما كتب « السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية » . وبعد جهاد مخلص من اجل القيم العربية ، والاجتماعية والسياسية، التي جاءت بها الرسالة الاسلامية ، توفى عام ٧٢٦ هـ الموافق ١٣٢٨ م .

(٢) انظر كتاب تقي الدين ابن تيمية ، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ، تحقيق علي سامي النشار واحمد زكي عطية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥١ . حيث يقول في ص ١٧٢ : « وان انفرد السلطان عن الدين او الدين عن السلطان فسدت احوال الناس » .

ومن هنا نجد ان ابن تيمية كان من اوائل المصلحين الداعين الى يقظة المجتمع وبنائه مجددا على اساس الشريعة الاسلامية الخالصة . الا ان دعوة ابن تيمية لم تلق اذنا صاغية في زمانه .

ولكن دعوة ابن تيمية التي اتسمت بطابع ديني والتي لم يكتب لها النجاح قدر لها ان تتجدد مرة اخرى بعد مرور اربعة قرون . وقد تمثل هذا التجديد بشخص محمد بن عبد الوهاب الذي قاد حركة اصلاحية دينية ابان القرن الثامن عشر للميلاد (القرن الثاني عشر الهجري) والتي عرفت بالحركة الوهابية^(١) . ولقد اعتمد ابن عبد الوهاب في حركته من حيث الاساس على آراء ابن تيمية . وكانت حركته تتميز بالدعوة الى الرجوع بالاسلام الى عزته من بعد تأخر . وقد اخذ بافكار ابن تيمية نتيجة لدراسته لمؤلفاته . اما حقيقة افكاره التي اتسمت بالطابع الديني وتحمل بين طياتها بعض الافكار السياسية المستندة الى الدين ، فانها وصفت الاسلام بشكله السائد في عصره آنذاك بانه اسلام قد تشرب بالمساوىء التي لا تمت الى الدين الصحيح بنسب . ومن هنا رأى محمد عبد الوهاب واتباعه ان الطريق لانقاذ المجتمع الاسلامي من تدهوره هو بالرجوع الى بنائه بوحى من الشريعة الاسلامية الخالصة ، ونركه كل العادات والتقاليد الدينية والاجتماعية السيئة التي التصقت بالاسلام واضرت به . وبعبارة ادق ان القانون الذي يجب ان يرجع اليه المجتمع الاسلامي في بنائه هو قانون الشرع الاسلامي . ولم يكتف الوهابيون بالدعوة

(١) ولد محمد بن عبد الوهاب عام ١١١٥-١١٩٩ هـ الموافق ١٧٠٣ - ١٧٨٧م في بلدة صغيرة اسمها عينبة من اعماق نجد . بدأ دراسته الدينية والشريعة في نجد واكملها في المدينة . وكان خلال هذه الدراسة قد تتلمذ على شيوخ الحنابلة . ولقد تخلت حياته من بعدها الانتقال الى البصرة وبغداد وهمدان واصفهان حيث درس فلسفة الاشراق والتصوف . ثم عاد الى بلاده من بعد ذلك ليخرج الى الناس بدعوة قدر لها ان تتحول الى حركة دينية عرفت بالحركة الوهابية ، انظر : الصراع بين الموالى والعرب ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٠ .

لافكارهم على الصعيد النظري وانما استطاعوا ان يتحالفوا مع الامير محمد بن سعود امير نجد وذلك لايجاد طريق لتجسيد تلك الافكار والانتقال من صعيد الدعوة النظرية الى التطبيق العملي ، بأقامة ما عرف بالدولة العربية السعودية فيما بعد .

ولكن هذه الحركة التي ارادت اصلاح المجتمع الاسلامي على الاساس الجنبلي الصارم ، قد اضفى عليها سمة العنف والصراحة ، مما جعلها ان تلقي المقاومة من قبل السلطة العثمانية في الاستانة التي خشيت من قيام دولة اسلامية في الجزيرة العربية تناوى الاستانة . وبذلك رسمت خطة دعائية لمناهضتها . ولم يكف العثمانيون بذلك وانما سيروا حملة شديدة للقضاء عليها عسكريا وسياسيا . ومع ذلك فان الافكار التي نادى بها ابن عبد الوهاب لم تندحر ، حيث ظهر مصلحون من بعده في اصقاع خارج الجزيرة العربية ، كالهند والمغرب من نادى بالاصلاح وكانوا متأثرين بافكار ابن عبد الوهاب . الا ان مايجب ذكره هنا هو ان عملية الزمن قد دارت بعد ابن عبد الوهاب لتتقل حركة اليقظة الفكرية الى مرحلة جديدة : مرحلة تميزت بمحور ذي طابع سياسي ... وبذلك اختلفت عن محور المرحلة الاولى الذي تميز بمحور الديني .

المرحلة الاسلامية (الاجتماعية والسياسية) :

ان الحديث عن مرحلة اليقظة الفكرية الاسلامية الاجتماعية والسياسية، هي مرحلة ثانية من مراحل اليقظة الفكرية العربية ، اذ كما قلنا قد سبقتها بقطعة فكرية دينية هدفت اعلى ما هدفت الى تنقية الاسلام الدين من البدع والشوائب التي لحقت به اثر تدهور الاحوال والتي سمحت للقوى الشعوبية الداخلية والخارجية من النيل منه وتشويه معالمه . اما اليقظة الفكرية الاجتماعية السياسية فهي يقظة اتسمت اكثر ما اتسمت بالطابع الاسلامي والاجتماعي السياسي ، وهذه اليقظة الفكرية التي نحن بصدها لم تسر باتجاه واحد في خط سيرها وانما سلكت اتجاهات متعددة . ولعل السبب في ذلك

هو الظروف التي مر بها المجتمع العربي الاسلامي والتي كان لها التأثير في رسم هذا الاتجاه او ذلك .

ولعل من المفيد جدا ونحن نتحدث عن اليقظة الفكرية الاسلامية الاجتماعية السياسية ، ان نشير بوجه خاص الى القوى الخارجية التي احتكت باليقظة العربية الاسلامية ، والتي كان لها دور بارز في رسم الاتجاهات الايجابية والسلبية منها وذلك بحسب تأييدها لتلك القوى . ان اول ما يجب ان يتذكره الباحث هو ان اهم القوى تأثيرا من بين القوى المختلفة بالشرق العربي الاسلامي هي القوى الغربية ، والتي احتكت اول ما احتكت عن طريق الغزو العسكري المتسم بالطابع الديني ، والذي تمثل بالحروب الصليبية التي دامت طوال قرنين من الزمن ابتداء من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر الميلادي . ومع ان الغزو العسكري الصليبي قد فشل في تحقيق اهدافه العسكرية ، الا انه لم يكن كذلك من النواحي الاقتصادية والسياسية والفكرية . ويتجلى امر ذلك في انه وقف بصورة مباشرة على الشرق العربي الاسلامي فتعرف من خلالها على عقيدته وفكره ، كما تعرف على مواطن الضعف والقوة في المجتمع العربي الاسلامي . والاكثر من كل ذلك اطلاعه على الثروة الطبيعية التي يملكها هذا الشرق العربي الاسلامي . (١)

ولم يذهب اطلاع الغرب من وراء جولاته في الشرق العربي الاسلامي سدى . فلقد افادته تلك الجولة من حيث انها اصبحت الاساس التي راجع في ضوءها نفسه ، لوضع خطة جديدة يستطيع فيها من السيطرة على الشرق العربي الذي جذبه اليه عوامل اقتصادية ودينية وسياسية . وقد تم له ذلك حين بدأ جولاته الثانية في نهاية القرن السادس عشر الميلادي مطبقا فيها خططه الاقتصادية لتحويل ثروات منطقة الشرق العربي الاسلامي لخدمته ، وخطته السياسية لتدعم وتعمل على استمرار نفوذه في المنطقة ذاتها . والاهم

(١) انظر د. البهي ، الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٦ .

من كل ذلك خططه الفكرية التي نزعنا اكثر ما نزعنا الى توجيه الفكر العربي الاسلامي ، وجهة يمكن من خلالها تحقيق اغراضه^(١) .

ولقد وجد الغرب من خلال خططه ، التي بدأ بتطبيقها منذ اواخر القرن السادس عشر ووصل غايته القصوى في تحقيقها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ان السر في تحقيق ودوام سيطرته يكمن في التوجيه الفكري . ولذلك فانه بدأ بخططه فكرية ذات ابعاد دينية واقتصادية وسياسية واجتماعية ، هدفت اول ما هدفت الى اضعاف مقومات الفكر العربي الاسلامي تمهيدا لتوجيهه الوجهة التي تأتلف والفكر الغربي^(٢) . ومن هنا ظهرت الوسائل خارج الشرق العربي الاسلامي على يد مستشرقيه والتي استهدفت دراسة وتحليل الفكر العربي الاسلامي من جميع نواحيه الدينية والاقتصادية والسياسية ، تحليلا يكشف صورة الضعف وعدم صلاحيته للعصر الحديث ، مما يحتم عليه الاخذ بمقومات الفكر الغربي الذي من شأنه ان يعمل على جعل الفكر العربي الاسلامي مواكبا لروح العصر والتقدم . اما حملته الفكرية من الداخل ، فانها قد ركزت على النخبة المفكرة من ابناء الفكر العربي الاسلامي ، سيما اولئك الذين درسوا وتفقوا في مدارس الغرب ، ووجدوا بقصد وبغير قصد ، ان السبيل الى نهضة الشرق العربي الاسلامي لا يمكن ان تتم الا باخذ السبل التي سلكها الغرب في نهضته . وبعبارة ادق ، ان سبيلهم الامثل للنهضة هو بناء وتوجيه الفكر العربي الاسلامي توجيها مغربا .

الحركة التجديدية :

والواقع ان الغرب الاستعماري قد تمكن الى حد ملموس من تجنيد الكثير من المستشرقين لخدمته بالصورة التي ارادها . كما تمكن الى حد ملموس من لم شمل كل اولئك الافراد المقتونين من ابناء الشرق العربي

(١) المصدر السابق ، ص ٦-٧ .

(٢) البهي ، ص ٧ .

الاسلامى في مدرسة فكرية تلتقى افكارها مع المستشرقين والتي عرفت بمدرسة
المجددين : تلك المدرسة التي اتخذت اتجاها فكريا معلوما ، ذلك هو
الاتجاه العربى الاسلامى المغرب .

ويمثل هذا الاتجاه التجديدى (الاتجاه الفكرى الممالىء للمغرب) في
الدعوة « الى مسامرة الاوربيين في تفكيرهم وفي خطواتهم في الحياة ، وفي
فصل الدين عن السياسة ، وفي ابعاد الدين واللغة عن مجال الترابط . » (١)
فمن حيث النظرة الى الحياة بوجه عام ، فان اصحاب الفكر التجديدى ،
الذين تأثروا كل التأثير باراء المستشرقين ، رأوا ان المبادئ والقيم التي جاءت
بها الرسالة الاسلامية كانت قد جاءت لمجتمع عربى اسلامى بدائي . وان
الزمن الطويل قد غير ذلك المجتمع فأصبحت تلك التعاليم لا تصلح له بعد ،
ومن هنا كان على المجتمع العربى الاسلامى ان يجرى التعديلات الضرورية على
نظريته ، لكي تنسجم وحياة العصر . وان السبيل الى ذلك هو بالاخذ بمفاهيم
الفكر الحديث : والمقصود هنا اساليب الفكر الغربى . من ذلك مثلا، النظرة
الى الدين وعلاقته بالسياسة والدولة والمجتمع . فأصحاب نظرية التجديد في
الفكر العربى الاسلامى يرون ان الرسالة الاسلامية في اساسها ، هي رسالة
اصلاحية للافراد . واذا كانت الرسالة الاسلامية قد لعبت دور الموجه ، فان
ذلك كان لفترة قصيرة (٢) حين كان فيها المجتمع العربى الاسلامى بدائيا . . .
ولكن ما ان تطور المجتمع ثقافيا واجتماعيا وسياسيا حتى ظهر عجز الاسلام
في مواكبة لظروف الحياة المتطورة (٣) .

(١) محمد البهي ، المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

(٢) ينكر الكثير من اصحاب الاتجاه الفكرى العربى الاسلامى المغرب ، ان
سيادة المسلمين في عهد الرسول وصدر الاسلام ، كان مبعثها القيم الروحية
الاسلامية . . . وانما كانت تتجلى في السيف والقوة . المصدر السابق ،
ص ١٩١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

وبهذا الأسلوب الفكري الغربي يصل المستشرقون الى النتيجة وهي ان هناك امام المجتمع العربي الاسلامي السير في احدى طريقين : الاولى التمسك بالقيم الاسلامية وهو ما يؤدي به الى الانعزال والتخلف في وسائل الحضارة ، والثانية ، الاخذ بمبدأ التطور العام في الحياة والذي لا مفر من الخضوع له ، وهو ما يؤدي الى التقدم المسير لتقدم العالم الغربي الحديث (١) .

ويرى اصحاب هذا الاتجاه ان من اهم القواعد التي تأخذ بالمجتمع العربي الاسلامي الى طريق التطور والتقدم هو « ابعاد الاسلام عن مجال الحياة العامة ، وتركه في ضمير الفرد مستورا ، لا يعبر عنه الفرد الا لنفسه فقط ، وفي غير اعلان او حماس (٢) . » وبعبارة ادق فصل الدين (والاسلام بنظرهم لا اكثر من دين) او ابعاده عن تنظيم الحياة الاجتماعية . وكذلك ابعاده عن تنظيم الحياة الاقتصادية والمالية وما يتبع ذلك من تشعبات . والاهم من ذلك ، ابعاد الدين عن السياسة (الحكومة والدولة والسيادة العامة) . وآيتهم في ذلك « ان السياسة شيء والدين شيء آخر وان نظام الحكم وتكوين الدول انما يقومان على المنافع العملية قبل ان يقوما على اى شيء اخر . » (٣)

وعلى هذا النحو اصبح موضوع المنافع العملية اداة بيد المجددين لتقريب الفكر العربي الاسلامي الى الفكر الغربي والى نظريته المادية الى الحياة بالذات . فكما لا يخفى ان الفكر الغربي في اتجاهاته الحديثة - سيما في القرن التاسع عشر - كان يسير وراء التفكير المادى الطبيعي ، ووراء تمجيد القوة المادية والمظاهر الحضارية الالية ، والتفسير الاقتصادى للتاريخ البشرى ، كما يقوم على التقليل من شأن الروحية الدينية والمثالية الانسانية ، اى التقليل من المعاني والاهداف التي تتسم بالسمة الانسانية او الدينية او الاخلاقية (٤) .

-
- (١) المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
 - (٢) المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
 - (٣) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
 - (٤) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

وصفوة القول ان هذا الاتجاه في التفكير والذي اخذ يحمل اسم الاتجاه المادى العلمى الذى قام عليه التفكير الغربى ، قد وجد له المؤيدىن فى الشرق العربى الاسلامى على يد المجددين . وهذا الاتجاه العلمى المادى الذى اراد له المستشرقون فى الشرق العربى الاسلامى الانتشار ، هو اتجاه ينظر الى الحضارة على اساس نفعى مادى ، ويتخذ من وسائل العلم طريقا لتحقيق التقدم المادى الصناعى ، وينكر اية قيود تحدد حريته العقلية فى سبيل بلوغ غايته . وانه ينظر الى السياسة نظرة علمانية ينفصل فيها الدين (الاسلام) عن السياسة ، كما انه ينظر الى قانون الدولة بانه القانون الوضعى الذى يتعد عن الشريعة الاسلامية .

وهنا لابد من الاشارة : الى ان هذا التوجيه الفكرى السياسى ، الذى ينظر الى الاسلام كونه دين وحسب ، وانه يجب ان ينفصل عن السياسة وعن قانون الدولة قد قصد به زعزعة لابل هدم الفكر العربى الاسلامى والسياسى منه بوجه خاص من اساسه . والآن وبعد هذا العرض العام لحركة التجديد يجدر بنا الوقوف على اراء قادة هذه الحركة .

احمد خان (١٨١٧-١٨٩٨ م) :

قاد احمد خان حركة عرفت باسمه ، وقامت على الافتان بالعلم الطبيعى والحضارة الغربية المادية . « والافتان بالعلم الطبيعى او بالطبيعة كما يقال ، يؤدي الى خفة وزن القيم الروحية والمثالية ، وهي القيم التى تقوم عليها رسالة الاديان السماوية التى يمثلها الاسلام اوضح تمثيل . » (١)

ومن البديهي ان التاكيد على الطبيعة هو عملية مقصودة لابعاد ابناء الفكر والحضارة العربية الاسلامية عن قيمهم : ابعادهم عن خط فكبرى يعطى للانسان قيمة ويجعل الاشياء المادية (او الطبيعية) من حوله متوازنة ومؤتلفة مع حاجاته ، وتوجيههم الى خط فكبرى يتخذ الاشياء المادية من حول

(١) البهي ، ص ٢٩ .

الانسان اساسا ، ويعمل على تكييف رأى الانسان والنظر الى حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلالها . ولاشك ان هذه العملية المقصودة ان هي الاعلمية توجه الفكر العربى الاسلامى توجيها غربيا . ومما يلفت النظر ان احمد خان قد اسمى عمله هذا « بالتقدمية » . ويقصد بذلك الدفع بالاسلام الى طريق تقدمي ، يرى الاشياء على اساس علمى طبيعى ، اذ ان الاساس في الاديان كما رأى احمد خان هو ان تكتشف مسالك الطبيعة (١) . وقد قدم الحجج في ان اوربا لم تتقدم في العلم والصناعة الا بسيرها وفق هذا السبيل . ومن هنا دعا الى الاخذ بلساليب اوربا ، والى التقرب منها في جميع المجالات وبضمنها مجال الدين وفق مبدأ جاء به وهو انسانية الاديان (٢) .

ولقد كمل احمد خان اعماله ، اضافة الى كتاباته ومؤلفاته التي من اهمها (حياة محمد ، وتفسير القرآن ، وتبيان الكلام) بالاشراف على تأسيس الكلية الانكليزية الشرقية المحمدية (التي اصبحت تعرف اليوم بالجامعة الاسلامية) وفق نظم جامعية غربية « تدرس فيها المسيحية بالغاية التي يدرس فيها الاسلام » (٣) .

ان ما توخاه خان هو تربية المسلمين سيما الشباب منهم تربية تربطهم بالقيم الفكرية الغربية . وقد عمل جاهدا ليكون ممثلا لها في الشرق الاسلامى . ومع انه كان يؤكد على خلق التجديد في الاسلام ، الا ان الدين وقفوا على اتجاهاته واعماله بدقة ، يتفقون ان ما جاء به من افكار وما قام به من اعمال قد هدف الى هدم مقومات الفكر الذى جاءت به الحضارة الغربية الاسلامية . . وهو ما يسهل للغرب من تحقيق اهدافه الاقتصادية والسياسية . وما دعواته في قيام نظام اقتصادى وسياسى واجتماعى وابعاد الدين عنها

(١) البهي ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١ .

جميعا ، على غرار النظم الغربية ، الا اداة على خدمته للغرب وابعادا للشرق
عن مفاهيمه وقيمه .

القادياني :

واذا كان احمد خان قد اتخذ في دعوته التجديدية طريق الطبيعة
والطبعيين و اراد ان يكون الاسلام في خدمة الطبيعة واكتشاف مسالكها ، وفي
استخدام الدين اداة من ادوات التقدم المادى والصناعي ، فان ميرزا غلام احمد
القادياني من بعده قد قام بحركة تعريية اخرى عرفت بالقاديانية .

ان اهم ما ظهرت فيه القاديانية هو تشكيكها ، باسلوب خفي بالقيم
التي جاءت بها الرسالة الاسلامية . وهذا التشكيك هو تشكيك مقصود
الغرض منه اظهار الرسالة بمظهر الضعف والعجز من جهة وحصر سماتها
في حدود الايمان والعقيدة^(١) ، بدلا من انها رسالة جاءت بقيم انسانية
تناولت تنظيم حياة الانسان بصورة شاملة في ابعادها الاجتماعية والسياسية
والاقتصادية والدينية . وتتمثل محاولة حصر الرسالة في انها رسالة دينية
وحسب ، وفي تنظيم امور حياة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية
بعيدة عن الرسالة ، وبذلك ، يمكن نشر الافكار التي تتناسب والقيم التي
يقوم عليها الفكر الغربى . وهذا بالذات هو هدف الاستعمار الغربى الذي
عن طريق غزوه للافكار يتمكن من تسخير الشرق لخدمة اغراضه السياسية
والاقتصادية . كما ان الامر لا ينتهي في حصر الاسلام في حدوده الدينية وتركه
وشأنه ، وانما ما ارادته القاديانية هو احلال ثورة تقدمية في الاسلام : ثورة
تستطيع ان تضيف مفاهيم جديدة يمكن ان تحل محل مفاهيمه الحقيقية .
والوسيلة كما سبق بيانه ، هي اظهار المفاهيم القائمة بمظهر عدم مواكبتها
للانسان الحديث وذلك عن طريق توجيه هذه المفاهيم وتفسيرها تفسيرا جديدا
تلائم وحياة الانسان الحديث من ناحية ظاهرية ، ولكنه يخدم الاغراض التي

(١) المصدر السابق ، ص ٣١ .

تلتقي فيها كل من مصالح المجددين القاديانيين ومصالح الاستعمار الغربي
تمثل هنا بالمصالح الانكليزية في الهند وافغانستان وايران وغيرها من الاقطار
الآخري في الشرق .

ومن المظاهر التي جاءت بها الحركة القاديانية ، على يد زعيمها ميرزا
غلام احمد القادياني ، هو تمصه شخصية نبي هو المهدي الذي حل فيه
عيسى ومحمد على السواء^(١) . ولقد طالب ، وهو حامل رسالة الاسلام
المتجدد ، بالاخذ بالاراء الموحدة اليه . ومن ارائه هذه عدم الثقة بالمصادر
الاسلامية القديمة والاعتماد على ما يأتي به هو واتباعه من اراء جديدة .^(٢)
وقد اراد بذلك قطع الصلة بالماضي الفكري والتاريخي .
لقد اراد قطع الصلة بالماضي لانه يعلم ان الفكر الاسلامي يستمد
قوته من جذور الماضي . وقطع الصلة بالماضي معناه قطع الجذور التي هي
مصادر القوة والحيوية ، وذلك لاحداث فوضى فكرية دينية واجتماعية ،
يستطيع من خلالها بث افكاره الجديدة . وفضل مثل على ذلك ارأؤه بصد
الجهاد الذي تعلنه الدولة الاسلامية على اعدائها . فهو يقول « ان حقيقة
الجهاد لانعني العنف واستخدام ادوات الحرب ضد غير المؤمنين وانما هو وسيلة
سلمية للاقناع » .^(٣) وقد قصد بذلك تحوير المفاهيم الفكرية والسياسية التي
نهتدى بها الدولة وفقا للدستور الاسلامي الاعلى المتمثل بالقرآن . ففي الحقيقة
ان الوسائل الاقناعية السلمية ليست بشيء جديد على الفكر السياسي العربي
الاسلامي بدليل ما جاء في الآية الكريمة « وادعوا الى السلم كافة » . ولكن
النقطة الهامة في الموضوع ، والتي تحتاج الى الاجابة الواضحة هي ماذا تعمل
الدولة في حالة عدم جدوى وسائل الاقناع . ثم ماذا تعمل في حالة العدوان
عليها ، هل تظل قاعدة في حالة اقتراف الظلم والعدوان ؟ كل هذا بحسب
رأي القادياني يعني السكوت عن الظلم . . . ولكن هذا السكوت الذي يقول

(١) انظر الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، للدكتور

محمد البيهي ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

به القادياني هو خروج عن مفاهيم الفكر الدينية والسياسية والعسكرية ، وبالتالي فهو تحريف لها . والحق ان القادياني واتباعه ، وكما يوضح الدكتور محمد البهي ، قد اراد من كل ذلك ايجاد طريق الى الالتقاء بين الفكر الغربي والفكر الاسلامي : طريق يخدم وجهة نظر الفكر الغربي .

ومن هنا يجد المحلل لاراء القادياني انها لم تكن اراء موضوعية . انها اراء ذات اهداف سياسية ، وتلك هي انه اراد ارضاء المستعمر الغربي ، انها " وليدة السياسة الانكليزية " (١) بالذات . ومما يؤيد ذلك ما جاء في كتابه " ترياق القلوب " الذي يقول فيه « لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الانكليزية ونصرتها ، وقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة اولى الامر الانكليز من الكتب والنشرات ما لو جمع بعضه الى بعض لملأ خمسين خزانه » (٢) . ومما يؤيد ولاء القادياني وجماعته للمستعمر واطماعه ، انها ظلت صامته ازاء الحركات الوطنية والتحررية التي قامت في العالمين العربي والاسلامي .

واذا كان ما تقدم يمثل امثلة عن اتجاه الفكر الاسلامي المغرب في العالم الاسلامي فان العالم العربي لم يكن بمأمن عنه . فلقد ظهر فيه هو الاخر كتب ومفكرون تأثروا بقصد وبغير قصد بالاتجاه الفكري الاسلامي المغرب . والواقع ان العالم العربي وهو مطمح آمال الغرب الاستعماري عبر الزمن الطويل ، قد لعب فيه العرب دورا خاصا سواء اكان ذلك في اخضاعه عسكريا وسياسيا تحت سيطرته ، ام في تأثيره على من استطاع التأثير عليهم من الدارسين وفق مناهجه الجامعية في خارج بلادهم وداخلها .

ولقد خرجت حركة التجديد في العالم العربي لتبين لابنائها الطريق لنهضتهم الحديثة . ولقد اكد اصحاب نظرية التجديد ان اهم ما عمل على جمودهم وتأخرهم هو استمرار نظرتهم التقليدية الى المجتمع والحياة التي

(١) البهي ، ص ٣٣ .

(٢) انظر ميرزا غلام احمد القادياني ، ترياق القلوب ، ص ١٥ : كذلك

البهي ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .

تعود بتاريخها الى القرون الوسطى . وتتمثل نظرتهم الخاطئة هذه كميًا
بإرها هذه الحركة في الربط ما بين الدين والدولة . فلقد جاء علي عبدالرازق
وهو شيخ من شيوخ الازهر ، ليقول في « الاسلام واصول الحكم » ان الرسالة
الاسلامية لم تكن أكثر من رسالة دينية ، وانها تبعد كل البعد عن
السياسة .

ولقد ركز علي عبدالرازق على الطريقتين المختلفتين اللذين تسلكهما السياسة
والدين . فهو يقول ان اهم ما يجب ان يلاحظ ان طريق الدين هو طريق
روحي ، وان طريق الدولة هو طريق مادي . وان الرسول (ص) عندما
جاء برسالته كان قد جاء برسالة روحية وزعامة روحية ، وهذا امر يختلف
كل الاختلاف عن الطريق المادي والزعامة المادية^(١) .

والواقع ان مثل هذه الافكار التي جاء بها الشيخ عبدالرازق - التي انتقد
عليها اشد الانتقاد كونها تخرج عن المفاهيم الاساسية للرسالة الاسلامية - كانت
صورة مكتملة للافكار التي جاء بها من قبله كل من احمد خان والقادياني .
واساسها ينطلق من محاولة حصر ابعاد الاسلام كونه رسالة دينية وحسب ،
ولا شأن لها بحياة الجماعة السياسية وبالدولة التي تتصل بها . وهنا يصل
عبدالرازق الى بيت قصده ، وهو ان السياسة شيء والدين شيء آخر .
وهذا يترتب عليه علاقة الاسلام بالمسلمين كونه لا يتعدى الوحدة الدينية .
ثم ان دعوة الرسول الى الجهاد كانت موقوتة بنشر العقيدة ، وانها قد
انتهت بإنهاء حياة الزعيم الروحي . وبعبارة ادق ان المسلمين احرار في
اختيار طريقهم وحياتهم السياسية من حيث انهم افراد وليس كجماعات .^(٢)
وعلى هذا الاساس تصبح من مهمة الدولة تنظيم حياتها السياسية بالطريقة

(١) علي عبدالرازق ، الاسلام واصول الحكم ، طبعة ٣ ، ١٩٢٥ ،
القاهرة ، مطبعة مصر ، ص ٦٩ .

(٢) محمد البهي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٤٠ .

التي تشاء ، ومن دون اية رقابة من الدين : لان الدين من اختصاصه تنظيم حياة الانسان الروحية ولان الدولة من اختصاصها تنظيم حياة الانسان السياسية .

ولم تقف حدود مثل هذه الافكار في العالم العربي ، عند علي عبدالرازق وانما جاء من بعده آخرون اكثروا السير على نفس الطريق التجديدي الفكري الذي يتلائم والتفكير العربي .

الحركة الاصلاحية :

ولقد ترك اصحاب حركة التجديد في العالمين العربي والاسلامي ، الذين ارادوا توجيه الفكر توجيها مغربا : لقد ترك اصحاب حركة التجديد اثارا بليغة وردود فعل قوية عند جمهوره المفكرين الاصلاحيين ، الذين اخذوا بمرور الزمن يعبرون عن امانى جميع الذين يحرصون على قيام نهضة فكرية عربية اسلامية تستمد مقوماتها من روح التراث العربي الاسلامي وتأخذ بكل فكرة تنسجم معه . لقد نادى المفكرون الاصلاحيون بأن النهضة الاصلية لا يمكن لها ان تقطع صلتها بأرضها وبقيمها وبيئتها وثقافتها وحضارتها . وان ما نادى به المفكرون المجددون ، يشكل طريقا لا يستند الى القيم العربية الاسلامية ، وانما يستند الى قيم غربية عن التراث الحضارى العربي الاسلامي التي بدورها لا تؤدي الا الى نهضة مزيفة . ومن هنا جاءت اراء المفكرين الاصلاحيين لتبين بوضوح ان اصحاب حركة التجديد بما قدموه من آراء كانوا سائرين بقصد او بغير قصد وراء الافكار الاستعمارية التي سخر لها الاستعمار مستشرقيه ومبشريه لخدمة اغراضه في الاستغلال والسيطرة .

ولقد ظهرت الحركة الاصلاحية هذه التي نحن بصددنا تتسم بطابع حياسي يقوم على منهج اسلامي متفتح لروح العصر الحديث ومناهض للاستعمار وللأفكار الاستعمارية التي جاء بها المستشرقون والمبشرون سيما المتعصبون منهم .

جمال الدين الافغاني :

ولقد برز جمال الدين الافغاني^(١) كقائد لحركة الاصلاح ، وتبعه من بعده مفكرون آخرون كان ابرزهم الشيخ محمد عبدة والشيخ رشيد رضا .
لقد انطلق جمال الدين الافغاني ، في دعوته وحركته من عدة منطلقات اساسية ، تختلف كل الاختلاف عن الحركات التي سبقته . ولعل من المفيد ، وقبل الدخول في تفاصيل المنطلقات الاساسية التي انطلق منها جمال الدين ، القول ان حركة جمال الدين هي امتداد للحركات الاصلاحية التي سبقتها ، والتي تشترك جميعا في الكفاح من اجل الحفاظ على سلامة الفكر واهله من التعديت والتشويهات التي اصابته من الداخل والخارج . الا ان ما يميز

(١) ولد جمال الدين الافغاني في سنة ١٢٥٤هـ الموافق ١٨٣٩م من أب هو السيد « صفتر » في قرية (سعد آباد) من اعمال كابل بلاد الافغان . وينتمي الى الاسرة ذات منزلة واحترام . ويعود نسبه البعيد الى اصول عربية حيث سكن آباؤه الاولون في الحجاز . وقد حرص ابوه على توجيه تعليمه (منذ ان كان في الثانية من عمره) الى ميادين كثيرة للعلم والمعرفة وقد كانت محفزة له للاستزادة من مناهلها ومصادرها حتى ضمنت له فكريا موسوعيا وافقا واسعا . وكان من بين ما درسه مبادئ العلوم العسربية ، والتاريخ وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه واصول وكلام وتصوف ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وآلية والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة الفلك ، ونظرية الطب والتشريح . وقد قضى حياته متنقلا بين الهند ومكة ومصر وتركيا والعراق ولندن وباريس . وكان لآرائه السياسة الداعية الى مناهضة الاستعمار والافكار الاستعمارية والى لم شمل المسلمين في وحدة اسلامية تنسجم ومفاهيم العصر ، ان جعلت منه فيلسوف زمانه ومفكر عصره وقوة دامغة نحو اليقظة الفكرية العربية والاسلامية الحديثة . ولقد توفى جمال الدين عام ١٣١٢هـ الموافق ١٨٩٧م . وللستزادة من المعلومات عن حياة جمال الدين انظر محمد عبدة « مقدمة الرد على الدهريين » . كذلك الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني بقلم محمد عمارة . منشورات دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

حركة جمال الدين عن غيرها من الحركات هي انها حركة سياسية اتخذت لها منهجا اسلاميا حديثا . ويتمثل هذا المنهج الاسلامي الحديث في التمييز ما بين الاسلام الاصيل الذي لا يقف امام التطور والتقدم ويتماشى مع احدث اساليب الحكم وبين الاسلام المفترى عليه الذي التصقت به خصائص مصطنعة لانتمت اليه بصلة والتي اظهرته بصورة الدولة والنظام المتصلب والمنعزل ، وتعاون على اظهار صورته المصطنعة هذه مفكرون من الغرب اسموا انفسهم بانستشرفين ، واتفق معهم مفكرون من الشرق اسموا انفسهم بالمجددين .

ان محور افكار جمال الدين يدور حول بناء مجتمع اسلامي سليم متماسك وموحد . وهذا المجتمع الذي يهدف جمال الدين الى بنائه هو مجتمع حديث يأخذ بكل اساليب التقدم والحياة الحديثة ، التي لاتعارض وروح الاسلام . ولتحقيق هذا المجتمع الاسلامي السليم يبني جمال الدين خطته في الداخل والخارج . فعلى الصعيد الداخلي ، دعا جمال الدين اول ما دعا الى تنظيم المجتمع السياسي وفق اسس من الحرية . لقد انتقد الافغاني الاحوال السياسية التي تعيشها العديد من الاقطار الاسلامية ، ورأى ان وضع دستور يحدد العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ، امر ضروري لتوفير حرية الشعب في القول والعمل^(١) . وابعان ان الاسلام من حيث انه نظام سياسي يصون حرية الشعب وسيادته ويضع الحاكم منفذا لمشيئته^(٢) . كما ابدى الافغاني ، على صعيد البناء الداخلي للمجتمع السياسي مناهضته للمذهب الطبيعي او المادي ، شارحا اخطاره ومضاره على المجتمع الاسلامي . وقد رأى جمال الدين « ان الضعف الحقيقي للمسلمين كان قد بدأ بظهور المذاهب الطبيعية والباطنية والدهرية^(٣) . ووصف هذه المذاهب ، سيما الدهرية بانها عملت كسلاح خطير لتفرقة المسلمين عن طريق التشكيك بمقيدتهم وبالتالي افسادها^(٤) .

(١) محمد البهي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

وتتجلى خطورة هذا السلاح الهدام ، في انه ظاهرا يؤيد الاسلام ، ولكنه سرا يقاومه ويسعى الى هدمه وذلك عن طريق نشر الافكار التشكيكية والاحادية^(١) .

اما على الصعيد الخارجي ، فان جمال الدين يربط ما بين الاستعمار الاجنبي وما بين الضعف في الداخل الذي نخرت فيه الانقسامات والمذاهب المتضاربة واستعباد الحكام للشعوب الاسلامية . فهو يقول ان الاستعمار والغزو الاجنبي ، ان هو الا نتيجة للضعف في الداخل . ذلك ان الانقسامات والضعف هي التي مهدت لسيطرة الاجنبي على البلدان الاسلامية .

لقد ابان جمال الدين الافغاني ، ان الاستعمار الاجنبي ، قد جلب الذل والمهانة للمسلمين . وان هذا الاستعمار الاجنبي ، كما رآه جمال الدين ، لم يكن ليحدث الا لان المسلمين هم في غفلة من امرهم .

ومن هنا اصبح لزاما على المجتمع الاسلامي ان يعمل على ان يكون سيد نفسه ، في الداخل والخارج . وان السيل الى ذلك هو بالتفافه حول مبادئه الاسلامية الحققة التي توصله الى تحقيق حريته وقوته ووحدته^(٢) . وبذلك فقط يستطيع المسلمون القضاء على التعصب المذهبي والسلبية والعنف وتسلط الاجنبي الذي حل بديارهم ، وبذلك ايضا يستطيع المجتمع الاسلامي ان يكون سيد نفسه .

ولقد ادت افكار واعمال جمال الدين المتسمة بالحيوية والنشاط والاخلاص الى ان تجعل منه رائدا كبيرا من رواد النهضة السياسيين والاجتماعيين في العالمين العربي والاسلامي . وتتجلى اهمية الافغاني في انه كان واقعا وعمليا

(١) انظر كتابة الرد على الدهريين حيث يقول في ص ٥٩ منه « ان الله منزه عن مشابهة المخلوقات ولو كان موجودا لاشبهه الموجودات ، ولو كان معدوما لاشبهه المعدومات ، فهو لا موجود ولا معدوم » .

(٢) يقصد جمال الدين بالوحدة ، تماسك كل شعب اسلامي من الداخل واتحاد الشعوب الاسلامية مع بعضها في اهدافها وفي ظل جامعة اسلامية .

خلافاً لمن سبقه من مفكرين ومصلحين من أمثال ابن تيمية^(١) ، في القرن الثالث عشر ، والوهابي^(٢) في القرن الثاني عشر . ولعل سمة الواقعية والعملية فيه قد نجمت من اطلاعه الواسع ووقوفه على التطورات السياسية والفكرية التي قامت في عصره ، إضافة الى أسفاره التي شملت بعض الأقطار الأوروبية ، وإصداره مجلة عرفت باسم « العروة الوثقى » ، التي كان رئيس تحريرها الشيخ محمد عبدة ، أحد تلامذته . كما نتجت من تشخيصه لعوامل الداء الذي أصاب المجتمع العربي والإسلامي ، وتحليله لها ، وتقديم العلاجات بوحى من روح العصر الحديث .

الشيخ محمد عبدة :

لقد لقيت دعوة جمال الدين القبول لدى العرب والمسلمين . وليس من المبالغة القول ، أنها كانت عاملاً قوياً من عوامل وعيهم ويقظتهم . وقد نالت أفكار جمال الدين الأفغاني قبولا خاصا عند بعض المفكرين والمصلحين الذين جاءوا من بعده سيما الشيخ محمد عبدة ، الذي حمل لواء الدعوة الإسلامية ، السياسية والاجتماعية ، بنفس الاطار الذي جاء به جمال الدين الأفغاني من قبله . فلقد رأى محمد عبدة كما رأى استاذه جمال الدين الأفغاني ان الطريق

(١) يرى د . محمد البهي ، في كتابه ، الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ، في هذا الصدد ان الاثنين يتفقان في وصفهما لحال الضعف التي كان عليها المسلمون في زمانهما كما انهما اتفقا في الدعوة على التكتل ، الا ان الاساليب التي اتبعها جمال الدين كانت ابعد من الدلائل النظرية والمنطقية والدينية التي استخدمها ابن تيمية ، انها كانت سياسية واجتماعية ودينية وواقعية ، ولم يتوان جمال الدين في اثارة المشاعر ، التي اعتقد انها عاملاً من عوامل التهيؤ للعمل . ص ٨٧ .

(٢) بينما ركز محمد بن عبد الوهاب على تنقية الاسلام من الشوائب والانطلاق من زاوية دينية ، نجد ان الزاوية الدينية بالنسبة للأفغاني تكون احدى منطلقاته المتعددة . هذا بالإضافة الى ان الأفغاني كان اكثر مرونة وصلة بالعصر الذي يعيش فيه من الوهابي .

الى نهضة العرب والمسلمين لا يتم الا بعد تحرير المجتمع من الداخل والخارج . وقد رأى ان تحرير المجتمع الاسلامي من الداخل يتطلب اول ما يتطلب محاربة كل ضروب الاستبداد المخيمة على حياته والسعي من اجل حرية الانسان ، كما يتطلب اعطاء وزن للتشاور (الشورى) في حياة المجتمع سيما الجانب السياسي ، ناهيك عن التآلف والتآخي بالاخوة الاسلامية التي اذا ما فهمت فهما صحيحا فانها ولا شك لا تعمل على وحدته العقلية والروحية فقط ، وانما على وحدته الكلية ايضا . وبالإضافة ، فإن الشيخ محمد عبدة ، قد اكد على ان تحرير المجتمع يجب ان يركز على تشريمات عادلة تتصل اتصالا وثيقا بعبادات وتقاليد واخلاق وعقيدة وحال الجماعة التي بوضع من اجلها التشريعات والقوانين . وصفوة القول ان منهاج محمد عبدة في تحرير المجتمع من الداخل لا يقتصر على جانب واحد ، وانما يمتد ليشمل كل الجوانب من سياسية واجتماعية وتربوية ودينية^(١) . ولكن محمد عبدة، بجانب هذه النظرة الشاملة للتحرير يحاول ان يكشف علة الضعف الحقيقية، اذ رأى انها تكمن في تحرير المجتمع من سيطرة الانانية وانحلال روح الجماعة في نفوس الافراد التي مردها اما « الجهل المطلق او بسبب سوء فهم الاسلام والحياة »^(٢) . ومن هنا نجد ان الشيخ عبدة يحدد الاصلاح بانه استعادة لروح الجماعة ، وان اولى مراحل تكوين روح الجماعة تتم بتنشئة الجيل على التعاليم الاسلامية الحققة^(٣) .

اما بشأن تحرير المجتمع من الخارج ، فلقد اتفق محمد عبدة في وسائله مع استاذة جمال الدين الذي رأى ان النفوذ الاجنبي ينفذ الى المجتمعات والشعوب لتحقيق مآربه ومصالحه . وانه في سبيل تحقيق هذه المصالح ، يسعى جهده في توجيه حياة وتفكير المجتمعات التي ينفذ اليها ، التوجيه الذي

(١) محمد البهي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

ينسجم وتحقيق تلك المصالح • ومن هنا يلتقي هدف تحرير المجتمع من الداخل مع هدف تحريره من الخارج • ففي كل منهما تظهر الحاجة الى تماسك المسلمين لكي يسترجعوا قوتهم ، وفي كل منهما تظهر الحاجة الى العمل من اجل القضاء على الضعف والتخلف • واذا كانت اسباب التخلف الداخلي تنحصر في الاستبداد والانقسامات والجهل ، فان اسباب الضعف الخارجي تنحصر في النفوذ والاستعمار الاجنبي •

هذا وان ما يمكن قوله بعد ما تقدم هو ان المرحلة الاولى من اليقظة المتمثلة بالاتجاه السياسي الاصلاحى المناهض للاستعمار الغربي ، الذى بدأ في العصور الحديثة بجمال الدين الافغانى ومحمد عبده ، قد ترك ردودا ايجابية من الوعي السياسى في انحاء مختلفة من العالم الاسلامى ، بحيث ظهر ذلك الوعي ، في حركات مماثلة لملتقى كلها في الدعوة الى النهضة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا على اسس اسلامية حديثة تنسجم وروح العصر الحديث ، وفي الدعوة الى جامعة اسلامية تعاون من خلالها جميعا ، وفي الكفاح من اجل القضاء على الاستعمار والنفوذ الاجنبي •

المرحلة القومية :

ولقد ظل طابع اليقظة الفكرية يتجه اتجاها سياسيا اصلاحيا وفق منهج اسلامي يتجاوب ومفاهيم العصر الحديث ويهدف الى تحقيق توحيد الاقطار الاسلامية التي يجمعها قاسم مشترك الا وهو الاسلام ، طيلة القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى •

الا ان هذه المرحلة في الاتجاه السياسى الاصلاحى المتسم بطابع اسلامي وحدوى ، قد طرأ عليه التغير بدخول القرن العشرين • وقد تمثل هذا التغير بانه اخذ يحمل طابعا قوميا • وبعبارة ادق ان الاقطار الاسلامية من عربية وغير عربية اخذت تتجه في طريق نهضتها على اساس شخصيتها القومية التي يلعب في تكوينها اللسان المشترك بين الجماعة •

وبالنسبة للعرب فقد ظهر مثل هذا الاتجاه السياسي القومي بكل وضوح منذ اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، مشكلاً بذلك مرحلة ثانية من مراحل الاتجاه السياسي الاصلاحى . وتمثل هذه المرحلة في الدعوة الى وحدة العرب بوحي من فكرهم وحضارتهم العربية الاسلامية . هذا مع عدم اغفال تعاونهم وترابطهم مع الاقطار الشقيقة المسلمة الاخرى التي ترتبط معها بالتراث الاسلامى المشترك .

وكان من اوائل المنادين بهذه الافكار في مطلع هذا القرن عبدالرحمن الكواكبي . ومن الانصاف القول ان جمال الدين الافغانى حين نادى بالجامعة الاسلامية ، انما كان ينادى الى ترابط وتماسك الاقطار الاسلامية لكي تقوى بهذا الترابط او التماسك او التحالف على صد النفوذ الاجنبى واخراجه من السيطرة عليها^(١) . وهذا يعنى انه لم ينكر شخصية واستقلال كل منها ، لان الجامعة الاسلامية تمثل حوضاً لتجميع القوى والعمل المشترك . وبعبارة ادق ان جمال الدين الافغانى وان كان لم يهدف « باحلال قومية الدين محل قومية القطر »^(٢) ، الا انه مع كل ذلك فان اتجاه الافغانى المنطلق من قاعدة فكرية سياسية اسلامية كان قد طرأ عليه بعض التغيير فيما بعد ، مما ادى الى توجيه سير الفكر العربى الاسلامى وجهة جديدة .

لقد نادى الكواكبي ضمن هذا الاتجاه الجديد الى الخلاص من السيطرة الاجنبية والى لم شمل العرب . وقد اراد بلم الشمل هذا الوصول الى بناء مستقبل العرب السياسى - الذى كان يعاني من السيطرة والتعسف الذى مارسه الحكم العثمانى طيلة عدة قرون - نحو وحدة الامة العربية ووحدة الوطن العربى بوحي من القومية العربية . والسؤال الذى يفرض نفسه هنا ويتطلب الاجابة هو هل اخذ العرب مفهوم قوميتهم من مفاهيم القومية الاوربية ، وكما

(١) انظر د. عثمان امين « عبقرية جمال الدين الافغانى » في (العربى)

العدد ٧٩ ، حزيران ١٩٦٥ ، ص ٥٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

يقول الاوربيون ، والضالعون في خط تفكيرهم من المفكرين العرب ؟ ان الاجابة على هذا السؤال في الحقيقة تفرض في البداية القول ان العرب عرفوا وحدة لسانهم وثقافتهم وقيمهم منذ عهودهم القديمة وقبل ان تأتيهم الرسالة الاسلامية . واذا صح التعبير فانه من الممكن القول ان القومية كانت تمارس ثقافيا من قبل العرب في اسواقهم الادبية واجتماعاتهم الموسمية ورحلاتهم الصيفية والشتائية التي كانت تتم فيها وحدة اللسان والفكر . وبمجيء الرسالة الاسلامية مارس العرب قوميتهم سياسيا وبصورة فعلية . فلاول مرة يتوحد العرب في دولة واحدة ونظام واحد يستمد قوته من قيم الثقافة العربية والمباىء الاسلامية . وقد كان ذلك بقيادة الرسول الكريم لهم . فلقد اشار الدستور الاسلامي الاعلى المتمثل بالقرآن الكريم لهذه الوحدة القومية السياسية بقوله « وما ارسلنا من رسول الا بلسان فومه » . والقوم هنا هم العرب .

ولا انكار ان العرب وقفوا منذ اواخر القرن التاسع عشر على مفاهيم الغرب في القومية . ولكن الامر الواضح في ذلك ، هو ان اتجاه القومية العربية ظهر مخالفا لانجاه القومية الغربية (الاوربية) ، على الرغم من تأثر البعض من العرب بالاتجاه الاوربي الذي دعا الى توجيه القومية العربية توجيهها مغربا^(١) ، وفشل بالنتيجة في دعوته بالنظر لبعده عن القيم العربية الاسلامية الصحيحة .

(١) من امثلة المفكرين العرب الذين نادوا بتوجيه الفكر القومي توجيهها غربيا ، ما طالب به صاحب كتاب مستقبل الثقافة في مصر (الدكتور طه حسين ؟) المصريين بان يسيروا سير الاوربيين بقوله : « علينا ان نسير سير الاوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم اندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها حلوها ومرها ، ما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب » . انظر الدكتور محمد البهي ، الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٧ .

واما ما جاء به الدكتور زكي نجيب محمود بشأن الثقافة العربية وصلتها بالنهضة عموما قوله « ان رجوعنا الى الثقافة العربية القديمة هو اشبه شيء بالوباء يصيب نهوضنا الفكري الذي لم يستقيم بعد على قدميه ، وربما

وقد تمثل اتجاه القومية العربية المخالف للاتجاه الغربي الاوربي ، في انه اتجاه طالب التحرر من القيود والتحرر من السيطرة ، وانه اتجاه خالف كل المخالفة القومية الاوربية الاستعلائية . . التي كبلتهم واخرتهم في مسيرتهم في العصور الحديثة .

عبدالرحمن الكواكبي :

يحتل الكواكبي^(١) مركزا مرموقا من بين المفكرين العرب الاحرار الذين ظهوروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولم يكن هذا المركز المرموق ليحتله الكواكبي عفوا ، وانما جاء نتيجة لجهوده الفكرية العميقة التي كان من خلالها يكافح من اجل حرية الانسان العربي والاسلامي والانسان في كل مكان .

حدث هذا الوباء في عقولنا من الضر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال اثره والنجاة من شره . « انظر انور الجندى : معالم الفكر العربي المعاصر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٧ .

ثم ما جاء به الاستاذ سلامة موسى على سبيل المثال ايضا من دعوة الى قطع الصلة بالتراث العربي الاسلامي وتوجيهه اوجهة اجنبية بقوله « ان ماضيها كله سخافات وجهالات لا يصح الافتخار به » . المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

(١) ولد عبدالرحمن الكواكبي في حلب عام ١٢٧١ هـ الموافق ١٨٥٤ م وتوفى في القاهرة عام ١٣٢٩ هـ الموافق ١٩٠٢ للميلاد . وينتمي الكواكبي الى عائلة معروفة وكان ابوه امينسا للفتوى في حلب ومدرسا في المدرسة الكواكبية .

تلقى الكواكبي دراسته الاولى في المدرسة الكواكبية كما درس في انطاكية ، حيث اتقن اللغة التركية والفارسية اضافة الى اللغة العربية ، وقد زالت منه علوم التاريخ والفلسفة والعلوم الانسانية والدينية عناية فائقة واصاب منها حظا وافرا . وكان له بعد ذلك ان عمل في وظائف رسمية عديدة في الدولة العثمانية الى جانب اصدار ، جريدة الشهباء ، وجريدة الاعتدال ، اللتين اوقفتها الحكومة بناء على سلوكه مسلكا حرا في معالجته للقضايا

لقد كون الكواكبي اراءه وفلسفته في السياسة خاصة والحياة عامة ،
نتيجة لدراسته واطلاعاته الواسعة . وقد تميز الكواكبي عن غيره من المفكرين
العرب والمسلمين الذين سبقوه ، في انه عالج الانسان من حيث انه فرد ومن
حيث انه عضو في مجتمع ودولة ، بأسلوب حر متفتح ، جمع فيه احدث ما
نوصل اليه الانسان الحديث في فلسفته السياسية والاجتماعية .

وكان مما ميزه ايضا ، انه كان يعالج مشكلة الانسان السياسي العربي
والاسلامي ، بأسلوب واقعي يستند الى تاريخه وقيمه وحضارته مستفيدا في
عين الوقت من الافكار السياسية والاجتماعية والدينية السائدة في عصره .

لقد انطلق الكواكبي في فلسفته السياسية من زاوية معينة وتلك هي
موضوع الحرية التي اعتبرها الاساس في بناء الدولة والمجتمع . وقد رأى ان
الفكر العربي الاسلامي الذي يستمد قوته من القيم الاسلامية يقوم اول ما
يقوم على حرية الانسان وكرامته وعزته . وان اساس الدولة والمجتمع في
المفهوم الاسلامي الذي اقامه العرب الاولون هو مفهوم ينطلق من الشورى
والعدل .

ومن هنا يطرق الكواكبي اركان فلسفته السياسية وذلك بالقول ان اهم
ما يعاني منه العرب والمسلمون في عصره (النصف الثاني من القرن التاسع عشر)
هو افتقادهم للحرية :وبعبارة ادق انتشار روح الاستبداد بين ظهرائهم . وهنا
يسأل لماذا هذا الاستبداد ؟ ما هي طبائعه ؟ وما هي آثاره على المجتمع



العامة . وازاءه ما لقيه من مضايقات وعنت من قبل السلطات تجاه ما كان
يحملة من آراء في اصلاح العالمين العربي والاسلامي ، فقد اختار ترك حلب
والسفر الى مصر والسودان والهند وسواحل افريقيا الشمالية وسواحل اسيا
والسواحل العربية الجنوبية حتى استقر اخيرا في مصر حيث انضم الى
جمعية الكتاب وصدر كتابين هما : « الم القرى » و « طبائع الاستبداد »
اللذين اكتسب من وزائهما شهرته الواسعة ، فاصبح بذلك علما من اعلام
القومية العربية والحرية والانسانية .

والحياة ؟ وقبل ان يجيب على كل هذه الامور والتي اخذت منه وقتا وجهدا كبيرا ادى به الى كتابة كتابه المشهور « طبائع الاستبداد » ، يحاول الكواكبي في شرح فلسفته السياسية ان يؤكد فيقول ان موضوع الاستبداد انسياسي الذي ظل يعاني العرب منه طيلة سنين طويلة من عصورهم الحديثة ، يشكل اخطر القضايا التي يجب ان يكرس لها المفكرون العرب وقتهم . ذلك ان الوقوف على ابعاده هو وقوف على الواقع ، وادراك للواقع الذي يعيشونه وكيف انه يختلف عن امانتهم المعقودة على المستقبل (١) .

وبالنسبة للكواكبي ، فإن « الاستبداد هو اقتصار المرء على رأي نفسه في ما ينبغي استشارة » (٢) . ويحاول ان يسبر غور منشأ الاستبداد في الاجتماعات البشرية ، فيجد انه ذو صلة بالدين : وبعبارة ادق ان هناك علاقة بين الاستبداد الديني والاستبداد السياسي (٣) . وتتجلى هذه العلاقة في ان كليهما يهدفان الى اذلال الانسان واستعباده ويوضح ان الاستبداد الديني ، لا يتمثل في التعاليم الدينية ذاتها ، والتي جاءت لهداية الانسان ، وانما يتمثل برجال الدين الذين يتمسكون بالقشور دون اللباب . ويستشهد الكواكبي بالتاريخ ، فيقول ان شواهده الكثيرة تشير كيف ان رجال الدين قد اتخذوا من انفسهم واسطة لبلوغ الخالق الجبار ، وكيف انهم يتخذون من هذه الوساطة طريقا لتعظيمهم وفرض سلطانهم على الناس . وهذا بعينه هو الاستبداد الديني ، الذي سار على منواله المستبدون السياسيون الذين « يسترهبون الناس بالتشامخ ويؤلّهونهم بالقهر حتى يصبحوا في نظر العامة مثالا للخالق البعيد المنال الذين يرضون منه بكل تصرف غاشم ، فتشابه في الازهان صورة المعبود والحاكم ، ولا يرون لانفسهم حقا في مراقبة المستبد ، كما انه لا يحق لهم مراقبة

(١) الكواكبي ، المفكر الثائر ، نوربير تابيرو وترجمة علي سلامة ،

وتقديم مصطفى قصاص ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

الخالق . « (١) » ويطبق الكواكبي هذه الظاهرة التي اختفى اثرها من التاريخ ، على الامم الغابرة ، فيصل في دراسته الى ان الآشوريين والمصريين كانوا من اوائل الذين مزج ملوكهم بين الملوكية والالوهية . وكان اليونان من بعدهم من ابرع الامم في هذا الميدان ، حيث نشر فلاسفتهم فكرة صلة الملوك بالالوهية وصلة ادارة الارض بادارة السماء ، فادى ذلك « مطالبة الناس ملوكهم بان تكون ادارة الارض شبيهة بادارة السماء مما دعا الى ظهور الجمهوريات . وكذلك فعل الرومان . « (٢) » والنتيجة التي يصل اليها الكواكبي من وراء ذلك هي ان الموازنة بين الحكومة السماوية والحكومة الارضية « قد ادت الى ادعاء المشعوذين من الحكام خصائص الالوهية . غير ان اليهودية والمسيحية قضا نوعا ما على هذه الميول المنحرفة في الطغاة المستبدين ولكنهما لم تنجحا نجاحا تاما في انتزاع الرواسب الوثنية من النفوس ، ولا سيما في بعض عهودهما عندما ساعد رجال الدين والمتنفذين في ارهاب الشعب واذلاله . « (٣) » وبمجيء الاسلام قضى على اوضاع التشريك بارساء قواعد الحرية حيث سار الخلفاء الراشدون وبعض الامويين والعباسيين والايوبيين على هذا النهج السليم . ولقد كان من اهم اسباب نجاح الاسلام في تلك الفترة هو اخذ القائمين على اموره بالعاليم الاسلامية التي قاومت بصراحة مفاهيم الاستبداد بنشرها مفاهيم العدالة . « (٤) » ولم ينتشر الاستبداد بين ظهرائي العالم الاسلامي الا بعد تسرب الشوائب الى مفاهيمه ودخول العناصر الدخيلة الامر الذي ادى الى اغفال مراقبة الحكام الذين فسح امامهم المجال في الاستبداد « (٥) » .

ويعتبر الكواكبي ان ظاهرة الاستبداد السياسي في المجتمعات الحديثة ظاهرة خطيرة تؤدي لا الى هدم المجتمعات السياسية الحديثة ، وانما تصل بها

-
- (١) المصدر السابق ، ص ٢٧ .
 (٢) الكواكبي ، المفكر الثائر ، ص ٢٨ .
 (٣) المصدر السابق ، ص ٢٨ .
 (٤) المصدر السابق ، ص ٢٩ .
 (٥) المصدر السابق ، ص ٢٨ .

أى الشلل السياسى الذى لا ينفج معه اى حل • واذا كانت هذه الظاهرة قد فتكت في مجتمعات الماضى لاسباب فكرية وتاريخية ودينية وعملت على تشويه تلك المجتمعات ، فانه لا يجوز ان تستمر بقايا او آثار ذلك التفكير في المجتمعات الحديثة •

ويوضح المفكر العربى كيفية حدوث هذا الشلل بالكشف عن الآثار التى يتركها في كل جانب من جوانب الحياة •

ومن هذه الجوانب المهمة التى يتناولها الكواكبي ، ذلك المتمثل بالعلم وعلاقة ونظرة المستبد اليه • فالمستبد يكره العلم والعلماء • انه يكره العلم ، سيما العلوم الفلسفية والعقلية والنظرية ، لانه يفتح العيون ، وبالتالي فانه يقاوم الجهل الذى يهدف المستبد الى دوامه ، لان طغيانه يجد في الجهل مرتعا خصبا • وهو يكره العلماء ، لان الطاغية المستبد وهو المستبد بنفسه يحسن بالفارق الكبير بينه وبينهم ولذلك فهو يحاول ان يدمرهم (١) • ومن كل هذا يتضح ان بين الاستبداد والعلم حربا مستمرة • يسعى العلماء في نشر المعرفة ويجتهد الطغاة في اطفاء نورها «...» (٢) اما الشعب او العوام فانهم يعيشون وسط هذا التناقض • ويحاول الكواكبي ان يعرف من هم العوام فيقول : «انهم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا ، واذا خافوا استسلموا ، وهم الذين متى علموا قالوا ، ومنى قالوا فعلوا •» (٣) ويرى انه بالرغم من جو الاستبداد الذى يحاول ان يمنعهم من العلم فان بعض العلماء يظهرون ويسعون بكل جهدهم في تنوير افكار الناس • ولكن المستبد يظل لهم بالمرصاد لان اخوف ما يخافه من العلم والعلماء هو «ان يعرف الناس ان الحرية ائمن من الحياة» (٤) • ويتجلى هذا الامر في المستبدين الشرقيين الذين عاش وجرب استبدادهم بنفسه ، والذين يقول فيهم « ان المستبدين الشرقيين يعصف الخوف بنفوسهم • وما تغطرسهم الا مظهر لاختفاء

- (١) المصدر السابق ، ص ٢٩ •
- (٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ •
- (٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ •
- (٤) المصدر السابق ، ص ٣٠ •

مركب النقص في طبيعتهم وهم على العموم يرجفون من صولة العلم ، وكان اجسامهم من بارود وكان العلم نار» (١) .

وبالنسبة لنوع الاخلاق التي يؤكد عليها الاستبداد ، فانه يرى ان الاستبداد « لا يقتصر امره على كبت الحريات والتصرف بشؤون الدولة تصرفا كيفيا بل يتعدى كل ذلك الى افساد الخلق البشري وتشويه الفضائل » (٢) . وهنا تضع المقاييس على الناس ولاسيما العوام الذين يصل بهم الامر الى حالة من الارتباك والمرض العقلي الذين لا يستطيعون من خلاله التمييز بين الخير والشر . ومتى ما حصل مثل ذلك ، فان الناس تقل ثقتهم بالآخرين وتقل ثقتهم بانفسهم ، كما انهم يصبحون حاقدين على مجتمعهم الذي يكون والحالة هذه عونا للاستبداد والمستبدين . والاكثر من ذلك ، هو ما رآه الكواكبي في فتره الثاقب ، من ان الامم والشعوب حين تخسر اخلاقها فان اصلاحها لا يصبح ممكنا وانما يجعل امرها عسيرا .

والاهم مما تقدم ، هو تأثير الاستبداد في قيام حكومات مستبدة التي تكون اساس البلاء والمصائب ، حيث ينطلق منها التوجيه الفاسد للاخلاق ، ومنها تنطلق القيود على العلم والعلماء ، ناهيك عن تصرفها الفاضح في اموال الشعب ، الذين لا يملكون عليها الرقابة . وبذلك تصبح الاموال بيد حفنة من الناس وتبقى اغلبية الشعب الساحقة محرومة منه . ويلاحظ الكواكبي ان الحكومات المستبدة اما ان تكون مطلقة ، او ان تكون غير مطلقة . وتقوم الحكومات المطلقة بانعدام شريعة او قانون او ارادة الامة ، بحيث تحاسب اعمال امثال هذه الحكومات في ضوءها (٣) . ويرى ان من اهم اسباب ذلك هو جهل رعايا مثل هذه الحكومات . واما الحكومات المستبدة غير المطلقة ، فهي تلك

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٣) د. حازم نسيبة ، القومية العربية ، دار بيروت للطباعة والنشر ،

بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١٤٥ .

الحكومات التي توجد عليها قيود ، ولكنها تفلت من تلك القيود بطريقة او اخرى . وبعبارة ادق ان هذه الحكومات تعلن انها مقيدة ظاهريا ، ولكنها فعليا هي حكومات غير مقيدة^(١) ، حتى وان اعلنت عن نفسها انها حكومات دستورية . اذ ما فائدة اعلان الحكومات التي تقول بفصل سلطة التشريع عن سلطة التنفيذ فيها بأنها حكومة دستورية ، وهي في الحقيقة والواقع حكومة استبدادية . والذي يريد ان يصل اليه الكواكبي هو ان اشكال الحكومات المستبدة كثيرة . فهي « تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة ، وتشمل ايضا الحاكم الفرد المقيد الوارث او المنتخب ، متى كان غير محاسب . كما تشمل حكومة الجمع ، ولو منتخبا ، لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد ، وانما قد يعدله نوعا ، وقد يكون احكم واضر من استبداد الفرد . » والخلاصة التي يقف عليها مفكرنا العربي هي ان صفة الاستبداد تلازم اي نوع من الحكومات لا يوجد عليها رقابة شديدة من قبل الامة .

ان رقابة الامة تكون قائمة حيث تكون الامة واعية وماسكة بزمام امورها . اما اذا كانت في غفلة من امرها فانها تهبط الاسباب لقيام الحكومة المستبدة . هذا وان الامم التي تعيش في غفلة من امرها ، هي بنظر الكواكبي تلك الامم التي تعيش في جهالة ، والتي يضىف عليها جهلها العيش في خوف دائم . ومتى ما ارتفع الجهل ، « زال الخوف ، وانقلب الوضع ، اذ يتحول المستبد رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب ، ورئيس عادل يتلذذ بنشيدان النية السليمة والصدقة وحينئذ تنال الامة حياة رضية هنيئة ، حياة رخاء ونماء . »^(٢)

ولقد وجد الكواكبي في عصره ان الحكومة العثمانية التي عاش في ظلها كانت حكومة مستبدة . وان المسلمين عامة والعرب خاصة كانوا يعيشون عيشة ذل وخذلان . وقد رأى ان المجتمع يسوده الاضطراب وتسوده ازمة

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٢) نسبية ، ص ١٤٧ .

خلفية شاملة • ولقد وجد ان طريق اتقاذ المجتمع ، يتم بوعيه وتربيته تربية تقوم عى العلم والاخلاق • ووجد كذلك ان التربية يجب ان تبدأ باصلاح اخلاق النخبة • اذ لا صلاح للسياسة ما لم تصلح الاخلاق اولاً • ولقد حاول ان يوضح كل هذه الامور عن طريق كتاباته في الصحف التي ترأسها ، وفي كتبه التي ألفها ، واعماله التي اشغلها • ولكونه ذا عقيدة اسلامية ، فانه كان يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية • فقد خاطب المسلمين جميعاً من خلال مؤتمر تخيله وقد عقد في مكة عام ١٣١٦ هـ ، حضره ممثلون من سائر الاقطار الاسلامية • وكان الهدف من ذلك الكشف عن احوال المسلمين واسباب تأخرهم وطرق نهضتهم • وقد تولى الكواكبي مهمة امانة سر المؤتمر ، وجمع ما دار من مناقشات فيه في مؤلف اسماء «بأم القرى»^(١) • ولقد طرحت في هذا المؤتمر اراء وحلول مختلفة لتشخيص عوامل ضعف المسلمين والحلول الممكنة استخدامها للاخذ بهم نحو طريق النهضة • ومن اهم ما طرح من الراء وكان ذلك على لسان البليغ القدسي الرأي القائل ان «السبب يعود الى تحول نوع انسياسية الاسلامية ، فقد كانت نيابية اشتراكية - ديمقراطية ، فصارت بعد الخلفاء الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع وصارت اشبه بالحكومات المطلقة • فتمرت كلمة الامة فطمع بها اعداؤها وصارت معرضة للحروب الداخلية والخارجية معا •»^(٢) • ومن بين الراء التي طرحت في تشخيص الداء ما جاء على لسان الحكيم التونسي ، عضو المؤتمر الذي رأى انه يدور حول «تأصل الجهل في معظم الامراء المترفين الذين ضلوا السبيل •»^(٣) • ومن بين الآراء التي طرحت في الموضوع نفسه ما جاء على لسان المولى الرومي ، عضو المؤتمر الذي

(١) الموقف على طبعته الدقيقة انظر طبعة محمود طاهر صاحب جريدة العرب ، القاهرة ، ١٨٩٤ •

(٢) « ام القرى » تلخيص مصطفى قصاص في الكواكبي : المفكر الناصر د • نوريير تابيرو ترجمة على سلامة ، ص ١٤ •

(٣) مصطفى قصاص ، المصدر السابق ، ص ١٤ • للموقف على التفاصيل ، راجع ام القرى نفسه ، ص ٢١ وما بعدها •

جاءت مناقشاته في كتاب ام القرى نفسه ، والذي يقول " ان السبب في اضمحلال المسلمين هو فقدانهم الحرية . » (١)

هذا ومن الطريف في الامر ، ان الكواكبي يذهب في ام القرى فيعقد المقارنات مع الشعوب والامم الاخرى ، حيث ينقل رأى المسلم الانكليزي في نهضة الغرب والقائل ان الغرب وصل الى نهضته نتيجة جديته ووعيه ، بينما نجد ان المسلمين الشرقيين تدهورت احوالهم نتيجة اهمالهم ، وعليه فان سبيل النهضة يستلزم بث الوعي بالوقوف على تاريخ الامة وعظماؤها ومعاركها وآثارها ، وتنظيم حياتها عن طريق اللقاء المنظم في يوم عطلة من كل اسبوع يتناول الاراء بين ابناء الامة في مشاكل امتهم ، وعن طريق ارتياد ابناء الامة للمسارح التي تقدم الاحداث والعبر التي جاءت فيها لاثارة حب الوطن في النفوس . (٢)

ونجد الكواكبي يؤكد بوجه خاص ان الحكم المستبد لاشك انه سيقاوم كل ذلك . وهنا يرسم الطريق فيقول ان افضل طريق لمقاومة الاستبداد هو انه « لا يقاوم بالشدّة وانما يقاوم باللين والتدرج » (٣) .

ثم يأتي مفكرنا العربي الكبير عبدالرحمن الكواكبي لتسويق الاراء التي طرحها فيتوصل الى ان اسباب انهيار المسلمين ، ومنهم العرب بالطبع ، لا تخرج عن اسباب دينية واسباب سياسية واسباب اخلاقية . فاما الاسباب الدينية فتكاد تجمل في خروج المسلمين عن الاسلام الصحيح ودخولهم في خلافات لانتمت اليه بصلة وانما تمت الى المقتبسات والبدع المضللة (٤) . واما الاسباب الخلقية فهي تنحصر في ما ظهر من ترد في الاخلاق التي تتعلق بالحياء العامة والذي نجم عن ايدي المنافقين والفاستدين في ظل العهد

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

الاستبدادية ، وفي مقدمتهم المنافقين والفاستدين من النخبة الذين يتوجب اصلاح اخلاقهم قبل غيرهم . (١)

وحيثما يأتي الكواكبي الى الاسباب السياسية فانه يربطها بالخلافة العثمانية التي جرت حياة المسلمين من عرب وغير عرب الى الخراب . وتأتي في مقدمة هذه الاسباب ما اصاب العرب من ظلم فاحش نتيجة لتمييز الدولة وتعصبها بهضم حقوقهم ، والضغط والاكراه والقسوة في اسلوب الحاكم ومعاملة الرعية ، هذا الى جانب اهمالها اهمالا كاملا موضوع استشارة الرعية ومناقشة الامور العامة ، وتعيين من لا يحسن الادارة في ادارة الاقاليم ، واصرارها على اتباع النظام المركزي على الرغم من عدم صلاحيته نتيجة لتباعد اطرافها واختلاف اجناسها . (٢)

وفي ضوء ما دار من مناقشات في تحري اسباب ضعف المسلمين وانحلالهم يصل الكواكبي الى النتيجة وهي ان امر المسلمين مرتبط بالعرب . فلقد وصلت الامور الى ما وصلت اليه من تأخر نتيجة ابتعاد العرب عن مركزهم القيادي ، ذلك الابتعاد الذي ادى الى ان يتولى امر الخلافة والقيادة جماعات لم تحسن من امر الخلافة والقيادة . ويقدم الكواكبي اسبابا عديدة لاقامة الخلافة العربية من اهمها انهم اعلم الشعوب بالرسالة الاسلامية ، واقدمها مدنية « بدليل سعة لغتهم وسمو حكمتهم وانهم احرص الامم الاسلامية على الحرية والاستقلال وانهم اعرف الامم بأصول الشورى في الشؤون العمومية ، واهداهم الى اصول المعيشة الاشتراكية » . (٣)

والذي يتبين مما تقدم ان دعوة الكواكبي الى اقامة خلافة عربية ، هي دعوة الى نهضة العرب (٤) والى وحدتهم قبل كل شيء . وانها دعوة الى تبوؤهم

(١) نسيبه ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٧-١٤٨ .

(٢) مصطفى قصاص ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١-٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٤) انظر جورج انطونيوس - يقظة العرب ، ترجمة د. ناصر الدين الاسد

و د. احسان عباس ، بيروت ، ص ١٧٢ .

مركزهم القيادي في تحسين احوال جميع المسلمين والاخذ بيدهم الى طريق العدالة والخير والسعادة ، تلك الطريق التي فقدوها بغياب العرب^(١) . وبتبني الكواكبي مثل هذه الافكار ، يصبح من اوائل المفكرين العرب^(٢) الذين نادوا بالوحدة العربية وبالقيادة العربية في توجيه مستقبل الشعوب الشرقية الاسلامية . ومثل هذه الافكار تجعل من طريق النهضة الفكرية طريقا يسلك خطأ جديدا ، يختلف عن الخط الذي سلكه من سبقه من المفكرين من امثال الافغاني خاصة . ويمثل هذا الخط الجديد في ان للعرب مكانة خاصة بين الشعوب ، وان هذه المكانة تتجلى في انها امة صاحبة رسالة ، وانها رائدة . والشئ المهم في هذا الصدد هو ان هذه الرسالة في معناها البعيد ليست انها رسالة دينية وانما هي رسالة مثل وفضائل^(٣) ، رسالة انسانية اخلاقية . وان هذه المثل والفضائل التي تحملها الرسالة تستمد قوتها من المثل والقيم الحضارية العربية ، ومن المثل الاسلامية ، التي اساسها التسامح والاخوة لا بين المسلمين من عرب

(١) يقول د . يوسف عز الدين ، ان الكواكبي « دعا الى ان يسود العرب انفسهم والى تكوين خلافة عربية تستند اليها الامة (او الامم) الاسلامية كما كان العرب ايام عزمهم وحكمهم » . انظر بحثه في مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الخامس عشر ١٩٦٧ ، « تطور الفكر القومي » ، ص ٥٣ .

(٢) يقول عنه الاستاذ عباس محمود العقاد « رجل دائم الشعور بعروبته ، شديد الغيرة على نسبته العربية ... كان شخصية قوية جلية لا موضع فيها لغموض او التواء ... مفتاحها اننا اذا التمسنا المفتاح لبعض زواياها: انها شخصية عزيز قوم يفضب لكرامة وكرامة قومه » . للرجوع الى التفاصيل الاخرى عن هذه الشخصية ، انظر كتابه للرحالة كاف عبدالرحمن الكواكبي والعرض المقدم عنه بقلم الدكتور محمود السمرة في مجلة العربي العدد ٧٧ نيسان ١٩٦٥ .

(٣) محمد سعيد العريان « مفهوم القومية العربية عند الكواكبي » . في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية : مهرجان الكواكبي ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٤٢ .

وغير عرب ، وانما بين المسلمين والمسيحيين العرب الذين تجمعهم جميعا وحدة فيهم وایمانهم بالله واخوتهم* (١)

ان الكواكبي في افكاره التي جاء بها تجعل منه مفكرا حديثا يأخذ بأحدث تطورات الفكر ويستمد قوته في عين الوقت من اسس الفكر العربي الاسلامي . وبذلك يكون مفكرا اصيلا وليس مقلدا . واذا كان هناك من مأخذ يؤاخذ عليه الكواكبي فهو انه في الوقت الذي حمل على الحكم العثماني ، الذي ادى بنظره الى التأخر والضعف فانه وكما يقول بطرس غالي « نسي او تناسى التسلط الغربي على الشرق مثل التسلط الانكليزي في الهند ومصر ، والتسلط الهولاندي في اندونيسيا ، والتسلط الفرنسي في المغرب العربي »* (٢)

رشيد رضا :

لقد كان للاراء والافكار التي جاء بها رواد اليقظة الفكرية الحديثة من امثال الافغاني وعبدة والكواكبي اتاها الواضحة على من جاء من بعدهم من مفكرين . وقد ظهر التقدير والاعجاب بالافكار الاصلاحية التي نادى بها كل من الافغاني وعبدة والكواكبي اكثر ما ظهر في نفس الشيخ رضا* (٣) الذي

(١) المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٢) د . بطرس بطرس غالي : الكواكبي والجامعة الاسلامية ، في المجلة المصرية للقانون الدولي ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٥٧ ، ص ١٨ .

(٣) ولد الشيخ رضا في ٢٧ جمادى الاولى ١٣٨٢ هـ الموافق ١٨٦٥م في قرية «القلمون على شاطئ البحر المتوسط في جبل لبنان القريبة من مدينة طرابلس الشام ، التي تلقى فيها العلوم العربية والشرعية والعقلية وكان في مقدمة الاساتذة الذين تتلمذ على ايديهم الشيخ حسين الجسر . وقد قضى حياته التي شملت السنين الاخيرة من القرن التاسع عشر والسنين الاولى من القرن العشرين مفكرا اصيلا وحاملا لرسالة تدعو الى نهضة العرب ووحدهم ، وشأنه في ذلك شأن الكواكبي الذي اتفق معه في فلسفته ، حيث نشر كتابه « ام القرى » في مجلة المنار التي اشرف على اصدارها طيلة فترة طويلة . ولم يقتصر على اصدار مجلة المنار الاصلاحية ، وانما انكب على التأليف ايضا



قدر له ان يكون فيما بعد داعيا حقيقيا من دعاة الاصلاح وصاحب رسالة فكرية اجتماعية سياسية تعتبر مكملة لرسالة من سبقه من مفكرين ومصالحين لبناء مجتمع عربي متقدم .

وحينما يقف الدارس على افكار الشيخ رشيد رضا ، يجد انها تنطلق بوجه عام من فلسفة سياسية اجتماعية اصلاحية . ومع ان هذه الفلسفة تكونت عبر الزمن الا ان لبناتها الاولى كانت قد تكونت لديه « وهو طالب في طرابلس يدرس العلم » .^(١) لقد رأى رشيد ان امته ، بعد ان مرت بالانتكاسات والتكبات وما صحب ذلك من تأخر وضعف ، لهي احوج ما تكون الى الاصلاح والبناء من جديد . ورأى ان الاصلاح ، سواء اكان في السياسة ام في غير السياسة ، يحتاج الى شرطين رئيسيين : هما الصدق والشجاعة .^(٢) وتعبير اوضح ان الاصلاح لا يتم الا بالمصلحين ، وان وصول المصلحين الى الاهداف الحقيقية لا يمكن ان يتم لهم الا اذا كانوا جريئين في الاقدام على الاصلاح ، وصادقين في الخطوات التي يتخذونها . وبخلاف ذلك فان كل اصلاح يصبح جبرا على ورق .

لقد كان اعجاب رشيد رضا باراء جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وبوسائلهما في الاصلاح ان دعاه الى الوقوف عليها عن كعب ، وذلك بغية الوصول الى السبيل الافضل في مواصلة رسالة الاصلاح . فلقد وجد ان عليه



وكان من اهم موهباته « الخلافة » . . . ولقد كان حبه لتحقيق رسالته في جو من الحرية قد دفعه الى الذهاب الى القاهرة وقضاء شطر كبير من حياته فيها ولقد كان ايمانه برسالة امته ونهضتها ووحدتها قد دفعه الى السفر الى باريس ولندن وموسكو حيث عمل جاهدا للتعريف وتنوير الراى العام بقضاياها . وقد مكنته عمره اللديد من روية الكثير من توقعاته بنفسه ، اذ وافاه الاجل عام ١٣٥٥ هجرية الموافق السنة ١٩٣٥ الميلادية .

(١) ابراهيم احمد العدوى - رشيد رضا الامام المجاهد - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ص ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

ان يوازن بين اسلوب جمال الدين الذي ينطلق من مبدأ: ان لاسبيل الى الاصلاح الا عن طريق السياسة ، او بعبارة ادق ان اصلاح الامة لا بد وان يتم عن طريق الدولة ، وبين اسلوب تلميذه محمد عبدة الذي ينطلق من مبدأ : ان السبيل الافضل الى الاصلاح يتم عن طريق التربية والتعليم ، او بعبارة اوضح ان اصلاح الدولة يتم عن طريق اصلاح الامة^(١) . ولقد توصل رشيد رضا بعد هذه الموازنة « ان الاصلاح عن طريق السياسة ادنى واسرع ، وان الاصلاح عن طريق التعليم اثبت وادوم ، ولكن كلاهما يفضي الى الاخر»^(٢) . الا ان الاحداث اثبتت له ان اى منهاج ذو صلة بالظروف القائمة في زمانه . وهكذا وجد ان المزج بين اسلوبي جمال الدين ومحمد عبدة^(٣) ، هو المنهاج الممكن ، وان الاخذ باي منهاج اخر في العمل الاصلاحى يصبح غير عملي وغير ممكن التطبيق^(٤) .

ان الدارس الدقيق لتفاصيل فلسفة رشيد رضا الواقعية في الاصلاح ، على ضوء ما مر ذكره ، يجد انها شاملة ومترابطة في اجزائها . ومن حيث فلسفته - السياسية الاصلاحية ، فانها تقوم على الصلة الوثيقة ما بين الامة والدولة . فهو يرى ان الدولة المتأخرة (المريضة) لا تقوم الا على اكتاف امم مريضة وان العلاج لا يقتصر لاحدهما دون الاخر ، اى انه يشمل علاج كليهما . وان افضل العلاج هو بالتربية والتعليم الذى يجب ان يمتد الى سائر ابناء الامة . فالحاكمون الذين يسيرون شؤون الدولة لا يمكن النظر اليهم الا انهم من ابناء الامة ، وانهم يتأثرون بالقيم والمعايير السائدة فيها . فاذا

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) لقد تجلت فلسفة رشيد رضا القائمة على فن الممكن ، في هجرته من طرابلس الى القاهرة وفي العمل مع المفكرين الاحرار الذين سبقوه في الهجرة اليها ، من امثال ابراهيم اليازجى ورفيق العظم وعبدالرحمن الكواكبي والشيوخ محمد عبدة وغيرهم .

كانت حياة الأمة يسيرها الجهل ، ويتخللها الخداع والنفاق والكذب ، فان مثل هذه المعايير تسمح لقيام حكام فاسدين ومستبدين^(١) . كما انها تسمح بقيام اشباه المفكرين واشباه العلماء والمرشدين ، الذين تقوم مناهجهم وخططهم على الاهداف الناقصة والمعرفة المضللة .

وبعد ان يحدد رشيد رضا مضمون التربية التي تعني بتوجيه المرء حتى يمتلك القدرة على التمييز والتعقل والعمل ، ويحدد مضمون التعليم الذي يزود المرء بالعلم الذي يصفه بأنه ينبوع الذي يزوده بالمعرفة ، ينتقل الى تبيان العلاقة بين التربية والتعليم فيقول انهما متلازمان فلا يتم احدهما من دون الاخر ، لا بل ان التعليم في حقيقته ما هو الا جزء من عملية التربية ، ذلك ان التربية الحققة هي التي تقوم على ثلاثة ضروب : تربية الجسم وتربية النفس وتربية العقل^(٢) . ان الضرب الاخير كما يقول رشيد رضا هو التعليم بحد ذاته .

والذي يقف بدقة على مقومات منهاج رشيد رضا في التربية والتعليم يجد انه يتجاوب مع متطلبات روح العصر الحديث ، وينطلق اساسا من احداث التطورات التي وصل اليها العلم والمعرفة^(٣) ، ويتعد كل البعد عن الاساليب القديمة التي ادت الى توجيه ابناء الأمة توجيهها خاطئا لا يهدف اكثر من اتخاذ العلم والمعرفة وسيلة للارتزاق في العمل الحكومي .

(١) رشيد رضا الامام المجاهد ، مصدر سبق ذكره ص ١٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٤-١٧٥ .

(٣) من بين حقول المعرفة المهمة التي يؤكد عليها رشيد رضا : علم

اصول الاخلاق وعلم الاخلاق وعلم الاجتماع وعلم تقويم البلدان (الجغرافية) وعلم التاريخ الذي يرى انه « مادة السياسة وممد للعقل ومغذيه ، والمفيض على الارواح حب الجنس والوطن والهادي النفوس الى مصالح بلادها والمحافظة على استقلالها ، وعلم الاقتصاد وعلم الحساب وعلم لغة البلاد » . انظر

ابراهيم العدوي ، رشيد رضا الامام المجاهد ، ص ١٧٧-١٧٨ .

اما فلسفته السياسية ازاء السلطة والحكومة والحكام وعلاقتها بالامة ، فانها ترى في المفاهيم الاسلامية السياسية نمطا نموذجيا يوصل الانسان الى اسمى غاياته وسعادته وبشرط ان يحسن تطبيقها .

فالاسلام كما يصفه رضا ، نظام له ابعاده السياسية والاجتماعية الى جانب ابعاده الروحية^(١) وتمثل الابعاد السياسية الاسلامية ، التي يؤمن بها رشيد كل الايمان ، ويحاول تفسيرها وتوضيحها ، بتلك المبادئ التي تحدد فيها طبيعة السلطة ومصادرها والحكومة الناجمة عنها والحكام الذين يحكمون في ظلها . واهم هذه المبادئ هي ان السلطة بيد الامة وان الحكومة شورية^(٢) ، وان الحاكم (او الخليفة) يأتي بالمبايعة (او الانتخاب) الذي تقرره الامة عن طريق ومشورة ممثلها وهم اهل الحل والعقد^(٣) . ومما يؤكد رضا بصددهمات الحكومة وواجباتها ، هي انها ملزمة بحفظ المصالح الدينية والدينيوية وانها ملزمة ايضا لضمان الوحدة الاخلاقية والاخوة الانسانية للنوع البشري^(٤) . ومن الجدير بالذكر ايضا ، ان رشيد رضا ، حين يتحدث عن الحاكم (الخليفة) فانه يتحدث عنه كمواطن في الدولة شأنه في حقوقه شأن الرعية الاخرين . فهو يخضع لقانون الدولة (الشريعة) كما يخضع لرقابة ومقررات الامة^(٥) .

وحيثما يتحدث عن تطبيق هذه المبادئ ، فانه يوضح بكل دقة ان المسلمين لم يصلوا الى ما وصلوا اليه من ضعف وتأخر الا حين خرجوا على

(١) للرجوع الى التفاصيل الاخرى انظر كتاب « الخلافة او الامامة العظمى ، القاهرة ، ١٩٢٢ » .

(٢) انظر سيرة الشيخ محمد رشيد رضا في كتاب C. C. Adams المعنون . Islam & Modernism in Egypt (London, 1933) ص ٥ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

هذه المفاهيم • اما بالنسبة للعرب ، فان مسؤوليتهم كبيرة جدا ، لا يسلم مضاعفة • فلقد ادى ضعفهم وتفرقهم الى ان يستلم زمام الامور من المسلمين من هو اقل جدارة منهم ، مما سبب ان تزيد الاحوال سوءا على سوء • وينطبق هذا الامر خاصة على العثمانيين الذين رأى في سوء حكمهم واستبداد الكثير من سلاطينهم ، ما عمل ليس فقط على استبدادهم وضعفهم وجهلهم ، وانما عمل ايضا على دعوة امم من خارج العالم الاسلامي ممثلة في الامم الاوربية ، لحكمهم وفقا للنظام الاستعماري الذي جلبوه معهم •

ولقد كانت كل هذه الاسباب ، مبعثا لدخول رشيد رضا المعترك السياسي : مصلحا وداعيا حقيقيا من دعاة الحرية والوحدة العربية • وقد تمثل ذلك في جهاده وكفاحه عن طريق مجلة المنار التي اشرف على اصدارها ، وسواها من الطرق الاخرى كما ستعرف عليها فيما بعد •

وفي الحقيقة ان بداية مطالب رشيد السياسية الكفاحية ، كانت قد تمثلت بمطالبته احلال المساواة بين العرب والأتراك ضمن اطار الدولة العثمانية • وقد تجسد كفاحه بترؤسه « جمعية الشورى العثمانية » التي اخذت تنشر منشورات سرية تندد بالمظالم التي اقترفها السلطان عبدالحميد ، مما اقلق مضاجع السلطان وبطانته^(١) • ولكنه حينما عجز عن ان يرى حتى في جمعية الاتحاد والترقي التي تولت السلطة عام ١٩٠٨م والتي ثارت من اجل قيام حكم مقيسد بدستور ، اى تحرك لا بل اى اشارة ينال فيها العرب قدم المساواة مع الأتراك^(٢) ، نقول انه حينما عجز عن كل ذلك ، بدأ رشيد رضا عن طريق مناره ونشاطاته السياسية الاخرى ينادى باستقلال الاقاليم العربية وضمها في دولة عربية واحدة •

(١) ابراهيم العدوى ، رشيد رضا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٢ •
(٢) لقد طالب رشيد رضا بان يعامل العرب على قدم المساواة مع الأتراك ، بعد ان وجد ان الطورانية التي تقوم على النزعة العنصرية قدزادت حديثا على ايدى حكومة الاتحاد والترقي ، والتي اتخذت اجراءات تعسفية

لقد كان للاراء التي طرحها عبدالرحمن الكواكبي في توجيه الفكر العربي وجهة قومية تأثيرها في افكار رشيد السياسية التي جاءت هي الاخرى متفقة مع الكواكبي كل الاتفاق ، وبذلك اصبح كل من الكواكبي ورضا رائدا في رسم الاتجاه الفكري العربي المعاصر .

ولقد ظل رشيد رضا ، بعد وفاة زميله امينا في الاستمرار على حث الامة العربية وتسيبها الى ان يقفلتها ونجاتها من المخاطر المحيطة بها تتوقف اكثر ما تتوقف على تحالف ووحدة ابنائها وقادتها . وكان ما يميز جهاد وكفاح رضا الفكري في ايامه الاخيرة في السنين التي سبقت وفاته عام ١٩٣٥ للميلاد ، تحذير ابناء قومه من الاعتماد على الغير في تحقيق امانهم . انه لفت انتباههم الى ان التهاون بأموورهم قد اوقعهم في ان يلعب بمقدراتهم اقوام اخرون من امثال العثمانيين ومن بعدهم الاوربيين الذين خدعوا العرب بوعودهم لمؤازرتهم في تحقيق اهدافهم في الحرية والوحدة .

ان التجارب الطويلة والاراء السديدة التي تبلورت عنده عبر الزمن الطويل



ضد العرب وضد لغتهم وامانيهم . ولقد تمثلت هذه الاجراءات التعسفية في ابعاد العرب عن المشاركة في الحكم وفي فرض اللغة التركية كلفة رسمية في الاقاليم العربية ، وفي جعل اللغة العربية لغة ثانوية في المدارس ويقوم بتدريسها اترك ولبس عرب ٠٠٠ مما دفع رشيد رضا الى الدفاع عن ابناء امة في مقالاته وخطبه ونشراته ، والى تبيان ان مثل هذه الاعمال لاتهمس حقوق العرب وحسب وانما هي اضرار بمصالح الاتراك انفسهم . ولقد نبه الشيخ رضا في مقالاته وخطبه « ان مماطلة السلطات العثمانية الجديدة في الاستجابة الى حقوق العرب ، وتهاونها في الدفاع عن اراضيهم ينذر بالخطر المتمثل بالزحف الاوربي على العالمين العربي والاسلامي وهو ما سيفرض على الامة العربية القيام بما يجب القيام به للدفاع عن نفسها اما «الايخاطر المتوقعة . » للرجوع الى التفاصيل انظر : ابراهيم العدوي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣٤ وما بعدها .

قد علمته ان خلاص العرب من محتهم في العصر الحديث^(١) لا يمكن ان يتم الا بوحدتهم^(٢) ، بوحى من قيمهم العربية والاسلامية ، وبلاستفادة من كل ما في الفكر المعاصر من افكار تنسجم مع ظروفهم ، وتفتح افاقهم نحو غد افضل يستطيعون من خلاله خدمة انفسهم وخدمة غيرهم خدمة انسانية .

وصفوة القول ، فان بالامكان القول في الخلاصة ان اليقظة الفكرية العربية الاسلامية الحديثة ، قد مرت منذ بدئها في القرن التاسع عشر ، بطورين اساسيين : الطور الاول وهما الذى تميز بالدعوة الى يقظة ووحدة العالم الاسلامي بوحى من مقومات رسالته الاسلامية . وقد كان من ابرز ممثلى هذه المرحلة جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده . اما الطور الثانى ، فهو الذى تميز باليقظة الفكرية على اساس قومى . وبالنسبة للعرب فانه تميز بيقظة ووحدة العالم العربي بوحى من مقوماته العربية والتحاماً مع المبادئ الاسلامية التى كان للعرب الدور الاكبر في تسيبها ونشرها الى اجزاء العالم كافة .

ان ما يجب التأكيد عليه بالنسبة الى الطور الفكرى الثانى والمتسم بالطابع العربي القومى هو ان هذا الطابع الذى كان الكواكبي رائداً كبيراً من رواده وسار على نهجه مفكرون عرب اخرون ، يأتى في مقدمتهم رشيد رضا ، قد ظل كذلك طيلة النصف الاول من القرن العشرين وحتى الوقت الحاضر . على ان ما تجدر الاشارة اليه ايضا هو ان فريقاً من المفكرين العرب المعاصرين المتأخرين قد بدأ عليه تأثره بالفكر القومى الاوروبى بعناصره ، سيما ذلك العنصر الذى يتصل بالدين . والمعروف ان هذا الفريق المجدد ،

(١) لقد رأى الشيخ رضا ان محنة العرب في العصر الحديث تتمثل في امكانية خلاصهم من الاخطار الداخلية والخارجية المحدقة بهم . ان محنة العرب الداخلية كما رآها رضا تتمثل في تمزقهم ، اما المحنة الخارجية فهي ناجمة عن الاخطار الاجنبية المتمثلة في الاستعمار والصهيونية . ولقد اثبتت الايام ان الشيخ كان صائبا في تشخيص الداء والدواء .

(٢) ابراهيم العدوى ، مصدر سبق ذكره ، صص ٢٥٧-٢٥٨ .

(والذي يضم من بين اعضائه كل من نجيب غازورى وبطرس البستاني وساطع الحصرى) يرى ان العناصر الرئيسية للفكر العربى في اتجاهها الحديث تضم وحدة تاريخهم (الذي يقوم على تقاليدهم وقيمهم وامانيهم) ووحدة لسانهم التي تعبر عن وحدة فكرهم عبر الزمن الطويل ولكنه (اى هذا الفريق) له نظرة خاصة بالنسبة للدين والدين الاسلامى بالذات . ويصور المفكر ساطع الحصرى ان الفكر العربى القومى قد بدأ في اتجاهاته الحديثة مستقلا عن الاعتبارات الدينية^(١) . ويستشهد الحصرى بمؤلفات واقوال العرب المفكرين المحدثين من امثال نجيب غازورى في مؤلفه « يقظة الامة العربية في آسيا » وبما جاء من مقررات المؤتمرات السرية التي عقدها الشبان العرب المتورون ، خاصة المؤتمر العربى الاول الذى عقد في باريس في الفترة ما بين ١٧-٢٣ حزيران من عام ١٩١٣ والسذي اشترك فيه ممثلون عن مختلف الجمعيات العربية القائمة في الاستانة ودمشق وبيروت والقاهرة اضافة الى المهاجرين العرب من المكسيك والولايات المتحدة الامريكينة . ومما يشير اليه الحصرى ، ان المقررات لم يكن فيها تأكيد على الناحية الدينية . كما ان مما قاله رئيس المؤتمر عبدالحميد الزهراوى لاحد المراسلين عقب ارفض المؤتمر « ان المؤتمر ليس له صفة دينية . وكل اعماله تنحصر في الدائرة المحددة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية » .^(٢) ويشير الحصرى بوجه خاص الى خطاب رئيس المؤتمر المذكور عبدالحميد الزهراوى نفسه الذى قال فيه « ان الرابطة الدينية عجزت دائما عن ايجاد الوحدة السياسية » .^(٣)

والذي يصل اليه الاستاذ الحصرى ، هو ان الحركة الاسلامية في تاريخ

(١) ساطع الحصرى ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية ، دار العلم للملايين ، بيروت طبعة ٣ ، ١٩٥٦ ، صص ١٨١-١٩٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
(٣) المصدر السابق نفسه .

القومية العربية كان لها دورا فعلا ومشهودا . فقد عملت على توحيد العرب ونشر لغتهم . وحينما تدهورت احوال العرب ، عمل الاسلام على الوقوف امام التيارات التي ارادت اذابة العرب واذابة لغتهم ، بسبب أن اللغة العربية هي لغة القرآن . وقد كان لزاما على المسلمين من غير العرب تعلم لغة القرآن لانها لغة دينهم . الا ان هذا الارتباط بين القومية العربية والديانة الاسلامية لم يبق كذلك بمرور الزمن الطويل . ذلك ان رقعة الدولة التي توسعت نتيجة الفتوحات قد اظهرت ان بعض الاقاليم التي فتحت قد اصبحت اسلامية ولم تصبح عربية، وان بعضها الاخر قد استعربت (١) ، ومن دون ان تصبح مسلمة وذلك نتيجة للتسامح الذي حمله العرب في فتوحاتهم . وهكذا يصل الحصري الى القول ان الديانة الاسلامية ، لم تظل مرتبطة ارتباطا اساسيا بالقومية العربية (٢) ، وهذا يوصله الى القول « ان اساس الاساس في تكوين الامة وبناء القومية هو وحدة اللغة ووحدة التاريخ . لان الوحدة في هذين الميدانين ، هي التي تؤدي الى وحدة المشاعر والمنازع ، ووحدة الآلام والامال ، ووحدة الثقافة ولكل ذلك ، تجعل الناس يشعرون بانهم ابناء امة واحدة ، متميزة عن الامم الاخرى . » (٣) وما خلا ذلك ، وكما يقول الحصري ، فانه « لا الدين ، ولا الدولة ، ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الامة الاساسية . كما ان الرقعة الجغرافية ايضا لا يمكن ان تعتبر من المقومات الاساسية . » (٤) والواقع ان ما قدمه الحصري من سرد للمراحل التي مر بها العرب والاسلام هو صحيح الى حد ما ، ولكن التصوير الذي قدمه من حيث ان الاسلام دين وحسب ، لا يفلت من النقد الموضوعي العلمي . ذلك ان

(١) هذا بالاضافة الى ان العرب الذين اعتنقوا الاسلام ابان ظهوره ظل قسم منهم محتفظا بدينه (المسيحي) والذي لم يمنعه ذلك من الاحتفاظ بعروبه .

(٢) الاستاذ ساطع الحصري ، ما هي القومية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

الاسلام لا يمكن ان ينظر الى جانب واحد من جوانبه دون ذكر الجوانب الاخرى ، التي تشكل بمجموعها كلا مترابط الاجزاء . ان التعريف الدقيق للاسلام ، لا يمكن ان يقتصر على الدين شأنه في ذلك شأن المسيحية وعلاقتها بالامم الاوربية .

ان التعريف الدقيق للاسلام ، لا بد وان يتضمن من انه شامل للحياة تتفاعل فيه جوانبه الدينية والاجتماعية والسياسية مع بعضها . فالاسلام في جانبه الاجتماعي هو صورة مثلى للثقافة والقيم العربية التي يشترك فيها العرب جميعا .

اما الاسلام في جانبه الديني ، فهو صورة تاريخية متسلسلة مع المسيحية الى حد بعيد^(١) . ويتجسد أمر ذلك ، في انه لم تظهر بين العرب خلافا ذات مصدر ديني ، اللهم الا ما افعله التبشير والمبشرون الذين لم يكن هدفهم ديني اكثر منه سياسي . ومما يؤيد ذلك ان الاسلام عندما ظهر ، فانه ظهر اول ما ظهر مؤكدا للثقافة العربية ، وموحدا للعرب . وان الاسلام بتسامحه الديني قد برهن للعرب المسيحيين^(٢) انه وراء قيم عربية وانسانية

(١) محمد المبارك ، الامة والعوامل المكونة لها ، دار الفكر ، دمشق ، ص ٨٩-٩٠ .

(٢) يقول احد المفكرين العرب المسيحيين وهو الاستاذ ميشيل عفلق « ان الفكرة القومية المجردة في الغرب منطقيية اذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لان الدين دخل على اوربا من الخارج فهو اجنبي عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقائد الاخروية والاخلاق لم ينزل بلغاتهم القومية ولا افصح عن حاجات بيئتهم ولا امتزج بتاريخهم . في حين ان الاسلام بالنسبة الى العرب ليس عقيدة اخروية ولا هو اخلاق مجردة بل هو اجلي مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم الى الحياة واقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل والنفس بالقدن ، وهو فوق ذلك كله اروع صورة للفتهم واضخم قطعة من تاريخهم القومي ، فعلاقة الاسلام بالعروبة ليست اذا كعلاقة اي دين باية قومية وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الاصيل ، ان الاسلام لهم

يشارك في الايمان بها كل العرب^(١) ، وانه ليس وراء اكرام الناس في طريقة تبدهم . اما قيم الاسلام السياسية فانها لم تتعارض اساسا مع القيم العربية السياسية ، تلك القيم التي يؤمن بها جميع العرب .

ومن هنا يمكن القول ، انه طالما كان للاسلام قوة التأكيد والحفاظ على القيم التي جاءت بها الثقافة العربية ، فانه في ظل هذا المفهوم يرتبط به جميع العرب . واذا كان التاريخ يربط ما بين ابناء القومية الواحدة ، فان الاسلام له الميدان الاكبر في بناء تاريخ العرب^(٢) . ومن هنا يصبح الاسلام من حيث



ثقافة قومية يجب ان يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على المن شيء في عربوتهم . « اقتبس عن ذكرى الرسول العربي ، من قبل انور الجندي ، معالم الفكر العربي المعاصر . ص ٢٢٧ .

(١) يقول د. قسطنطين زريق في هذا الصدد « بانه لا يمكن للقومية الحقبة ان تكون باى حال من الاحوال مناهضة للدين الحق . كما ان الاسلام هو نظام يهم جميع العرب . واكد ان كلا من القومية والدين ينبعان من نفس المصدر . وان القومية لا تقاوم الروحية الدينية وانما تقاوم اولئك الذين يؤمنون بالتعصب ولا يبقون الانسجام . ومثل هؤلاء هم اعداء وحدة العرب . اقتبست من قبل روزنثال (E. I. J. Rosenthal) في كتابه

Islam in the Modern National State

عن الاسلام والقومية العربية لعبدالرحمن البزاز ، ص ص ١٢١-١٢٢ . ويقول الدكتور جميل صيبيا « ٠٠٠ وعندي ان القيم الانسانية التي انطوى عليها الدين الاسلامي هي القومية العربية بعينها فمن لم يؤمن بهذه القيم لم يكن عربيا حقيقيا » . انظر محمد المبارك ، الامة والعوامل المكونة لها ، دار الفكر ، دمشق ، ص ٨٨ .

(٢) يقول محمد المبارك ، الامة والعوامل المكونة لها ، في ص ٨٤ ما نصه : « ان صلة الاسلام بالعرب تاريخيا صلة لا تنفصم . ذلك ان الاسلام هو الذي جمع العرب لاول مرة في تاريخهم في اطار اجتماعي وسياسي واحد . ولم يسبق لهم ان اجتمعوا في ظل فكرة وعقيدة واحدة ونظام واحد قبل ذلك ولا تحت حكم واحد . وهو كذلك حملهم رسالة انسانية رائعة مفتوحة الافاق الى العالم اجمع وبعثهم على تأسيس حضارة لم يسبق لهم ولا لغيرهم تأسيس مثلها » .

انه نظام شامل للحياة ، جزءا اساسيا من حياة العرب جميعا ومن مقومات فكرهم الاجتماعية والسياسية^(١) . وان هذا الجزء الاساسي ، لولاه لذابت لغة العرب ، وذاب بنتيجتها العرب انفسهم امام الاقوام التي عملت جاهدة وطيلة زمن طويل على اذابتهم وصهرهم .

والسؤال الان وبعد كل ما تقدم ، ما هو موقف الفكر العربي من المفكر العالمي المعاصر ؟ وماذا يمكن التنبؤ عنه بالنسبة لمكانته في الغد ؟ وهذا ما سيحاول الفصل الاخير الاجابة عنه .

(١) يقول انور الجندي « الاسلام ... ليس ديننا فحسب ، وانما هو فكر وثقافة وانه لا سبيل الى الفصل بينه وبين اللغة والتاريخ . بل ان هذه اللغة تكاد تكون مرتبطة به ارتباطا جذريا . وكذلك التاريخ فانه من العسير جدا ان يفصل عن اللغة العربية كما لا يمكن ان يفصل التاريخ واللغة عن الاسلام الذي يكاد يكون مادة هذا التاريخ ، وروح هذه اللغة . كما يكاد يكون كتابه (القرآن الكريم) اكبر مصادر اللغة في منطوقها وعلومها . انظر كتابه معالم الفكر العربي المعاصر ، صدر سبق ذكره ، ص ٢٢٦ .

الفصل العاشر

الفكر في حاضره وغده

(الاتجاه السياسي المعاصر)

لقد شهد الفكر السياسي العربي الاسلامي في العصر الحديث ومنذ بدايه القرن التاسع عشر للميلاد (القرن الثالث عشر للهجرة) بالذات يقظة فكرية عملت على بعث الحياة والحركة فيه من بعد سبات فكري دام عدة قرون . ان هذه اليقظة الفكرية واليقظة الفكرية السياسية بالذات تكون ما عرف في تاريخه بالفكر العربي الاسلامي المعاصر . ولم يقف هذا الفكر منذ يقظته عند حد معين او نقطة معينة ، وانما بدأ يمر بتحويلات جديدة اتسمت بالانفتاح على نفسه والانفتاح على الفكر العالمي المعاصر ايضا . ولقد تميز الانفتاح على نفسه والانفتاح على الفكر العالمي المعاصر ايضا . ولقد تميز الانفتاح على النفس ، سيما في الخمسين سنة الاخيرة ، في ابراز الصورة الفكرية الاسلامية بوجه عام والعربية بوجه خاص . ولقد عبرت الصورة الفكرية العربية عن آمال الامة العربية في عصرها الحاضر .

وفي الحقيقة فان الصورة العربية الفكرية الحاضرة قد بدت تتجلى في التخلص من كل مايشوبها من عناصر غريبة - وبعبارة ادق ، في بلورة المفاهيم الفكرية العربية لاجراج الفكر العربي وصورته في ثوبه الاصيل .

ومن مظاهر هذه البلورة التي تناولها الفكر في صورته الحديثة رفضه للافكار التي كانت قد غزته في غفلة من الزمن وارادت تشويه معالمه وابعاده عن خط سيره .

فال معروف ان الفكر العربي بوجه خاص والاسلامي بوجه عام قد علق فيه افكار نسبت اليه خطأ . كما تعطلت فعاليته بسبب العوامل المختلفة التي عملت على

انحصاره • ولقد كان تعطل الفعالية هذه ، ان تسربت اليه افكار هي ليست منه • من ذلك مثلا ، ما علق فيه من مفاهيم اجنبية ازاء الاسلام باعتباره دين وحسب ، وبسلبية الافكار التي يقوم عليها الفكر السياسي العربي والاسلامي وعدم صلاحها لمتطلبات الحاضر •

وهنا لابد من القول مرة اخرى ان الاسلام ليس بدين وحسب ، وانما هو نظام يقوم على فكر وقيم • كما لابد من الاشارة الى السلبية والايجابية في الفكر العربي خاصة وفي الفكر الاسلامي عامة • فلقد اتار بعض المستشرقين والمبشرين المتعصبين ان الفكر العربي الاسلامي سلبي ، وقالوا انه يستند على الدين والخيالات والاوهام التي لا تنسجم وروح العصر الحديث • ومما قالوه بشأن سلبية الفكر العربي الاسلامي ايضا هو انه استبدادي في حين ان روح العصر الحديث تحاكي الشعوب وتجعل منها حاكمة وفق ما تنفق عليه الاغلبية فيها •

وفي الواقع ان الفكر العربي الحاضر الذي يستمد مقوماته الرئيسية من الاسلام ، هو ابعد ما يكون عن السلبية • وان مسألة السلبية هذه التي يثيرها بعض المستشرقين ان هي الا مسألة غريبة عن الفكر العربي والاسلامي ، ولا تمت اليه بصلة قط •

ان مسألتى السلبية والاستبداد والتي حاول بعض المستشرقين من امثال بي.ارنولد (T. Arnold) ودي.بي.ماكدونالد (D.B. Macdonald) ودي.اس.مرجليوث (D.S. Margoliouth) من بين اخرين ، الصاقها بالفكر العربي الاسلامي عن قصد او عن غير قصد لا يحتاج للمتبع الايمان بالحجج الكثيرة لدحضها • ان ما يشير اليه المستشرقون من امثال ارنولد في كتابه الخلافة ، (The Califate) وماكدونالد في كتابه تطور المتولوجية (الدين) الاسلامية (Development of Muslim Theology) ، وغيرهما من

مستشرقين لا تستطيع ان تقف امام احدى مقومات الفكر العربي الاسلامي التي تقول : « وامرهم شورى بينهم » • وكذلك امام القاعدة الاسلامية التي تقول « لا اكراه في الدين » • فالشورى وعدم الاكراه في التحليل الدقيق

هما امران يقفان ضد اية صفة استبدادية وضد الاتوقراطية او حكم الفئرة الواحد . ومن ناحية ثانية فان عملية التشاور في التفكير وفي العمل ، هذه القاعدة الذهبية في الفكر العربي الاسلامي معناها تفضيل رأى الجماعة على رأى الفرد الواحد . ومعناها تفضيل الجماعة الاكثر عددا على الجماعة الاقل عددا^(١) ، وهذا بعينه هو رأى الاغلبية او كما يطلق عليه رأى الكثرة الكاثرة، والتي انكرها على الفكر العربي الاسلامي المستشرق مرجليوت^(٢) .

ومهما يكن من امر فإن بعض المفاهيم الخاطئة التي الصقت بالفكر العربي الاسلامي ، من قبل بعض المستشرقين وايدها بعض المفكرين العرب والمسلمين، بعضهم عن قصد وبعضهم الاخر عن ايمان واخلاص ، والتي لم يكن بالامكان النصدى لها في القرن التاسع عشر نتيجة لضعف الوعي ، نقول ان الحقيقة ، اخذت تظهر اكثر فأكثر ، في القرن الحاضر ، بفضل ازدياد الوعي الذي عمل عليه ظهور مفكرين عرب ومسلمين واجانب كرسوا حياتهم لدراسة الفكر العربي الاسلامي دراسة علمية دقيقة تتسم بالعمق والانصاف .

ان الشيء المهم بالنسبة لبورة المفاهيم وصلقلها وتخليصها مما لصق بها من شوائب الماضي المغرضة ، قد تضمن الغربلة التي شملت تصفية الافكار الحقيقية عن الافكار الشائبة . فلقد شهد القرن الحاضر مفكرون من امثال محمد كرد علي^(٣) ومحمد البهي^(٤) ومحمد المبارك^(٥) وانور الجندى^(٦) ومحمد

(١) فيقول الغزالي بشأن رأى الجماعة « انهم (اي الناس) لو اختلفوا في مبدأ الامور وجب الترجيح بالكثرة » ويقول ايضا الكثرة اقوى من مسالك الترجيح . انظر كتابه الرد على الباطنية ص ٦٢ وص ٦٣ على التوالي .
(٢) انظر D.S. Margoliouth: Mohammedanism ص ٩٤ وكذلك مناقشة د. ضياء الدين الرئيس لرأى مرجليوت في كتابه النظريات السياسية الاسلامية، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٢٢ ، و ص ٢٣٤ .
(٣) انظر بوجه خاص كتابه الاسلام والحضارة العربية الجزء الاول والثاني .

(٤) انظر بوجه خاص كتابه ، الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي .
(٥) انظر كتابه الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية .
(٦) انظر كتابه ، معالم الفكر العربي المعاصر .

ضياء الدين الريس^(١) وغيرهم من الذين تصدوا لكل الافكار التي لصقت خطأ سواء عن قصد او غير قصد ، بالفكر في الاطارين العربي والاسلامى . هذا وان ما هو مهم بالنسبة لهؤلاء المفكرين وامثالهم هو انهم تناولوا بالدقة والتفصيل كل الافكار الخاطئة وبرهنوا بالحجج الدامغة على خطأها . كما ان ما تجب الاشارة اليه ايضا ظهور بعض المفكرين الاجانب ممن عنوا بالاستشراق ، والذين ميزوا عن سابقهم بالانصاف والسعي وراء الحقيقة .

فها نحن نجد مثلا الاستاذ محمد كردعلى يناقش بكل علمية ودقة رأى كارادى فو^(٢) الذى يذهب فيه الى ان « معظم مدينة المسلمين قامت بعناصر غير عربية » بقوله لقد فاته (ويقصد كارادى فو) « ان من دخلوا في الاسلام من الفرس والقبط والسريان والروم وغيرهم درسوا في مدرسة العرب واخذوا لغتهم وثقافتهم ودينهم وعاداتهم . واذا كان ابن سينا والغزالي والبيروني والرازى مثلا اعاجم بأصولهم فهم عرب بتربيتهم وثقافتهم ، واذا كان الجاحظ وابن زهر وابن خلدون عربا بأصولهم وثقافتهم ، فهم لايزيدون شيئا عن تقدم ذكرهم في الغناء والمنزلة ولا ينقصون . وما كان بجزيرة العرب وهي القليلة بسكانها الذين قام منهم اعظم الفاتحين وحملة الشريعة ، ان يخرج منها كل هؤلاء الرجال الذين فتحوا فتوحا تحتاج ادارتها فقط الى عشرات الالوف من الناس ، فما بالك بالعلوم اللازمة لها ؟ ولذلك انصرف العرب وهم اهل الدولة الى سياسة الملك ، وعاونهم الاعاجم في نشر علمهم وثقافتهم . »^(٣)

ثم يخلص الاستاذ محمد كرد على الى القول « وليس من اهل الغرب اليوم امة خالصة بعنصرها » فعند الفرنسيين من هم من اصل بولوني وايطالى وانكليزى والماني ، خلا ما هناك من عناصر اصلية ، والعكس بالعكس عند كل

(١) انظر كتابه ، النظريات السياسية الاسلامية .

(٢) كارادى فو ، المفكرون في الاسلام .

(٣) انظر كتابه الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الاول ، القاهرة

امة ، والانسان ابن تربيته وبيئته على الدوام . « (١) ولم يكتب الاستاذ محمد كرد علي بما تقدم ، وانما يستشهد براء بعض المستشرقين المنصفين ، فيذهب الى رأى كوستاف لوبون الذى يعترف بفضل العرب في الحضارة الانسانية والذى يقول فيه : « كلما تعمق المرء في دراسة المدنية العربية ، تجلت له امور جديدة ، واتسعت الافاق امامه ، وثبت له ان القرون الوسطى لم تعرف الامم القديمة الا بواسطة العرب ، وان جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة ، وان العرب هم الذين قدموا اوربا في المادة والعقل والخلق ، ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه في العلم يثبت له ما من امة انتجت مثل ما انتجوا ولئن كان تأثير العرب بالغرب عظيما ، فإن تأثيرهم في الشرق اعظم . . . ان العرب اول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين . » (٢)

وها نحن نجد ايضا الدكتور محمد ضياء الدين الريس ، يناقش ما وقع فيه بعض المستشرقين المتعصبين من امثال مرجليوث الذى فسر احد مقومات الفكر العربي الاسلامي وهي الشورى بانها (الاستشارة) فقط وليس هناك سلطة يكون الامام مسؤولا امامها ، ذاكرا كيف ان حق الامة في عزل الامام او تقويمه هي مسألة ابعد كثيرا من الاستشارة فقط ، وانها اكثر من ذلك مسألة جوهرية في تحديد العلاقة بين الحاكم والرعية وفي تبيان الحقوق والواجبات (٣) . ويذكر الدكتور الريس ايضا ان هذه الاخطاء الكبيرة وامثالها قد استلقت نظر من جاء من مستشرقين اخرين في العصر الحديث ، من هم ابعد نظرا من امثال المستشرق كب ، الذى وجد نفسه مضطرا لان يقول في مقدمة الطبعة

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) اقتبس من قبل الاستاذ محمد كرد علي في كتابه الاسلام والحضارة العربية ، المصدر السابق ، صص ٥٣-٥٤ عن Gustav Le Bon: La Psychologie Politique

(٣) انظر الدكتور محمد ضياء الدين الريس ، النظريات السياسية الاسلامية ، صص ٣٢٤-٣٢٥ .

الجديدة لكتابه الموسوم بـ « الإسلام » : « ان اكتشاف الانسان لحقائق جديدة تدعوه الى كتابة الموضوع من جديد لا مجرد تغيير وتصحيح (١) » .

ويتقدم مفكر عربي معاصر ثالث ، هو الاستاذ انور الجندى ليقف على المصادر الرئيسية التي عملت على الصاق مفاهيم خاطئة بالفكر العربي الاسلامي ، من جهة ، وليناقش ويبين اراءه ازاءها من جهة اخرى . فهو اولا يحدد هذه المصادر بالمبشرين وبعض المستشرقين والساسة والمفكرين الغربيين المتعصبين وبعض المثقفين العرب والمسلمين ممن اتصلوا ببيئات المستشرقين والمبشرين في الغرب . (٢)

ان اهم ما يعنى به انور الجندى هو ليس المبشرين الذين كشف امرهم وزال نفوذهم في العصر الحاضر ، وليس المستشرقين المتعصبين ، الذين شهد العصر الحاضر من تصدى لهم من مفكرين عرب ومسلمين ومستشرقين متصفين ظهوروا على مسرح هذا العصر ، وانما الذى يعنيه بوجه خاص هو تخليص الفكر العربي الاسلامي من اية شائبة ظلت عالقة به هنا او هناك . ومع يقينه بأن الفكر العربي قد صمد امام كل التحديات التي واجهته بفعل تنبه ابنائه (٣)

H.A.R. Gibb: Mohammadanism, p. 7.

(١) انظر :

وتعليق الدكتور - الرئيس عليه في كتابه النظريات الاسلامية المشار اليه ص ٣٢٥ .

(٢) انور الجندى - الاسلام في معركة الكبرى : في مجلة منبر الاسلام

العدد ١٢ مايو سنة ١٩٦٤ ، ص ١٣٢ .

(٣) يذكر هنا انور الجندى ان مساعى كل من الدكتور محمد حسين هيكل في دراسته لكتاب المستشرق كيب ووجهة الاسلام الذى وصفه هيكل بانه كتاب سياسى مداه بحث ما وصلت اليه اوريا مما يسميه (كب) تقريب الشرق وما يرجى لهذا التفرغ من نجاح ، والدكتور حسين الهراوى في كتابه « المستشرقون والاسلام » والدكتور عمر فروخ والدكتور الخالدى في كتابهما « التبشير والاستعمار » ، والاستاذ مالك بن بنى في كتابه « الصراع الفكري في



ووعيمهم بفكرهم وحضارتهم ، ولاسيما في الوقت الحاضر اكثر من اى وقت مضى ، الا انه يرى ان البلورة الفكرية الكاملة يجب ان تقضى على كل شائبة مهما صغرت ، وهذا هو بالفعل ما يحاول ان يركز عليه في كتابه « الفكر العربي المعاصر » . وتمثل محاولته هذه في غريلة او بالاحرى اسقاط كل الافكار الغربية عن الفكر العربي الاسلامي والتي لا يمكن لها ولا مجال لقبولها في العصر الحاضر . من ذلك مثلا دعوته الى عدم الركون كما كان الحال في الماضي الى تغليب وجهات نظر المستشرقين على غيرهم بشأن الفكر العربي الاسلامي . فلقد ولى الزمن الذي يعتبر رأى المستشرق حجة ، خاصة بعد ان اثبت المفكرون العرب والمسلمون في عصرنا الحاضر الكثير من الاخطاء والمبالغة وعدم الاحاطة دققة بمقاصده الحقيقية وبلغته^(١) العربية التي وقع فيها هؤلاء المستشرقون لاسيما المتعصبون منهم .

ويحاول الاستاذ انور الجندى ان يقدم الدليل الموضوعي بقوله : « تلك صورة بشعة غاية البشاعة ان يعتمد الفكر العربي الاسلامي ودعائه على مراجع المستشرقين^(٢) وآرائهم ونحن نعرف في تأكيد انهم يخطئون مرتين : مرة بالقصور الذاتي في فهم الفكر الاسلامي ، ومرة بالتعصب وموالات النفوذ الاجنبى . ونضيف الى هذا دسائس اليهودية العالمية ، التي تحاول ان تثبت ان لها حقا تاريخيا في فلسطين او تضيف تحريفات مقصودة لبعض جوانب



البلاد المستعمرة » لا يمكن الا وان تحظى التقدير بالنظر لما اسهمت فيه بدور فعال في عملية البلورة الفكرية الحديثة للتصدي لما بقى في الفكر من شوائب عالقة في العصر الحاضر . انظر الثقافة العربية المعاصرة في كتاب معالم الفكر العربي المعاصر ، صص ١٠-٧٧ .

(١) انظر الجندى في كتابه الثقافة العربية المعاصرة ، الملحق بمعالم الفكر العربي المعاصر ، ص ١٨ .

(٢) وهنا يقصد الاستاذ الجندى المستشرقين المتعصبين حيث انه يصنفهم في مقال له في مجلة منبر الاسلام العدد (١٢) ، مايو ١٩٦٤ الى مستشرقين منصفين واخرين متعصبين .

التاريخ والفكر • كما اولى المستشرقون اهتماما كبيرا للمشرق وبلاد العرب
قبيل الاسلام ، ودراسة الحركات المنحرفة من داخل تاريخ الاسلام وفكره ،
والاهتمام بها وابرار الخطوط العامة للفكر الشعبي الذي هاجم مقومات الفكر
الاسلامي واعتباره حقائق اساسية • (١)

وفي الحقيقة فان اهم ناحية يركز عليها الاستاذ انور الجندي هي الانتهاء
ومن غير رجعة الى المقولة الخاطئة وهي ان ما احتواه الفكر العربي الاسلامي
من افكار ونظريات سياسية قد انتقلت اليه من الفكر السياسي اليوناني • ثم
يوضح رأيه فيذكر ان الاوان قد آن الى ان يفهم اي مفكر سواء اكان غربي
او عربي او اسلامي ممن يسير في وجهة الفكر الغربي ، وهي ان للفكر
السياسي العربي الاسلامي جذوره التاريخية وظروفه وقيمه ونظرياته التي جاءت
لتعبر اولا وقبل كل شيء عن شخصيته المتميزة • واذا كان هذا الفكر قد
تفتح على الفكر اليوناني وعلى غيره ، فان ذلك دليل حيويته • كما انه لا
يوجد فكر في العالم قد نقل جله عن غيره • فكيف اذن بالفكر العربي الاسلامي
الذي اقل ما يمكن ان يوصف به بأنه فكر عالمي • ويصل الجندي الى
النتيجة التي تتفق فيها معه وهي ان الحقائق العلمية والتاريخية ، تكشف عن
كل المغالطات التي ارادها بعض المفكرين عن سوء قصد ، وتلك هي ان جذور
الفكر العربي الاسلامي هي اعمق تاريخيا من جذور الفكر اليوناني ، كما
تكشف ان لا مجال بعد ، من انكار فضل الفكر العربي الاسلامي والثقافات
الشرقية القديمة على الفكر اليوناني ، ثم انه لا مجال بعد من انكار اتصال
علماء اليونان ومفكريهم بالشرق الذي كان من اجل العلم والمعرفة من بين اهداف
اخرى ، وهذا ما اجمع عليه المؤرخون والباحثون في عصرنا الحاضر • (٢)

ويأتي مفكر عربي معاصر اخر هو الاستاذ محمد المبارك ليتحدى كل ما
عمل على تشويه الفكر العربي الاسلامي في الماضي ، وليؤكد ان صورة الفكر

(١) الاستاذ انور الجندي - معالم الفكر العربي المعاصر ، ص ١٨٥ •

(٢) المصدر السابق ، ص ص ١٧٥-١٧٦ •

النقية التي يجب ابرازها في يومنا الحاضر ، هي تلك الصورة التي تتكامل فيها جميع زواياها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وان هذه الصورة ستقر على القيم الاخلاقية التي جاءت بها الحضارة العربية الاسلامية والتي جعلت من الفكر العربي الاسلامي فكرا متميزا عن غيره .

ان هذه القيم التي تكونت عبر الزمن الطويل لا يمكن التلاعب بها وقولبتها بصورة او اخرى بحيث تخدم الذين يريدون للفكر العربي التقليد والتشويه . ان عزل الجانب الروحي عن الجانب المادي ليس بالامر الهين ونيس بالامكان اخضاعها لظروف فكر غريب عنها .

ان الصورة النقية هي تلك الصورة التي يتكامل فيها الجانب الروحي مع الجانب المادي . وهي الصورة التي يتكامل فيها الجانب السياسي مع الجانب الاقتصادي ، والجانب الذوقي مع التقاليد الاجتماعية . وهي الصورة التي تستقر فيها كل هذه الجوانب على القيم الاخلاقية العربية الاسلامية والتي تختلف عن غيرها من القيم لانها تنتمي الى ثقافة معينة وتلك هي الثقافة العربية ، ولهذا نجد محمد المبارك يقول ان الاسلام يقيم للانسان « تشريعا تنسجم فيه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ... » [انه] يقيم له نظاما اجتماعيا يكفل له الرقي الانساني المادي والروحي . ويشتمل هذا النظام الاجتماعي على نظام للحكم اساسه الشورى والمساواة والعدالة والمسؤولية ، وعلى نظام اقتصادي مبني على العدالة من جهة وعلى التكافل الاجتماعي من جهة اخرى ... هذا المجتمع الذي ينظم الاسلام جوانب حياته السياسية والاقتصادية والاسرية في سبيل سعادة الانسان وارتقائه يقوم على اسس اعتقادية خلقية تكون جذور نظامه واسس بنائه

« وبذلك يتصل في نظام الاسلام عقيدته وفلسفته واخلاقه وتشريعه الاجتماعي وتؤلف كلها وحدة متكاملة تقابل وحدة الحياة وهذه مزية هامة من مزايا الاسلام تميزه عن غيره من الانظمة الاخرى التي تعالج جانبا واحدا

من جوانب الحياة او تعالجها منفصلة دون ان تنظر اليها على انها وحدة
كاملة (١)

وصفوة القول ان من اولى مظاهر البلورة الحديثة في الفكر العربي
الاسلامى هى تلك الغريلة التي تناولت عزل الافكار الشائبة عن الافكار الاصيلية،
وذلك بغية استكمال شخصيته الفكرية المعاصرة .

ويتميز الفكر السياسى العربى الاسلامى في حاضره في سعيه على بلورة
مفاهيمه السياسية الاصيلية بابرار قيمه المستوحاة من اطاره الفكرى الاول المتمثل
بالقيم والتقاليد العربية القومية التى تتخطى الحواجز المصطنعة وما جاءت به
من مفاهيم اقليمية اقامتها معاول الهدم .

وحينما يقف المحلل على التاريخ الحديث للتطورات الفكرية عامة والسياسية
خاصة التى مر بها الفكر العربى الاسلامى ، يجد ان الفترة الواقعة بين الثلث
الاخير من القرن التاسع عشر والثلث الاول من القرن العشرين قد تمثلت في
بلورة فكرية هدفها وكما مر معنا ، تخلص الفكر من الشوائب التى علقّت فيه
عبر الزمن الطويل والتي شوهت مفاهيمه الحقيقية . فهي اذن بلورة لتنقيته
من الاجسام الغريبة عنه وذلك ليظهر في صورته الصافية الاصيلية .

كما يجد المحلل ، ان الفترة الواقعة منذ بداية الحرب العالمية الثانية وحتى
نهاية الخمسينات من القرن الحالى قد تمثلت بظهور وبروز الفكر العربى في حلته
القومية الحديثة . واذا كانت فترة الخمسينات قد تمثلت في البلورة الفكرية
على اساس قومي ، فان ما بعد تلك الفترة تمثلت في تعميق هذه البلورة . وقد
جاءت الثورات التى قامت في هذه الفترة ابتداء من الثورة في مصر عام ١٩٥٢
ومروا بالثورات العراقية والسورية والجزائرية والليبية والسودانية وغيرها
من الثورات العربية ، نقول لقد جاءت هذه الثورات تجسيدا لتعميق هذه البلورة

(١) انظر محمد المبارك ، الفكر الاسلامى الحديث ، في مواجهة الافكار
الغريبة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، صص ٦٤-٦٣ .

الفكرية العربية القومية • ويقوم محتوى هذه البلورة في وجهه الاول في رفض
النعرات الاقليمية التي اخذت تظهر مع مجيء الاستعمار الغربي الى الوطن
العربي • فظهرت على أثر ذلك الاجزاء الاقليمية السورية والاردنية والعراقية
والفلسطينية وغيرها واسوأ امثلتها ظهور النعرة القومية السورية والتي نادى في
وقتها بقومية سورية تقوم على فكر قومي سوري يضم اقطار الهلال الخصيب •

واذن فان الوجه الثاني من تبلور الفكري قد تمثل في تعميق الفكر العربي
القومي • وقد جاء هذا التعميق متمثلاً في التأكيد على القيم العربية المستمدة من
النراث السياسي والاجتماعي العربي عبر الزمن وعلى القيم الروحية المستمدة
من الاسلام المتفاعل تفاعلاً قومياً مع القيم العربية •

والمواقع ان التأكيد على قيم الثقافة العربية السياسية جنباً الى جنب مع القيم
السياسية الاسلامية المتفاعلة معها ، قد جاء خطوة تالية لعملية الغرلة الفكرية
التي هدفت لتخليص الفكر العربي الاسلامي من الشوائب التي الصقت به •

هذا وان اية خلاصة يمكن التوصل اليها بصدد هذا المظهر من مظاهر
البلورة الفكرية في الفكر العربي في حاضره لا تستطيع ان تغفل عن ذكر الحقيقة
وهي ان هذه البلورة ظلت سائرة في طريقها المرسوم على الرغم من ظهور
بعض العقبات التي اعترت هذه الطريق • وليس ذلك بالمستغرب على اى محلل
متعمق للفكر العربي ، خاصة حينما يعلم ان الفكر يمثل ضمير الامة وحياتها • وان
فهم الحياة الحقيقية يبدأ من فهم جذورها ونموها والتطورات والظروف التي
مرت بها • كما ان فهم الحياة عبر الزمن الطويل هو الذي يساعد على فهم
القيم التي قامت وتقوم عليها تلك الحياة • وما النظريات التي تظهر الا المعنى
المعبر بصورة او اخرى عن تلك القيم • ثم ان النظريات السياسية ما هي الا
المعنى المعبر عن القيم السياسية •

ولقد ادى موضوع تحرى هذه القيم السياسية وموازنتها ومراجعتها في
ضوء روح العصر الحاضر الى الاعتزاز بها ، سيما تلك القيم التي تتحدث عن

مركز الانسان كفرد وصلته بجماعته • ولقد ظهر هذا الاعتزاز بالقواعد والنظريات السياسية العربية بالنظر لما احتوته من ابعاد وافاق ، لم تستطع الاراء التي قدمها الفكر السياسي العالمي المعاصر من تحديها • ومن هذه القواعد والنظريات نظرية العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية ، والقاعدة التي تركز عليها والتي تتمثل بالكفالة او التكافل الاجتماعي •

ولقد تجلت هذه الابعاد في العمق الفكري والاثار التي لم تبرهن على قدرة انسجامها مع روح الحياة الحاضرة للامة فقط ، وانما برهانها قدرتها على محاكاة لا بل تخطي احدث النظريات والقواعد السياسية التي جاء بها الفكر العالمي المعاصر •

فكما هو معلوم ان الفكر الغربي الذي بسط نفوذه في اصقاع واسعة من العالم ، قد اصبح يحكم الامر الواقع الفكر العالمي المعاصر • كما ان الحضارة العالمية الحديثة - التي هي الاخرى انعكاس مكبر للحضارة الاوربية - قد قامت على فلسفة تستمد مقوماتها من هذا الفكر العالمي المعاصر الذي نحن بصدده والذي له اراؤه في الانسان والكون والحياة • وليس يخاف على كل متبع للفكر العالمي المعاصر وللحضارة الحديثة ، انها قد جاءت بأفكار علمية وبوسائل لتجسيدها الهدف منها الاخذ بيد الانسان نحو التقدم والسعادة • وان الافكار ووسائلها التي جاءت بها هذه الحضارة قد حققت بالفعل تقدما في ميادين العلم والسياسة والاجتماع والصناعة والاختراع • وكل هذه الامور لا مجال لانكارها • الا ان الفكر العالمي المعاصر وحضارته التي جاءت تجسيدها لاكاره ، قد لاقت اكثر ما لاقت صعوبة ايجاد التوازن بين مختلف جوانب حياة الانسان ، الذي هو هدف كل الحضارات ، في القديم والحديث ، والذي يراد له السعادة والطمأنينة والاستقرار • ولقد بدا الاختلال في التوازن في صعوبة التوفيق بين حياة الفرد وبين حياة الجماعة • كما بدا هذا الاختلال ايضا في صعوبة التوفيق بين جانب حياة الانسان المادية وبين جانبها الروحي • والذي نتج من كل ذلك ان نظريات متضاربة في العلم والسياسة والاجتماع قد نشأت • وقد تمثل هذا التضارب في تطرف

بعض هذه النظريات • فهناك نظريات تمثل التطرف الى اليمين كالنظرية الديمقراطية - الرأسمالية - التي رأيت ان الاساس في كل فلسفة اقتصادية وسياسية متقدمة ينبثق من حرية الفرد التي لا يجب ان يقف في طريقها عائق ، وان اى تدخل في حياة الفرد وحرية السياسة والاقتصادية يجب ان يكون وفي ظل الضرورات القصوى ، محددًا بحد ادنى لا يجب ان يتخطاه • كما ظهر الى جانب ذلك نظريات تمثل التطرف في اقصى اليسار التي ترى ان التقدم يجب ان يقاس من زاوية حرية ومصلحة الجماعة • وقد تمثلت هذه النظريات بالنظرية الديمقراطية - الاشتراكية والنظريات الفرعية اليسارية المتطرفة التي انبثقت منها •

ومن جهة اخرى ، فقد ظهرت صعوبة التوفيق بين جوانب حياة الانسان المادية والروحية • ولقد نجم عن ذلك ، الايغال في جانب الحياة المادية وعلى حساب الحياة الروحية • فلقد ادت التفسيرات العقلية والمذهب العقلي الى التمسك بكل دليل مادي تجريبي ، والى انكار كل شيء غير مادي ، بحجة انه لا يمكن اخضاعه الى التجربة ، وبالتالي فلا يمكن حسه • ولقد ادت هذه النظرة بمفكرى الغرب من امثال دارون وفرويد وماركس ودوركهيم وسارتر الى تطبيق نظريات علم الحيوان على الانسان^(١) • ولقد رافق هذه النظريات افكار جاءت تقول ان « الانسان حيوان ، ابن المصادفة ، وانه لا غاية لوجوده ، ولا هدف ، ولذلك فلا معنى للحياة الانسانية ، وان الحياة تخبط خبط عشواء في تطورها بما في ذلك الانسان ، وان الحياة باطل ، ليس فيها الا المتاع والجنس ، وقد زاد من تعميق هذا الرأي ، حربان علميتان كبيرتان اكلت الملايين مما دفع الفكر الغربي الى الدعوة الى حرية العمل واطلاق الحركة والتصرف ، دون قيد من دين او ايمان بآله »^(٢)

(١) معالم الفكر العربي المعاصر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٦ •

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٧ •

ان هذه النظرة وهذا التقسيم المادى للانجاز الانساني بعينه قد ادى الى الاختلال بين الجانب المادى والجانب الروحي . فبينما اصاب الجانب المادى التركيز والنمو فانه قد اصاب الجانب الروحي الضمور . ومما ساعد على كل ذلك بعض المفكرين الغربيين من امثال دارون وفرويد ونيشه وماركس وهاكسلى ودور كهايم . فلقد جاء دور كهايم ليقدم مذهبه الذى يقول « ان الفرد لا قيمة له ولا معنى بالنسبة للحرية الفردية وان القيم كلها للمجتمع الذى يخلق الاديان والعقائد والاداب والقيم . وان الدين والزواج والاسرة ليست نزعات فطرية في الانسان ، وان القواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها . » (١) والذى يظهر ان دور كهايم كان قد « اعتمد في مذهبه على الماركسية والداروينية معا ونقل ارائهما في مباحث الاقتصاد والعلم الى مباحث الاجتماع والاخلاق ، وبخلاصه رأي « نيشه » في نقض الديانات التي تقول بالرحمة والتعاون والاخاء البشري وحماية الضعيف . » (٢)

وهكذا تكونت القيم والاسس التي يقوم عليها الفكر الغربي . ومن ابرز هذه الاسس اتخاذ العقل الانساني القائم على العلم التجريبي قاعدا لتقييم الانسان ، دونما التأثير بالاشياء التي تصدر من خارج العقل « كالضمير او الروح مثلا . » (٣) وهذا يعني « تنحية القيم الروحية تماما ، لانها بحكم العلم التجريبي من الامور غير الملموسة . » (٤) وتأسيسا على هذه القاعدة بنيت قاعدة اخرى تقول « ان الاخلاق ليست قيمة ولا ذاتية ولا ثابتة ، وانما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد فيه وان المجتمع هو الاصل في كل الظواهر الاجتماعية وليس الانسان . » (٥)

-
- (١) المصدر السابق ، ص ٦٤
 - (٢) المصدر السابق نفسه
 - (٣) المصدر السابق ، ص ٦٦
 - (٤) المصدر السابق نفسه
 - (٥) المصدر السابق ، ص ٦٧

والذى يعنينا بوجه خاص من كل هذه المفاهيم ، هي المفاهيم السياسية الغربية التى اصبحت نتيجة قوة الغرب فى اسيا وافريقيا وغيرها مادة الفكر العالمى المعاصر . ومن هذه المفاهيم ما جاءت به النظريات الديمقراطية - الرأسمالية والنظريات الديمقراطية الاشتراكية من آراء ومن حجج تبرهن على قوتها وصحتها . ومما حملته هذه النظريات من آراء ، وكما مر معنا ، مكانة الفرد وحرية وعلاقتها بالدولة والمجتمع والدين والاخلاق من جهة ومفاهيم العدالة والسعادة العامة على صعيد المجتمع من جهة اخرى .

ومما يجدر الوقوف عليه ان نظريات الفكر العالمى المعاصر قد ظهر فيها التضاربات والتناقضات والتفسيرات الخاصة مما اوقعتها فى معضلات وأزمات عكست بالتالى على ما عرف بأزمة الفكر العالمى المعاصر . ومن هذه النظريات ما صاحب مفاهيم العدالة والحرية من تفسيرات خاصة وغامضة . فلقد جاءت الحرية فى ظل الفكر والحضارة العالمية التى يحملها على اكتفاهم الغربيون ، جاءت لتعطي حرية من دون حدود ودون قيود ومثل هذه الحرية قد اصبحت اقتصاديا حرية الاستقلال ، واجتماعيا حرية اطلاق الفرائز . « اما على الصعيد السياسى فكانت حرية التسلط وحرية النفوذ السياسى وما صاحبها من حرية الاحتلال العسكرى . وهكذا انتهت الحرية لتكون حرية منسجمة كل الانسجام مع مفاهيم الفكر المادى ، الذى لا يتقيد بضوابط الضمير وبضوابط الاخلاق التى جاءت بها التعاليم الانسانية للحضارات التى ترى فى تقييد الحرية اخلاقيا اساسا لنجاح الحرية المادية . اما مفاهيم العدالة ، فقد جاء الفكر الغربى والحضارة الغربية لتفسرها تفسيراً مقتضياً ، ليعنى اقتصارها على الشعوب الاوربية دون غيرها .

م انها عدالة تسعى لترفيه الشعوب الاوربية ورفع مستواها المعيشى باستخدام ما وصل اليه العلم والعقل الاوربى فى تقدم حضارى مادى .

اما بالنسبة لغير الشعوب الاوربية فانها جاءت لتعطي معنى رسالة الرجل الاوربى الابيض المتمدن : المتمكن بعلمه واختراعاته وقدرته فى الصناعة وقوته فى النفوذ من ان يعمل ما عليه من واجب فى تمدين الشعوب الاسيوية

والافريقية • وان هذا الواجب يتجلى في الاحتفاظ بسيطرته وسلطانه في توجيه الشعوب غير الاوربية - بالنظر لما لها من قدرة وخصائص قيادية - في جميع مناحي حياتها السياسية والاقتصادية والتربوية والفكرية • وقد كانت النتيجة التي ادت اليها مثل هذه الافكار اصطدامها مع القيم الانسانية التي جاءت بها الحضارات التي سبقت الحضارة الغربية ، ووقوعها في ازيمات فكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية ونفسية والتي لا تزال تعاني منها حتى اليوم •

وازاء مثل هذه المفاهيم الفكرية التي وقف عليها الفكر العربي الاسلامي وهو يراجع نفسه ويبلور افكاره وفقا لتطورات العصور ان وجد نفسه اكثر سمولا وابعدا افقا ، مما جعل ذووه يزدادون اعتزازا بقيمتهم وبنظرياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية • فلقد وجدوا ان قيسم فكرهم ونظرياتهم تنطلق من قواعد تتسم بالمساواة وبالاعتزاز بالانسان ايا كان ، ووجدوا ان فكرهم هو فكر معتدل وليس بمتعصب او متطرف • وقد تمثل هذا الاعتدال في نظرياته المختلفة التي تنطلق من نظرية أم ، وتلك هي نظرية العدالة الاجتماعية العربية الاسلامية • ويتجلى الاعتدال في هذه النظرية ، كون مقوماتها الرئيسية (الحرية ، المساواة ، المسؤولية ، والشورى) تتسم بالتكامل والتوازن والروح الانسانية غيرالاستعلائية وغير المتعصبة ازاء الغير • والاكثر من ذلك ان الوسائل التي يستخدمها في الوصول الى الاهداف هي وسائل لا تقوم لخدمة جهة او جانب على حساب الجهة او الجانب الاخر ، سواء اكانت الجهة تمثل في الانسان نفسه أو في الاشياء من حوله • وهذه الوسائل التي نحن بصددنا تلقي كلها في محور وذلك هو « التكافل الاجتماعي » •

فالحرية مثلا ، في ظل مفاهيم الفكر العربي الاسلامي هي غيرها في ظل مفاهيم الفكر الغربي او الفكر العالمي المعاصر • انها بكلمات مبسطة حرية الفرد والجماعة ، في آن واحد ، وحرية مقيدة بالقيم الاخلاقية والفضائل التي تمنع استغلال الانسان لآخيه الانسان ، حرية تنبع من ضمير الامة ومثلها العليا ، حرية تقوم على العقل والعلم ولها وجهة واحدة وتلك هي الخير والسعاد

الانسان • ومثل هذه المفاهيم العربية الاسلامية في الحرية تناقض كل التناقض مع مفاهيم الفكر الغربي التي تبيح للحرية ان تسلك مسلك الاستغلال والسيطرة والاذلال ، التي تجعل من بعض بني الانسان سعداء على حساب اذلال الاخرين • ان موقف الفكر العربي الاسلامي من مثل هذه المفاهيم في الحرية هو موقف مخالف لها طالما انها تعارض مع المثل الخلقية والانسانية التي ينطلق منها • ان مثل هذه المفاهيم التي تعطي الحرية للاوربي وتسلط على الغير وتحرمه منها هي حرية لا تؤدي الى التكافل بين الانسان والانسان على صعيد الشعوب • ذلك لان قاعدة التكافل بين الشعوب لا تقوم الا على المحبة والاخاء والحرية والعدل • ثم ان ممارسة الحرية من قبل البعض وحرمان البعض الاخر منها ، لا يمكن ان يفسر الا بالظلم وهو ابعد ما يكون عن العدل والعدالة •

واذا كانت مفاهيم الفكر العربي الاسلامي تختلف مع التفسير الغربي في مفهوم الحرية ، فانها تختلف كذلك مع مفهوم الفكر الغربي في المساواة • ويتجلى هذا الاختلاف في ان المساواة التي هي سمة اساسية من سمات الفكر العربي الاسلامي هي ليست كذلك في الفكر الغربي الذي يفضل جنسه الابيض على غيره من الاجناس مما يجعله ان يكون فكرا متعصبا بخلاف نظرة الفكر العربي الاسلامي التي تجعل منه ان يكون فكرا انسانيا • ان هذه الروح الانسانية في الفكر العربي الاسلامي بعينها هي التي عملت كقوة دافعة الى مساواة العرب بغير العرب ، وهي التي مكنتهم من تحقيق انجازات حضارية رائعة لايزال التاريخ الانساني يشهد بها •

واما بالنسبة للمسؤولية باعتبارها اساس رصين لتحقيق العدالة الاجتماعية ، فان الحقائق التي يقوم عليها الفكر العربي الاسلامي تكشف انها مسؤولية جميع افراد المجتمع ، لا مسؤولية طبقة دون طبقة ، كما هي ليست مسؤولية فرد دون الجماعة ، او مسؤولية الجماعة دون الفرد ، كما عبرت عنه بعض نظريات الفكر الغربي •

هذا وان أهم ما يعني به الفكر العربي الاسلامي فيما يخص بالمسؤولية هو ان الفرد والجماعة يتعاونان على صعيد واحد من المسؤولية وذلك بغية الوصول الى سعادة وطمأنينة كليهما . وان مثل هذا يتم بالتآلف والمحبة وليس بالصراع الذي آمنت به بعض نظريات الفكر العالمي المعاصر . وهذا التآلف يقوم بان يكفل الفرد حقوق الجماعة وبان يكفل المجموع حقوق الافراد بصورة تقوم على التوازن والتعادل والانصاف والاعتدال ، التي هي امور اساسية في تحقيق العدالة الاجتماعية في المجتمعات .

ان هذا التكافؤ والتوازن بين الفرد والفرد وبين الفرد والجماعة والجماعة والجماعة ينقلنا الى المقوم الرابع من مقومات العدالة الاجتماعية في الفكر العربي الاسلامي وذلك هو مبدأ الشورى القائم على تبادل الرأي ووجهات النظر والباب المفتوح بين الاطراف جميعا . وفي الحقيقة فان عملية الشورى تؤدي في حصيلتها الى تغليب رأي الجماعة ، وتمنع في الوقت عينه اي استئثار بالرأي او بالسلطة . ومثل هذه المفاهيم تتخطى كل النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة التي جاء بها الفكر الغربي المعاصر . ان رأي الجماعة المتفردة الذي اجتهدت فيه بعض النظريات السياسية الغربية ، هو ابعد ما يكون عن مفاهيم الفكر العربي الاسلامي في المسؤولية . ذلك ان المسؤولية الحقيقية هي تلك المسؤولية التي تعطي كل كنف يستطيع تحمل المسؤولية حقه في اشارة وفقا لقاعدة « فوق كل ذي علم علم عليم » ووفقا لقاعدة « الرجل الصحيح في المكان الصحيح » .

اما اذا كانت المسؤولية محصورة بالبعض دون البعض الاخر ، او مسؤولية صاحب النفوذ الذي جاء نتيجة الضغط والاكراه او الرشوة او الاغراء بالمسال وبغيره فهي مسؤولية بعيدة كل البعد عن الشعب وجماهيره الحقيقيين .

ومن هنا كانت مراجعة الفكر العربي الاسلامي لمفاهيمه في ضوء ما حصل من تطورات فكرية في العصر الحديث قد اوصلت ابناء المفكرين الى ان يتقوا تمام الثقة ان ما لديهم من قيم فكرية وحضارية تضاهي لا بل تتخطى احداث ما جاء به الفكر العالمي المعاصر . على ان مثل هذه الثقة لم تمنع من التفتح على كل ما هو

ملائم ومسجّم مع مفاهيمه وعلى رفض كل ما لا يلائمه ويتعارض مع مفاهيمه
ويمه • ولا غرابة في ذلك طالما يعلم الواقف على حقيقته من انه فكر انساني
غير متعصب •

هذا وان الاستعراض العام لوجه تفتح الفكر العربي الاسلامي الاساسية
في ضوء ما تقدم ، يكشف انه قد تفتح على امهات نظريات العصر ، سيما
النظرية الديمقراطية والنظرية الاشتراكية •

وبقدر ما للنظرية الرئيسية في الفكر المعاصر والتمثلة بالنظرية الديمقراطية
احديته من تفاعل بينها وبين مفاهيم الفكر العربي الاسلامي ، فانه اذ أقر مفاهيم
الحرية بالنسبة للفرد وللمجموع وحقوق الشعب حكم نفسه من حيث المبدأ -
كونها تتفق ومفاهيمه الرئيسية في الحرية وكرامة الانسان وصوت الجماعة -
الا انه اختلف معها في حصر الحرية وتقييدها بجنس دون جنس او لجزء
من الشعب على حساب بقية الشعب • كما اختلف معها كذلك في حرية الشعوب
الغريبة باستغلالها الشعوب الاخرى ومنها الشعب العربي • وبعبارة ادق ، فان
الفكر العربي الاسلامي اذا كان قد أقر جميع الجوانب الايجابية في الديمقراطية
فانه قد اختلف معها في جوانبها السلبية التي تفتقد فيها المساواة الاجتماعية او
الحرية الاجتماعية وهو ما يعرف بالديمقراطية الاجتماعية •

كما تفتح الفكر العربي الاسلامي على احدث نظريات العصر وهي النظرية
الاشتراكية ، فتفاعل معها ، وكان التفاعل ايجابيا في كل ما يعمل على تحقيق
الديمقراطية الاجتماعية والمساواة الهادفة لاسعاد الانسان، وفي محاربة الرأسمالية
والامبريالية العالمية المستغلة - الا انه تخطاها في كونه كان ومازال يؤكد على
التوازن ما بين الجوانب الروحية والجوانب المادية - وعلى التوازن ما بين الفرد
والمجتمع الذي يكفل فيه الفرد المجموع ويكفل المجموع الفرد ، بحيث لا
يستغل طرف الطرف الاخر • وهذه سمات اساسية واصيلة من سمات الفكر
العربي الاسلامي ، ومن سمات امهات نظرياته وفي مقدمتها نظرية العدالة
الاجتماعية • هذا وان هذه النظرية التي جاءت الاشارة اليها في اكثر من مكان

في هذا البحث ، هي نظرية فريدة لم تستطع اية نظرية حديثة ان تصل الى ابعادها ومحتواها . فاذ هي تؤكد على فلسفة التوازن ما بين الفرد والمجموع بحيث يؤدي الى سعادة كليهما معا وفي وقت واحد ، وهو ما عجزت عنه الديمقراطية والاشتراكية ، فانها في الوقت عينه تقيم هذا التوازن ما بين حياة الانسان المادية وحياته الروحية الانسانية . وهي تفسر كل هذا في ان تقدم وسعادة الانسان المعيشية المادية لا يمكن ان يستمر الا اذا قام على وفاق وتوازن ذاتي مع الضوابط الخلقية والروحية ، التي تستمد قوتها من القيم العربية والاسلامية الانسانية . وهذا يعني ان الفكر العربي الاسلامي في جانبه السياسي يربط ما بين العمل السياسي والعمل الخلقى من جهة ، كما يعني ان الفكر العربي الاسلامي يتصل اتصالا وثيقا بالعقيدة الاسلامية ، من جهة اخرى . وهذا ما يعده ان يكون فكرا الحدايا . ثم ان هذا التوازن بين الفرد والمجموع يتم عن طريق قاعدة التكافل الاجتماعي الذاتية الامر الذي يؤدي الى التآلف والتماسك في المجتمع الواحد . وبعبارة ادق ان الفكر العربي الاسلامي في حقيقته يقوم على التآلف وليس على الصراع الذي جاءت به بعض النظريات الاشتراكية المتطرفة . ذلك لانه يرى ان سبيل التقدم الافضل الى ذلك هو اقامة مجتمع العدالة الاجتماعية حيث يسود العدل والانصاف بين سائر الاطراف ، الامر الذي لا يسمح بقيام الاستغلال وبالتالي ابعاد الظلم . وبالإضافة فان الفكر العربي الاسلامي ينطلق من الفكرة التي تقول ان الانسان المزود بالعقل والفضائل الخلقية التي يرفعه على سائر المخلوقات الاخرى ، خليق به ان يكون سلوكه وتفكيره بعيدا عن الصراع والصدام والانتقام ، لان كل ذلك سمة من سمات عالم الحيوان المتوحش وليس سمة من سمات عالم الانسان المتمدن .

ان هذه الاتجاهات الفكرية في الفكر العربي الاسلامي قد جعلت منه ان يكون بعيدا عن كل فكر متطرف ، وقريبا من كل فكر معتدل ومتوازن . وعلى هذا النحو فانه عندما تفتح على الافكار الاشتراكية المعاصرة ، فانه تفتح على الافكار

الاشتراكية المعاصرة المعتدلة • وقد ادى به تفتح هذا مع الافكار الاشتراكية المعاصرة الى ان يخرج بما عرف بالاشتراكية العربية او بالعدالة الاشتراكية العربية (١) •

وخلاصة لما تقدم فان الفكر العربي الاسلامي عامة والفكر السياسي العربي الاسلامي خاصة ، يقف في حاضره مع الافكار السياسية التقدمية التي تنادي بالمساواة والعدالة الاجتماعية ومقاومة السيطرة والاستغلال وفي مقدمتها الاستعمار بوجهه القديم والحديث •

والسؤال الذي يثير نفسه الان هو ماذا عن الفكر العربي الاسلامي في القدي ونلاجه على هذا السؤال فان بالامكان القول ، ان اي تطلع الى الفكر العربي في الغد لا يمكن له انكار الحقيقة وهي ان القواعد الرصينة التي جاء بها الفكر العربي الاسلامي والتي تقوم على اسعاد الفرد والمجتمع معا وفي وقت واحد وعلى قدم المساواة لاشك انها ستمكنه من ان يلعب الدور ثانية في الاخذ بيد الانسان نحو السعادة والرفاه لاقامة عالم افضل يستطيع ان يتغلب على ما يعاناه الانسان اليوم من تناقضات وازمات خلقية وسياسية وفكرية •

فلم يعد سرا القول ان الفكر العالمي وحضارته المعاصرة تعاني من امراض خطيرة ، اصبح من الضروري علاجها قبل فوات الاوان • ومن اول هذه الامراض الفكرية والحضارية ••• صعوبة التوفيق بين الفردية والجماعية وصعوبة ايجاد توازن وتوفيق ما بين جوانب الحياة المادية وجوانبها الروحية • ولقد وصف هذه الازمة الخطيرة الناجمة من صعوبة توجيه العالم المادي نحو خير الانسانية وتفادي الحروب احد مفكريها وهو البرت شفايتزر في كتابه « فلسفة الحضارة » بقوله: « ان تقدم الحضارة المادي اكبر بكثير من تقدمها الروحي ، قد اخل بتوازنها • فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفها على نحو لم يسبق له مثيل قد احدثت ثورة في العلاقات بين الافراد بعضهم البعض وبين الجماعات والدول

(١) ان الترجمة الحرفية لكلمة "Socialism" هي الاجتماعية وليس الاشتراكية •

والواقع ان معارفنا قد اثرت ، وان قوتنا قد ازدادت الى حد لم يكن في وسع احد ان يتخيله . نحن نغالي في تقدير انجازاتها المادية ولا نقدر اهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره . ان الحضارة التي لا تنمو الا في النواحي المادية دون ان يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح ، هي اشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستمضي عليها . لك ان الطابع الجوهرى للحضارة لا يتحدد بانجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الافراد بالمثل العليا لكمال الانسان وتحسين الاحوال المادية والسياسية للشعوب وللانسانية في مجموعها . وليس العنصر الحاكم في تقديم الحضارة ما انجزته من اعمال مادية بل يتوقف مصيرها كون الفكر سيطر على الاحداث او لا يسيطر^(١) ، وينفق الدوس هكسلي مع شفايتزر حيث يقول : « ان العالم الان يشبه قبيلة لعبة الشيطان ، ويعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد والمادية البحتة التي تجرد الانسان من كل مشاعر الانسان بلا حب وتعاطف . » (٢)

وفي سبيل تقديم العلاج لامراض الحضارة المعاصرة ، يقول هكسلي : « ان المثل العليا حقيقة واجبة لاشك فيها لانها ضرورية للعالم وهي الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفلسفة المادية التي اعجب بها هواة الملذات الباحثون على مسرات الحياة بأنواعها » (٣)

اما هارولد لاسكي فانه زان كان يتفق مع زملائه في الامراض التي تعاني منها الحضارة العالمية المعاصرة ، الا انه يؤكد بوجه خاص ان مصدر الازمة تكمن في كونها فقدت الثقة بنفسها بحيث لم تعد قادرة على التغلب على عالم الاطماع

(١) البرت شفايتزر - فلسفة الحضارة ، اقتبس من قبل انور الجندي في كتابه معالم الفكر العربي المعاصر ، ص ١٣٨ .
 (٢) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
 (٣) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

والخصومات • ويعبر عن فقدان الثقة هذه بقوله : « لقد فقدت الحضارة ثققتها في نفسها وإيمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة وعجزت عن تحقيق الرفاه بين عالم المثل الأعلى المتمثل في كتابات الأسانين وبين حقائق هذا الواقع الحافل باهوائه واطماعه وخصوماته • ان الحضارة تمر بمحنة من محن الشك والخوف والالحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الاخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير في حياة الفرد وحياة الجماعة • » (١)

وازاء ما تقدم فان اية نظرة موضوعية لكل من الفكر العالمي المعاصر والفكر العربي الاسلامي ، لا يمكن لها ان تغفل عن ذكر الحقيقة التي تقول ان منجزات الفكر العالمي التي تجسدت في اقامة الحضارة الحديثة والتي لا يمكن نكرانها في ميادين العلم والصناعة وفي الميادين المادية الاخرى ، قد سببت تغيرا هائلا في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لحياة الافراد والجماعات في المجتمعات المختلفة نتج عنه رجحان كفة الماديات دون الروحيات الامر سبب اختلالا في التوازن وبالتالي الى حدوث الازمات •

وليس من شك ، وكما يرى الكثير من مفكرى الشرق والغرب ، ان حاجة الانسان اليوم اشد من أى وقت مضى لتصحيح هذا الاختلال واعادة التوازن • ومن المعلوم ان الطريق الافضل لاعادة هذا التوازن لا يمكن ان يتم الا بقيام فكر يستطيع ان يوازن بين جوانب حياة الانسان المختلفة ، بحيث يؤدي الى فلسفة شاملة للكون والانسان تتكامل فيها الاجزاء المختلفة •

ولعل اول معضلة بحاجة الى الحل هي المعضلة المتمثلة بالحاجة الى توجيه العلم والتقدم نحو الخير في ظل فكر اجتماعي وسياسي يتقيد بقيود الاخلاق والفضيلة • ولعل ما في الفكر العربي الاسلامي من القيم الروحية والفكرية ما يساعد على توجيه الفكر المادى وجهة انسانية ، وجهة يقضى او يحد على الأقل من التسلط

(١) المصدر السابق نفسه •

والتنافس والتخاضم والنفوذ الذي يسود عالم اليوم • وليس هذا بغريب خاصة حينما نعلم ان الفكر والحضارة العربية الاسلامية كان لهما طول الباع في كلا السبيلين العلمي والانساني في بناء المدينة والحضارة الحديثة التي وقعت في ازماتها الحاضرة •

ومن هنا يصبح على الفكر العربي الاسلامي نظرا لما يضمه من قيم انسانية ، مسؤولية كبيرة في بناء فكر عالمي انساني خير يخدم علمه الخير وتجري سياسته والافكار المحركة لها وجهة البناء والاستقرار العالمي • الا ان على الفكر العربي الاسلامي من قبل ذلك ان يتبوأ مكانه اللائق ، بالظهور على حقيقته بتخليص نفسه نهائيا من كل ما بقى امامه من عوائق مصطنعة • وهذا يتوقف دونما شك على ابنائه المفكرين في ان يظهروا حقيقته هذه ، لكي يتمكن من ان يلعب دوره في بناء عالم لقد انساني سعيد كما لعب دوره المشهود في عالم الامس •

مصادر الكتاب المهمة

الكتب باللغة العربية :

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - ابو الحسناء ، عباس - تممة الروض النظر ، شرح الفقه الكبير ، القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .
- ٣ - ابن الفراء ، ابي على الحسين بن محمد - رسل الملوك ومن صلح للرسالة او السفارة ، تحقيق المنجد ، د . صلاح الدين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٤ - ابن رشد ، ابو الوليد محمد - تهافت التهافت ، طبعة الاب بويج ، بيروت ، ١٩٣٠ .
- ٥ - ابن خلدون ، عبدالرحمن - المقدمة (طبعة بولاق) .
- ٦ - ابن الجوزي ، عبدالرحمن - المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدرآباد ، ١٣٥٧ هـ .
- ٧ - ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا - الفخرى في الاداب السلطانية ، والدول الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٢٣ .
- ٨ - ابن تيمية ، تقي الدين - السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية (تحقيق سامي النشار واحمد زكسي عطية) - دار الكتاب العربي ، القاهرة ط ٢ ، ١٩٥١ .
- ٩ - الألوسي ، محمود شكري - بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب (تحقيق محمد بهجت الأثرى) ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٩٢٥ .
- ١٠ - الانصاري ، الامام أبو يوسف - الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٢٥ .
- ١١ - البزاز ، عبدالرحمن - من روح الاسلام ، مطبعة العائني ، بغداد ، ١٩٥٩ .

- ١٢- ابو زهرة ، الشيخ محمد - التكافل الاجتماعي في الاسلام ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة - ١٩٦٤ .
- ١٣- ابو زهرة ، الشيخ محمد - تاريخ المذاهب الاسلامية ، ج١ - دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ١٤- ابو زهرة ، الشيخ محمد - العلاقات الدولية في الاسلام ، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ١٥- البهي - د. محمد - الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٥٩ .
- ١٦- التوخي ، ابو علي - نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، دمشق ، ١٩٣٠ .
- ١٧- الجلبي د. حسن - القانون الدولي العام ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٦٤ .
- ١٨- الجندى ، انور - معالم الفكر العربي المعاصر ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٦١ .
- ١٩- الجاحظ ، التاج في اخلاق الملوك ، طبع باشراف احمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩١٤ .
- ٢٠- الحصرى ، ساطع - البلاد العربية والدولة العثمانية ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٢١- الحصرى ، ساطع - محاضرات في نشوء الفكرة القومية ، دار العلم للملايين ، بيروت ط ٣ ، ١٩٥٦ .
- ٢٢- الحصرى ، ساطع - دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٢٣- الحصرى ، ساطع - ماهي القومية ؟ دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٩ .
- ٢٤- الحيدر آبادي ، د. محمد حميد الله - الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الرشيدة ، القاهرة ، ١٩٤١ .

- ٢٥- الخطيب ، عبدالكريم - الخلافة والامامة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،
١٩٦٣ .
- ٢٦- الدينورى ، الامام لقيه ابن قتيبة - الامامة والسياسة ، الجزء الاول ،
الطبعة الثالثة ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٢٧- الدورى ، د. عبدالعزيز - النظم الاسلامية ، مطبعة نجيب ، بغداد ١٩٥٠ .
- ٢٨- الرافعي ، مصطفى صادق - اعجاز القرآن ، ط ٦ ، مطبعة الاستقامة
القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٢٩- الرزاز ، منيف و (آخرون) - دراسات في القومية ، دار الطليعة
للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- ٣٠- الريس ، محمد ضياء الدين - النظريات السياسية الاسلامية ، الانجلو
مصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٣١- اسد ، محمد - منهاج الاسلام في الحكم (تعريب منصور محمد ماضي)
دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٧ .
- ٣٢- السباعي ، مصطفى - من روائع خصائصنا ، دمشق ، ١٩٥٩ .
- ٣٣- السباعي ، مصطفى - اشتراكية الاسلام ، الدار القومية ، القاهرة ،
١٩٦٠ .
- ٣٤- الشرفاوى ، محمود - الامة العربية ورسالتها ، الدار القومية ، القاهرة ،
(بلا)
- ٣٥- الشهرستاني ، محمد - الملل والنحل ، لايبزك ، ١٩٢٣ .
- ٣٦- الصابي ، ابو الحسين هلال - رسوم دار الخلافة (تحقيق ميخائيل
عواد) مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٤ .
- ٣٧- الطرطوش ، ابو بكر - سراج الملوك ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ،
١٣٠٦ هـ .
- ٣٨- العقاد ، عباس محمود - اثر العرب في الحضارة الاوربية ، دار المعارف
القاهرة ، ١٩٦٠ .

- ٣٩- العدوى ، ابراهيم احمد - رشيد رضا الامام المجاهد ، الدار المصرية
للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ٤٠- العطية ، د. غسان - معالم الفكر العربي الاصلاحى السلفى ، منشورات
قسم السياسة بجامعة بغداد ، دار الطبع والنشر الاهلية ، بغداد ١٩٧٠ .
- ٤١- الغزالي ، ابو حامد - احياء علوم الدين ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ ، ١٩٢٤ .
- ٤٢- الغزالي ، ابو حامد - المتقدم من الضلال (تحقيق جميل صلية وكامل
عياد) جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٦٠ .
- ٤٣- الفاخورى ، حنا - تاريخ الفلسفة العربية ، الجزء الاول ، دار
المعارف ، ١٩٥٨ .
- ٤٤- الفاخورى ، حنا - تاريخ الفلسفة العربية ، الجزء الثانى ، دار الفكر
العربي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٤٥- الفارابى ، ابو نصر - التعليقات والتنبيه على سبيل السعادة وتحصيل
السعادة ، والسياسات المدنية ، طبعة حيدر آباد ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ،
١٣٤٦ هـ .
- ٤٦- الفارابى ، ابو نصر - تاريخ اهل المدينة الفاضلة ، المطبعة الكاثوليكية،
بيروت ، ١٩٥٩ .
- ٤٧- الفكيكي ، عبدالهادى - الشعوبية والقومية العربية - دار الاداب ،
بيروت ، ١٩٦١ .
- ٤٨- الفلقشندي ، أبو العباس أحمد - صبح الاعشى في صناعة الانشاء ،
المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩١٢ .
- ٤٩- الكواكبي ، عبدالرحمن - ام القرى ، حلب ، ١٩٥٥ .
- ٥٠- المارودى ، ابو الحسن علي بن محمد - الاحكام السلطانية والولايات
الدينية ، الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

- ٥١- المبارك ، محمد - الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية ،
دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٥٢- امين ، احمد - ضحى الاسلام ، ج١ و٢ ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ٥٣- امين ، احمد - فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ٥٤- انطونيوس ، جورج - يقظة العرب (ترجمة الدكتور ناصرالدين الاسد
وآخرون) - دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٢ .
- ٥٥- اوليزي ، ديلاسى (ترجمة تمام حسان) - الفكر العربي ومكانه في
التاريخ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦١ .
- ٥٦- اوليري ، أوج . (ترجمة محمد كفاقي وآخرون) - تراث فارس -
دار الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٥٧- بدوي ، عبدالرحمن - الاصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام ،
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٥٨- بروكلمان ، كارل - تاريخ الشعوب الاسلامية ، (تعريب د. حسين
مؤنس) ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ٦٠- تايبو ، نوربير - الكواكبي المفكر النائر (ترجمة علي سلامة) ، بيروت ،
١٩٦٨ .
- ٦١- جب ، هاملتون - دراسات في حضارة الاسلام (ترجمة د. احسان
عباس واخرون) بيروت ، ١٩٦٤ .
- ٦٢- جولدتسهير ، اجناس - العقيدة والشريعة في الاسلام (ترجمة محمد
يوسف موسى واخرون) ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة (بلا) .
- ٦٣- حداد ، ابراهيم - العدالة الاجتماعية عند العرب ، دار الثقافة ،
بيروت ، ١٩٦٣ .
- ٦٤- خالدى ، د. مصطفى (واخرون) - التبشير والاستعمار في البلاد العربية ،
المكتبة المصرية للطباعة والنشر ، صيدا ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٦٤ .

- ٦٥- دى بور ، ت.ج.٠ - تاريخ الفلسفة في الاسلام (ترجمة د. عبدالهادى ابو ريده) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٦٦- ريتز ، جورج (واخرون) - دراسات اسلامية (ترجمة د. انيس فريحة واخرون) باشراف د. نقولا زيادة ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- ٦٧- زيدان ، د. عبدالكريم - الفرد والدولة في الشريعة الاسلامية ، مطبعة سلمان الأعظمي ، بغداد ، ١٩٦٥ .
- ٦٨- زيدان ، جرجي - تاريخ التمدن الاسلامي ، دار الهلال ، ج ٤ ، ١٩٥٦ .
- ٦٩- زيدان ، جرجي - تاريخ العرب قبل الاسلام ، القاهرة ، ١٩٠٨ .
- ٧٠- سباين ، جورج (وترجمة جلال جلال العروسي) - تطور الفكر السياسي ، الكتاب الاول ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٧١- نلبي ، ابو زيد - تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٤ .
- ٧٢- شريف ، د. محمد بديع - الصراع بين الموالي والعرب ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٧٣- صعب ، د. حسن - الاسلام تجاه تحديات الحياة العصرية ، دار الاداب ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- ٧٤- صعب ، د. حسن - علم السياسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ٧٥- عبدالرازق ، علي - الاسلام واصول الحكم ، ط ٣ ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٢٥ .
- ٧٦- عزت ، عبدالعزيز - الايديولوجية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٧٧- علي ، محمد كرد - الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ج ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

- ٧٨- علي ، د. جواد - تاريخ العرب قبل الاسلام ، طبعة المجمع العلمي
العراقي ، بغداد .
- ٧٩- علي ، علي منصور - الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العام ، المجلس
الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٨٠- عنان ، محمد عبدالله - ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، ط ٢ ،
القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٨١- غالي ، د. بطرس بطرس ومحمود خيرى - المدخل في علم السياسة ،
مكتبة الانكلومصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٨٣- فروخ ، د. عمر - الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب ، دار العلم
للملايين ، بيروت ، ١٩٤٧ .
- ٨٤- فودة ، د. عز الدين - محاضرات في المجتمع العربي ، دار الفكر العربي ،
القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٨٥- فوق الغادة ، د. سموحي - القانون الدولي العام ، مطبعة الانشاء ، دمشق
١٩٦٠ .
- ٨٦- قطب ، سيد - العدالة الاجتماعية في الاسلام ، ط ٢ ، دار احياء الكتب
العربية ، ١٩٥٨ .
- ٨٧- قطب ، محمد - الانسان بين المادية والاسلام ، دار احياء الكتب العربية ،
دمشق ، ١٩٦٠ .
- ٨٨- كيتل ، رايموند (ترجمة د. فاضل زكي محمد) - العلوم السياسية ،
ج ٢ ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٤ .
- ٨٩- ليله ، د. محمد كامل - النظم السياسية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ،
١٩٦٣ .
- ٩٠- لوبون ، كوستاف (ترجمة عادل زعير) - حضارة العرب ، ط ٣ ،
دار احياء الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

- ٩١- متولي ، حميد - الوجيز في النظريات والانظمة السياسية ، دار المعارف ،
القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٩٢- محمد ، د. عوض محمد - الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، دار المعارف
القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٩٣- محمد ، د. فاضل زكي - الكونكرس الامريكى ونكبة فلسطين ، وزارة
الثقافة والارشاد ، بغداد ، ١٩٦٤ .
- ٩٤- محمود ، د. عبدالحليم - التفكير الفلسفي في الاسلام ، الانجلومصرية ،
القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٩٥- مظهر ، سماعيل - تاريخ الفكر العربي ، دار العصور للطبع ، القاهرة ،
١٩٢٨ .
- ٩٦- معروف ، ناجي والدوري ، د. عبدالعزيز - الموجز في تاريخ الحضارة
العربية ، مطبعة النجاح ، بغداد ، ١٩٤٩ .
- ٩٧- معروف ، ناجي - اصالة الحضارة العربية ، مطبعة التضامن ، ج ٢ ،
بغداد ، ١٩٦٩ .
- ٩٨- موسى ، د. محمد يوسف - نظام الحكم في الاسلام ، معهد الدراسات
العربية العليا ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٩٩- نسيبة ، د. حازم ، القومية العربية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت
١٩٥٩ .
- ١٠٠- نصر ، محمد عبدالمعز - في الدولة والمجتمع ، مطبعة جامعة الاسكندرية ،
١٩٦٣ .
- ١٠١- نصر ، محمد عبدالمعز - في المجتمع ونظم الحكم ، دار نشر الثقافة ،
الاسكندرية ، ١٩٦٦ .
- ١٠٢- هونكة ، زيكريد - شمس العرب تسطع على الغرب ، بيروت ، ١٩٦٤ .

الكتب باللغة الاجنبية :

1. Bakhsh, S. Khuda, Caliphate. Orientalia, London, 1954.
2. Brockelmann, Carl. History of the Islamic peoples, Capricorn Books, 1960.
3. Fiser, Sydney: Social Forces in the Middle East, Cornell University, Press, Ithaca, 1955.
4. Gauthier, Leon, Ibn Rochd, Paris, 1948.
5. Gibb, H.A.R. Mohammedanism, Oxford University Press, London, 1961.
6. Grunebaum, Gustave E. Medieval Islam, the University of Chicago Press, Chicago, 1961.
7. Guillume, Alfred. Islam, R. & R. Clark Ltd. Edinburgh, 1954.
8. Hamidullah, Muhammad, Muslim Conduct of State, Ashraf, Lahore, 1961.
9. Hassan, Ibrahim Hassan. Islam, the Times printing & Publishing Co., Baghdad, 1967.
10. Hitti, Philip. The Arabs — A Short History, Henry Regnery Co. Chicago, 1956.
11. Iqbal, Afzal, Diplomacy in Islam, Institute of Islamic Culture, Lahore, 1965.
12. Jones, W. T. Masters of Political Thought, Houghton-Mifflin Co., Boston, No Date.
13. Lewis, Bernard. The Arabs in History, Harper & Brothers, New York, 1960.
14. Nadawi, Abul Hassan Ali. Islam & the World, the Academy of Islamic Research & Publication, Lahore, 1961.
15. O'Leary, Delecy. Arabia before Muhammad, London, 1927.
16. Oppenheim, L., International Law, London, 1957.

17. Rosenthal, E.I.J. Political thought in Medieval Islam, Cambridge at the University Press, 1962.
18. Rosenthal, E.I.J. Islam in the Modern National State, Cambridge at the University, Press, 1965.
19. Sabine, George: A History of Political Thought, Henry Regnery Co., New York, 1951.
20. Smith, Wilfred Cantwell; Islam in Modern History, The New
20. Smith, Wilfred Cantwell, Islam in Modern History, The New

فهرست تحليلي لمحتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	الاهداء
٥	تمهيد

الفصل الاول

مقدمات عامة في

التعريف بالفكر السياسي العربي الاسلامي

٧	ما هو الفكر ؟
٧	الفكر والتراث
٨	الامة والثقافة والحضارة
١٠	ما هو الفكر العربي الاسلامي ؟
١٠	التراث العربي الاسلامي
١١	الفكر السياسي العربي الاسلامي ومكانه في التراث
١٢	تسميته بالفكر العربي الاسلامي

الفصل الثاني

الطبيعة العامة

١٥	ما المقصود بالطبيعة العامة ؟
١٥	كيف تدرس طبيعة الفكر العربي الاسلامي ؟
١٦	مجالات دراسة طبيعة الفكر العربي الاسلامي
١٨	ما هي القوى الرئيسية المكونة للفكر العربي الاسلامي ؟
١٨	القوى الطبيعية

٢١	القوى القدسية
٢٣	القوى البشرية
٢٥	مقارنة بين الفكر العربي الاسلامي والفكر الغربي
٢٥	البعد الزمني
٢٧	مركز الانسان
٣٠	النظرة الى السياسة
٣٣	هل ان الفكر العربي الاسلامي هو فكر محلي ام انه فكر عالمي ؟
٣٣	الفكر المحلي
٣٤	الفكر العالمي
٣٥	البرهان على عالمية الفكر العربي الاسلامي

الفصل الثالث

السمات المميزة

٣٨	خصائص الفكر العربي الاسلامي
٣٨	اصالة الفكر العربي الاسلامي
٣٨	الفكر الاصيل
٣٩	الفكر المقلد
٤٠	البرهان على اصالته
٤٢	الرباط ما بين السياسة والاخلاق
٤٢	الطبيعة العامة للثقافة العربية والرسالة الاسلامية
٤٣	ما المقصود بالترابط
٤٥	مقارنة مع الفكر العربي
٤٦	فلسفة الحكم المقيد
٤٦	طبيعة فلسفة الحكم المقيد

٤٧	البرهان على فلسفة حكمه المقيد
٤٩	الفكر العربي الاسلامي فكر مرن وليس بفكر متصلب
٤٩	الفكر المتصلب
٥٠	الفكر المرن
٥١	البرهان على مروته
٥٢	النظرة الكلية الى السياسة والنظرة الحضارية الى الدولة
٥٢	الكل والجزء
٥٣	العلاقة بين الدولة والحضارة
٥٣	الدولة في الفكر العربي الاسلامي
٥٤	العدالة الوسيلة والخير العام الغاية
٥٤	الخير العام ودولة الرفاهية
٥٥	الوسيلة والغاية
٥٦	الانسان ومسؤوليته

الفصل الرابع

الاصول الفكرية

٥٨	ما المقصود بالاصول ؟
٥٨	الاصول الرئيسية والاصول الفرعية
٥٩	مقاييس تصنيف الاصول
٥٩	الاصول العربية :
٦٠	انوجات السامية (العربية)
٦٢	طبيعة البيئة العربية
٦٣	القيم الاجتماعية والسياسية
٦٦	الاصول السياسية العربية

٦٧	من حيث طبيعة النظام السياسي
٦٩	من حيث طبيعة الحكم
٧٠	من حيث مفهوم الرياسة
٧١	من حيث ابعاد السلطة
٧٢	الاصول الساسانية :
٧٢	توطئة
٧٣	شكل النظام السياسي الساساني
٧٦	طبيعة الحكم
٧٧	مفهوم الرياسة
٨٠	ابعاد السلطة
٨٢	الاصول اليونانية :
٨٢	تمهيد
٨٣	شكل النظام السياسي
٨٥	طبيعة الحكم والرياسة
٨٥	مفهوم الرياسة
٨٦	الاصول البيزنطية :
٨٩	توطئة
٩٠	شكل وطبيعة النظام السياسي البيزنطي
٩١	مفهوم الرياسة
٩٢	ابعاد السلطة
٩٣	تقييم اصول الفكر العربي الاسلامي
٩٣	اليئة الطبيعية
٩٤	اليئة البشرية
٩٦	اليئة الفكرية
٩٧	خلاصة

الفصل الخامس

أبعاد الفكر السياسي العربي القديم

(من قبل وبعد الرسالة)

٩٩	التعريف بأبعاد المجتمع العربي القديم : ما قبل الرسالة
٩٩	المجتمع القبلي
١٠٠	المجتمع الأقليمي
١٠٠	انقومات السياسية والاجتماعية للمجتمع العربي القديم
١٠١	الظروف الطبيعية والاجتماعية
١٠٤	المثل السياسية العليا
١٠٤	العصية السياسية
١٠٥	النزعة الى الحرية السياسية
١٠٧	النزعة الى الحق والعدل
١١٠	المثل الاعلى في القيادة
١١٢	نظرية ونظام الدولة القبلية
١١٣	رئيس الدولة
١١٦	مجلس الدولة القبلية
١١٨	الفرد والمجتمع في الدولة القبلية
١٣١	الفكر العربي القديم : ما بعد الرسالة
١٢١	مثل الرسالة الاسلامية السياسية العليا
١٢٢	مبدأ السلام : التأخي
١٢٣	مبدأ العدالة الاجتماعية
١٢٤	مبدأ الدستور الاعلى
١٢٤	مبدأ الشورى
١٢٥	الآثار التي تركتها الرسالة

الفصل السادس

الابداع الفكري

١٢٦	نوطشة
١٢٦	امراحل الفكرية
١٢٧	الامة العربية ومراحلها الفكرية
١٢٨	اسباب التفتح الفكري
١٣٣	نتائج التفتح الفكري
١٣٤	ساليب المعرفة والبحث في الفكر العربي الاسلامي
١٣٥	خطوات المنهج العلمي
١٣٧	التخصص واهميته
١٣٧	النوع والشمول
١٣٨	مجالات المعرفة السياسية
١٣٨	انظريات السياسة العربية الاسلامية
١٣٩	تصنيف النظريات السياسية
١٤١	نظرية العقد السياسي
١٤١	فلسفة العقود العامة
١٤٢	العقد السياسي ومكانه
١٤٢	معنى العقد السياسي
١٤٤	ماهية العقد السياسي
١٤٤	خصائص العقد السياسي
١٤٦	اهمية العقد السياسي
١٤٨	نظرية العدالة الاجتماعية
١٤٨	المفاهيم الاساسية في العدالة الاجتماعية

١٤٩	من حيث المعنى
١٤٩	من حيث المقومات
١٥٠	من حيث الأبعاد
١٥٣	من حيث الهدف
١٥٤	مقارنات
١٥٧	العدالة الاجتماعية السياسية : نظرية الحكم
١٥٧	من حيث المعنى
١٥٩	من حيث المضمون
١٥٩	من حيث المقومات
١٥٩	الحرية السياسية
١٦١	المساواة
١٦٣	المسؤولية
١٦٤	القيادة الجماعية
١٦٦	نظرية الخلافة (الامامة)
١٦٦	نبذة عامة
١٦٧	التسمية
١٦٧	طبيعة نظرية الخلافة
١٦٧	مبدأ الاختيار
١٦٨	مبدأ الرضا
١٦٩	مبدأ العقلية الجماعية
١٦٩	ماهية نظرية الخلافة
١٧٠	الخلافة عقد
١٧١	مبدأ الترشيح
١٧٢	مبدأ البيعة : العامة والخاصة

١٧٤	الالتزامات في نظرية الخلافة
١٧٥	الالتزامات المتعلقة بانتخاب الخليفة
١٧٩	الالتزامات المتعلقة بمسؤولية الخليفة
١٨٠	الالتزامات المتعلقة بأهل الحل والعقد
١٨١	الالتزامات المتعلقة بالناخبين
١٨٢	الخلافة عبر العصور
١٨٤	نظرية الدولة في الفكر العربي الاسلامي
١٨٤	الامة والدستور
١٨٥	الامة والسلطان
١٨٥	دولة القانون
١٨٦	وظيفة الدولة
١٨٨	شكل ونظام الدولة العربية الاسلامية
١٨٩	النظام العربي الاسلامي والنظم الاخرى
١٩٢	نظرية العلاقات الدولية
١٩٢	طبيعة العلاقات الدولية العربية الاسلامية
١٩٤	انواع العلاقات الدولية العربية الاسلامية
١٩٥	العلاقات السلمية
١٩٦	العلاقات غير السلمية
١٩٨	العلاقات الحيادية
٢٠٠	نظرية القانون الدولي
٢٠٠	نوطنة
٢٠١	مصادر القانون الدولي العربي الاسلامي
٢٠٢	قواعد السلم والحرب في العلاقات الدولية
٢٠٤	قواعد العلاقات في حالة السلم

٢٠٦	فواعد العلاقات في حالة الحرب
٢٠٨	فواعد انتهاء الحرب
٢١٠	المعاهدات
٢١٢	احترام المعاهدات
٢١٣	فواعد الحياد
٢١٥	اهمية القانون الدولي الاسلامي
٢٢٠	نظرية السفارة (النظرية الدبلوماسية)
٢٢١	اسس الدبلوماسية العربية الاسلامية
٢٢٢	تطور الدبلوماسية العربية الاسلامية
٢٢٦	النظام الدبلوماسي العربي الاسلامي
٢٢٩	آثار الدبلوماسية العربية الاسلامية

الفصل السابع

الاتجاهات الفكرية

٢٣٣	توطئة
٢٣٤	انبثاق الفكرية
٢٣٥	الاتجاه السياسي الديني
٢٣٦	السمات المميزة
٢٣٨	المذهب السياسي الديني - الشيعي
٢٤١	المذهب السياسي - الديني للخوارج
٢٤٣	المذهب السياسي - الديني للمرجئة
٢٤٤	المذهب السياسي - الديني لاهل السنة
٢٤٤	الاتجاه السياسي الفقهي
٢٤٥	السمات المميزة

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٢٤٦	الموردي
٢٤٨	ابن تيمية
٢٥٠	ابن جماعة
٢٥٢	الاتجاه السياسي - الخلفي
٢٥٣	السمات المميزة
٢٥٤	مثلو هذا الاتجاه
٢٥٤	ابن المقفع
٢٥٦	الجاحظ
٢٥٨	ابن طقطقة
٢٦٠	الاتجاه السياسي - الفلسفي
٢٦١	السمات المميزة
٢٧٠	مثلو هذا الاتجاه
٢٧٠	الفارابي
٢٧٧	ابن سينا
٢٨٣	الغزالي
٢٩١	أبن رشد
٢٩٥	الاتجاه السياسي - الخلدوني
٢٩٥	أبن خلدون وأفكاره السياسية
٢٩٦	منشأ الاجتماع السياسي
٢٩٧	الدولة منظمة اجتماعية
٢٩٧	عناصر قوة الدولة
٣٠٢	اركان فلسفة ابن خلدون
٣٠٢	وظيفة الدولة
٣٠٣	طبيعة السلطة
٣٠٧	أهمية أفكار ابن خلدون السياسية

الفصل الثامن الانحسار الفكري

٣١٠	تمهيد
٣١٣	ما المقصود بالانحسار الفكري
٣١٤	أسباب الانحسار الفكري
٣١٤	ضعف مركز العرب القيادي
٣١٦	الشعبوية
٣٢١	انواع الشعبوية
٣٢٢	العصر المظلم
٣٢٣	المفول
٣٢٤	العثمانيون
٣٢٧	الاستعمار الغربي
٣٣٠	سمات الاستعمار الغربي
٣٣١	الحملات الاستعمارية
٣٣٥	الاساليب الاستعمارية
٣٣٨	نتائج الانحسار الفكري

الفصل التاسع اليقظة الفكرية

٣٤٠	تمهيد
٣٤١	مراحل التنظيم الفكري
٣٤١	المرحلة الاسلامية : الدينية
٣٤٣	المرحلة الاسلامية : الاجتماعية والسياسية
٣٤٥	الحركة التجديدية

٣٤٨	احمد خان
٣٥٠	القادياني
٣٥٤	الحركة الاصلاحية
٣٥٥	جمال الدين الافغاني
٣٥٨	محمد عبده
٣٦٠	المرحلة القومية
٣٦٣	عبدالرحمن الكواكبي
٣٧٤	رشيد رضا
٣٨١	القومية العربية والرسالة الاسلامية

الفصل العاشر

الفكر في حاضره وغده

٣٨٧	الاتجاه السياسي المعاصر
٣٨٨	مقومات الفكر العربي المعاصر
٣٨٨	الايجابية والسلبية
٣٨٩	البلورة الفكرية الحديثة
٣٩٦	التطورات الحديثة
٣٩٨	الفكر العربي الاسلامي والفكر العالمي
٤٠٥	التفتح على أمهات نظريات العصر
٤٠٧	الفكر العربي الاسلامي في غده
٤٠٩	أزمة الفكر العالمي ومسؤولية الفكر العربي الاسلامي
٤١١	مصادر الكتاب المهمة
٤٢١	فهرست تحليلي لمحتويات الكتاب
٤٣٣	للمؤلف

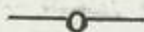
للمؤلف

باللغة العربية :

- العلوم السياسية (جزءان) مترجم عن راييموند كيتيل
• الطبعة الاولى - بغداد • مكتبة النهضة ، ١٩٦٠-١٩٦١
- الطبعة الثانية - بغداد • مكتبة النهضة ، ١٩٦٣-١٩٦٤
- الدبلوماسية في النظرية والتطبيق
• الطبعة الاولى - بغداد • مطبعة أسعد ، ١٩٦٠
- الطبعة الثانية - بغداد • دار الجمهورية ، ١٩٦٨
- الكونغرس الامريكى ونكبة فلسطين
• بغداد - دار الجمهورية ، ١٩٦٤
- الاستراتيجية الامريكية في الشرق العربي
• بغداد - شركة الطبع والنشر الاهلية ، ١٩٦٨
- الدعاية العربية امام التحديات الصهيونية
• بغداد - دار الجمهورية ، ١٩٦٨
- الاستراتيجية الصهيونية - الاسرائيلية في الشرق العربي
• بغداد - دار الجمهورية ، ١٩٧٠
- الفكر السياسي العربي الاسلامي : بين ماضيه وحاضره (هذا الكتاب)
• بغداد - دار الطبع والنشر الاهلية ، ١٩٧١

باللغة الاجنبية :

- Evolution of American Policy in Palestine
The Times Press, 1963.
- Foundations of Arabic-Islamic Political Thought.
Dar al-Jumhuriya Press, Baghdad, 1964.
- Congress & Foreign Policy
Dar al-Jumhuriya Press, Baghdad, 1965

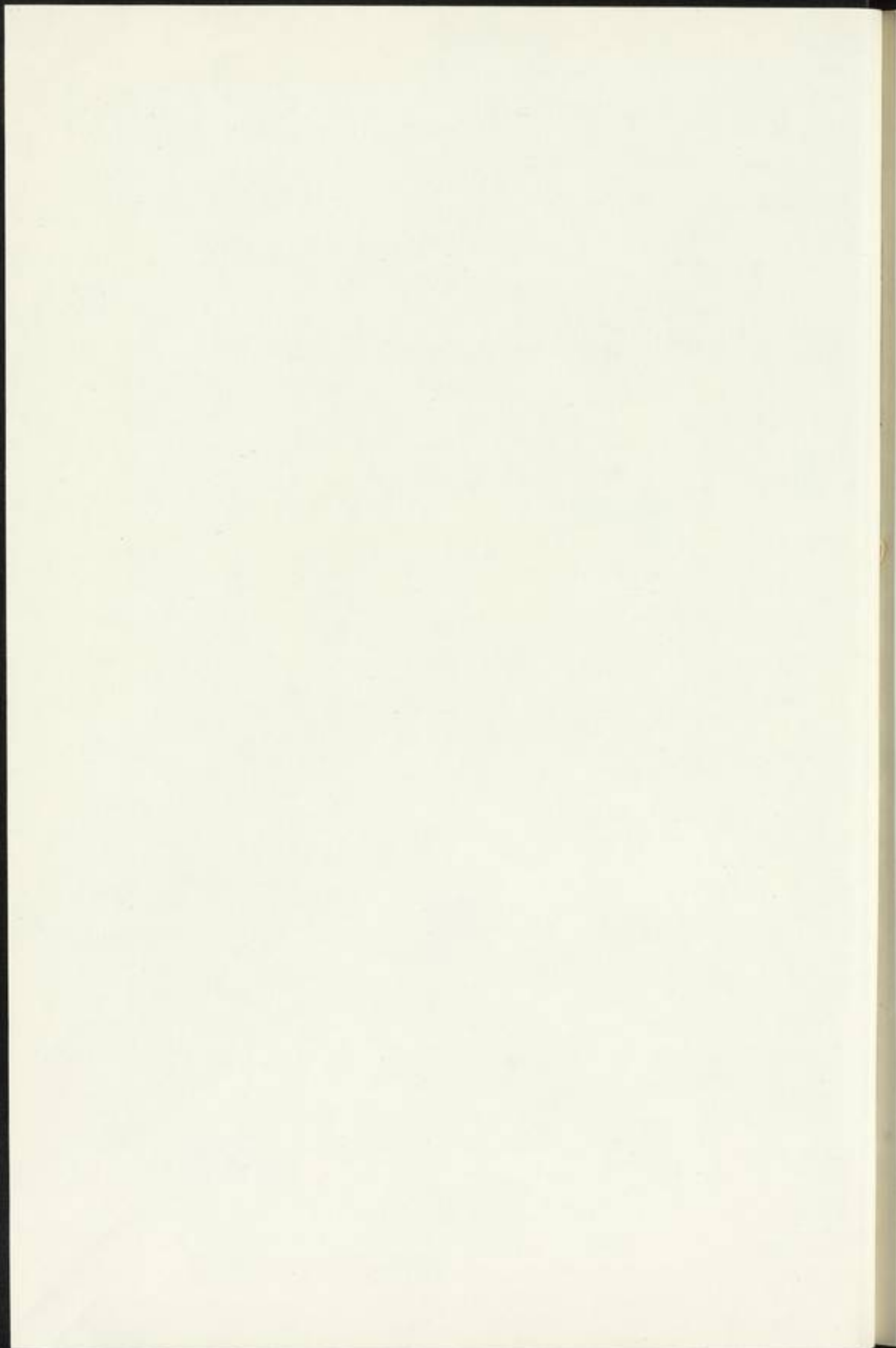


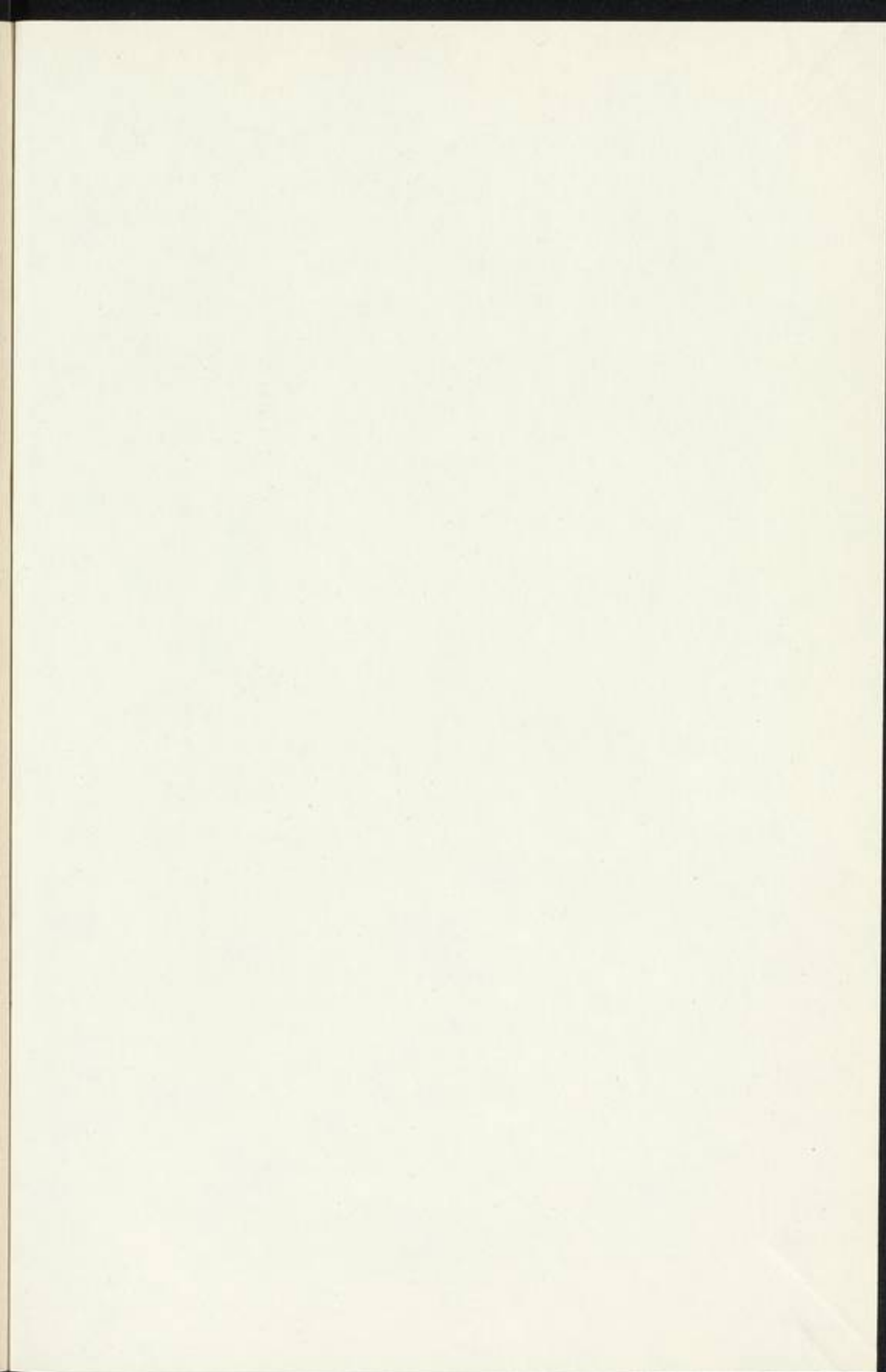
رقم الايداع في المكتبة الوطنية - بغداد
١٩٠ لسنة ١٩٧١

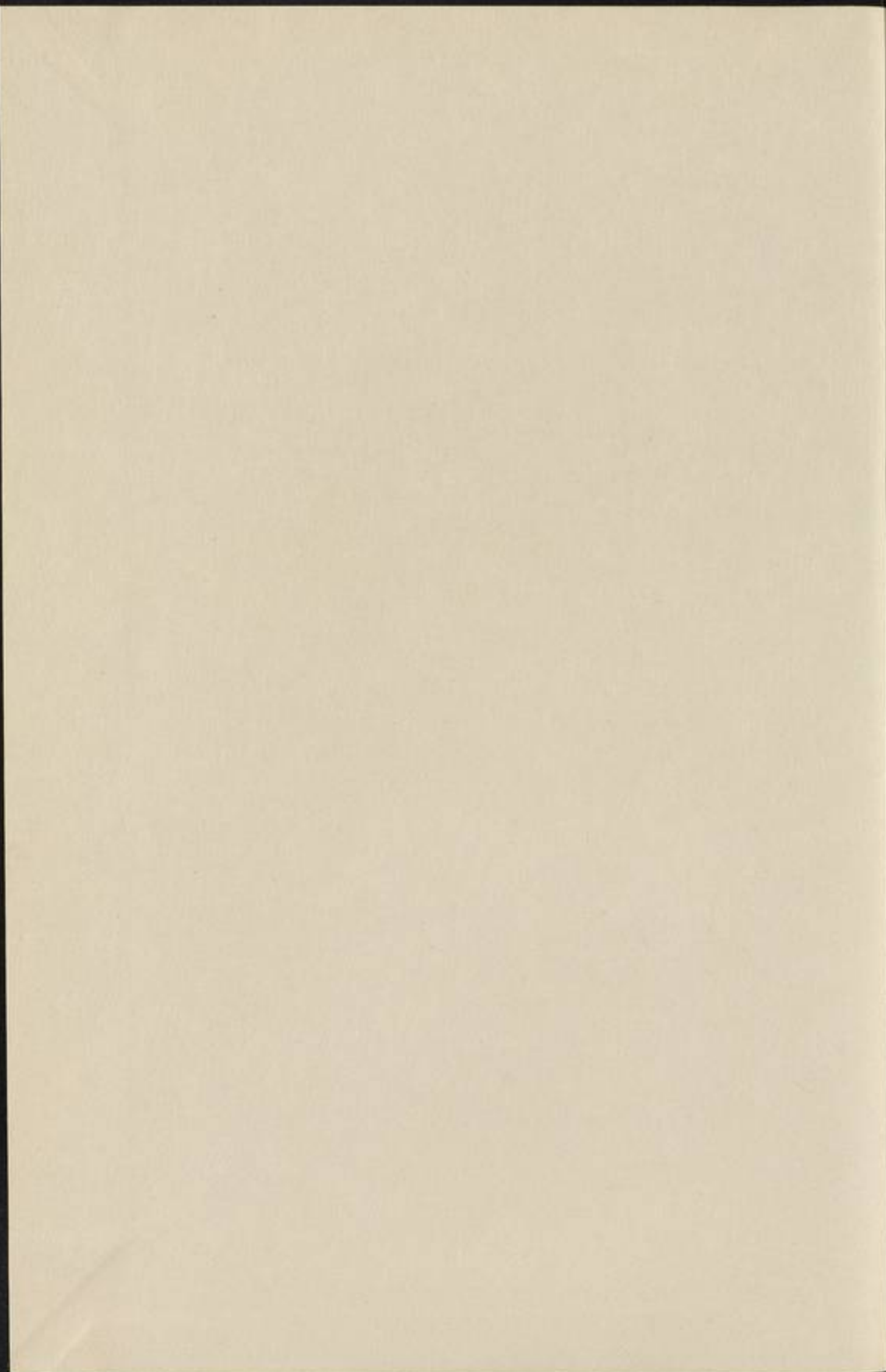
تاريخ انتهاء الطبع ١٩٧١/٥/٩

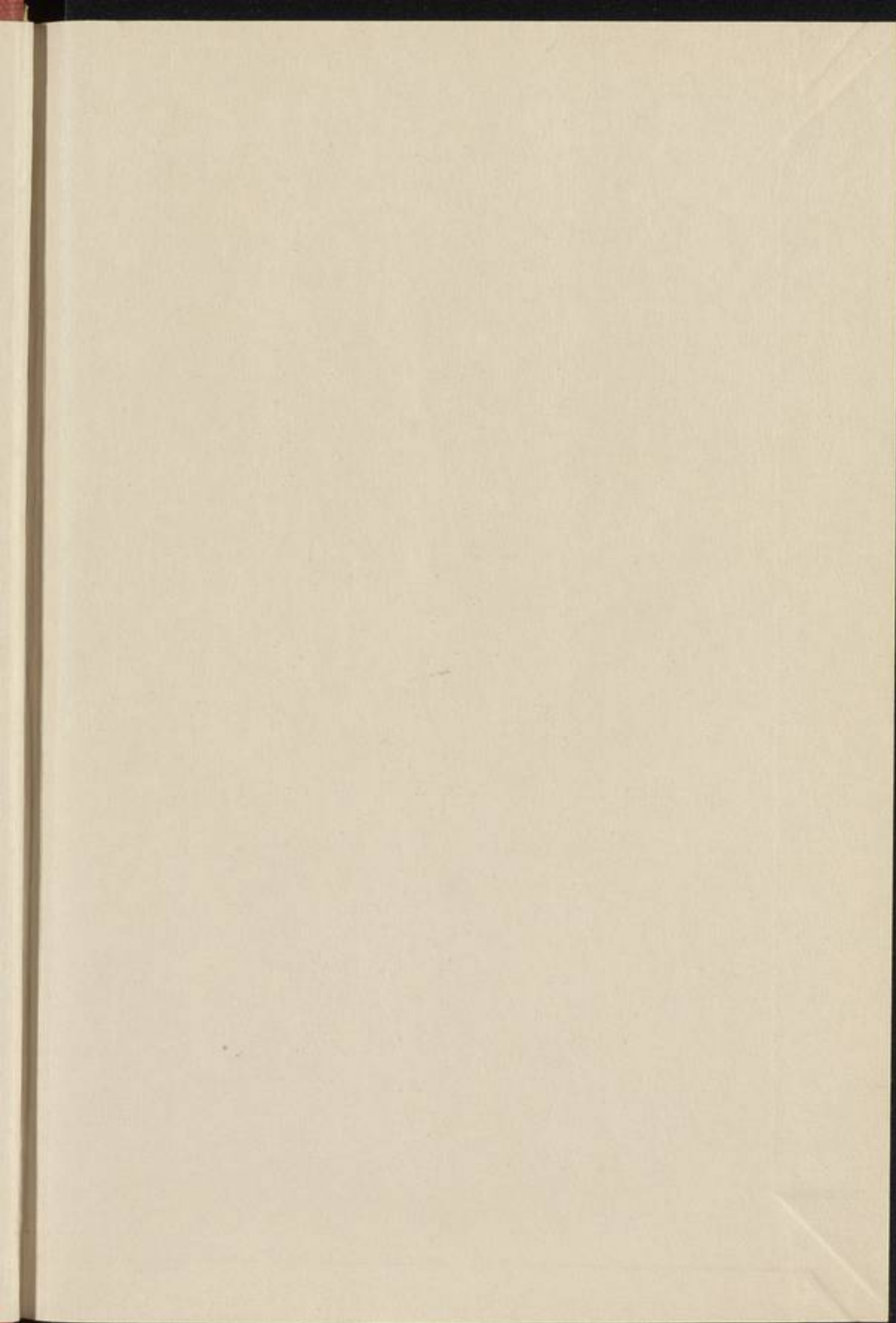
الكمية المطبوعة : الف نسخة

رقم المطبعة ١٥/١/٤٤١









JC
49
.M6

MAY 24 1973

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU53465172

JC49 .M6

al-Fikr al-siyasi al